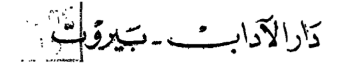

غي دو بوشير
تشريح
جثة
الاستعمار
دار الآداب

تشريح جثة الاستعمار

غي دوبوشير

تشريح جثة الاستعمار

ترجمة : أدوار الخراط


دار الآداب - بيروت

حقوق الترجمة العربية
محفوظة لدار الآداب — بيروت

الطبعة الأولى
آذار (مارس) ١٩٦٨

مقدمة

من المحقّق ان الاستعمار يمثل في وقت معاً تقدُّم المستعمَر وسقوط المستعمِر. والتحرر من الاستعمار ، اذ ينقذ العالم الثالث من العبودية ، ويفضي به (أو ينبغي أن يفضي به) الى مستقبل يغتبط به بشكل مطّرد ، سوف يتفق ، دائما وعلى نحو وثيق ، وتدهور التفوق الأوروبي تدهوراً بطيئاً وان كان لا معدى عنه .

والعمل الذي نقدّمه للقارىء تحت عنوان شامل : « اتجاه التاريخ نحو الصعود والتدهور » — والذي يشكل كتاب « تشريح جثة الاستعمار » الجزء الاول منه — لا يعتزم في الواقع ان يكون تاريخاً ، بل يطمح الى ان يكون بحثاً في تعريف ظاهرة الاستعمار والتحرر من الاستعمار ، وأداة لتحليل هاتين الظاهرتين اللتين تقوم اسسهما ، كما هو واضح ، على التاريخ ، ويوضحهما التاريخ . ونحن نقصد الى ان نحتفظ من التاريخ بأكثر الظواهر دلالة وأقدرها على إثراء تحليلنا . فاذا بدا أن بعض الوقائع لم يأت لها ذكر ، فليس ذلك لأنها قد حذفت عن سهو أو نسيان ، بل ذلك أنها أغفلت عن عمد وتدبُّر ومعرفة .

وهي ملاحظه لن تكون على سبيل الحشو والتزيُّد اذا اسهمت في استثارة اهتمام القارىء على نحو جدّي . فلا ينتظر القارىء اذن ان يجد هنا المنهج

التعليمي لكتاب مدرسي في التاريخ ، ولا ان يجد سحر التاريخ الروائي . هذا الى أن قدرا من الثقافة التاريخيه سيكون هنا من الضرورة بمكان لتفهم ألغاز عدد كبير من الاشارات التاريخيه والاحاطة بمعنى بعض التركيبات الغامضة .

ولم يكن المنهج الاولى للكتاب يتعلق الا بالتحرر من الاستعمار . الا انه سرعان ما اتضح عبث هذه المحاولة . فكيف يمكن أن نفسر براءة الفجر ، وروعته المعجزة ، واشراقه على هينة واستحياء ، ما لم نصور دكنة الليل الخانقة ، وفخاخه القاتلة ، وذكراه التي لا تنمحي ؟ ان العالم الثالث يتحرر اليوم من الاستعمار ، ويخلص منه كما يخلص النهار من الليل . وكل نمط من الاستعمار يتساوق معه نمط معادل من التحرر من الاستعمار ، الا أن ذلك لا يعني ان الاستعمار ، في كل حالة ، ليس له من أثر على ظاهرة التحرر منه . ان التاريخ لا يعرف المعجزات . والتاريخ ليس أكثر أو أقل اخلاقية من الزمن الذي يقترن به ويتقمصه احياناً ، ولا هو باكثر او اقل اخلاقية من النار التي تلتهم احياناً بعض أعماله .

ان التحرر من الاستعمار يخضع للتركة الثقيلة التي خلفها الاستعمار ، وكيف يمكن أن ننكر ذلك ؟ ألا تتولد الرفاهية والرخاء أبدا من الهدم والدمار ؟ ان البعض يدهشهم اليوم ما يرونه في افريقيا من تقلب وافتقار الى الاستقرار . ولكننا نتساءل : أيُعدّ ذلك غريباً بعد اربعة قرون من الاسترقاق ، وبعد أن انتزع من لحمها ودمها مائة مليون رجل ، وبعد استعمار وحشي دام هذا الامد الطويل ؟ ويعرب البعض عن استيائهم لما وصلت اليه الجزائر مما يسمونه « ركوداً » . أيعدّ ذلك غريبا بعد حرب ضارية دامت سبع سنوات ، بعد المذابح التي تعرض لها ثلث السكان ، وبعد اختفاء أفضل الكوادر فيها ؟ ما الذي سوف يقولونه غداً عن فيتنام ؟ ان النتائج سوف تتساوق دائما مع العوامل الراهنة ومع النظام الذي توضع في اطاره هذه العوامل . فكيف

يمكن ان نضع ظاهرة التحرر من الاستعمار في موضعها الصحيح ، في مثل هذه الظروف ، ما لم نصور ما كانت تتضمنه ظاهرة الاستعمار من اشارة الى التحرر منه ؟

ان اتجاه التاريخ نحو الصعود والتدهور يشتمل في الواقع على تاريخ العالم منذ بداياته الاولى . وفي خلال عملنا في الكتاب كنا نشعر اننا نحيا هذا التاريخ من جديد ، ولكن بايقاع آخر ، وعلى مستوى جديد . وليس هناك بعد ذلك الا خطوة واحدة لكي نصل الى فكرة ان التاريخ الحقيقي للانسان انما يُستشف من خلال خبرات متعاقبه تنطوي على الاستعمار ثم على التحرر منه ، أو تنطوي في نهاية الامر على اغتراب الانسان ثم انتفاء اغترابه . ولكننا مع ذلك لن نخطو هذه الخطوة . ويبقى مع ذلك واضحاً ان خبرات الاستعمار المختلفة قد شكلت الظروف الاساسية لتطور الانسانية . وها نحن نشهد بعد موجة مدّ الاستعمار العالية ، انحسار الموجة ، والتحرر من الاستعمار وكتساح الاغلبية الساحقة من ذكرياته البغيضة ، تاركة على الشاطىء مخلّفاته المسمومه المنافية لروح العصر والّتي لن يسهل التخلص منها . ان حركة الانحسار العظيمة هذه التي لا يمكن أن تقارن بها حركة غيرها مقارنة صحيحة ، سوف تظل بلا شك ابرز الاحداث في القرن العشرين .

وسوف نلاحظ ايضا ان (تشريح جثة الاستعمار) يشكل قبل كل شيء تصويراً لاوروبا بالأشعة ، إن صح هذا التعبير . ذلك أن أوروبا منذ ما يزيد عن الفي عام ، يدوي صوتها عالياً ، ويدوي صوتها وحده ، بأنها هي الّتي تأخذ بزمام المبادرة ، دائماً . أوروبا الّتي نراها في كل مكان ممسكة شعلة الحرب في قبضتها ! ولما كانت أوروبا وحدها هي الّتي تلعب الدور الاول ، فمن الطبيعي أن تكون آثارها هي اول ما يُقتفى من آثار . هذا الى أن الآفاق الّتي تمتد بعد التحرر من الاستعمار سوف تميط اللثام عن بنيان التاريخ وهو يُشيّد ، وعن الشعوب الّتي ما تكاد تخرج من الليل الاستعماري

الطويل ، لم تنل حظها الكامل من اليقظة ، أو ما زالت تعاني من صدمة الكابوس التي مرت به . ذلك أن زمام المبادرة قد انتقل من يد الى يد ، وان العالم الثالث الذي كان أخرس صامتا فيما مضى — وهل للشعوب الخرساء الصامتة من تاريخ الا تاريخ آلامها التي لا يمكن أن توصف ؟ — اصبح اليوم يدوي صوته بأعلى وأقوى مما كان يدوي به صوت أوروبا .

ومن الطبيعي ان يحاول القارىء معرفة مدى الموضوعية في هذا الكتاب الذي نتقدم به اليه . ولكن ما هي الموضوعية ؟ حسبنا في سبيل الاجابة عن هذا السؤال أن نكشف عما هو ليس بالموضوعي . ليس من الموضوعية في شيء ، على سبيل المثال ، ان نقرن بين المستعمِر والمستعمَر ، بحجة انهما كليهما قد استخدما العنف . ذلك ان العنف الذي لجأ اليه من وقع ضحية للاستعمار لم يكن يتصف قط بضراوة العنف الذي أفاد منه المستعمر . ولكن هذا المثال يقع على صعيد اخلاقي ليس هو أساساً صعيد بحثنا . لقد رأينا من الاهمية بمكان ان نكشف عن شخصية الاستعماريين ، عما سبقهم ، عن حوافزهم العميقه ، عن اسباب ما اجترحوه من اعمال ومن خطط ، وأن نضع الشعوب التي وقعت تحت الاستعمار موضعها الصحيح ، في مواجهة الاستعماريين ، وان نعود الى منابع ضعفها وان نتكشف النذُر بما سوف يلحقها من هزيمة ، وهي هزيمة متوقعة ، نتيجة لاسباب لا حصر لها . كما رأينا من الاهمية بمكان أن نلقي الضوء ، من خلال المواجهة ، على نمو العلاقات بين هذين الطرفين ، وعلى التقدم الذي اختطت سبيله تلك التجربة التي لا مثيل لها : تجربة المواجهة بينهما التي تصل الى نهايتها في التحرر من الاستعمار . ان الحقائق أبلغ واوقع صوتاً من أي شيء آخر ! ، وان كان قد لاح لنا من الضروري احياناً ان نجعل الحقائق تتكلم ، من خلال تعليق وجيز من جانبنا ، عندما لم تكن هذه الحقائق تنطق الا همساً .

ان ما اخذناه على عاتقنا من محاولة لحل ألغاز التاريخ ، بقدر ما يسعنا

من يقظة ، كان من شأنه أن يوحي الينا ببضع تأملات عن الاستعمار . وسوف يجد القارىء هذه التأملات في القسم الاول من الكتاب تحت عنوان : «الاساس والبنيان» . اما الاقسام الثلاثة الاخرى فسوف نخصصها لوصف وتصوير وجهة النظر التي نعرضها في القسم الأول والدفاع عنها ، فيما يتعلق بطبيعة الاستعمار ، وطرائقه ، واتجاهاته ، ونتائجه . وهو المنهج الذي سوف نطبقه ايضا في الجزء الثاني من الكتاب .

اننا ندرك كل الادراك المغامرة التي ينطوي عليها مشروع هذا الكتاب كما ندرك ما قد يشوب خطانا من تعثر في النهوض به . فهل تحامينا عن مواطن الزلل ؟ ليس هذا بالمؤكد قطعاً . فقد كان النجاح يتطلب منا جهداً مضاعفاً . جهد الدقة والصرامة العلمية أولا ، ذلك الجهد الذي يبذله المرء عادة في اعداد رسالة جامعية . ثم جهد التبسيط بعد ذلك والتقريب الى الافهام حتى يمكن ان نجعل مادة عصيّةً بطبعها على التذوّق ، في متناول القراء . وكانت الصعوبة الاساسية تكمن هنا . فهل تغلّبنا على هذه الصعوبة ؟ لقد واجهتنا صعوبة اخرى لا تقل عن سابقتها استعصاء على القهر ، عندما تحتّم علينا ان نضع صيغةً تحشد تجارب ثلاثة آلاف عام من الاستعمار العالمي ، وهو عمل لم يسبق لاحد ، بقدر ما نعلم ، ان نهض به . واذا سلمنا بأن الاستعمار اليوم قد اصبح فصلا وُضِعت له الخاتمة النهائية من فصول التاريخ العالمي بحيث يمكن أن نصدر عليه حكماً له حظّ من الموضوعية ، فماذا يمكن ان نقول عن ظاهرة التحرر من الاستعمار ، بطبيعتها المتحركة اساساً والتي يصعب ان نصدر عليها حكما قد تكذبه على الفور احداث اللحظة الراهنة ؟ واياً كان الامر ، وعلى الرغم من الاخطاء التي يمكن أن نكون قد انزلقنا اليها ، مهما كنا دائما على يقظة ، فاننا نحرص على أن نؤكد للقارىء ان الهدف الوحيد من نشر هذا الكتاب هو ان نسهم اسهاما متواضعا في اثراء وعي الانسان .

ولا يسعنا ان نختتم هذه المقدمة الا اذا وفينا بدين علينا . اذ يتحتّم علينا في الواقع أن نشكر صديقنا « ليلك ديسون » فلولا الحاحه علينا ، بروح والصداقة ، ما كنا لننهض بهذه المهمة ،. واذا كان لهذا الكتاب اليوم من قيمة ، فانما ذلك لانه استوحى باستمرار كتابين رائعين ، هما في الواقع بمثابة الكتب المقدسة في قضية مناهضة الاستعمار : كتاب « مقالة في الاستعمار » لايميه سيزير وكتاب : « صورة ضحية الاستعمار » لالبير ميمي . فمن حقهما علينا الشكر والعرفان .

الفصل الأول

الأساس والبنيان

١ . محاولة للتعريف

من القاموس

ان الكلمة الاساسية التي اشتق منها المصدر : « الاستعمار » تستمد أصلها من كلمة « مستعمِر » المنحدرة من الاصل اللاتيني «كلوناس » Colonus . ونحن اذ نذكر ذلك لا نستهين بالقارىء ولا نفترض انه يجهله . والكلمة اللاتينية بالمعنى الحرفي تدل على « زارع الأرض » أو « ذلك الذي يفلح الارض مقابل جزء من ثمرتها » . وعندما بدأت روما تتسع دولتها — منذ الحربين البونيتين — اتسع معنى كلمة «كلوناس » واشتق منها لفظ «كلونيا » (مستعمرة) Colonia .

وليس من قبيل المصادفة أن كلمة « المستعمِر » Colon قد ظهرت في اللغة الفرنسية منذ القرن الرابع عشر ، أي على وجه الدقة في فترة الانتقال والانفراج التي سبقت قيام فرنسا بمشروعين استعماريين كبيرين . كانت الحروب الصليبية في الواقع قد انتهت منذ عهد قريب ، وكانت فترة الكشوف الجغرافية الكبرى سوف تبدأ وشيكا وسوف تدفع اوروبا الى فتح عالم جديد . وظهرت كلمة « مستعمرة » Colonie في اللغة الفرنسية الوسيطة ، في هذه الفترة نفسها . كانت كلمة «كولونيا » اللاتينية تعني مساحة من الارض قابلة للزراعة ، او مزرعة . وما تزال هذه الكلمة موجودة في اللغة الايطالية وان اختلف موضع النبر فيها . وهي تعني عقد المزارعة الذي يربط الفلاح

بمالك الارض . وفي فترة الفتوحات الرومانية الاولى ، في خارج روما وشبه الجزيرة الايطالية ، كان القادة العسكريون يوزعون على جنودهم مساحات من الارض لزراعتها . وكانت كل رقعة من هذه الاراضي تسمى «كولونيا» Colonia ، على سبيل المقارنة بالحقل المزروع في الوطن الام . واذن فقد تولد ، على هذا النحو ، المعنى الراهن لكلمة « مستعمرة » . وقد جاء في دائرة المعارف الكبرى في القرن الثامن عشر (ديدرو ــ دالمبير) ، بصدد الحديث عن المستعمرات في أمريكا ، أن « هذه المستعمرات لم تنشأ الا لصالح الوطن الأم » مما يؤدي الى : أولا ــ انها يجب أن تكون واقعة تحت تبعيته المباشرة ومن ثم تحت حمايته ، ثانيا ــ أن تداولها يجب أن يقتصر على مؤسسيها » . ان هذين الشرطين ، منذ ذلك الحين ، هما الشرطان الاساسيان لكل مشروع استعماري .

الا ان كلمة « الاستعمار » كلمة حديثة نسبيا . فنحن نشهد ظهورها في اللغة الجارية منذ نحو ١٧٦٩ . وهي تعبر عن فكرة الفعل والعمل . وان كان في تصريفها ما يوحي بمعنى مجرد . فالاستعمار اذن ، من حيث اشتقاقه اللغوي هو فعل أو واقعة تأسيس مستعمرات (والمستعمرة ، فيما يتجاوز المعنى الاولى : « الارض القابلة للزراعة التي تقطع للمستعمر أو تباع له » ، تعني هنا الجماعة الانسانية والعقار معاً وعلى نحو شامل) . وبعد بضع سنوات من ظهور كلمة « الاستعمار » (في ١٧٧٦ بالضبط) أثرت اللغة الفرنسية بظهور كلمة الصفة : « استعماري » التي تعني كل ما يمت بصلة ، من قريب او بعيد ، بالمستعمر . وفي ١٧٩٠ ظهر الفعل « يستعمر » الذي سوف يعدل بدوره معنى كلمة « الاستعمار » تعديلاً ملحوظا . فلم يعد لفظ « الاستعمار » في الواقع يعني فقط تأسيس مستعمرة أو أكثر ، بل اصبح يقصد به الى فعل الاستعمار . أي انه قد اضيف الى المعنى الاول الذي يدل على فعل الانشاء معنى آخر يدل على فعل التنظيم والتنمية . ومن الملحوظ انه كلما زادت

دلالة لفظ ثراءً وغنى ، تجمّد وتشيّأ معناها الأول .

اما اليوم فان فكرة « الاستعمار » نفسها هي التي لحقها التجمد والتشيؤ. والواقع ان الاستعمار قد اصبح منذ اليوم ، عندنا، شيئا واقعا قد اتخذ قالبه النهائي .

الخريطة والاقاليم

لقد تعدل وتغير معنى كلمة « الاستعمار » بقدر ما ازداد الوعي ، باطراد الزمن ، بما تعنيه الكلمة . ومن الحقائق الشائعة اليوم ان الرواد الاول للاستعمار لم يكونوا يدركون ما هم بسبيل أن يفعلوه . كيف كان يمكن لهم ان يصدروا حكماً على عملهم وان يعطوه معناه ؟ لم يكن معاصرو «كورتيز » يرون في فتح المكسيك الا مغامرة لا دلالة حقيقية لها . اما فلاسفة القرن الثامن عشر فقد كانوا اعمق ادراكا لمدى التطور الاستعماري . واذن فقد ولدت كلمة « الاستعمار » نتيجة للوعي بمعناها . ومع ذلك فان النقد الذي انصبّ على هذه الظاهرة في ذلك الوقت ، بل قبل ذلك — نقد مونتين مثلا — لم يكن يستهدف الا أوجه القصور ، أو بعض المناهج أحيانا ، ولم يتجه الى النظام الاستعماري في ذاته . ان حس عامة الناس لم تمسّه طبيعة الاستعمار الجائرة ، اساساً ، الا ابان الثورة الفرنسية ، وبالمقارنة الى الوضع الذي عانى الناس مرارته . وفعل « يستعمر » الذي يتفق ظهوره مع نشوب التمرد الثوري في ذلك الحين ، يحمل آثار هذا الفهم . فهو منذ ذلك الحين مرادف لفعل « السيطرة » . لقد بدأ الاحساس عندئذ بظاهرة الاستعمار بوصفها تعبيرا عن السيطرة . وفي القرن التاسع عشر لم يعد الاستعمار « بريئاً » واصبح كل من يشارك فيه يدرك ما هو بسبيله ان يفعله . وتظهر كلمة « المستعمر » في ١٨٣٥ ويظهر معها الاعتراف بما في هذه الظاهرة من خصائص بيروقراطية . ان الاستعمار عندئذ يتخذ شكل المؤسسة ، من خلال الرجال — المستعمرين الذين يديرون امبراطوريات استعمارية . واخيراً ،

في ١٨٣٨ يظهر الاستعمار ظافراً منتصراً لا يخفي من خططه ونياته :شيئاً بل انه يبتدع صفة « قابل للاستعمار » . يا له من طريق ، بين كلمة « مستعمرة وكلمة « مستعمر » ! ان فكرة الاستعمار قد اصبحت منذ ذلك الحين واضحة تماما ، وان كان ذلك يؤدي في بعض الاحيان الى شيء من الحرج مما يتطلب التبرير ويدعو الى العنصرية . وعلى ذلك النحو اكتسبت اللغة ثراء نتيجة لخبرة فذة ومطردة بالواقع .

المرحلة الثانية

ان التبريرات التي اخذت المؤسسات الاستعمارية ، منذ القرن التاسع عشر ، تحمي بها مشروعاتها ، لم تتولد عن اعتراض صادر منها ضد الاستعمار ، أو عن منازعة لظاهرة الاستعمار . بل على العكس كانت هذه المؤسسات تعرف حق المعرفة ما تقوم به . لقد توفر لها منذ ذلك الحين وضوح كامل للرؤية افزعها وروّعها تغلغلُه ، واصبحت ترى نفسها على حقيقتها ، عارية ، عندما تتأمل نفسها . ومن ثم فان اول حركة أتت بها كانت ان تخفي نواياها حقيقة الصميمية الحميمة التي تؤذي البصر ، عن اعين الآخرين . وفي مقابل ذلك أخذ عدد متزايد من الأوروبيين ، منذ النصف الاول للقرن العشرين ، يضعون اساس الاستعمار وبنيانه موضع السؤال . وقد أفضى ذلك بهم الى نحت كلمة « المستعمر » (بفتح الميم) . وقد كانت تلك مرحلة حاسمة ، وكانت الشقة التي تناولتها هذه الخطوة شقة واسعة . اذ لم يعد موضعَ الملاحظة هو الاستعمار نفسه بل اصبحت احدى نتائج الاستعمار ، للمرة الاولى ، هي محط الانظار . أصبح الامر يتعلق بالانسان الذي يعاني ويخضع للاستعمار ، لا ذلك الذي يأمر به ويطبقه . وكانت هذه الدفعة الاولى هي التي أدت الى دوران عجلة ترتب عليها بالضرورة اعتراضٌ شامل للاستعمار ومنازعة عالمية له . ان الكلمة التي تجسد هذا الاعتراض العالمي الشامل لتلك الظاهرة هي كلمة « الاستعمار » بمعناها المذهبي الايديولوجي . فهي كلمة تدلّ ،

عامة ، على فكرة مجردة وتدل خاصة فيما يتعلق بموضوعنا الراهن على مذهب سياسي . ان « الاستعمار » يدل هنا حرفياً على المذهب الذي تنضوي تحته الظاهرة الاستعمارية . ولكن هذه الظاهرة كان قد استطار لها صيت مشين . واذن فقد اصبح لكلمة « الاستعمار » معنى مشين . لقد أدينت الظاهرة الاستعمارية اليوم بما ترتب عليها من نتائج ، وهي نتائج سلبية بصفة عامة ، وبذلك يتحدد الاستعمار بوصفه المذهب والمناهج التي ادت الى تلك النتائج . ولم يعد الاستعماري مجرد موظف كما كان شأن المستعمر ، بل اصبح هو الرجل الذي يدين بالاستعمار ، ويتوق اليه ، بل ويلجأ بالفعل الى أساليب الفكر ومناهج العمل التي تفرزها الظاهرة الاستعمارية . ان كلمة « الاستعمار » أو كلمة « الاستعماري » تردّد باستمرار صدى التجربة الاستعمارية ، وهو صدى سلبي .

٢ . تفرقة جوهرية

ان بعض الخصائص الاساسية والبنيانية تفرّق بين الاستعمار وبين كل اشكال التوسع الاخرى . ان الاستعمار يترجم عن ارادة **واعية** للتوسع . ومن ثم فليس بوسع المرء ان يخلط بينه وبين الهجرة او **الغزو** الذي ينتمي الى نمط الغزوات التي قامت عليها وتفككت على اثرها الامبراطورية الرومانية، وهو نمط من الغزو يعبر ايضا عن ارادة للتوسع ، لكنها ارادة **لاواعية** . ولا شك أن الحافز الاقتصادي حاسم في كلتا الحالتين . ولكنه ، في مستوى الغزو ، لا يخضع للتحليل ، بل هو حافز غريزي . اما في حالة الاستعمار ، فان الحافز الاقتصادي حافز مدرَك يأخذه المستعمر على عاتقه . ان الاستعمار هو من عمل جماعة من الرجال قد بلغوا درجة معينة من التنظيم الاجتماعي . ولا يمكن تصوُّره في حالة القبيلة او العشيرة . أما المدينة أو الامبراطورية فمن الممكن ان تسعيا وراء تحقيقه .

الاستعمار ليس هو الامبريالية

لايمكن التوحيد بين الاستعمار والامبريالية ، وان تداخلت الظاهرتان في بعض النقاط او اتسق مجراهما في لحظة من اللحظات . ومن الواضح أن الاستعمار يمكن ان يكون تعبيرا من بين مختلف التعابير عن الامبريالية ، ولكنه **ليس هو الامبريالية** ، ان الامبريالية بصفة عامة ظاهرة قارّية ، بينما ينطوي

الاستعمار على فكرة مشروعٍ يقع فيما **وراء البحار** . ان معظم المشاريع الاستعمارية قامت بها مدن او بلاد كانت لها مهمة ورسالة بحرية . اما الامبراطوريات الكبرى في التاريخ — ونذكر منها على سبيل المثال صومر ، ومصر ، والصين ، ومالي ، وامبراطورية إنكا — فقد كانت من تشييد شعوب لها مهمة ورسالة قارّية . هذا الى ان التطور الامبريالي ينتهي في الغالب الى الترابط بين الشعوب المخضعة او المقهورة ، كما حدث في الامبراطورية الفارسية ، أو ينتهي بان يتمثل الشعب المغلوب قاهريه ، كما حدث عندما تحولت منغوليا القاهرة المنتصرة فأصبحت جزءا من الصين المغلوبة المنهزمة . ولكن الاستعمار لا يستطيع ان يتخذ اياً من هذين الطريقين ، والا كان عليه ان يتعرض للفناء . ان الفرصة الوحيدة المتاحة له للبقاء تكمن في الابقاء على القهر والقمع بشكل مطرد . ولذلك تفسيره . ان مشروع التوسع الامبريالي يتحقق دائما عن طريق الجيش الكامل الذي يحشده الشعب أو الأمة الفاتحة : واذن فان هزيمة العدو تصبح امراً لا معدى عنه . وذلك يسهّل اندراج الشعب المقهور في نطاق الامبراطورية . اما في حالة الاستعمار فان عدداً صغيراً من الرجال يفرض قانونه دائما على الاغلبية فرضاً .

التشيؤ والعنصرية

ان ما يفرق ، ايضاً ، بين الاستعمار وبين كل أشكال الامبريالية الأخرى ، هو طبيعة العلاقات الانسانية التي يدخلها الاستعمار في نطاق نظامه . فبينما تقيم الامبريالية التقليدية علاقة الغالب بالمغلوب ، فان الاستعمار يجمد ويشيّىء المستعمَر عن طواعية . ويترتّب على الامبريالية الاعتراف **بالفارق بالاختلاف** ، على الصعيد الانساني (الفارق العنصري ، والقومي ، واللغوي ، ... الخ) — وقد رأينا ذلك في الصراعات الأوروبية — اما الاستعمار فيحاول ان يقيم ويعتمد فارقاً واختلافاً في **الجوهر** . المستعمَر ليس كائنا دون الانسانية ، انه ، هنا ، **شيء** ، **موضوع** ، وما

يقسر الاستعمار على اقامة هذا التشيؤ والتجميد هو الضرورة المتولدة عن منطق النظام نفسه. وهذه الضرورة تتولد ، كما ذكرنا ، عن وضع الاقلية الذي يجد المستعمر فيه نفسه ، فهو يقف وحده في وجه الأغلبية العددية الكاثرة ، ولا وقت لديه ولا فراغ لكي يعترف بالقيمة الانسانية لهذه الاغلبية العددية. وهو يفترض ان الاعتراف بالصفة الانسانية للخاضعين له سوف يقوّض تلقائياً كل اساس لسلطانه. ومن ثم فهو يقوم بتبسيط جذري من شأنه ، فيما يرى ، ان يسهّل له مهمته. ويعلن ان المستعمَر ليس فقط ادنى منه ، بل هو شيء وموضوع ، ومن ثم فهو اسهل في العلاج والتصريف. ولكي يبرر خطته ، يحط المستعمِر من مكانة المستعمَر بالفعل ، وينزله إلى مستوى الشيء والموضوع ، ويعطيه وظيفتهما ، وذلك حتى يتسنى له ان يقول : « ها هو ذا الدليل على أنه ليس بالانسان ! » ولكي يتسنى له في الوقت نفسه ان يؤكد سلامة الاساس الذي تقوم عليه وصايته. ولايمكن تصور هذا الشكل الحاد البغيض من العنصرية ، وهذه الزراية الكثيفة المطبقة من الانسان للانسان ، الا في نطاق الاستعمار. فلم تصل العنصرية والزراية الى هذا الحد من الضراوة الاولية في أي شكل آخر من اشكال التوسع او التغلغل العسكري أو السياسي أو الاقتصادي. وليس الاستعمار البريطاني ، الذي يثار ذكره غالباً بالنسبة للبوير أو لايرلندا ، الا مثالا باهتاً لهذه الظاهرة. ولعل النازيين هم وحدهم الذين طبقوا مثل هذه المناهج على اليهود وعلى شعوب شرق أوروبا ، فقد كان في نيتهم بالفعل ان **يستعمروا** — بالمعنى الحقيقي الذي نفهم به الاستعمار — بولندا وروسيا. وفي هذا الصدد فان إيميه سيزير محق عندما يكتب ان « ما لا يغتفره بورجوازي القرن العشرين الرفيع الذوق ، البالغ الانسانية ، المسيحي التقي في مسيحيته : ما لا يغتفره أبداً لهتلر ، ليست الجريمة التي اقترفها هتلر ضد الإنسان ، ليست هذه الجريمة في ذاتها ، ليست مذلة الانسان في ذاته ، بل هي الجريمة التي اقترفها هتلر ضد الانسان الابيض ،

هي مذلة الانسان الابيض ، هي انه طبّق على أوروبا مناهج أستعمارية لم تكن تنطبق حتّى ذلك الحين الا على عرب الجزائر أو عمال الهند ، أو زنوج افريقيا[1] .

البداية الاولى

تولّد الاستعمار ، في عدد معين من الحالات ، عن اوضاع لم تكن تؤذن بظهوره .

وعلى ذلك النحو فلم تكن كل رحلات الكشوف بغرض الاستعمار . لقد ظهر الاستعمار ، بصورة عفوية ، مترتباً على ظروف عرضية في الغالب وعندما أنشأ ريشليه « شركة الهند الشرقية » فقد كان ذلك أولاً وقبل كل شيء بغرض « الهجوم على البيت النمسوي المالك وتقويض اسس قوته المالية »[2] . وأعقب ذلك تغلغل تحول بالتدريج وباطراد الى الاستعمار . ولكن ذلك حدث كما لو كانت تدفعه وتحركه قوة الاشياء نفسها . وبالمثل عندما اكتشف دييجوكاو البرتغالي في ١٤٨٣ ، مصب نهر زايير ، (الكونغو) وعقد الصلة باسم ملكه مع ملك الكونغو ، فلم يكن في نيته بعد ان يستعمر ، ولم يكن مما يدخل في اهداف ملك البرتغال أن يضم هذه المملكة الافريقية . وخلال ما يقرب من قرن من الزمان قامت علاقات ودية يغلب عليها الاحترام المتبادل ، وتبودلت الرسائل الديبلوماسية الكثيرة بين بلاط لشبونه وبلاط ساو سلفادور (ميازا) . وفجأة وقعت حادثة غير متوقعة عجلت بمسار التاريخ على نحو عنيف . أخذ بعض التجار والمغامرون البرتغاليون يتجرون بالرقيق الأسود . فأبدى الافريقيون مقاومتهم لذلك وقاموا بهجوم مضاد نشيط وقوي . وارسل ملك البرتغال حملة لحماية رعاياه ، بقيادة باولو دياس دي نوفايس الذي وصل ، في نحو ١٨٥٠ ،

(١) أيميه سيزير : مقالة في الاستعمار .
(٢) جورج – رمانويل : « الامبراطورية الفرنسية »

الى ميناء لوواندا ، على رأس قوة صغيرة من المستعمرين والجنود »[1] . وبدلا من ان يقوم دياس دي نوفايس بحماية التجّار البرتغاليين واستكشاف الساحل في اتجاه الجنوب ، كما كان مقرراً له ان يفعل ، اكتفى بأن يحتل لوواندا ويرسي قواعد هذا الاحتلال وان يستقر في البلاد . كانت تلك بداية استعمار انجولا . ويمكن للمرء ان يستخلص من ذلك انه اذا كانت الاتصالات الاولى بين أوروبا والقارات الاخرى لم يتولّد عنها الاستعمار بالضرورة ، فيكفي أن نشير الى ان الاستعمار يظهر نتيجة للمصلحة الّتي يقضي بها توسّع الأمم الأوروبية .

المستعمرة لا تعادل الاستعمار

يحق لنا ان نتساءل عما اذا كان تأسيس مستعمرة يمثل بداية الاستعمار . ونجيب على هذا السؤال بالايجاب اذا كنا نعزو الى كلمة الاستعمار معناها الأول ، اي فعل اقامة مستعمرة . ونجيب بالنفي ، اذا كنا نعطي للكلمة معناها الذي نقبله اليوم : أي فعل الاستعمار . وهناك بالفعل تجارب استعمارية لم تؤد الى الاستعمار . ان المستعمرات والمرافق التجارية الاولى للفينيقيين ، مثلا ، لم يترتب عليها اقامة استعمار ما . لماذا ؟ لان طبيعة العلاقات الّتي اقامها المستعمرون القادمون من صور وصيدا مع اهل البلاد الاصليين كانت في جوهرها **علاقات مساواة** . كانوا يشترون منهم الارض الضرورية لبناء المرفق التجاري ، كما كانوا **يشترون** منهم المنتجات الّتي يعودون فيبيعونها إما في الوطن الأم أو الى تجار آخرين . ومن ثم فقد بقي الفينيقيون في داخل حدود مهنتهم كتجار ، بشكل دقيق . انهم ظلوا وسطاء ، دون ان يحاولوا قط تجاوز هذه الحدود . وعلى العكس من ذلك فان الاستعمار قد ظهر مع ظهور قرطاجنة . وهجر الفينيقيون اساليبهم الّتي تنطوي على الحكمة

(١) جورج جيمس ايلن : الوجود البرتغالي في انجولا (مجلة الوجود الافريقي) .

والعقل واخذوا ينهبون الأرض من اهل البلاد الأصليين ويوسعون اراضيهم باستمرار على حساب اهل البلاد الاصليين ويخضعونهم لقوانينهم . بل اخذوا يستولون على وسائل الانتاج — الزراعة في افريقيا والمناجم في أسبانيا — ويرغمون اهل البلاد على ان يقوموا بدور العمال اليدويين المسترقّين أو الذين لا يكادون أن يحصلوا على أجر . وهكذا خرجت قرطاجنة على العادات والتقاليد التي كان يأخذ بها الفينيقيون القدامى وطبقت كل المناهج التي تحدد مسار تحول المستعمرة الى الاستعمار . وقد ظلت قرطاجنة باعتبارها مستعمرة تابعة للعاصمة الأم : صور ، حتى اللحظة التي قطعت فيها هذه الصلة واصبحت بدورها عاصمة . ان الاستعمار يتميز باختلال التوازن في العلاقة بين المستعمرة واهل البلاد الاصليين . وتحل علاقات السيطرة محل علاقات المساواة . وتحتل المستعمرة الأراضي احتلالا عسكريا ، تقهرها بدلا من أن تقتنيها ، وتخضع اهل البلاد الاصليين لقوانين المستعمرة وتنظيمها ، وتحل الاحتكار وملكية ادوات الانتاج محل التجارة الحرة . في هذه المرحلة يظهر بوضوح ان اهل البلاد الاصليين قد اصبحوا مستعمَرين .

٣ . الاستعمار ظاهرة أوروبية

ان اية دراسة ، لتاريخ الاستعمار ، ولو كانت سطحية ، تضطرنا الى التسليم بأن أوروبا ، على طول القرون ، هي القارة الوحيدة التي أفرزت هذا الشكل من اشكال التوسع . اما مثال الفينيقيين الذي أوردناه منذ قليل فهو الاستثناء الذي يؤيد القاعدة . وهذه الملاحظة مثقلة بالدلالات ، لأنها تدعم الفرضية التي تؤكد وجود **تطور ثنائي الاتجاه للعالم** ، وهي الفرضية التي تبدو صحة اساسها واضحة للعيان ، يوماً بعد يوم .

الطغيان الشرقي :

اتجه الكثيرون ، زمنا طويلا ، الى ان شكل التطور السياسي والاقتصادي الأوروبي ، (الديمقراطية اليونانية ، والعبودية ، واقطاع العصور الوسطى ، ونظام القنانة ، والرأسمالية الحديثة والبروليتاريا) هو الشكل العالمي . ولكن الابحاث والدراسات الحديثة العهد ، نسبياً ، والتي مهدت لها السبيل اعمال ماركس وانجلز ، وهما الرائدان في هذا المجال ، تميل الى اثبات أن آسيا ، وافريقيا ، وامريكا فيما قبل عهد كولومبوس (اي العالم الثالث الراهن) قد مرت بتطور مغاير تغايراً أساسيا عما مرت به أوروبا . ان المرحلة الاولى لتطور هذه القارات ، وسوف نسمّيها مرحلة « صدر التاريخ » Le Stade Protohistorique ، كانت مرحلة القبيلة أو العشيرة ، حين

كانت علاقة الفرد بالارض تشرطها علاقة الفرد بالجماعة التي ينتمي اليها ، كما يقول العالم المجري المتخصص في تاريخ الصين ف. توكيي[1] . « إن الفرد اذن لا يملك التربة الا ملكية مباشرة ، والارض تخص الجماعة التي تملكها ملكية جماعية . إنها « شيوعية بدائية »[2] .

وقد استمرت الملكية الجماعية للارض ، بشكلها البدائي ، قائمة حتى ايامنا هذه في مواقع عديدة من افريقيا وآسيا ، بل وامريكا اللاتينية . وهذا التنظيم الاجتماعي الاول قد « احتواه » بنيان أوسع نطاقا ، نسميه **الدولة** ما دمنا نفتقر الى تسمية أدق . ولكن كيف نشأت **الدولة** ؟ اذا أخذنا بما يقوله كارل فيتفوجيل [3] الذي يعالج تحليل ماركس ، من جديد ، ويستكمله ، فان الدولة قد نشأت نتيجة للقيام باعمال الري والصرف الكبرى . فعندما اصبح القيام بهذه الاعمال ضرورة تفرض نفسها على جماعات قاعدية صغيرة ، أي على المجتمعات البدائية ، اصبح من الواضح ان هذه الجماعات ، وحدها ، لا تستطيع تحقيق تلك الاعمال . ومن ثم نشأ ترابط بين المجتمعات البدائية ، في كل ميدان من ميادين النمو ، بغرض انجاز اعمال كبرى . كيف جرى هذا الترابط ؟ ان فيتفوجيل لا يقول الكثير في هذا الصدد . ومن قبيل المغامرة المحفوفة بالخطر ان يتجه التفكير إلى انه كان ترابطا **عفويا تلقائيا** . والاكثر اتفاقا مع المنطق ان نسلم بان الدفع ، في كل حالة ، كان من عمل قبيلة أو مجتمع بدائي وصل الى مرحلة أكثر تقدما من مراحل التنظيم . ويعلمنا التاريخ ان ذلك ما حدث بالنسبة للازتيكيين أو الأنكا . ومن ثم فان هذه القبائل التي كانت لها امتيازاتها ، قد ربطت بنفسها القبائل المجاورة الاقل تطوراً ، عن طريق القوة في اغلب الاحيان . ان النهوض بمثل هذه

---

(١) ف. توكيي : أسلوب الانتاج الاسيوي.

(٢) جورج لاباساد : الجماعات : والتنظيمات ، والمؤسسات .

(٣) كارل فيتفوجيل : الطغيان في الشرق ، مقدمة بقلم ب . فيدال ناكيه .

الأعمال الكبرى (لا ينطبق ذلك على عمليات الري والصرف ، في حالة النيل فقط - بل ينطبق أيضا على إنشاء الطرق والجسور - في حالة الانكا - دون أن ننسى الاهرام المصرية ، وسور الصين العظيم .. إلى آخره) قد ادى إلى ظهور جماعة مسيطرة ، كما هو واضح ، هي جماعة البنّائين أو « **اصحاب المشروعات** » الذين عهد اليهم **بادارة** الاعمال الجارية على مستوى الجماعة الكبرى (الدولة) . ان هذه الجماعة من الموظفين ، كما يعرّفها ب . فيدال - ناكييه ، هي **أداة ضبط وتنظيم** المشروع . وهي تتكون من المنظمين ، والمخططين كما تتكون من الكتبة ، والفلكيين ، والكهنة - العلماء ، والمحاسبين ، والمراقبين الماليين ، وجباة الضرائب . ويتساوق تحول جماعة الموظفين الى **طبقة بيروقراطية** ، مع تحول تقسيم العمل ، من تقسيم فني الى تقسيم اجتماعي . ومنذ هذه اللحظة ، سوف تمارس هذه الطبقة البيروقراطية سلطة **كلية** ، فيما يتعلق بالتوجيه ، والتجديد ، والتخطيط في العمل ، وهي الوظائف التي كان المجتمع كله يأخذها على عاتقه من قبل . ثم إن هذه الطبقة البيروقراطية تستغل العاملين ، اذ تستأثر فائضاً على الانتاج ، لصالحها . « ان هذا التراكم لفائض الثروات ليسترعي النظر حقاً » عندما نكتشف وجود « الكنز الملكي » (عند الانكا ، في القرن السادس عشر ، مثلا) [1] .. ويقول فيتفوجيل إن نشأة البيروقراطية - التي تولدت بدورها ، عن ضرورة القيام باعمال كبرى - قد ترتب عليه ، اوتوماتيكياً ، ظهور الدولة . ان هذا النظام الذي يسميه مونتسكييه « الطغيان الشرقي » يطلق عليه كارل ماركس اسم « **اسلوب الانتاج الشرقي** » عندما عاد فاكتشفه من جديد في ١٨٥١ ، اثناء ابحاث قام بها تمهيداً لوضع دراسة عن الهند عهدت بها اليه صحيفة « ديلي هيرالد » الانجليزية . وهذا النظام ، في جوهره ، نظام مجتمعي . فهو لا يترك البنيان

(١) جورج لاباساد : الجماعات والتنظيمات ، والمؤسسات .
(٢) أ. كاساو : حيازة الارض عند المكسيكيين القدامى .

الاجتماعي السابق ، أي الانتاج الجماعي الذي يملكه المجتمع البدائي ، قائماً الى حد كبير ، فحسب ، بل هو عندما يستولي على جزء من الارض يسهم في تشكيل « ملكيات للدولة » تملكها الجماعة العليا . والملك أو الامبراطور نفسه ، في هذا النظام ، هو « الموظف الاول في الدولة » وليس مالكا فردياً لوسائل الانتاج . ويلاحظ أ . كاسو ، الى ذلك ، انه عندما كان الملك (الازتيكي مثلا) يملك ارضا « فلم يكن ذلك بوصفه فرداً بل بوصفه موظفا [1] والعبودية في هذا النظام ، جماهيرية واسعة النطاق ، وموقوتة . ويسميها ج . س . ميل « عبودية سياسية » ، ويسميها ماركس « عبودية عامة » حتى يفرق بينها وبين العبودية اليونانية — اللاتينية ، وهي العبودية الخاصة والدائمة . هي اذن عبودية **جماهيرية** ، لانها تنجم عن أمرٍ ينطبق على جماهير غفيرة ، يصدره العاهل (الفرعون في مصر ، أو الملك — سليمان — في اسرائيل ، أو الامبراطور في الصين ، أو ملك الانكا ، أو الازتيكيين في امريكا ... الى آخره) وتدير البيروقراطية شئون تطبيقه ، بغرض انجاز أعمال كبرى ، ولكنها عبودية **موقوتة** ، لانه حالما تم هذه الاعمال فان الايدي العاملة تتحرر ، وتعود الى بيوتها » . وفي هذا النطاق يمكن مع ذلك ان تظهر العبودية ، أو القنانة الفردية ، في اعقاب الحروب ، والفتوحات . ويصبح العبد ، أو القن ، ملكا مشاعا للجماعة التي ينتمي اليها سيده ، ويعتمد هذا السيد ، نفسه ، على مجتمعه ويرتبط به ، ويخضع لقهر الدولة [2] . ان القسمات المختلفة التي يتميز بها هذا النظام ، تشير بوضوح ، اذن ، الى انه نظام بيروقراطي ، ومجتمعي ، وشمولي في الوقت نفسه . وقد ظهرت البيروقراطية ، اولى الطبقات المسيطرة في التاريخ ، في سبيل اقامة هذا النظام . ومع ذلك ، يبدو لي من غير الصحيح ان نسمي هذا النظام بأسم « الطغيان الشرقي » كما فعل مونتسكييه ، أو بأسم « اسلوب الانتاج الآسيوي »

---

(١) أ. كاساو : حيازة الارض عند المكسيكيين القدامى .

(٢) م. جوريلييه : اسلوب الانتاج الآسيوي والاشكال الماركسية .

(ماركس ــ انجلز) اذ انه يقوم بوظيفة لا في آسيا وحدها ، بل في امريكا وأفريقيا ايضا . ويقول جان سوريه ــ كانال ، في هذا الصدد : « يبدو من الحكمة حقاً ان نقرّب بين اسلوب الانتاج السائد في اكثر المناطق تقدماً من افريقيا السوداء التقليدية ، وبين ما اطلق عليه ماركس اسم الانتاج الآسيوي[1] . ويبدو لنا أن تعبير « اسلوب الانتاج البيروقراطي » اكثر وفاء بالغرض في هذا الصدد ، وهو التعبير الذي يقترحه جورج لاباساد لكي يدل على أول نظام سياسي متماسك عرفه العالم .

الانفصال الاساسي :

كانت اولى الحضارات اليونانية ، الحضارة المينوية في كريت ، والحضارة الميسينية ، حضارات آسيوية . كانت متأثرة مباشرة بآسيا الصغرى التي كانت ترتفد بدورها من الحضارة المصرية . وفي كريت ، وميسينيا ، كانت الارض ملكاً للمجتمع ، وكانت الاعمال التي تجري بهما اعمالاً هائلة . يشهد بذلك امتداد رقعة الاطلال التي نراها اليوم . ومن ثم يستطيع المرء ان يؤكد أن أصل العالم المتحضر الذي يقع مهده في شرق البحر الابيض المتوسط وفي آسيا الصغرى ، يتخذ الشكل نفسه من اشكال التطور ، في مرحلته الاولى من النمو التاريخي .

وفجأة ، يقع الانفصال الذي يعزل اليونان ، ويرغمها على أن تقوم بحملتها ، وحدها ! جاء هذا الانفصال ، نتيجة لغزو الشعوب « البربرية » التي سميت احيانا بالشعوب « الاندو ــ اوروبية » و « الآرية » أو « الشعوب البحرية » ، منذ نهاية الالف الثالثة قبل المسيح . تدفقت الموجة الاولى من هذه الغزوات التي يبدو انها بدأت من منطقة اسكندنافيا الحالية ، عبر السهل الروسي ، واجتازت القوقاز ، وثبتت ، لفترة ما ، في فارس ، قبل أن

(١) ج. سوريه ــ كانال : افريقيا السوداء .

تشق طريقها ، في مد متصاعد جديد ، حتّى تصل الى الهند . وجاءت الموجة الثانية التي بدأت من سهول أوروبا الوسطى ، لتغمر البلقان ، وتنتشر في بلاد اليونان حتّى تنتهي في آسيا الصغرى . ان وقْع هذه الغزوات على مسار التاريخ وقع حاسم . فقد اسهمت في تشكيل شعوب جديدة : الايرانيين ، والارمن ، والحثيين ، والهكسوس ، والفلسطينيين القدامى ، والهنود في آسيا ، والهيلينيين في أوروبا . وأثرْت هذه الغزوات العالم المتحضر بعنصرين لم يكونا معروفين في هذه المنطقة من الارض : العنصر الاول هو **الحديد** ، في ميدان المعادن ، والعنصر الثاني هو **الحصان** ، من المملكة الحيوانية . ومع ذلك فان نتائج هذه الغزوات لم تكن من طراز واحد ، ولا على مستوى واحد ، ولا بالاهمية نفسها ، في كل مكان وصلت اليه . ففي آسيا ، اصطدمت الشعوب الجديدة بحضارات عريقة نسبياً ومستقرة وطيدة الاستقرار من اصل سامي ، تمثلتها وامتصتها في نهاية الأمر . وعلى العكس من ذلك في أوروبا ، حيث لم تكن قد نمت حضارة ما نمواً نهائياً ، طوحت الشعوب الجديدة بالنظام القائم رأساً على عقب . وعندما تغلغل الدوريون (الذين يقع مجال استقرارهم الأولي في بلغاريا الحالية تقريباً) الى بلاد اليونان ، كانت الحضارة المسينية تتدهور منذ زمن طويل ، فلم يعجّل الدوريون فقط بسقوط ميسينيا ، بل قضوا على حضارتها أيضا . أما في كريت ، فقد كان تدهور الحضارة المينوية قد افسح الميدان لمجموعة من الخرائب والاطلال .

أساطير ذات دلالة :

وبسقوط ميسينيا ، لم يبق أثر في أوروبا للحضارة البدائية (البيروقراطية ، المجتمعية ، الشمولية) وعلى انقاض الحضارة المسينية أقام الهيلينيون ــ الشعب الجديد الذي تولّد عن الغزوات ــ حضارة لن تُضارع بها حضارة أخرى . وبعد قرون ، ولدت **اسطورة اوديب** التي تصور هذا الحدث ، على نحو خرافي . ان « أبا الهول » ــ وهو **مصري** ــ يمثل العقل المستتر أو اللاواعي

كما يقول هيجل. والسؤال الذي يُمتحن به اوديب : (من ذاك الذي يسير على اربع في الصباح ، وعلى ساقين في الظهيرة ، وعلى ثلاث سيقان في المساء ؟) لم يكن هو نفسه يعرف له جوابا **واضحاً**. وعندما أجاب اوديب على السؤال اجابة صحيحة (هو الانسان) سقط أبو الهول في البحر ، وغرق .

مما يعني ان اليونان (ويجسدها ابو الهول هنا) قد اكسبت مصيرها شكلاً محدداً نهائياً . انها قد وعت الطريق الفذة الفريدة التي تتخذها ، هذه الطريق التي سوف تنحرف بها ، وتعزلها عن سائر انحاء العالم الذي تمثله مصر هنا .

وبعد ذلك ، تأتي اسطورتان أخريان جوهريتان ، فتوضحان مدى التفرد الذي يتصف به المصير الهيليني . اولاهما : **اسطورة نرسيس** التي تمجد العقيدة الفردية ، من خلال الوعي بالذات (حيث ينظر الانسان الى نفسه) . ويبدو من الوضوح بمكان أن تطور اليونان انما تحكمه الفردية منذ تلك اللحظة . فاليونان تضع الملكية الخاصة في مواجهة الملكية الجماعية . ولم تعد العبودية ضرورة موقوتة في خدمة الجماعة ، بل تصبح عاملا لا غنى عنه ، ودائما ، من عوامل الرخاء الفردي . والاسطورة الثانية هي اسطورة بروميثيوس : الانسان الذي ينتهك اسرار الطبيعة ، ويستلب النار من السماء لكي ينير بها العالم . إن هذه الاسطورة تعكس صورة « الانسان ــ الصانع » ، الانسان ــ المخترع ، ولكنها تعكس ايضاً صورة لانسان المغامرة والكشف ، وهو الارهاص الأوليّ **للمستعمر** .

ان هذه الاساطير تصور اصول الواقع (بدايات تاريخ هيلاد) ولكنها تلقي ضوءا ، كأنه ضوء النبوءة ، على مستقبل أوروبا التاريخي . إن اليونان مهد انسانية جديدة سوف تنمو وتتطور ، منذ تلك اللحظة ، بالتوازي مع الانسانية في سائر انحاء العالم ، ولكنها تتخذ ايقاعاً مغايرا . ان التآلف بين

الفردية والعقل الخلاّق سوف يضفي على الانسان الأوروبي خصائصه الاساسية. وسوف يصبح العقل الخلاق هو الاداة التي لا غنى عنها للتقدم ، ولا ينفصل عن التوسع . ولكن التقدم يعني بالضرورة السعي **الدائم** للوصول بالطرائق التكنيكية الى حد الكمال . سوف يتحقق التقدم ، نفسه ، لصالح الفرد قبل أن يكون لصالح الجماعة ، اذ لن تمثل الجماعة الا مجموعة من الافراد . ومن هنا يأتي السعي وراء **المنفعة الخاصة** التي تقع وراء الحوافز الرئيسية في التاريخ الأوروبي . ان المواطن اليوناني ، او الروماني ، والسيد الاقطاعي والبوجوازي الرأسمالي ، هم **جميعاً** في المراحل المختلفة من التطور الاقتصادي الأوروبي ، **ملاّك** لوسائل الانتاج .

فلسفة تحريرية :

ان الفلسفة اليونانية التي تنفرد ، على وجه الدقة ، بأنها هي التي وضعت أسس **فكرة الفلسفة** – ولم يكن لهذه الفكرة من سابقة – تعكس بأمانة صورة الواقع الذي يتشكل ، والذي تضع الفلسفة اليونانية له بنيان تطوره ، وتقنّن اشكال هذا التطور . والفلسفة الى حد ما ، توضح وتفسر « الحقائق » ، الكامنة أو الغامضة في الاساطير . انها تُشيد بمقدم الانسان ، وارتقائه عرش الكون ، وتقيم ، في الواقع ، دعائم العقيدة التي تمجده ، وتخلص الانسان من الروابط التي كانت تشده الى الطبيعة ، وتسهم في اقتلاع جذوره منها . فهي اذن ، وعلى نحو منهجي ، تناقض كل تيارات الفكر الديني ، الذي كان يرتوي منه العالم المعروف كله ، حينذاك : افريقيا ، آسيا ، وأمريكا قبل كولمبوس . ان « حيوية المادة » في افريقيا السوداء (وعند الهنود الامريكيين) تعلم معتنقيها أن الانسان لا انفصال له عن الطبيعة ، وان الطبيعة هي **المعبرة** عن الالوهية . والتوحيد بين الانسان والطبيعة هنا كلّي وكامل (الانسان **هو** الشجرة ، **هو** الوحش .. الى آخره) . وليس بوسع الانسان ان يبتعد عن **موطنه** – الذي يتساوق مع بيئته الطبيعية – دون أن يخاطر بأن

يفقد حيويته .

وتدعو ديانات آسيا الى « الجوانية » الدائمة ، وتشير في النهاية الى الانعدام والتلاشي في « الكل » . هذا الى انها ديانات تقتصر على **مجال محدود في نموها المكاني**، وتفتقر الى الدافع نحو استجلاب الانصار والاشياع .

ولا يستثنى من ذلك الا الديانات السامية . ان فكرة التوسع فكرة مألوفة عند الساميين. ويثبت ذلك ميل الفينيقيين الى الكشوف، ومغامرتهم الاستعمارية. وسوف تصبح الديانة اليهودية ديانة تبشر بظهور مخلص العالم ، وسوف تصبح الديانة المسيحية النابعة منها ، ديانة **كاثوليكية** (اي عالمية أو مسكونية) كما سوف تصبح الديانة الاسلامية ديانة الدعوة الى الانضمام اليها ، والحث على اعتناقها . وهذه الديانات الثلاث ، المنبثقة من جذع سامي مشترك ، تتشارك ، ايضا ، في نفس التعصب الذي لا يقبل التسامح ، الذي يدفعها ، بطبيعة الاحوال ، الى الحرب المقدسة [1] .

ان الفلسفة اليونانية تضع الانسان على طريق جديد . وهي تدعوه ، بدلاً من أن يخضع للطبيعة ، كما تعلمه ديانات حيوية المادة ، الى الاستيلاء على تلك الطبيعة ، وتملكها ، واستخدامها .

وهذه الفلسفة (أو هذه الفلسفات على الاصح) فيها ايذان ، من ذلك الوقت المبكر ، بالفلسفات التي ستتبعها في أوروبا ، على مجرى الزمن ، حتى تصل الى الماركسية والوجودية المعاصرتين ، وتشتمل عليهما . ولا شك أن المسيحية قد ادخلت تعديلاً كبيراً على الصورة الاولية للانسان اليوناني ، ولكنها لم تشوه شكله ، قط ، تشويهاً اساسياً . وما تتميز به المسيحية من كاثوليكية تبشيرية (« اذهبوا الى العالم اجمع وأكروزا بالانجيل للخليقة كلها » [2]) سوف يزيد من تأكيد الرسالة والمهمة التي يأخذها الانسان الأوروبي على عاتقه .

---

(١) من الامانة في النقل ان نترجم النص كما ورد ، وان كان هذا لا يعني ، بطبيعة الحال ، اننا نشارك الكاتب رأيه . (الناشر) .

(٢) انجيل مرقص (الاصحاح ١٦ الآية ١٥) .

أوربا الهيلينية :

واذن فقد ولدت أوروبا التاريخية من أصلاب اليونان الهيلينية . وورثت عنها ثلاث خصائص مميّزة : الفردية (الملكية الخاصة) ، وارادة التقدم ، ورغبة التوسع . وبفضل هذا التفرد استطاعت أوروبا أن تسيطر على سائر العالم ، وتغلبت الديناميكية الاوروبية في النهاية على ستاتيكية العالم القديم . وتولدت الحاجة الى **المنفعة الشخصية** من الروح النظرية المغامرة المتطلعة الى المستقبل اذ وُضعت في خدمة المصلحة الفردية . واصبحت المنفعة الشخصية تشكل الحافز الاقوى من حوافز المشروعات الاوروبية الرئيسية ، وسرعان ما ظهر أن مصادر الثروة في أوروبا أقل بكثير من احتياجاتها الاقتصادية .

وهكذا فان بعض البلاد الاوروبية التي كان مقدراً لها ان تحتل موقعا جغرافيا خاصا (وهي التي كانت لها رسالة ومهمة بحرية) يممّت بابصارها نحو عالم بدا لها يغصّ بالثروات ويفتح لها سبلاً فسيحة غير مطروقة تتعلق بها الآمال . وكانت العلاقات الاولى التي قامت بين العالمين علاقات تجارية بحتة . ولكن منطق الربْح الذي يفضي بالضرورة الى السعي عن مزيد من الربح أدى بأوروبا ، باطراد ، الى الاستيلاء على مصادر الثروة . وقد رأينا كيف وقع الفينيقيون من قبل ضحية لهذا المنطق . ولكنه ما كان من الممكن ان تقطع أوروبا هذه المرحلة دون ان تزداد في أيديها الوسائل المؤدية لها . على ان الطرائق التكنيكية الاوروبية لم تعرف نموّها الباهر الا في نحو نهاية القرون الوسطى . ومع ذلك فان **الارادة** المتجهة نحو الكمال ، والرغبة في التوسع اللتين كانتا تلهمان الاوروبيين ، تولدت عنهما ، في نهاية القرن السادس عشر ، « الوثبة الكبرى الى الامام » . ومهدت الكشوف العلمية والجغرافية في القرن الخامس عشر لذلك الهجوم الكبير الذي كانت أوروبا تعدّ العدة **على نحو لا واع** للوثوب به على العالم . وسجلت الملاحة البحرية نجاحاً مرموقاً بفضل تقدم أدوات السفن . ولكن التقدم التكنيكي في الميدان

العسكري كان تقدماً حثيثاً وكبيراً . واستخدمت أوروبا البارود ، الذي اخترعته الصين ، في اغراض عسكرية . وأخترعت أوروبا أدوات وضعتها موضع الذي لا يُقهر خلال قرون طويلة . ومنذ تلك اللحظة أخذت البنادق والقنابل والمدافع تملي قانونها على كل محيطات العالم ، وعلى الارض من ادناها الى أقصاها . وبفضل التفوق الساحق في السلاح ، مع روح التنظيم التي ورثتها أوروبا عن روما ، وروح التوفيق بين مختلف العناصر عند وضع الخطط السياسية والعسكرية الكبرى ، استطاعت أوروبا في خلال اربعة قرون أن تحقق السيطرة على الكرة الأرضية .

التمثّل والحقائق المضادة :

من الخطأ القول إن بعض مناطق العالم كان من الممكن لها أن تقع تحت سيطرة الاستعمار قبل انبثاق أوروبا على المسرح العالمي . فذلك نموذج من نماذج التمثيل المنافية للحقيقة والتي يقع في جريرتها بعض المؤرخين ، عن عمد ، لتبرير ظاهرة الاستعمار الاوروبي ، تبريراً لاحقا . ان اولئك المؤرخين على عكس اقرانهم في القرن التاسع عشر (ولكن للأسباب نفسها) ، يحاولون في صبر التوحيد بين تاريخ أفريقيا ، وآسيا ، وأمريكا اللاتينية ، وتاريخ أوروبا ، أو على الاقل يحاولون المقارنة بين دورات النمو فيها جميعاً . والغاية الواضحة من اقامة مثل هذا التوازن هي التهوين من مسئولية أوروبا ، ان لم يكن تبرئتها . ومن ثم فان منطقهم يجري على النحو التالي : « كان العالم كله استعمارياً . فلماذا اذن ننحي باللائمة على أوروبا بصفة خاصة ؟ ليس في ذلك من أساس تقوم عليه قائمة ! » . وما زال بعض المتخصصين الذائعي الصيت في الشئون الافريقية يتكلمون عن « الاقطاع الافريقي » . أليس في ذلك وقوع في خطأ بالغ ؟ فالواقع ان ما يميز الاقطاع الاوروبي هو تجزئة الارض ، والعلاقات الفردية بين السادة والاقنان . اما الارض في افريقيا فلم تكن قابـلة للقسمة ولا للتجزئة ، ولم تجزأ أو تقسم

قط ، ولم تكن في اية لحظة من اللحظات ملكية خاصة للملوك او للامراء أو للروساء . ولم يكن العبيد الذين يفلحونها ملكاً لسيد واحد ، بل كانوا ملكاً للجماعة القبلية أو للعشيرة في مجموعها . ولا نجد إقطاعاً يمكن أن يقارن بالاقطاع الغربي لا في افريقيا ولا في امريكا ولا في آسيا نفسها اذا ما اسثنينا بلداً واحداً : **اليابان** . ذلك أن العصور الوسطى في اليابان كانت تتميز — في الواقع — بنفس مميزات العصور الوسطى في أوروبا : فقد اصبح زعماؤها العسكريون سادة ونبلاء وملاكا للأرض ملكية خاصة ، كما كان شأنهم في أوروبا . والى ذلك فان اليابان كانت أول بلد آسيوي يمر بتطور اقتصادي ونمو صناعي يمكن مقارنته بما حدث في أوروبا ، وكانت البلد الآسيوي الوحيد الذي يجتاز عتبة القرن العشرين باعتباره دولة استعمارية . فهل كانت اليابان ، أيضا ، ذلك كله ، لأنها كانت البلد الآسيوي الوحيد الذي اتضحت رسالته ومهمته البحرية اكبر الوضوح ؟

أسباب الهزيمة :

ان الاستعمار هو النتاج الذي تنفرد به أوروبا ، فيما عدا حالتين لا ثالث لهما تقعان على طرفي الزمان والمكان ، أي عل طرفي نقيض في تاريخ العالم وفي حيز نفس القارة : هما حالتا فينيقيا ، واليابان (بلدان لهما مهمة ورسالة بحرية) . اما كل شكل من اشكال التوسع في غيرهما (الغزو أو الفتح الامبريالي) فلا يمكن مقارنته بالاستعمار الاوروبي مقارنة قائمة على اساس سليم . ومع ذلك ألا يمكن للمرء أن يتساءل لماذا لم يحاول العالم غير الأوروبي قط ان يستكشف ويستعمر في خارج حدوده ؟ ليس هناك الا اجابة واحدة لمثل هذا السؤال . ذلك على الأخص أن التطور الذي مر به العالم غير الأوروبي قد اتخذ مساره في نطاق الأبنية البدائية . وهذا يرجع على وجه الدقة الى أن عملية النمو هنا قد جرت بايقاع مغاير للايقاع الاوروبي ، لاسباب جغرافية ومناخية ودينية ادت الى هذه النتيجة . ففي المحل الاول

كانت معظم شعوب أو أمم افريقيا وآسيا وامريكا تتميز بخصائص قارية وليست بحرية . وكانت المساحة الكبيرة لهذه القارات (بالمقارنة الى المساحة الضئيلة لاوروبا) تدعو الى التوسع الداخلي . وفي المحل الثاني كان للمناخ اثر حاسم على عملية النمو الاقتصادي ، وقد لاحظ مونتسكييه ، بعد هيرودت وكثيرين غيره من الكتاب القدامى ، ان « الحرارة المرتفعة تُنضب معين القوى والشجاعة عند الرجال بينما يدعو المناخ البارد الى ابتعاث قوة في الجسم ونشاط في العقل يتيح للرجال المقدرة على اعمال كبيرة وشاقة وطويلة الامد وتمتاز بالجسارة »[1] وقد حاول اصحاب النظريات العنصرية ، في بحثهم عن اصول لهذا الرأي ، أن يثبتوا ان في ذلك اصل عدم تكافؤ الاجناس . ولكن «كل التجارب تثبت أن الافريقيين والاسيويين والهنود الامريكيين اذا وضعوا في ظروف الحياة نفسها التي يعيش فيها الجنس الأبيض ، يتمتعون بالقدرات نفسها وبالمستوى العقلي نفسه »[2] كما يقول موريس ديفرجيه . ويبقى مع ذلك صحيحاً ان أثر المناخ أثر لا يستهان به .

ويكفي للتدليل على ذلك أن اكثر البلاد الأوروبية في الوقت الحاضر تقدماً من الناحية الاقتصادية تقع في المناطق المعتدلة أو الباردة من أوروبا (بريطانيا العظمى ، المانيا ، الاتحاد السوفييتي ، اسكندنافيا) بينما تقع البلاد الاقل تقدماً في المنطقة الجنوبية . « ان الحد الاقصى من التخلف يتساوق مع مناطق الجليد في الشمال والجنوب ، ومع المنطقة الاستوائية ، ومع المناطق الصحراوية المدارية . والحد الاقصى للتقدم يتساوق مع المناطق المعتدلة (امريكا الشمالية ، أوروبا ، روسيا ، الحافة الشمالية لافريقيا — في نصف الكرة الشمالي ، واستراليا ونيوزيلاندا ، واجزاء من شيلي والارجنتين والحافة الجنوبية لافريقيا ، في نصف الكرة الجنوبي[3] » . واذن فمما

---

(١) مونتسكييه — روح القوانين .

(٢) موريس ديفرجيه : مقدمة في السياسة .

(٣) موريس ديفرجيه : مقدمة في السياسة .

يستّرعي النظر هذا التوافق بين التخلف والمناخ الذي يسود في معظم أنحاء افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية ، ولا شك « ان الآثار المناخية النباتية ، اليوم ، ثانوية بالنسبة الى آثار النمو التكنيكي . ولكنها قد لعبت دوراً اساسياً في خلال العصور الماضية . ونتيجة للعوائق الجغرافية ، فان البلاد الواقعة في المناطق الجليدية والاستوائية والمدارية قد تأخرت تأخراً كبيراً من الصعب ان تتغلب عليه »[1] . واذن فان عامل المناخ قد يفسر تفسيراً جزئياً ما حققته أوروبا من امتياز بالنسبة لمجموع بلاد ما يسمى اليوم بالعالم الثالث . وهو يفسر ايضا تفسيراً نسبياً طبيعة الاديان التي نمت في هذه البلاد . فهي اديان محلية في معظمها تفتقر الى الطموح أو الى الاشعاع العالمي وتسهم في تثبيت الشعوب ولا تدفعها الى عالم آخر سواء كان هذا العالم مكانياً أم زمانياً . إن اكثر الديانات ديناميكية هي ديانات الشعوب التي تعيش في أفضل الظروف الجغرافية والمناخية والتي تصل ، نتيجة لذلك ، الى اعلى مراحل الحضارة (وادي النيل ، ودجلة والفرات ، منطقة الامطار الموسمية الآسيوية ، الهضاب العالية لامبراطوريتي الانكا والآزتيكيين) . وعلى العكس فان اكثر الديانات زَمتاً وتقيداً هي الديانات التي تفرض وحدة لا فكاك لها بين الانسان والبيئة الطبيعية ، وهي الديانات التي تعتنق « حيوية المادة » والتي سادت الغابات المدارية في افريقيا وامريكا ، حيث الطبيعة فيها تبدو صارمة لا تلين .

ان اسطورة بروميثيوس الاغريقية لاتنطبق على الوضع الانساني الذي يجد الرجال فيه انفسهم أسرى بيئتهم الطبيعية ، عاجزين عن الاستحواذ على الطبيعة وتملكها ، لأنهم موضع الهجوم منها باستمرار . ومعظم ديانات افريقيا وآسيا وامريكا قبل الكشف الكولومبي كانت تمثل عاملا اضافياً من عوامل التثبيت ، لانها كانت تؤيد وتدعم الحدود والقيود والمحظورات

(١) المصدر السابق .

التي تفرضها الجغرافيا والمناخ على الناس ، **وتقدسها** .

ولما كانت اوروبا **مختلفة** عن غيرها من الشعوب ، اي كانت مغامرة متطلعة الى المستقبل ، متقدمة ، وفاتحة قاهرة (اي **توسعية** اساساً ، في كلمة واحدة) بينما كانت هذه الشعوب تختلف عنها في التقاليد وفي القوام الحضاري والنفسي ، اذ كانت ظروف حياتها وظروفها المناخية والجغرافية تفرض عليها هذا الاختلاف ، فان ذلك كله قد اتاح لأوروبا ان تتفوق عليها تفوقاً حاسماً وضرورياً لقهرها . هذا الى ان الهجوم دائماً يؤتي ثمرته ، ونحن نلاحظ ذلك اليوم في الحروب الثورية التي يشنها العالم الثالث بدوره . وفي النهاية فقد كان التفوق التكنيكي والتنظيمي الذي تتمتع به اوروبا ، كثمرة لنموها المتميز ، عنصراً حاسماً . ومن الممكن ايضاً ان الحافز العميق وراء التوسع الاوروبي : **السعي الى المنفعة** ، كان يمثل عند القاهرين سبباً للنضال اقوى بكثير من الاسباب التي كانت تدفع الشعوب المقهورة للمحافظة على تراثها المهدد . ولا شك ان ذلك ما زال هو الوضع القائم اليوم حيث لم يعد للمرتزقة الأوروبيين ما يدافعون عنه ضد الشعوب التي تناضل في سبيل حياتها .

٤ . حافز المنفعة

ان الاستعمار ، وهو النتاج الذي تنفرد به أوربا ، تعبيرٌ متغير عن مصالحها الاقتصادية المتعاقبة . ولكن هناك تفاعلا بين الطريق الخاص الذي اختطته اوربا في نموها وبين عامل الاثراء الذي يتمثل في الاستعمار . ان الحصيلة التي تقدمها المستعمرة تسهم في تعديل الابنية الاقتصادية للوطن الأم اسهاماً مطرداً ، ولكن الاهداف تتغير بدورها فتفرض على الاستعمار مجرى جديداً .

المصالح الظاهرة أو المستترة :

كانت المستعمرات اليونانية والرومانية تحقق امتيازاً مزدوجاً للأوطان الأم . فقد كانت تشكل أراضي تستقبل فائض السكان وتنتج منتجات تفتقر اليها الاوطان الأم ويمكن أن تستخدمها كمواد للتبادل التجاري . وكانت تجارة التبادل تشكل قاعدة العلاقات الاقتصادية في العالم القديم حتى القرن السادس عشر ، وقد حلت محلها التجارة النقدية على نحو مطرد كلما حققت أوربا غلبتها وسيادتها على العالم . وما زال التبادل قائماً في التجارة النقدية ، ولكنه هنا قائم باعتباره تعلة : اذ تتم المقايضة هنا بين الذهب ، والماس ، وخشب الابنوس ، من ناحية ، وبين البضاعة . والواقع ان التجارة هنا تفضي بطبيعتها الى التحكم في السلع وادوات الانتاج والسيطرة عليها . وقد

ادت الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر ، في النهاية ، الى تعديل جوهري في العلاقات الاقتصادية : وتحول الاقتصاد المبني على التبادل نتيجة لهذه العملية ، الى **اقتصاد قائم على التحويل** .

وحتى في الحالة التي نجد فيها احياناً العلة المبدئية للتوسع ليست علة اقتصادية ، فان التوسع ينشيء اهدافاً اقتصادية ، عندما يتخذ شكل مؤسسة مستقرة ، وعندئذ تتولى المؤسسات الاستعمارية مهمة تحقيق هذه الاهداف . وهو ما حدث في حالة الحروب الصليبية ، فقد كان الهدف الاساسي عند معظم المسيحيين الذين اشتركوا في هذه الحروب هدفاً دينياً . كان الامر يتعلق « بانقاذ الاماكن المقدسة التي دنسها وجود الاسلام [1] . » فهي اذن « حرب مقدسة » تقوم مقام الدافع والحافز على التوسع . ولكن المصالح الاقتصادية ، في هذا المستوى ، ومنذ تلك اللحظة ، ليست غريبة تماماً عن المجرى التوسعي للاحداث . لقد كانت الحرب الصليبية الاولى هي استجابة الغرب لنداء المسيحيين في الشرق الذين كانوا ضحية لاضطهاد قد يكون وراءه حافز ديني وان كانوا يعانون بالأكثر من الآثار التي تترتب على هذا الاضطهاد في حياتهم الاقتصادية . واتجهت الحروب الصليبية الأخرى بعد ذلك نحو الشرق استجابة لنداء امبراطور بيزنطة وقاتلت لحساب الامبراطورية الرومانية الشرقية . وشيئاً فشيئاً تحول الحافز الديني الاصلي الى تعلة لحملات جديدة لم يعد لها من هدف الا مصلحة أوربا . وبالاضافة الى ذلك فقد كانت المهمة الاساسية للحروب الصليبية المتعاقبة ان توطد سلطة الصليبيين الأول الذين استقروا في الأرض المقدسة ، وهي السلطة التي كانت مهددة باستمرار ، وأن تُبقي على الاستعمار الوليد بل ان تنميه . وسرعان ما اختفى المظهر الديني للمشروع كله متراجعاً الى خلفية الصورة ، ثم تلاشى نهائياً . ان المستعمرات الصليبية هنا قد استخدمت التوسع لغرض واحد هو تحقيق اهدافها

(١) هكذا كان الصليبيون يصورون الوضع ، وان كان سياق التحليل يدل بوضوح على زيف هذا التصوير .

الخاصة ، ولم تعد تتجه بالنداء الى أوربا الا لكي تحافظ على سيطرتها . واذن فقد أصبح حافز المنفعة حاسماً وأصبح منطق الاستعمار غالباً وسائداً .

الاقتصاد النقدي واقتصاد التبادل :

ان الحكومة التوسعية الأوروبية منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر سوف يحكمها السعي وراء المنفعة وسوف تنتهي بالضرورة الى الاستعمار . اتجه البرتغاليون ، تجذبهم إرادة تنمية تجارتهم ، الى السواحل الافريقية حيث اكتفوا فترة من الزمن بشراء الذهب من السكان الاصليين ، ولكن سرعان ما اخذوا يستولون عليه بالقوة الغاشمة . ثم اشتط البرتغاليون في جسارتهم . وذهبوا الى الهند وجاوه سعياً وراء التوابل . وحتى ذلك الحين كانت أوربا تشتري التوابل من التجار العرب الذين كانوا يذهبون ويجيئون غدوة ورواحاً بين الشرق والغرب . ولكن الأوربيين في عصر أسرات لويس الحاكمة سرعان ما أدركوا ان مصلحتهم تملي عليهم الاستغناء عن الوسطاء ، والذهاب بأنفسهم لاقتناء المنتجات التي يحتاجون اليها من مواقع انتاجها . وازدهرت تجارتهم واقاموا المرافق التجارية في الجزر ، وهي المرافق التي تحولت على الفور الى مواقع حصينة . وبدأت العملية منذ ذلك الحين تدور في مجراها : فبهدف حماية الجزر التي تقع فيها المرافق التجارية ، احتلوا الجزر المجاورة . وهكذا أخذت بقعة الزيت الاستعمارية تتسع بشكل لا واعٍ . وكان نجاح التجربة مشجعاً للهولنديين فوضعوا اقدامهم بدورهم في الارخبيل الاندونيسي وطردوا منه البرتغاليين في النهاية . واجتاز الملاحون والتجار الهولنديون مرحلة حاسمة في التصعيد الاستعماري. وتحولوا من تجار كما قدموا أنفسهم الى اهل البلاد الاصليين ، الى فاتحين . ثم الى اصحاب حيازة ، وملاّك للانتاج الذي فرضوه على اهل البلاد الاصليين — وقد اصبحوا الآن أيدي عاملة لهم — مما عجل

بسرعة ايقاع العملية بلا توقف . وبعد ذلك جاء الانجليز والفرنسيون .

الاقتصاد التحويلي :

ان تراكم الثروات الذي تم في البلاد المستعمرة نتيجة لتجارتها ولاستيلائها على الانتاج ، قد اتاح للمشروعات الصناعية الاوروبية الاولى ، في نحو نهاية القرن الثامن عشر ، ان تنمو وان تسهم في خلال القرن التاسع عشر في نشأة التصنيع . الا أن بعض البلاد الاستعمارية لم تدرك في الوقت المناسب اهمية المنفعة التي تعود من النمو الصناعي . وهو ما حدث بالنسبة للبرتغال التي ظلت ملتزمة بالاقتصاد النقدي والتبادلي بينما كانت الدول الأوروبية الرئيسية قد اختارت بالفعل طريق الاقتصاد التحويلي . وبذلك افلتت من البرتغال فرصة الانتفاع من تحول تاريخي حاسم ولم تعد تشارك منذ تلك اللحظة في التطور السريع للعالم الغربي . وعلى العكس من ذلك اصبحت بلاد مثل فرنسا وبريطانيا العظمى دولاً استعمارية سائدة في القرن التاسع عشر حيث بلغ فيها التصنيع اقصى مراحل النمو .

ومع ذلك فان التناقضات التي نشهدها في اوربا تظهر ايضاً في اكثر البلاد تقدماً مثل فرنسا وانجلترا . وتنشأ هذه التناقضات ، في معظم الاحيان ، عن الرفض الذي تبديه فئاتٌ من الرجال ، نتيجة لافتقارهم الى الخيال والى المقدرة على التنبؤ واستكناه المستقبل . هذا الرفض الذي يعارضون به المنطق الكامن في قانون المنفعة الذي يحكم **التوسع الاقتصادي الدائم** . ان النمو الذي تنفرد به أوربا والذي يقوم على قانون المنفعة يقتضي هذا التوسع الاقتصادي الدائم . وايقاف هذه التجربة في خلال تطورها يعني التجمد او الحكم بالموت البطيء على احد اعضاء الجسم . ان بعض البلاد مثل اسبانيا والبرتغال ، نتيجة لهذا السبب ، ومنذ بضعة قرون ، قد اصبحت بلاداً في جوهرها **رجعية** (بأدق معاني الكلمة) . ولكن اذا كانت هناك مجتمعات رجعية ، فان هناك ايضاً **أفراداً رجعيين** . ويكمن خطؤهم المشترك في أنهم يعتبرون الجزء قائماً مقام

الكل ، والكل هنا هو عملية التوسع العالمي ، أما الجزء فهو احدى لحظات هذا التوسع .

المنطق الرأسمالي :

من المفارقات ان اعدى اعداء كل توسع استعماري جديد في القرن التاسع عشر هم الصناعيون المحافظون الذين كانوا يخافون المغامرة قبل كل شيء آخر . لقد لاح كأنما كانوا يجهلون ان مشروعاتهم وثرواتهم انما نشأت عن الاستعمار . وكانوا يرفضون التفكير في كل تهديد قد يعدل الابنية القائمة . اما رجال الصناعة والأعمال الذين كان لهم قدرٌ اكبر من الجرأة فقد وجدوا في تنمية الاستعمار والتوسع فيه وسيلة لدفع الاقتصاد الاوربي دفعة جديدة وتطويره تطويراً حديثاً . وهم الذين كسبوا القضية في النهاية . فهل يُمكن ان نعتبرهم لهذا السبب ، **تقدميين** — ؟ لا ، بلا شك ، اذا اعطينا لهذه الكلمة معناها الذي نقبله اليوم . ولكنهم بالتأكيد كانوا تقدميين في منظور المنطق الرأسمالي ، على النحو نفسه الذي يمكن به ان نعتبر « الصناعيين الشبان » او « المديرين » في الصناعة الحديثة ، « تقدميين » في نطاق « الرأسمالية الجديدة » وهم أنصار الاحتكارات الدولية — وذلك في مقابل الصناعيين التقليديين . وقد كان كارل ماركس من اوائل الذين ادركوا ذلك ، وقد حلل هذه الظاهرة تحليلاً بالغ الدقة : « ان البورجوازية باستثمارها للسوق العالمية تُكسب الانتاج والاستهلاك في جميع البلاد صفة عالمية وهي قد قوضت الاساس القومي للصناعة ، مما دفع الرجعيين الى حافة اليأس . لقد تحطمت الصناعات القومية القديمة وهي ما زالت تتحطم يوماً بعد يوم »[1] .

ولم يكن انصار التوسع والتغير ، في منتصف القرن التاسع عشر ، الا حفنة قليلة من الرجال ، ينتمون الى ما اصطلح على تسميته « بالصفوة » وهم في المحل الأول رجال الصناعة الذين يتميزون بالطموح وسعة الادراك

(١) كارل ماركس وفردريك انجلز : نصوص بشأن الاستعمار .

الذين اشرنا اليهم من قبل والذين يسعون وراء اسواق جديدة ومواد اولية جديدة لأنه «قد ظهرت حاجات جديدة حلت محل الحاجات القديمة التي كانت تلبيها المنتجات القومية، وهذه الحاجات الجديدة تتطلب لتلبيتهـا منتجات من بلاد ومن اجواء بعيدة»[1]. وهم ايضاً المكتشفون والجغرافيون الذين يعزى ما التزموا به من عمل الى مهنتهم نفسها. وهم كذلك رجال الكنيسة التي كانت تقيم المعادلة التالية: التوسع يساوي التبشير بالانجيل. وكان على رأسهم، بعض رجال الدولة الذين استشرفت ابصارهم آفاقاً اوسع مما كان يرى معاصروهم، مثل ليوبولد الثاني في بلجيكا وجول فري في فرنسا، فلم يكن ينقصهم بعد النظر. على أن هذه الصفوة كانت في بعض الاحيان تحاصر رجال الدولة وتحيط بهم وتدفعهم الى اتباع منهجهم. كانت هذه الصفوة من الرجال تعرف، منذ ذلك الحين، من الحقائق ما انفق الجانب الاعظم من معاصريهم خمسين عاماً في فهمه ومعرفته. كانوا يعرفون ماذا يعني الاستعمار، ومدى الربح الذي يمكن ان يستخلص منه. اما الجمهور العريض فعلى العكس من ذلك. فهو في ١٨٨٣ «لم يكن يفرق بعد بين الكشف والاستعمار تفرقة دقيقة.» اذا صدقنا في ذلك جاك شاستينيه[2]، ومن هنا جاء تحفظ الجمهور العريض وعدم ثقته. واذن فقد كان على هذا العدد الصغير من الرجال الذين فهموا مجرى الاحداث ان يواجهوا المعارضة المنهجية من رجال الصناعة ورجال الاعمال والمال «الرجعيين» وكان عليهم ايضاً ان يواجهوا عداء الجمهور العريض كله الذي كان يتطلع الى الهدوء وينفر من كل ما قد يغير من عاداته ويقض مضجعه، كما كانت الحال في فرنسا بعد ثلاث ثورات وبعد الملحمة النابليونية التي انهكت قواه. وعلى الرغم من هذا العائق الخطير فقد انتصر ذلك العدد الصغير من الرجال وتغلب في النهاية على الاغلبية، فقد واتته ظروف واوضاع موالية، وكان هذا العدد على اي حال

---

(١) المصدر السابق.

(٢) جاك جاستينيه: جمهورية الجمهوريين (١٨٧٩ - ١٨٨٣).

يدرك ما يريد ويسعى الى تحقيقه على نحوٍ أكبر مما كانت الأغلبية تدرك ما لا تريد وتقصر عن تحقيقه.

استعمار ذو «مظهر جديد»:

اتخذ الاستعمار منذ القرن التاسع عشر اتجاهاً جديداً وغيّر من طبيعته تغييراً عميقاً. ففي البلاد التي وقعت قديماً تحت قبضة الاستعمار (منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر) اخذت هذه التغييرات تسير جنباً الى جنب مع تطور الاستعمار الى شكل مؤسسة مستقرة، تطوراً مطرداً. اما في المناطق الجديدة التي كانت أوربا تطمع فيها والتي ضمتها اليها (وخاصة في افريقيا)، فقد استقرت المؤسسات الاستعمارية على الفور ودون المرور بمرحلة انتقالية ما، بكل تعقيداتها وبكل ما احرزته من نتائج. لم يعد يكمن السعي وراء المنفعة في التجارة النقدية او تجارة التبادل بل اصبح يكمن في استثمار البلاد الواقعة تحت قبضة الاستعمار استثماراً يعود بمنفعة مزدوجة. لقد كان تصنيع أوربا الذي شجع عليه تراكم الثروات، وهو التراكم الذي يُعزى في المحل الاول الى الاستعمار، يتطلب شرطين لنموّه: استيراد المواد الاولية، وايجاد الاسواق لتصدير منتجاته. واذن فقد كان على الاستعمار منذ تلك اللحظة ان يحل المشاكل التي يثيرها هذان الشرطان. كانت المناطق المستعمرة تقوم بتزويد المواد الاولية الضرورية وتستخدم في الوقت نفسه كأسواق لفائض الانتاج الأوروبي. وعدل الاستعمار من طبيعته بحيث يحقق هذه الاهداف الجديدة. لم يعد الاستعمار يتردد في ان ينزع كل سلطةٍ من الملوك والامراء والرؤساء التقليديين اصحاب البلاد الاصليين، وان يضع البلاد المغلوبة على امرها موضعها الذي يريده لها، وان يستحوذ على ثرواتها الطبيعية وادوات الانتاج فيها، وان يحوّل الشعوب المستعمرة الى ايد عاملة ذليلة، وان يفرض

قوانينه ومعاييره وقواعده ، وان يخضع السكان الاصليين لعملية سيكلوجية تهدف الى تسييرهم في اتجاه يتفق مع مصالحهم . كان ماركس منذ سنة ١٨٤٧ قد اوجز هذه المرحلة الاخيرة في عبارة اخاذة تسترعي النظر — وهي المرحلة التي تعود بأكبر قدر من الربح من مراحل الاستعمار — فقال : « ان البرجوازية الاوربية تقسر كل الأمم على ان تتخذ الاسلوب البرجوازي للانتاج ، والا تعرضت لخطر الموت ، انها تقسر هذه الأمم على ان تدخل الحضارة المزعومة ، اي أن تصبح بورجوازية . انها بكلمة واحدة تشكل العالم على صورتها »[1] .

---

(١) كارل ماركس وفردريك انجلز : نصوص بشأن الاستعمار .

٥ . منطق الرمي والارتداد

وبذلك نهضت أوربا بالمهمة التي القاها عليها القدر كاملة . فبعد ان انفصلت عن سائر العالم وتميزت عنه حاولت أن تشكله بحيث يشبهها . ولكن ما أن أتمت ربط الحزام حتى جاء الدور على العالم الثالث لكي ينتزع نفسه من قبضة اوربا وان « يُقبل على الحياة » الجديدة . ولا شك ان المصاعب تواجهه ، ولا شك أنه لن يتغلب على هذه المصاعب دون ان يتجشم المشاق . ولكن ليس من المقطوع به ان يكون مستقبله أقل اشراقاً من مستقبل اوربا ، فاننا اذا اخذنا بالشواهد المختلفة وجدنا ان أوربا على وشك ان تنتقل الى مرحلة حرجة من تاريخها . انها منذ اليوم تدفع ثمن الجهد الطويل الذي قامت به ، ولكنها تدفع اكثر من ذلك ثمن افتقارها الى المسئولية . انها تتعرض لارتداد السهم الذي رمت به الى نحرها . ذلك السهم الذي قذفت به ، في طيش وهوج ، الى رأس العالم .

خيانة واضحة :

ليس من شأننا ان نصدر حكماً اخلاقياً ، بل ان نصوغ ملاحظة موضوعية . وليس في قصدنا ان ندين أوربا ، فان الوقائع سوف تتولى ذلك عنا ببلاغة وافية . وانما يهمنا ان نظهر إلامَ تفضي بعض انواع السلوك ، بشكل لا معدى عنه . وكما « يهلك » بعض الرجال نتيجة للافراط ، فان هناك أمماً تسقط

تحت ثقل رخائها ونتيجةً لأنها قد غامرت مغامرات استغرقت من الزمن أطول مما ينبغي . وهو ما حدث بالنسبة لأوروبا التي انتهى ما نسجته من حذق ومكر وخديعة ، بصبر طويل ، وجنت منه الثمار دون توقف ، فحاق بها وسمّمها . لقد كان افتقار اوربا الى المسئولية يكمن في انها تسعى وراء مطامع لا علاقة لها باحتياجاتها ، وفي انها ، في نهاية الامر ، قد خانت نفسها . وذلك نوع من الافتقار الى المسئولية يفضي الى الموت .

كان الهدف الكبير الذي تسعى اليه اوربا ، منذ نشأتها ، هو ان تحرر الانسان من كل القيود ، وان تمجده وتسمو به وتُثريه . وقد اكدت الديانة المسيحية هذا الهدف كما اشادت به ومجدته الديانة الاخرى : ديانة « الحرية والمساواة » . ولكن هذا الهدف لم يكن يتعلق قط الا **بالرجل الأوروبي** . اما الانسان العالمي فقد كان دائماً مُبعداً عن هذا الهدف . بل اسوأ من ذلك كان الانسان العالمي هو الذي دفع ثمن سعادة الانسان الأوروبي . ومن السخرية ان تدّعي أوروبا انها تحتكر المعرفة كما تحتكر القيم العالمية . مما يعني ان ثلاثة ارباع الانسانية عليه اليوم أن يلجأ الى كرم أوربا وسماحتها لكي يحصل على حق المشاركة في ثقافة عالمية كان قد أسهم فيها بالقدر الجوهري .

ان الاستعمار محنة لا تغتفر ، ولكنها محنة تصيب المستعمِر اكثر مما تصيب ضحيته . وقد ظنت اوربا ان كل شيء مباح لها اذا كان الانسان الاوربي يجني ثمرته . وهو بالفعل قد جنى ثمرة اعمال قام بها في خلال هذه التجربة . ولكنه قد وقع ضحية لها . فان المرء لا يعتاد الكذب على الآخرين وخديعتهم ، الا اذا كذب على نفسه وخدع نفسه في نهاية الامر . ان مطاردة « الكفار » التي بدأ الصليبيون عهدها أسهمت في اشعال نيران مواقد محاكم التفتيش في قلب أوربا .

العودة الأبدية :

ان الاستخدام المنهجي المنظم للأساليب المنافية للانسانية التي طبقت على

ضحايا الاستعمار قد ادى الى اقامة هذه الاساليب في الأوطان الأم . لقد رفض المسيحيون ان يحبوا « قريبهم » — اي كل من هو غير أوربي — كما يحبون انفسهم ، اتباعاً لوصية المسيح ، وبذلك حرموا انفسهم من هذه المحبة . وقد أيدت الكنيسة الحكم الاستعماري ، مما انتزع من الأب « ليب » صرخته المعروفة : « أيمكن ان يتصور المرء كاهناً بلجيكياً ينظّم للفرنسيين — في فرنسا — كيفية ان يتعلموا الوطنية[1]؟ » وبذلك وقعت الكنيسة تحت تبعية الحكم السياسي الزمني ووحدت بين نفسها وبين الغرب واندمجت به ، وهي اليوم تجد اكبر المشقة في التخلص من هذه التبعية — وهذا الاندماج . لقد تشوّه وجه المسيحية في اعين الخاضعين للاستعمار ، في كل عمل من الأعمال اليومية التي تهمهم ، حتى ضاعت معالمها بالفعل . وأنكرت اوربا الديمقراطية على الأمم « الخاضعة » حقها في الافادة من « الحرية والمساواة » ، حتى ما لبثت أوربا ان وضعت القيود على الحرية والمساواة في بلادها نفسها .

وليس هناك شيء طبيعي اكثر مما حدث بالفعل : ان تسلسل الاحداث والمشروعات الذي لم يكن متوقعاً ، واستخدام اكثر الوسائل مجافاة للانسانية نتيجة لسعي الرجل الاوربي وراء المنفعة ، قد جعله يطفو على مجرى هذه الاحداث في غير هُدى ، بعيداً عن حلمه القديم ، بل على طرفي نقيض من هذا الحلم ، حيث انتهى بأن أنكر نفسه . لقد كان كل شيء يؤذن بهذه النتيجة . ما من احد يستطيع ان يدير عجلة الحكم والسلطان ، دون ان يناله العقاب ، دون ان تحرقه هذه العجلة ان آجلاً أو عاجلاً . وقد اخفق اليوم الرجل الاوروبي في ان يبلغ هدفه ، فهو يحاول ان يأخذ على عاتقه مصيراً مفروضاً لحقه التجمد والذبول . فيا له من تعويض يرثى له ! ومع ذلك فان البعض يذكرون بعض الانجازات التي قامت بها اوربا والتي ينتفع بها الخاضعون للاستعمار كما يذكر البعض حالات معينة يظهر فيها « الاستعماري النموذجي »

---

(١) جاك لوكليرك : « حياة الأب ليب » .

في مقابل انواع التطرف التي يلجأ اليها الاستعمار . ولكن هذه الأعمال الايجابية المنعزلة لم تكن كافية بلا شك لكي تغير من مجرى المشروع الاستعماري العالمي كله الى وجهة مواتية . فلماذا ؟ أساساً لان كل ما يظهر اليوم باعتباره مساهمة انسانية من أوربا — وهو ما يحاول البعض ان يخلعوا عليه اهمية ووضوحاً — لم يكن قط الهدف الاساسي من الاستعمار ، بل كان مبرراً ومسوغاً . لقد اقيمت المدن الحديثة وانشئت الطرق والمستشفيات أولاً لخدمة الاستعماريين . اما الخاضعون للاستعمار فلم ينتفعوا بها انتفاعاً كاملاً الا بعد الاستقلال . اما قبل ذلك فقد كان استخدامهم لها عفوياً وعرضياً . لقد قضى الاستعماريون على الامراض وعالجوا المستعمرين . هذا صحيح . ولكن ألم تكن مصلحتهم تقضي بأن يعنوا بالأيدي العاملة التي يستخدمونها كما تستخدم الماشية !؟. لقد فتح الاستعماريون المدارس وعلّموا المستعمرين . فعلاً . ولكنهم فعلوا ذلك في اغلب الحالات لانهم كانوا يحتاجون الى الكتبة و « الموظفين » المتوسطين لكي يملأوا بهم الوظائف الثانوية في الادارة . وان كان ذلك لم يمنع بعض الناس من ان يوقنوا عن طيبة وخلوص نية بالفضائل « الحضارية » للاستعماريين. وقد حاولوا ان يحدّوا من العيوب والسيئات . هذا صحيح . ولكنهم في النهاية كانوا قلة في العدد ، وثبت أن عجلة البيروقراطية الاستعمارية الساحقة هي الأقوى . هذا الى أن خطأهم كان يكمن في تصورهم انهم يستطيعون ان يجعلوا الحرب انسانية . ومن لغو القول محاولة اضفاء النعومة واللين على ضراوة الاستعمار . وسواء ارادت هذه القلة ام لم ترد ، فقد كانت تنتمي الى عشيرة اصحاب الامتيازات — « ان كل الاوربيين في المستعمرات اصحاب امتيازات »[1] — عشيرة القاهرين . وحيث انهم قد فشلوا في ان يقلبوا القاطرة رأساً على عقب ، او ان يوقفوا آلية القمع الاستعماري ، او ان يعدّلوا منه ، فقد اصبحوا نتيجة للامر الواقع شركاء فيه .

---

(١) البير ميمي : « صورة المستعمر » تسبقها « صورة الاستعماري » .

مستقبل منظور :

ان كل الجهاز الهائل الذي اقامته اوربا وحافظت عليه خلال سنوات طويلة بهدف استغلال ثلاثة ارباع العالم ، يتحول اليوم باطراد الى شكل جديد . وقد اخذ الاوربيون يدركون انهم سوف يصبحون ضحاياه في المستقبل القريب ، على ارجح الاحتمالات . وقد كان عليهم أن يختاروا احد طريقين لا ثالث لهما : طريق الاشتراكية ، أو طريق البيروقراطية التكنوقراطية . ويبدو انهم قد اختاروا الطريق الثاني . وقد تنبأ الكسيس دي توكفيل ، احد رجال القرن التاسع عشر ، بهذا التطور : « أحب ان اتصور المعالم الجديدة التي سوف يتخذها الطغيان في العالم ، انني ارى حشداً لا عداد له من الناس ، متشابهين ومتساوين ، يدورون حول انفسهم بلا راحة ، لكي يحصلوا لانفسهم على متع وملذات صغيرة يملأون بها ارواحهم . وكلٌ منهم ، وقد تنحى بعيداً عن الآخرين ، يبدو كأنما هو غريب عن مصير كل الآخرين ، ان اطفاله واصدقاءه القريبين يشكلون عنده البشرية جمعاء ، أما سائر مواطنيه فهو يقف الى جانبهم ولكنه لا يراهم ، انه يَمَسُّهم ، ولكنه لا يحس بهم ، انه ليس موجوداً الا في ذاته ، ولذاته ، وحده ، فاذا بقيت له بعد ذلك عائلته ، فمن الممكن القول إنه لم يعد له وطن .

« وفوق هؤلاء جميعاً ، يرتفع سلطان حكم هائل يتخذ لنفسه الوصاية عليهم ويأخذ على عاتقه وحده ضمان متعتهم ، ويسهر على مصيرهم . انه حكم مطلق ، مفصَّل ، منظم ، بعيد النظر ، وعذبٌ هين الاحتمال . انه اشبه شيء بالسلطة الأبوية ، لو ان هدفه كان إعداد الرجال لسنِّ الرجولة والنضج . ولكنه على العكس لا يطلب الا ان يثبت الرجال في مرحلة الطفولة ، بشكل نهائي . انه حكم يحب ان يرى المواطنين يتمتعون بملذاتهم على شرط الا يفكروا الا في التمتع بملذاتهم . انه حكم يسعى عن طيب خاطر لكي يوفر لهم السعادة ولكنه يريد ان يكون هو صاحب هذه السعادة وحده ، والحَكَم فيها وحده . انه يحرص على أمنهم ، ويحرص على توفير

حاجاتهم وييسر لهم أمر مسرّاتهم ، ويدير لهم اعمالهم الرئيسية ، ويصرّف صناعتهم ، وينظّم إرثهم ، ويقسم تركاتهم ، انه يوفر عليهم تماماً عناء التفكير ، وعناء الحياة .»[1] ان هذا التصوير الرائع الذي يقوم على تنبؤ صادق يمثل لوحة من اكثر اللوحات دقة وأمانة في وصف الطغيان الحديث الذي ينمو تحت أعيننا . فهذه اذن نهاية الجهد الطويل الذي بذلته اوربا لتحرير الانسان من كل القيود ؟ لقد كان خطأ الانسان الأوربي في انه لم يدرك في الوقت المناسب انه اذ يستعبد الانسان العالمي انما يستعبد نفسه في الوقت ذاته . ونحن اذا انتهينا الى ان الحساب الختامي للاستعمار حساب سلبي مدين ، فليس ذلك أننا نقوم مقام الواعظين الاخلاقيين ، بل اننا نصوغ ملاحظة موضوعية مستنيرة . ذلك أننا لا نعلن افلاس المشروع الاستعماري على اساس احصاء الجرائم التي اقترفها — ذلك يمكن ان يكون موضوعاً لقضية اخرى — بل نعلنه على اساس التدهور الذي أفضى بأوربا اليه . لقد كتب ايمي سيزير في هذا الصدد ، بصدق ، : « ان حضارة أثبتت عجزها عن حل المشاكل التي اثارها قيامها بوظيفتها ، حضارة متدهورة . ان حضارة قد اختارت ان تغمض العينين عن اكثر مشاكلها دقة وحراجة ، هي حضارة مريضة . ان حضارة تخون مبادئها هي حضارة محتضَرة . »[2] .

(١) لالكسيس دي توكفيل : « الديمقراطية في اميركا » .
(٢) مقالة في الاستعمار « ايمي سيزير » .

الفصل الثاني

المظاهر الأولى

١ . من الامبريالية القديمة الى الامبريالية الكلاسيكية

أصل الدولة :

من الممكن ان نضع تسلسلاً زمنياً تقريبياً لظهور الانسانية في التاريخ . ان البِنْية الاساسية – وهي البنية التي اتخذها الانسان الأول فيما قبل التاريخ وفي صدر التاريخ ، وما زلنا نشهدها اليوم كاملة عند بعض الشعوب « البدائية » – هي بنية القرابة العائلية . والعائلة هي مبدأ هذه البنية ، ونواتها الاولية ، والقبيلة هي النمو الترسيبي الاول لها ، والعشيرة هي النمو الترسيبي الثاني لها . ظهر التنظيم الاجتماعي على مستوى القبيلة ثم على مستوى العشيرة .. وكان شكل التوسع الذي اتخذته العشيرة ، (وهي النتيجة الكلية للبنية الاساسية) هو شكل الهجرة ، ثم شكل الغزو بعد ذلك .

والحافز على الهجرة دائما حافز حيوي . تتم الهجرة سعياً وراء موقع مناسب من الارض ، او تربة خصيبة يتاح فيها يسرٌ من العيش ، أو يتاح فيها على الاقل البقاء على قيد الحياة . وعندما تتخذ العشيرة شكل الثبات ، فانما ذلك لانها قد وجدت الظروف الضرورية لبقائها . ويبقى بعد ذلك ان تنظم حياتها اليومية على نحو يتيح لها ان تفيد من ذلك الى اقصى حد ممكن .

وفي هذا المستوى فليس من المتصوّر ظهور تقسيم للعمل : فالرجال والنساء يقومون بقنص الحيوانات وصيد الاسماك وزراعة الارض وبناء

المأوى وصناعة الادوات الضرورية الاولية ، معاً . ويبدأ تعديل البنية الاساسية عندما يظهر من الضروري ان يُعهد باعمال مختلفة الى الرجال والنساء . وفي المرحلة التالية عندما تقتضي طبيعة الاشياء ان تقوم جماعة من الرجال بالبناء ، وتقوم جماعة أخرى بالقنص ، وثالثة بالزراعة ، فتظهر الحرف المختلفة ، عندئذ تنفجر البنية الاساسية وتتمزق وتختفي وتحل محلها بنية جديدة ، هي بنية الطبقات الاجتماعية .

تقوم هذه البنية الجديدة ، أساساً ، على علاقات انتاج يترتب عليها « تقسيم المجتمع الى مديرين ومنفذين »[1] . وتتحول العشيرة الى جماعة اجتماعية اكثر تعقيداً وافضل تشكيلا ، حيث يحل تعليم الحرفة باطراد محل طقوس « اللقانة البدائية » . تلك هي المرحلة التي وصلت اليها مصر في عصر ما قبل الاسرات . وسرعان ما تظهر جماعة او جماعات أكثر تقدماً ، وارقى تنظيماً ، في مجال جغرافي محدد ، وتحس بضرورة القيام باعمال كبرى لا غنى عنها لنموّها . فهي توحّد جهودها لذلك الغرض ، وتضع تسلسلاً هرمياً اكثر تفصيلا لنظامها الاجتماعي ، وتستخدم جماعات أخرى مجاورة أو تمتّ لها بصلة القرابة ، اقل تقدماً منها ، سواء كان ذلك بالقوة او بالاغراء ، لكي تنضم معها في تآلف واحد . وهكذا ظهر في نحو ٢٨٥٠ قبل الميلاد « منيس — نومر » فرعون الأسرة الطينية[2] » الاولى (وهي اولى الاسرات الحاكمة المعروفة في التاريخ) فوحّد مصر من وادي النيل الى الدلتا .

وقد أتاح هذا التوحيد القيام بأعمال كبرى في الري والصرف لمياه النيل ، وقامت بتصريف هذه الاعمال ادارة كبيرة العدد ما لبثت ان تحولت الى بيروقراطية . وهكذا ولدت الدولة المصرية . واصبحت اول دولة في التاريخ . وسار تدعيم الحكم منذ تلك اللحظة جنباً الى جنب مع التقسيم المتزايد للعمل .

---

(١) جورج لاباساد : « الدخول الى الحياة » .

(٢) نسبة الى مدينة « طينة » بالقرب من مدينة جرجا الحالية في مصر العليا (المترجم)

ولكن التخصص لم يتغلغل فحسب الى الوظائف الاقتصادية اذ اننا نرى هيردوت يقول : «كان فن الطب عند المصريين مقسماً بحيث ان الطبيب لا يعالج الا نوعاً واحداً بعينه من المرض ولا يعالج أنواعاً متعددة . وهكذا كَثُرَ الاطباء في كل النواحي : هناك اطباء للعيون ، وللرأس وللاسنان ، وللبطن ، واطباء آخرون لامراض لا تظهر واضحة لاول وهلة »[1] . لقد كان إضفاء خصائص البيروقراطية المفرطة على الدولة المصرية يتضمن في النهاية ان يحل تقسيم المجتمع الى سادة مسيطرين ، وجماعات خاضعة للسيطرة ، محل التقسيم القديم للمجتمع الى مديرين ومنفّذين .

الامبرياليات الاولى :

لكي تولد الامبريالية ينبغي ان تتوفر لها التربة الصالحة : أي وجود الدولة من قبل ، فليست الامبريالية فقط هي «طريقة التفكير والعمل التي يتخذها شعب يزعم لنفسه حق إلحاق الشعوب الاخرى بتبعيته »[2] . فان هذا التناول لظاهرة الامبريالية تناول جزئي وغير دقيق في نهاية الامر . وأفضل عليه التعريف القائل بأن الامبريالية توجد بوجود « دولة تسعى الى امتصاص دول اخرى او الامتداد على اقاليم غير منظمة »[3] . وهو تعريف يتضمّن تعريف الاستعمار ، ولكنه تعريف ناقص . وسوف نرى ان الامبرياليات الاولى لا تتوفر فيهـا بعد كل شروط الاستعمار ، وأن التجارب المتميزة للاستعمار لا تتقاطع بالضرورة مع كل الاشكال الكلاسيكية للامبريالية .

وفي نحو عام ٢٤٧٢ قبل الميلاد ، بينما كانت الاسرة الخامسة تحكم في مصر ، أسس ميس – آني – بادا الاسرة الأورية الاولى في صومر . فيبدو اذن ان اور كانت هي الدولة الاولى التي تأسست فيما بين الرافدين . ولكن

---

(١) جورج فريدمان : « تفتيت العمل » .
(٢) ج – كاركوبينو : « وجهات نظر في الامبريالية الرومانية » .
(٣) ج – ر . بالانك « الامبرياليات القديمة » .

اسرة اور الاولى قلبت على يدي ايانا توم ، من لاجاش . واستمرت سيادة لاجاش نحو ٤٠ سنة حتّى استولى عليها لوجالزاليسي ملك أوروك الذي أسّس ، في خلال خمسة وعشرين عاما ، ومن الخليج الفارسي الى البحر الابيض المتوسط ، الامبراطورية الصومرية ، اولى الامبراطوريات الشرقية . ومع أن مصر كانت اول دولة منظمة في العالم فان الامبراطورية الاولى قد ظهرت فيما بين الرافدين . فكيف نفسر هذه الظاهرة ؟ لا شك ان التفسير يرجع الى الظروف الجغرافية الخاصة . فان مصر ، بقيت منعزلة في وادي النيل ، ونمت وتطورت فترة طويلة من الزمن وهي مغلقة على نفسها قبل ان تغامر خارج حدودها الطبيعية وتواجه الدول الاخرى . وعلى العكس من ذلك ، فيما بين الرافدين ، نظمت دول عديدة نفسها في وقت مبكر جداً وسرعان ما اصطدمت ببعضها البعض اصطداماً عنيفاً . وكان يكفي ان تتغلب احداها حتّى تنشأ العملية التّي تتولد عنها الامبريالية .

وما كاد لوجالزاجيسي يُتّم توحيد الامبراطورية الصومرية حتّى كان سرجون القديم الذي أسس الاسرة السامية في « أكاد » في سنة ٢٢٣٦ قد قلب حكم لوجالزاجيسي . لم يكن سرجون « ساروكين » امبريالياً بقدر ما كان قائداً عسكرياً موفقاً . وقد وضع الخطوط الاولى ، بانتصاراته العسكرية ، لامبراطورية امتدت الى بلاد صومر ، وايلام ، وسوريا ، حتّى «كابادوشي » . ولكنه لم ينجح في توحيد هذه الاقاليم المختلفة توحيداً نهائياً . واضطر خلفه ان يتخلوا عن تركتهم ، بعد أن اكتسحهم غزو قبائل جوتي ولولوبي الجبلية من سلالات زاجروس ، وفاجأتهم ثورة رعاياهم . واستؤنف الصراع من أجل السيادة بين دول صومر الرئيسية الثلاثة : اور ، واوروك ، ولاجاش ، التّي ساهمت كل منها ، من ناحية اخرى ، في صد قبائل جوتي القادمة مما بين الرافدين . وكان شولجي عاهل اور ، حيث كان أور نامو قد اسس الاسرة الثالثة في سنة ٢٢٣٨ ، هو الذي اسس الامبراطورية

الصومرية الجديدة بانتصاره على اوروك ولاجاش . ولكن هذه الامبراطورية ظلت هشّة متداعية . وحل الصراع بين الساميين (الذين كانوا يتغلّبون بأكثريتهم العددية في كل مكان) وبين الصومريين ، محل الصراع بين الدول ، بينما كان العموريون الذين كانوا قد أسسوا مدينة باب ــ إيلو (باب الله) على الفرات ، يمارسون ضغطاً قوياً على الحدود .

وعجّل العموريون ، وهم ساميون يعود اصلهم الى بلاد عمورة (سوريا العليا) ، بسقوط الاسرة الثالثة باستيلائهم على أور . لقد انقضت حياة الامبراطورية الصومرية وحلت محلها الامبراطورية البابلية ، ولكن العموريين لم يفرضوا سيطرتهم على ما بين الرافدين تماماً الا بعد مرور قرن كامل . كان حمورابي ابرز ملوك الاسرة العمورية هو الذي أتم فتح بلاد صومر وأكاد التي تكونت منها ، مع أشور وعمورة ، الاقاليم الرئيسية للامبراطورية الجديدة . وكان حمورابي فضلا عن ذلك ، رجل ادارة عظيماً ومشرّعاً جسوراً يمثل « القانون »[1] الذي وضعه أحد المعالم الكبرى في تاريخ القانون . وجعلت منه هذه الخصائص واحداً من الامبرياليين الأُول الواعين بدورهم . وتحت حكمه أصبحت اللغة الاكادية لغة دولية في آسيا الغربية ، وحلت محل الصومرية وان كانت ظلت تنقل مع ذلك نتاج الثقافة الصومرية . وثبت أن الامبريالية البابلية كانت قد تقبلت وتمثلت القيم الحضارية التي انتجتها الحضارات التي ضمتها اليها هذه الامبريالية ، وتغلغلت فيها هذه القيم تغلغلا عميقاً . لقد كانت امبريالية ليبرالية اتاحت التبادل الحر للتيارات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي استفادت منها الشعوب المختلفة في الامبراطورية .

وبينما كانت الامبراطوريات الاولى في التاريخ تتشكل ، ظهرت دول وحضارات أخرى حول البحر المتوسط وفي الشرق الاقصى ، ولن يتاح لنا الفراغ لدراسة تطوراتها جميعاً ، لسوء الحظ . واتفق ظهور الحضارة المينوية ،

Code (١)

في كريت ، مع تأسيس الاسرة الصومرية الاولى في أور . ولكنها لم تشرع في اقامة الاعمال الكبرى ، وبناء « القصور الاولى » الا في ١٩٥٠ قبل الميلاد . وعلى عهد الاسرة الخامسة المصرية في نحو ٢٣٠٠ ازدهرت حضارات هارابا وموهنجو ــ دارو في الهند التي عرفت عصرها الذهبي في ذلك الحين . وبعد مائة عام ، وبينما كان سرجون القديم يعيد بناء امبراطورية على غرار الامبراطورية الصومرية التي انشأها لوجالزاجيسي بعد ان طوّح به ، كان يو الكبير يبسط سيطرته على وادي هوانج ــ هو ، ويؤسس أسرة هيا . وكان هذا الحدث الذي يقع في حوالي ٢٢٠٠ حدثاً ملحوظاً لانه كان مقدمة لتاريخ الصين الذي يتخذ سمته الحاسمة من الصراع بين اسرة تسين واسرة هان . ومع ذلك فان التاريخ الذي يتصف باعظم دلالة هو عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وهو التاريخ الذي استقر فيه الاندواوروبيون (وقد ظهروا في الشرق في نحو نهاية الالف الثالثة قبل الميلاد) في ايران ، واستقر فيه الهيلينيون الاول في اليونان ، والحثيون في الاناضول ــ وسوف يستولي هؤلاء ، وهم فرع من العائلة الاندوأوروبية ، على بابل ويضعون حدا للامبراطورية العمورية .

سيطرة أبي الهول :

لم تكن الاسرات المصرية الاولى ، كما قلنا ، امبريالية ، لانها لم تفكر في التوسع ، واكتفى ملوكها ، بما لهم من سلطان مطلق ، بالحكم في الاقاليم التي يرويها النيل ، سواء كانوا من ملوك المملكة الاقطاعية في مصر العليا أو المملكة المركزية في الدلتا (حتى بعد التوحيد الذي قام به ملوك الجنوب في نحو القرن الثلاثين) . ولكن ظهور الاندواوروبيين الاوائل في مصر أرغم الفراعنة على الخروج من عزلتهم ، فبينما كان الحثيون يهاجمون الامبراطورية البابلية اكتسح الهكسوس ، وهم فرع آخر من فروع العائلة الاندواوروبية ، سهول كنعان وانقضّوا على مصر . وسرعان ما امتدت امبراطوريتهم من

الفرات الاعلى الى النيل . ولكن سلطان اسرات الهكسوس لم يمتد قط بصفة متصلة فيما يتجاوز الدلتا ؛ مما اتاح لأمراء طيبه الذين احتفظوا باستقلالهم أن يعيدوا توحيد مصر في القرن السادس عشر . وطرد أحمس الاول مؤسس الاسرة الثامنة عشرة الهكسوس من مصر وانطلق ليفتح النوبة التي كان فراعنة الاسرة الثانية عشرة قد ضموها الى مصر لاول مرة . وكان تحتمس الثالث اشهر ملوك الاسرة الثامنة عشرة هو بحق اول فرعون امبريالي . ولم يكن الموقف عند ارتقائه العرش مشرقاً على الاطلاق : كان ملوك كنعان ، وفينيقيا ، وسوريا ، وهم اولياء او حلفاء ملك ميتاني ، وارث ما بقي من امبراطورية الهكسوس ، يهددون مصر تهديداً مباشراً . فكان ذلك على وجه الدقة هو الخطر القريب الذي جعل تحتمس الثالث يعتزم القيام بعمل حاسم . وللمرة الاولى عبر جيشه حدود مصر وذهب الى سوريا وانتصر على الامراء المؤتلفين في ١٤ مايو ١٤٨٣ أمام قلعة مجدو . وبعد هذه المعركة بسط تحتمس الثالث سيطرته على سورية جميعاً ، وعلى جزيرة قبرص ، ولم يفته ان يدعم انتصاراته وان يقوم بجولة تفتيشية بنفسه كل عام في مناطق امبراطوريته .

كان هذا التحول الحاسم في التاريخ المصري سبباً لتغير أساسيّ في سياستها : فبعد ان كانت انعزالية اصبحت امبريالية عن عزم وتصميم . ولكن هذه الامبريالية تأقلمت مع الظروف الخاصة في كل منطقة مغلوبة على امرها . ففي النوبة حيث كان السكان من السود والبيض يُعتبرون متأخرين ، كان نواب الملك ، يقومون بادارة البلاد مباشرة باعتبارها اقليماً تابعاً ، وكان نواب الملك من الامراء اهل البلاد الاصليين الذين اخذوا على عاتقهم ضمان طاعة سكان البلاد ، واستغلال مناجم الذهب وجباية الضرائب العينية . وبالاضافة الى ذلك انتهجت مصر سياسة تهدف الى تمثيل البلاد وتمصير الشعب النوبي . واذن فيبدو ان جميع المعالم الغالبة للاستعمار قد اجتمعت هنا ، ومع ذلك فان النوبة لم تكن « مستعمرة » لمصر . بل كانت اقليماً « محتلا » أو

ملحقاً ، كما كانت الالزاس واللورين اقاليم ملحقة قد اضفى عليها الطابع الالماني ، ولم تكن مستعمرات لبروسيا .

وعلى العكس من ذلك اكتفى الفراعنة في آسيا باقامة محميات . فقد تركوا الامارات والجمهوريات في آسيا باقية كما هي ، كما تركوا الادارات المحلية قائمة ، ولكنهم كانوا يطلبون في مقابل ذلك دفع الجزية ووجود ابناء الملوك في مصر حيث كانوا يتلقنون نظريات وأساليب الحكم الفرعوني . واظهر الفراعنة أنهم ليبراليون نسبيا ومسالمون في علاقاتهم بمحمياتهم والاقاليم التي يحكمونها ، وان كان ذلك في الحدود التي تسهم فيها هذه الليبرالية وهذه السياسة السلمية في كفالة نمو توسعهم الاقتصادي . وظلت اللغة البابلية هي لغة الاعمال والدبلوماسية حتى في سورية المصرية . وكان قانون حمورابي يطبق في كل مكان من آسيا . بل ذهب بعض الفراعنة الى ابعد من ذلك ، فقد تزوج تحتمس الرابع وامينوفيس الثالث وامينفيس الرابع من اميرات ميتانيات. وانتهى الامر بالملوك المصريين الى ان يتخلوا عن اقاليم من امبراطوريتهم الى ممالك مجاورة ، مما كان ، كما يقول جاك بيرن : « تصوراً جديداً » . فلم يتخل الفراعنة ، صراحة ، عن النظرية الملكية التي كانت تعطيهم السيادة العالمية ، ولكنهم اتخذوا بالفعل طريق الاعتراف بدول ذات سيادة ومتساوية في الحقوق » [1].

وكان امينوفيس الرابع الذي اشرنا اليه (وهو آري الأم ، وجدّته ساميّة ، وقد تزوج من ميتانية) هو الذي اتخذ هذا الطريق حتى نهايته المنطقية . فقد اسهم عن وعي في تغلغل التأثيرات الاجنبية ، وأحل عقيدة آتون ، الاله الشمس (ولكنه الاله الواحد) محل العقائد التقليدية . وكانت هذه العقيدة الجديدة عقيدة روحية بحتة منبثقة عن تصورات سامية لا محل فيها للاساطير على الاطلاق . واستبدل امينوفيس الرابع اسمه فأصبح اخناتون ، وعرض

---

(١) التيارات الكبرى في التاريخ العالمي : « جاك بيرن » .

عقيدته الجديدة على الناس جميعا دون تفرقة في الجنس ولا في القومية . ولم يعد الاجانب يعتبرون غرباء بل ابناء لاله واحد، ومن ثم فقد سمح لهم بتولي مهام الادارة واعمال القصر . وحُظرت الحرب : فقد كان يؤمن بسيادة السلام . تخلى اخناتون عن الامبريالية الحربية أو الدبلوماسية . واختار طريق الأممية السلمية . ولكن هذه السياسة الثورية لم تعش طويلا ولم تستغرق الا فترة حكم اخناتون . وبعد ان مات بادر خلفه باعادة العقائد القديمة وحكم الامبريالية .

ومع ذلك فان الليبرالية الواضحة في الحكم الفرعوني حققت الغاية منها . فقد كانت اكبر عون على انتهاج السياسة التجارية التي تكفل لمصر السيادة والمنفعة .

كان الميزان التجاري لمصر في صالحها الى حد كبير نتيجة لما كانت تصدره من منتجات زراعية وصناعية بكميات كبيرة . لقد كانت مصر الفرعونية ارهاصاً ، الى حد معين ، بالكومنولث البريطاني .

امبراطورية الرجل المدجج بالسلاح [1] :

لقد رأينا الحثيين (وهم من اصل إندوأوروبي) يستولون على بابل ويحطمون الامبراطورية العمورية . وهم قد أسسوا بدورهم امبراطورية تمتد من البحر الاسود الى لبنان الحالي تقريبا . وارغم مؤسس هذه الامبراطورية شوبيلوليوما (١٣٨٥ الى ١٣٥٠ قبل الميلاد) . كل امراء آسيا الصغرى وسوريا (حتى بيبلوس ، وصور) ان يقسموا له قسم الولاء والتبعية . وكانت الامبراطورية فيدرالية تجمع بين نحو عشرة ممالك تعترف جميعها بالسيطرة الحثية وتدفع الجزية . وبلغت ذروتها على الفور ، ولكن ابناء شوبيلوليوما اضطروا الى القتال على جبهتين للدفاع عن سلامة الامبراطورية : ضد

---

(٢) الرجل المدجج بالسلاح : تعبير استعرناه من أرنولد توينبي في كتابه « الحرب والحضارة».

المقاتلين الاشوريين والآكيين الذين كانوا يناوشونهم من ناحية ، وضد الامبريالية المصرية في الاسرة التاسعة عشرة من ناحية اخرى . ومع ذلك فان النضال المستميت الذي شنته الامبراطوريتان ادى الى نتيجة غريبة هي التقريب بينهما . ولا شك أنهما آثرا التفاهم اذ لم تستطع احداهما ان تتغلب على الأخرى غلبة نهائية . ووضع المصريون والحثيون حداً للقتال ، بمقتضى معاهدة ١٢٧٨ ، وتحالفوا ، وتقاسموا سوريا ، كما تقاسموا السيطرة على الشرق . ولكن الامبراطورية الحثية سقطت في نهاية القرن الثالث عشر تحت الهجمات المتكررة والمتآلفة من الاشوريين والاكيين .

لقد كان من نتائج غزو الشعوب الإاندوأوروبية تفكك الامبراطوريات التقليدية الاولى في آسيا الصغرى . هاجم الحثيون والهكسوس الدول التي سبقتهم في الوجود ، وبذلك حرروا عن غير قصد الشعوب التابعة التي شكلت نفسها بدورها على شكل دول واسست امبراطوريات جديدة . وذلك على الأخص ما حدث بالنسبة للآشوريين الذين اطاحوا بالامبراطورية الحثية . وقد تسمى الاشوريون بأسم الههم «آشور» وهو في الوقت نفسه اسم العاصمة واسم البلاد . وهم – فيما يفترض على الاقل – من سلالة قوم من الاقوام الجبلية القاطنة في آسيا الصغرى والمتأثرة بالساميين ، وقد استقروا منذ عهد بعيد على الشاطىء الأيسر لدجلة العليا (غير بعيد من العراق الحالي) .

وكان اول ملك توسعي لهم هو سلمنصار الاول الذي استولى على ميتاني من الحثيين في نحو ١٢٦٩ قبل الميلاد . واستمر التوسع في عهد تجلاتبليسر الاول (١٢١٢ – ١١٧٤) وآدادنيراري الثاني (٩١٠ – ٨٩٠) الذي اخضع الآراميين في سوريا . وقام خلفاؤهم بالقضاء على الدولة الحثية نهائيا ، وسحق الحلف بين ملوك دمشق وحماه ، وأرواد ، وبيبلوس ، واسرائيل ، ووضع ملك بابل تحت حمايتهم . وقام تجلاتفلاسر الثالث (٧٤٥ – ٧٢٧) بخلع آخر ملوك بابل وسمى نفسه بدوره «ملك صومر وأكاد ، وملك

المناطق الاربعة » . كما حطم بالاضافة الى ذلك مملكة دمشق ، وكذلك مملكة اسرائيل . وجاء أسارهادون (٦٨١ – ٦٦٩) فهاجم الفرعون تاهاركا . الذي فرّ الى طيبة وتخلى عن الدلتا الى الاشوريين . وجاء آشوربانيبال بعده ففتح مصر كلها ودمر طيبة ووضع حداً لحكم الفراعنة بصفة مؤقتة .

وبعد ان انتهت الفتوحات ، وحدت الدولة الاشورية تحت سلطانها كل الشرق المتحضر لفترة ثلاثة قرون ، من وادي النيل الاعلى الى جبال ميديا ، ومن الخليج الفارسي الى جزيرة قبرص وحتى ليديا . واعاد سنحريب بناء مدينة نينوى التي اصبحت مقراً للملك في القرن السابع . واختار الملوك الاشوريون الثور المجنّح رمزاً على امبرياليتهم المخرّبة ، كما اختار الجيرمان رمز النسر المبسوط الجناحين فيما بعد . وعلى عكس الامبريالية الفرعونية القائمة على الليبرالية الاقتصادية وعلى الدبلوماسية السلمية ، كانت الامبريالية الاشورية تعبر عن نفسها بالحرب والتدمير . فلم تنجح في تمثّل المغلوبين على امرهم وامتصاصهم، وحاولت ان تقضي عليهم قضاء جسمانيا : كانت اسلحتها المفضلة الابادة الجماعية والتخريب الشامل . (كانت مصر قد حكمت آسيا حكماً هيّناً ، بعيداً ، دون اهتمام كبير ، ولكن الاشوريين ارادوا ان يحطموا الاجساد بالضرب المبرح ، وان يروضوا العقول بالارهاب . كان العالم الشرقي وقد وقع في قبضة الفزع ، وتمزق ، واخذ ينزف دما يحقد على قاهريه حقداً لا برء منه » [1].

كانت الامبريالية الأشورية ، بأساليبها ، ارهاصاً بالاستعمار في بعض جوانبه ، ولكنها لا يمكن ان تقارن به من حيث الاساس . لم تكن الدولة الاشورية « تستعمر » بل كانت توحد سياسياً ، وتغفل اقامة وحدة اقتصادية متماسكة : « كانت تترك في اسواق امبراطوريتها القارية فتاتا متناثراً من المدن البحرية والمستعمرات الفينيقية والهيلينية التي اقيمت في هذه الفترة على

(١) أ ـ موريه : تاريخ الشرق .

طول البحر الابيض المتوسط . كانت دولة حربية ، فلم يكن لديها ما تتقدم به من قيم حضارية . وكانت أبعد ما تكون من أن تحس بزراية ما او تبدي احتقاراً للشعوب التي أخضعتها — وذلك من القسمات البارزة للاستعمار — بل على العكس أخذت بأبنية الفكر وأشكال الفن التي اقامها الحيثيون والبابليون. كانت « الحضارة » الاشورية حضارة مستعارة من اولها الى آخرها .

وقضي على الدولة الاشورية نتيجة لفرط توسعها ، وعنفها ، والكراهية التي كانت تكنّها لها الشعوب الخاضعة . ان الاشوريين يظهرون في التاريخ باعتبارهم الممثلين الاول للنزعة العسكرية ، وقد كان تجلاتفلاسر الثالث ، في الواقع ، هو الذي خلق الجيش المحترف الدائم ، فلم يكن مثل هذا الجيش ، باعتباره مؤسسة ، معروفاً في ذلك الحين . واذا صح ما يؤكده أرنولد توينبي من ان « اقامة جيش محترف دائم يجب ان يعتبر عرَضاً من اعراض حالة متقدمة من حالات التفكك الاجتماعي »[1]، فيصح لنا ان نرى في ذلك سبباً من اسباب تحلل الامبراطورية الاشورية . كانت الثورات التي تقوم بها الشعوب التابعة على فترات متعاقبة ، مطردة التعاقب ، تسحق دائماً بلا رحمة وبقسوة مطردة ، ولكن هذه الانتصارات المتكررة كانت انتصارات زائفة تنهك الشعب المنتصر . وبالاضافة الى ذلك فان : « التطرف المتزايد في التوتر العسكري كان ثمنه قيام ثورات الفلاحين التي اخذت تنشب في فترات متقاربة »[2] . واخيراً قام حلف بين الميديين وملك بابل (نابوبولاسر) مما ادى الى التغلب على الامبراطورية الاشورية ، وأحرقت نينوى وذهبت طعمة للنيران ثم سويت بالارض في ٦١٢ قبل الميلاد .

---

(١) ارنولد ـ ج . توينبي : « الحرب والحضارة » .
(٢) نفس المصدر السابق .

ويعلّق توينبي على هذا الانهيار الذي كان في الواقع امراً متوقعاً ومنتظراً فيقول: «إنه بعد قرنين من الزمن من سقوط آشور ظهر بوضوح ان العسكريين الاشوريين قد قاموا بعملهم لصالح شعوب آخرى، وعلى الاخص لصالح اولئك الذين عاملوهم بأكبر قدر من القسوة. انهم اذ سحقوا الشعوب الجبلية في زاجروس وطوروس قد فتحوا السبيل امام الرعاة السيميريين وشقوا امامهم السبيل لكي ينقضّوا على العالم البابلي والسوري، وهم اذ رحّلوا الشعوب المغلوبة من سوريا الى الطرف الآخر من امبراطوريتهم، قد مكّنوا المجتمع السوري من أن يحاصر المجتمع البابلي ويحيط به ويتمثله في النهاية — هذا المجتمع البابلي الذي كان ينتمي اليه الاشوريين انفسهم — وهم اذ فرضوا الوحدة السياسية، بالقوة الغاشمة في قلب جنوب شرقي آسيا، قد مهدوا الارض لظهور «الدول التي سوف تخلفهم» — ميديا، بابل، مصر، وليديا — ولظهور الوارث المشترك لها جميعاً: الامبراطورية الاشيمينية» [1].

السيادة الاشيمينية:

جاءت بين سقوط الامبراطورية الاشورية وقيام الامبراطورية الاشمينية فترة من الزمن أتاحت للامبراطورية البابلية الجديدة ان تظهر. لقد رأينا بابل تسهم في القضاء على نينوى. واستفادت بابل من هذه الفرصة لكي تدعم مركزها. والواقع أن نبوختنصر، وان كان قد ورث الاشوريين في الحرب — فليس هناك من يجهل قسوته على مملكة يهوذا الصغيرة — هو تلميذ الفراعنة في السلم ورائد الامبريالية الفارسية. وكانت الاسباب التي دعته الى التوسع اسباب تجارية. فاذا كان يشن الحرب فذلك اساساً للمحافظة على الاسواق البعيدة والسيطرة على الطرق التي تؤدي اليها. «ان ملكية طرق التجارة القارية التي تربط بين سوريا والبحر الاحمر، والقوقاز، والخليج

(١) ارنولد توينبي: «الحرب والحضارة».

الفارسي ، قد فرضت على بابل ضرورة ان تكون دولة عسكرية . وكان لزاماً على بابل – لكي تكفل الامن وحرية التجارة لقوافلها – ان تحافظ على توزيع اقاليم آسيا كما هي . ومن ثم فقد كان لزاماً عليها ان تتبع سياسة اقليمية ، لا بغرض اقامة امبريالية سياسية ، بل لكفالة توسعها الاقتصادي »[1] .

وبظهور سيروز الفارسي ، سليل الشيمينيين ، بدأت السيطرة البابلية الجديدة في التدهور . واخذت تتشكل امبراطورية جديدة : الامبراطورية الفارسية أو الاشيمينية . انتصر سيروز على مولاه استياج ، في اكباتان ، وسمى نفسه « ملك الميديين والفرس » ، وهزم كريزوس ، ملك ليديا الذي كان قد أيّد استياج . ثم قام بعد ذلك بحملة على الهند حيث اسس كيرو بوليس على ضفاف نهر ياكسارتي (وهو نهر سيرداريا الحالي) . ثم عاد كالصاعقة فضرب بابل ودخلها في ٥٣٩ قبل الميلاد واستولى على المملكة البابلية .

وجاء خلف سيروز ، وهو قمبيز ، فأخضع مصر كلها واخذ لنفسه تركة الفراعنة . ثم جاء داريوس بدوره فعبر مضيق الدردنيل الحالي وقاتل السينيين ، وهم فيما يفترض اسلاف السلافيين ، فيما وراء الدانوب ، وعلى ضفاف نهر الدينستر كما يقول سترابون أو على ضفاف نهر الدون نفسه كما يقول هيرودوت . وتمرد اليونانيون الذين كانوا في جيش داريوس والذين ينتمون الى المستعمرات الواقعة على الساحل الآسيوي من بحر ايجه ، فقد خابت آمالهم في نتائج الحملة ، اذ كانوا ينتوون ان يستعمروا بدورهم المناطق الواقعة على ساحل البحر الاسود . وقمع داريوس الثورة بصرامة وفي ٤٩٤ سحق ميليه وسواها بالارض ، وقد كانت ابرز المستعمرات اليونانية واعظمها ازدهاراً . ولهذا الحدث دلالته ، فانه يدل ، للمرة الاولى منذ انفصال العالم الهيليني عن العالم الشرقي ، على استئناف العلاقة بينهما ،

(١) جاك بيرن : « التيارات الكبرى في التاريخ العالمي » .

وعلى التناقض في الطبيعة وفي الاتجاه بين الامبريالية القارية وبين الاستعمار .

كان داريوس اول من هاجم المدن الهيلينية ، من الارض . وقد انهزم في ماراتون . وحاول اكسارسس بدوره ان يقوم بحملة مماثلة على رأس جيش هائل . فسحق حفنة من الاسبرطيين في ثيرموبيلس ، واحتل اثينا . ولكن هذا النصر محاه تدمير الاسطول الفارسي في سالامين . واضطر اكسارسس الى التقهقر . وبعد هزيمتين جديدتين احداهما ارضاً في بلاتيه والاخرى بحراً في ميساليس ، اضطر الفرس الى التخلي نهائياً عن سيطرتهم العسكرية على مدن هيلاد .

ومع ذلك فقد حاول آرتاكسيرسيس الثاني ان يحصل بالدبلوماسية على ما اخفق اسلافه في الحصول عليه بالحرب . فاستغل روح الفردية والاهتمامات الخاصة للمدن اليونانية ، وبذل جهده في ان يثير بعضها على البعض وان يفرض عليها استقلالاً ذاتياً مصطنعاً بهدف الحيلولة الى الابد دون تجمعها . بل أضاف الى ذلك انه جنّد من هذه المدن عدداً كبيراً من المرتزقة ضمهم الى جيشه مما كان من شأنه أن يؤدي ، في ظنه ، الى اضعاف تحالف مسلح يحتمل ان يقوم بينهما .

واذن فقد كان يسعى الى تفتيت اليونان الاوروبية تفتيتاً سياسياً بغرض الحيلولة دون نشأة امبريالية قد تكون القاضية عليه . وهي السياسة التي يطبقها الاستعمار الجديد اليوم عن طريق « بلقنة » أفريقيا للوصول الى نفس النتيجة . وعلى الرغم من الثورات المتفرقة هنا وهناك فقد بدا الان أن الامبراطورية ، تحت حكم آرتاكسيرسيس الثالث ، قد استعادت كل قوتها . ولكن خلفه « الشيمينيد » اختفى في ثورة من ثورات القصر وشهد آخر ملك من ملوك الاسرة انهيار الامبراطورية أمام زحف امبريالية جديدة لم يستطع ارتاكيرسيس الثالث ان يحول دون ظهورها : الامبراطورية المقدونية التي اقامها الاسكندر ابن فيليب ، موحد المدن اليونانية .

لم تكن الامبريالية الأشيمينية تشبه الامبريالية الشمولية المدمرة الّتي أقامها الاشوريون ولا الامبريالية الفرعونية القائمة على تمثل الشعوب . كانت بلا شك امبريالية مركزية وان كانت تخفف منها ليبرالية مستمرة ثابتة . ولا جدال في الصفة الاطلاقية للمملكة الفارسية ، حيث ألغيت فيها كل الممالك التابعة . كان ملك الفرس والميديين هو « الملك الاكبر » أو « الباسيليوس » كما يسميه اليونان . ولكنه كان ، في كل منطقة من مناطق امبراطوريته ، في مصر من آمون رع ، وفقاً لقوانين البلاد : فهو يكتسب هذه الامتيازات في مصر من آمون رع ، وفي بابل من ماردوك . وكان ، من اعماق قصره ، في سوس أو بيرسيبوليس ، يحكم العالم الشرقي **مباشرة** بواسطة حكام للاقاليم ، يفرضون الجزية ويقيمون العدالة **بأسمه** . ونجحت هذه الحكومة المركزية في فرض توحيد نقدي (كانت النقود قد اخترعت منذ القليل في ليديا) كما نجحت في فرض توحيد الموازين والمقاييس وفقاً لما كان مأخوذاً به في بابل ، وفي فرض التوحيد اللغوي (فقد اتخذت اللغة الأرامية ، لغة التجارة والاعمال ، باعتبارها اللغة الادارية للامبراطورية) . «كان تنظيم البريد الرسمي يكفل انتقال اوامر الحكومة بسرعة كما كان تبادل السلع يغذي تجارة نشطة » [1]

ولكن المركزية والتوحيد لم تكن حائلاً على الاطلاق دون سيادة الحرية ، على الصعيد السياسي والثقافي . فقد كانت المؤسسات المحلية ، والتقاليد الاثنوجرافية (الّتي كانت تتبعها الاجناس المختلفة) والاخلاق والاعراف الشعبية ، موضع الاحترام . كان سيروز قد ظهر باعتباره « المحرر » امام اعين الشعوب الّتي قمعتها بابل . ألم يسمح لليهود الذين رحلهم نبوختنصر بالعودة الى اورشليم واعادة بناء الهيكل ؟ ان « الملك الاكبر » لم يجعل نفسه بابلياً فيما بين الرافدين ، وفرعونياً لمصر ، فحسب ، بل دعا الى مجلسه

---

(١) ج . ر . بلانك : الامبرياليات القديمة .

ممثلين عن كل الشعوب الخاضعة في امبراطوريته . وبالفعل كان من اعضاء المجلس ، جنباً الى جنب مع الفارسيين ، بابليون ، ويهود ، ومصريون ، ويونان .

لم تكن هذه الليبرالية تمليها الاعتبارات الاقتصادية فقط ، كما كانت الحال عند الفراعنة . بل كانت ، كذلك ، تعبيراً عن المذهب الرسمي الذي تغذوه ، بدوره ، مبادىء وتعليمات الديانة المزدوكية التي طهرها زارادوشت في القرن السابع والتي كانت تدعو الى النزاهة والاستقامة ، فقد كان أهورا ماسدا اله الخير الخلقي وعدو الكذب والظلم . فها نحن نرى اذن ان الامبريالية الاشيمينية كانت اقل الامبرياليات تشابهاً مع الاستعمار . ومع ذلك فانها قد سقطت لنفس الاسباب التي سقطت بها الامبرياليات الاخرى . كان توسعها نفسه يدعوها الى مواجهة دول اخرى في طريقها الى النضوج ، واخضاعها ، مما يتولد عنه ظهور امبرياليات جديدة تنبىء كل الشواهد انها سوف تسقط ضحية لها بدورها .

٢ . المستعمرات والاستعمار

ظهور المستعمرات الاولى :

كان المستعمرون الأول الذين اقلعوا في فجر القرن العاشر متجهين الى جزيرة قبرص ، ينتمون الى شعب استقر منذ زمن بعيد على ارض تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط يشغل اليوم لبنان وجزء من سوريا موقعها . وهذا الشعب هو الشعب الكنعاني . وايآكان الاختلاف في اصل هذا الشعب ، فيبدو انه شعب ساميّ ، يمت بصلة القرابة الى العبريين . وكان الكنعانيون الأول الذين غامروا على عباب بحر ايجه يسميهم الهيلينيون باسم « الفينيقيين » (وهي كلمة مشتقة من الكلمة اليونانية التي تعني اشجار النخيل ، فقد كانت صواري سفنهم تشبه من بعيد ذؤابات أشجار النخيل) وبقي هذا الاسم عالقاً بهم واصبح التاريخ يسميهم به .

لم يكن الفينيقيون يشكلون أمة بالمعنى الدقيق ، بل كانوا يشكلون عدة دول متميزة بل متنافسة احياناً او متنازعة . ونمت هذه الدول التي اقيمت على شكل ممالك ، بسرعة ، حول مدن بحرية قوية . واعطت هذه المدن اسماءها للممالك الفينيقية الرئيسية : بيبلوس ، صيدا ، صور . واقدمها هي بيبلوس (جبال وهي جبيل الحالية) . ومنذ نهاية الالف الثالثة قبل الميلاد اقام ملوك هذه المدينة علاقات تجارية مع الفراعنة ، وامدوهم بخشب الأرز

الذي زين به المصريون معابدهم وقصورهم . وفي بيبلوس ، في نهاية القرن الثامن عشر وفي عهد الملك اهيرام **اخترع** الفينيقيون **الابجدية** التي تبناها اليونان بعد ذلك باربعة قرون والتي اشتقت منها ابجديتنا . ولما كانت بيبلوس قد ابتدعت الكتابة فقد اعطت اسمها ، بطبيعة الحال ، لاعظم كتاب في هذا العصر : « التوراة »[1] .

وعندما تدهورت سيطرة بيبلوس التي لم تقم بأية حملة بحرية ، اعقبتها السلطة المتزايدة التي كانت تتمتع بها صيدا وصور : وتنازعت هاتان المدينتان السيادة والتفوق زمناً طويلاً ، ولكن صور تغلبت في نهاية الامر . وفي عهد الملك هيرام الاول ملك صور (٩٧٠ — ٩٣٦ قبل الميلاد) ، على ارجح الاحتمالات ، غادر المستعمرون الاول الارض الفينيقية متجهين الى قبرص . ونحن نعرف ان هذا الملك كان صديقاً للملك سليمان ، وانه زوده بالمواد والعمال لبناء معبد اورشليم كما زوّده برئيس البنائين ، سميّه هيرام المهندس .

كانت معظم المستعمرات والمرافق التجارية التي اقامها الفينيقيون على ساحل البحر الابيض المتوسط ، منذ القرن العاشر ، تابعة لصور . وقد اسهمت عوامل مختلفة في تشكيل المصير الفينيقي . فلم يكن الكنعانيون بطبيعتهم محاربين ولا امبرياليين بالمعنى العسكري للكلمة . كان عليهم بالتأكيد ان يناهضوا الغزاة الهكسوس والحيثيين بل كان عليهم احيانا ان يتقاتلوا للاستئثار بالسيادة والغلبة . ولكن هذا النشاط كان عفوياً تمليه الظروف . اما علة حياة الفينيقيين والسبب الذي يعيشون من أجله والذي كانوا يعبئون له طاقته وقواهم اساساً كما يحشدون له مصادر خيالهم الخصيب ، فقد كانت **التجارة** . ومهما أوغلنا راجعين الى اعماق التاريخ وجدنا الفينيقيين عاكفين على التجارة ، بارعين في عقد الصفقات . وكانت البلاد من ناحية اخرى مهيأة لذلك بطبيعتها : فهي أرض للنقلة والعبور . ومن ناحية أخرى فان التشكيل الجغرافي لفينيقيا

(١) التوراة : bible مشتقة من Pyblos

يدعو اهلها الى القيام **برسالة بحرية** : فالجبال قريبة جداً (جبال لبنان وسوريا) تلوح كأنها تهم بأن تقذف بهم الى البحر . ويبدو مجرى نهر العاصي — وهو النهر الفينيقي — وكأنه يتخذ معنى رمزيا . فهو يجري في الواقع من الشرق الى الغرب على عكس النيل الذي يجري من الجنوب الى الشمال وعلى عكس الانهار الاخرى في آسيا الصغرى التي تجري من الغرب الى الشرق ، مما جعل المصريين الاول الذين شاهدوه يقولون عنه انه « يجري مقلوبا » . هذا الى ان الممالك الفينيقية الرئيسية كانت دولاً **بحرية** . واذن فقد تحالفت التقاليد التجارية مع الرسالة البحرية لكي تحفز الفينيقيين إن آجلاً أو عاجلاً الى**التوسع الاقتصادي** .

كانت المستعمرات الفينيقية من الناحية التاريخية اول مستعمرات في العالم : فلم يأخذ الهيلينيون في التوسع الاستعماري الا بعد ذلك بمائتي سنة في القرن الثامن ، وبعد ان فتح الملاحون الفينيقيون — وهم اكثر الملاحين في ذلك العصر شجاعة واقداماً — جزيرة قبرص حيث ظل الملوك المنتمون الى صور يحكمون الجزيرة عدة قرون ، مضى هؤلاء البحارة الى ابعد من ذلك بل اوغلوا في البعد حتى تجاوزوا حدود العالم المعروف في ذلك الوقت . واقاموا مرافق تجارية في جاديس وفي ليكسوس ، وعلى طرفي « أعمدة هرقل » (مضيق جبل طارق الحالي) . وبينما كانت الحرب مشتعلة الاوار في طروادة، كان الفينيقيون ينشئون اوتيكا، في تونس ، وهادروميت (سوس) ، وخضع الساحل الجنوبي من صقلية تماماً للسيطرة الاقتصادية لصور كما خضعت لها سردينيا وبليارس ، ومالطة ، وبنتلاريا . كما اقيمت مرافق تجارية في كريت وفي دلتا النيل . ومع ذلك فان انشاء هذه المستعمرات التي لم تكن في معظمها الا مجرد مرافق تجارية لم يترتب عليه بعد ظهور **الاستعمار** . فقد كانت هذه المرافق تمثل عند الفينيقيين « نقط وصل » حول البحر الابيض المتوسط ، من شأنها ان تسهل لهم معاملاتهم التجارية . كانت روابط التبعية توحد بلا شك بين المستعمرات الجديدة وبين العاصمة الأم ولكنها كانت

روابط تتراخى باطراد بفعل المسافة والزمن . ولم تتدخل صور تدخلاً مادياً الا عندما تعرضت مرافقها ومستعمراتها لخطر جدي . والواقع أن هذه المرافق والمستعمرات سرعان ما قامت باعتبارها مدناً مستقلة . كان التجار الفينيقيون يشترون من أهل البلاد الاصليين امتيازات يقيمون بمقتضاها مرافقهم. ولم يكونوا زراعاً ولذلك لم يحاولوا ان يستحوذوا على الاراضي المجاورة . وكانوا يحافظون على علاقات حسن الجوار مع سكان البلاد ، حفاظاً على مصالحهم التجارية . ومن الواضح ان المشروعات الفينيقية لم تكن خلوا من السعي وراء المنفعة . ولكنها كانت مقتصرة على المطامح التجارية . لم يفعل الفينيقيون اكثر من ان ينقلوا نشاطهم العريـق بضع آلاف من الكيلومترات بعيدا عن وطنهم حيث واصلوا عملهم كوسطاء ، وليس في ذلك كله ما يدعو بعد الى التفكير في الاستعمار .

مولد الاستعمار :

كان تأسيس قرطاجنة ، أهم المستعمرات الفينيقية ، في ٨١٤ قبل الميلاد ، يتفق تقريباً مع استقرار الاتروسكيين في اتسكونيا ، وقد جاءوا — على أرجح الاحتمالات — من الشرق عن طريق البحر (ولكن البعض يرجعون تاريخ استقرارهم هناك الى نحو نهاية الالف الثانية) . وقد مثلّت قرطاجنة اول حالة من حالات الطفرة حيث يمكن ان نشاهد الانتقال من تطور مستعمرة الى الاستعمار . وكما لا يمكن ان نتصور الامبريالية دون ان يسبقها وجود الدولة، فان الاستعمار لا يمكن ان يتصور دون ان تسبقه اقامة مستعمرة وتنظيمها على نحو مطرد .

وتتفق الاسطورة والتاريخ ، هنا على الاقل ، عندما يؤكدان معاً ان مؤسسّة قرطاجنة هي اليسا اخت بيجماليون ملك صور الذي يسميه فرجيل « ديدون » . ونحن لا نعرف حق المعرفة الاسباب الاقتصادية أو السياسية التي دعت اليسا كما دعت عدداً كبيراً من اعيان صور وسكانها الى الرحيل

عن وطنهم . ولكننا نعرف على الاقل انهم نزلوا في قبرص — وقد كانت مملكة فينيقيّة — حيث لقوا اكبر الترحيب والنجدة ، ثم اقلعوا منها في ٨١٤ لكي يحطوا رحالهم فيما يعرف اليوم باسم خليج تونس . وكان المكان الذي اختاروه ، غير بعيد عن اوتيكا ، مستعمرةً اخرى من مستعمرات صور اطلقت عليها اليسا اسم «كارت هاداشت » (المدينة الجديدة) قد اكتشفه واحتله اهل صور من قبل .

وتطورت قرطاجنة ونمت نمواً سريعاً واحتلت لنفسها مكانة مرموقة في العالم الذي اكسبه الفينيقيون طابعهم المتميز في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط .

لم يكن السبب الذي ادى الى انتشار اشعاع قرطاجنة — منذ تأسيسها — راجعاً الى موقعها الممتاز بقدر ما كان راجعاً ، من ناحية ، الى اصولها الملكية ، والى ان « ارستقراطية صور وثروتها كانت قد هاجرت جزئياً الى قرطاجنة » من ناحية اخرى ، مما ادى الى أنها قد اصبحت « بالفعل المدينة الجديدة ، صور الجديدة [1] » . والواقع ان قرطاجنة سرعان ما اصبحت تعتبر وريثة صور واخذت تحل باطراد محل العاصمة الأم في الدفاع عن المرافق التجارية الواقعة في مجال نفوذها . اصبحت قرطاجنة ، بالفعل ، اول مستعمرة جديرة بهذا الاسم . ولم تصبح المرافق التجارية الفينيقية في الغرب مستعمرات حقاً ، بدورها ، الا تحت ضغط عاملين حاسمين : استقرار اول المستعمرين اليونانيين وعدوانيتهم المتزايدة من ناحية ، والخشية من ثورة السكان الاصليين من ناحية اخرى . وبازاء هذه الاخطار ، اصبحت قرطاجنة بالنسبة للمستعمرات الفينيقية الاخرى ، نقطة تأييد لها قيمتها الثمينة . وليس ذلك مما يستهان به على الاطلاق ، ذلك انه حتى في الوقت الذي ظهرت فيه قوة قرطاجنة ، ظلت المنشآت الفينيقيّة الاخرى تحتفظ بصبغتها التجارية اساساً . والواقع ان

(١) مادلين هور — ميبدان : (قرطاجنة) .

« الانحسار الفينيقي امام الغزو اليوناني يثبت بوضوح الجانب الاقتصادي البحت الذي لا يتمتع بقسط كبير من الخصائص العسكرية ، للمنشآت الفينيقية في الغرب »[١]

لقد احتفظت قرطاجنة ، على خلاف المنشآت الاخرى التي اقامها اهل صور ، بعلاقات وثيقة متصلة مع العاصمة ، لامد طويل ، وفي كل عام كانت تخرج من قرطاجنة بعثة تحمل الجزية الى صور ، بمناسبة عيد ملكارت الاله الفينيقي . وهناك دليل آخر على انزلاق قرطاجنة انزلاقاً غير محسوس نحو الاستعمار : كانت العلاقات بين قرطاجنة والملوك والسكان من اهل البلاد الاصليين علاقات ممتازة في البداية –كانت المدينة تدفع للملوك من اهل البلاد الاصليين ضريبة سنوية – ولكن هذه العلاقات اخذت تتوتر شيئا فشيئاً . وقررت قرطاجنة تحت ادارة عائلة ماجونيدس الثرية الا تدفع هذه الجزية . هذا الى ان المستعمرة اخذت تبسط سيطرتها على اقاليم متزايدة حتى وصلت الى ما يعادل مساحة تونس الحالية . واخيراً فقد عكفت قرطاجنة على تحويل المرافق التجارية والمستعمرات الفينيقية في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط الى حلقات متينة من « تحالف كونفيدرالي اقتصادي وبحري » أسهم في دعم توسعها الاستعماري دعماً قوياً .

ذلك ان قرطاجنة قررت نهائياً أن تستعمر لحسابها الخاص منذ ان فقدت صور قوتها اذ وقعت في قبضة الفاتحين الاشوريين والفرس ، وعندما سقطت العاصمة الفينيقية في النهاية في يدي الاسكندر سنة ٣٣٣ ، ودمرها ، تحوّلت قرطاجنة بدورها الى عاصمة . واسست مستعمرة في جزيرة ايبيزا ، ثم عكفت على أن تحد من التوسع اليوناني وان تتحكم في طرقه البحرية . وقد كان أحد مصادر الثروة الفينيقية ، على وجه الدقة ، في اسبانيا حيث كان أحفاد الصوريين يستغلون منطقة المناجم في طرطيسوس واسسوا مدينتهم المغلقة « جادير »

---

(٢) المصدر السابق .

التي اصبح اسمها الآن قادش . وحتى تحمي قرطاجنة حرية مرور القصدير الى بريتاني وانجلترا ، والذهب الى السنغال ، قررت ان تسهر على حراسة الموانى الحيوية التي تُفضي الى هذه الاسواق ، حراسة **عسكرية** ، وتعلم الفينيقيون عامة ، والقرطاجينيون ، بصفة خاصة ، ان التوسع الاقتصادي لا يمكن ان يعود بالربح الا اذا كان مؤسساً على قوة الاسلحة : وهو المبدأ الاساسي من مبادىء الاستعمار الحديث . ولكنهم تعلموا هذا الدرس في اغلب الاحوال بان دفعوا ثمنه غالياً ، فقد طاردهم اليونانيون في صقلية وارغموهم على أن يتجمعوا ليحشدوا صفوفهم . ونحن نعرف ما آل اليه مصير قرطاجنة ، فهو مسجل في صيحة كاتون الغاضبة : « يجب القضاء على قرطاجنة ! » . ففي ذروة الحروب البونية المتعددة وعلى اثر تقلب صروفها — حين كان اميلكار باركا وابنه هانيبال يهددان روما الوليدة لفترة من الزمن تهديداً خطيراً — انهارت قرطاجنة ، وفي ١٠٤٧ قبل الميلاد دمرت « المدينة الجديدة » ، وسقطت ضحية لتوسعها وللانهاك الذي عانته من جراء التوتر الحربي المستمر .

اننا نشهد في تاريخ قرطاجنة صورة للادوات الجوهرية للاستعمار : الهدف الاقتصادي ، السعي وراء تحقيق هذا الهدف في خدمة العاصمة ، اللجوء الى القوة بالضرورة ولو كان عن غير قصد ، ثم استخدام هذه القوة باطراد في نطاق الدفاع عن المصالح القائمة ، وعن المنفعة في نهاية الامر ، قمع سكان البلاد الاصليين ، مصادرة وسائل الانتاج ، التوسع الاقليمي ، ثم الامبريالية العسكرية .

أوروبا تظهر على المسرح :

يرجع تأسيس المستعمرات الهيلينية في آسيا الصغرى الى بداية القرن الثامن . ولا شك أن جزر ايجه كانت معمورة بالسكان خلال سنوات طويلة بفضل الهجرة اليها من القارة ، وهي الهجرة التي كانت تدعو اليها دفعات

الغزو الهيليني التي لا تقاوم ، وبخاصة غزوات الدوريين والايليريين الاخيرة ، كما كانت تدعو اليها رغبة واعية في التوسع . وكانت ميليه اهم المستعمرات اليونانية على الساحل الآسيوي . وكانت كيماس التي اسست في كمبانيا نحو سنة ٧٥٠ قبل الميلاد ، ثلاث سنوات قبل تأسيس روما ، هي اقدم هذه المستعمرات في الغرب . كانت الحركة التي تدعو اوائل المستعمرين اليونانيين الى الرحيل عن وطنهم حركة تتسم بالفوضى في اول الامر ، وكان الحافز وراءها يكمن في النظام الاجتماعي في المدن الهيلينية في ذلك العصر : كانت الارستقراطية اﻟ « جينيه » (ارستقراطية العشائر) وهم كبار الملاك واصحاب الماشية الذين يقبضون على زمام السلطة ، تطرد الفلاحين الاجراء من اراضيهم باعداد متزايدة ، مما دفع هؤلاء الفلاحين الى ايثار الهجرة اذ وجدوا انفسهم متعطلين. ومع ذلك فما لبثت هذه الحركة ان نظمتها الدول الهيلينية بغرض قهر مقاومة سكان البلاد الاصليين وتحقيق الاهداف التجارية او الامبريالية .

وكانت اولى المستعمرات اليونانية مقامة على صورة منافساتها من المستعمرات الفينيقية ، اي كانت مرافق تجارية بسيطة . ولم يظهر الاستعمار بالمعنى الدقيق للكلمة الا في القرن الخامس ، مع ظهور محاولات اثينا للسيطرة ، ووصل الاستعمار الى صورته الكاملة في عهد الاسكندر . ومع ذلك فقد كان هناك استكمال ملحوظ في ادوات المستعمرة الهيلينية بالنسبة للمستعمرة الفينيقية . فقد كانت المستعمرة اليونانية منذ البداية تستقبل من العاصمة رئيساً لها وتطبق قوانينها . وكان من الخصائص الثابتة في المرحلة الاولى للتوسع الهيليني ازدهار سلسلة من المستعمرات ، وهو ما قد لوحظ من قبل في حالة قرطاجنة وحدها . وهو ما ينطبق على فوسيه المستعمرة اليونانية في آسيا الصغرى التي اسست في سنة ٦٠٠ مستعمرة مساليا (مرسيليا الحالية) التي اسست بدورها نيس والانتيب واجد وأولبيا . وتأكد ايضا ان المستعمرات في معظم الحالات انما تنشأ نتيجة لعمل عاصمة ذات **رسالة بحرية** . ويلاحظ بالاضافة الى ذلك ان ابناء مدن اليونان القارية التي تقع على بحر ايجه قد ذهبوا الى سواحل آسيا

الصغرى ليستقروا فيها ، بينما كانت كورنثا ، وهي تقع في قاع خليجها الذي ينفتح على البحر الايوني ، قد قامت بتأسيس سيراكوز في صقلية. كان شعار التوسع يكتفي بأن يكون : « الى الامام في خط مستقيم ! ». كان التحالف الكونفيدرالي الهيليني الذي ترأسه أثينا والذي تولدت عنه امبراطوريتها ، في اصله ، تحالفاً كونفيدرالياً بحرياً تدعمه شبكة قوية من المستعمرات ، وقد بدأ بصفته رابطة هيلينية موحدة للدفاع ضد الفرس — هذه الرابطة التي ورثت بدورها رابطة اولى تشكلت في كورنثا ، في ٤٨٠ ، لمواجهة عدوان اكسركسيس — ثم تحول الى تحالف فيدرالي من المدن ذات نواة مركزية قوية في اثينا . كانت الامبريالية الاثينية سياسية واقتصادية في الوقت نفسه، وكان الهدف من هذه السياسة ان تعود منافعها لكي تثري مواطني هذه المدينة الاتيكية **وحدهم**.

وطبقت أثينا في مستعمراتها ، كما طبقت في المدن المتحالفة معها في القارة ، سياسة تنتمي الى الاستعمار وأساليب يتميز بها الاستعمار ، ففرضت قوانينها وأوضاعها . الا ان هناك إجراء معيناً بلغ به سخط المدن المتحالفة اقصاه ، هذه المدن التي وصل عددها الى مائتين واثنتين في عهد بركليز (في اوج ازدهار اثينا) . وكان هذا الاجراء ان الموظفين كانوا يستولون على قطع من الارض في كل مدينة يقطعونها للمستعمرين الاثينيين الذين ظلوا مع ذلك مواطنين في اثينا . وفي اول فرصة سنحت — وهي هنا نشوب الحرب البيلوبونيزية التي اشتبكت فيها اثينا واسبرطة — تمردت المدن المتحالفة وتفككت الامبراطورية التي كان بيركليز قد نجح في ان يضم اليها كل مدن القارة .

ومع ذلك فان التحالف الاثيني ولد من جديد من بين الرماد — بعد سبعة وعشرين عاماً — ولكنه اقام تنظيمه على أسس جديدة . فلم يعد يشتمل الا على نحو مائة من المدن ، وحظرت اثينا على نفسها ان ترسل اليها حكاماً أو

حاميات أو موظفين بل نزلت عن ان تطلب منها الجزية . فالامر هنا يتعلق بنظام فيدرالي حقيقي . ولكن الاغراء كان قوياً ، فبعد عشر سنوات لم تستطع اثينا ان تقاوم انتهاك امتيازات المدن المتحالفة ، مرة اخرى ، في الميادين المالية والقضائية والسياسية . وعلى الفور احست هذه المدن بان سيادتها الخاصة ومميزاتها المتفردة قد اصيبت بالضرر ، وخاصة ان آرتاكسرسيس كان يستغل هذا الضعف ببراعة وان فيليب المقدوني قد استفاد منه . وفي ٣٥٧ شبت « الحرب الاجتماعية » وهي حرب الانفصال التي فقدت اثينا ثلاثة ارباع حلفائها وخرجت منها واهنة القوى الى حد كبير .

واستفادت اسبرطة من اول انحسار للسيطرة الاثينية ، بعد ان كانت قد بقيت دون ان يمسها سوء عقب انقضاء عصر بيركليز الذهبي . وظهرت امبريالية جديدة سوف تسيطر على اليونان ، هي امبريالية اسبرطة ، المنتصرة في الحرب البيلوبونيزية . لم تكن هذه الامبريالية ، كسابقتها ، متجهة نحو الاستعمار ، ولكنها كانت تتميز بخصائص الفتح **العسكري** والتوسع الاقليمي . وعلى عكس اثينا كانت اسبرطة مدينة **قارية** . فهي تقع في داخل ارض القارة . ويلاحظ توينبي ، في هذا الصدد ، أنه « عندما ادرك الاسبرطيون ان اراضيهم الشاسعة القابلة للزراعة في وادي يوروتاس كانت اصغر من ان تتسع للعدد المتزايد من السكان ، فلم يتجهوا بابصارهم نحو البحر ، كما فعل الكلسيديون او الميجاريون . فلم يكن البحر يُشاهد لا من مدينة اسبرطة ولا من اية نقطة في السهل الذي تقع فيه بل ولا من المناطق العالية التي تحيط بها[1] » . وهكذا ، بينما كانت المدن الرئيسية الهيلينية تقوم بتوسع بحري وتستعمر فيما وراء بحر ايجه ، وعلى سواحل البحر الاسود ، او البحر المتوسط الغربي ، كانت اسبرطة تفتح « مجالها الحيوي » في اليونان نفسها .

كان التوسع اللاكيديموني يقتصر في بداية الامر على لاكونيا وميسينيا

(١) ارنولد ج . توينبي — « الحرب والحضارة »

المجاورتين . كان الاسبرطيون بطبيعتهم حذرين فلم يغامروا الى ابعد من ذلك قبل ان يتم لهم استتباب السلام في المناطق المفتوحة . وكانت الحرب المستمرة التي لا تتوقف التي اشتركوا فيها قد جعلت من جيشهم جيشاً مقاتلاً من اقوى الجيوش الهيلينية . وكانت ضرورة بذل الجهد العسكري المستمر قد استلزمت انشاء الجهاز الحكومي المناسب : هو نظام الليكورج (حيث يمتاز هذا النظام بالصرامة والتقشف) . ولم تكن الحياة الاجتماعية في اسبرطة تدور الا حول محور واحد : **الحرب** . وانشأ الليكورج نظاماً شمولياً حقيقياً مؤسساً على المساواة الكاملة بين المواطنين الجنود : كان كل اللاكيديمونيين (سكان مدينة اسبرطة) عسكريين محترفين بالفعل ، وكانت الثروة كلها ملكاً للدولة بينما لم يكن المواطنون **يملكون شيئاً على الاطلاق** . وكان الملك نفسه يعيش مما **تقرضه** اياه اسبرطة ، ويشارك في الحياة الاجتماعية التي يحياها رعاياه . كانت اسبرطة في هذا الصدد تشكل الاستثناء الوحيد لقاعدة الفردية والمنفعة الخاصة التي تسود في كل المدن الهيلينية الاخرى . كانت امبرياليتها العسكرية تعيد الى الاذهان ذكرى امبريالية الاشوريين .

ولكن هذا الجهد الهائل كان يسير الى مصير **عَبَثي** : لقد ضحت اسبرطة بكل شيء في سبيل الحرب ولكنها لم تجرؤ على أن تشن الحرب . ولم يكن ذلك لانها كانت تخشى أن تخسرها ، فقد كانت انتصاراتها القريبة في الحرب البيلوبونيزية تشهد بغير ذلك . انما كانت في الواقع تخشى **مغبّة** الانتصار . فان اسبرطة لم تكن قد نشّأت من مواطنيها الا جنودا ، واذن فقد اتضح عجزها عن **ادارة** المدن والاقاليم التي فتحتها ، ومن ثم فقد خسرت على المستوى السياسي ما كسبته على المستوى العسكري . وهو ما ينتظر ، اليوم ، الامريكيين في فيتنام ، على وجه الدقة . هذا الى ان الاسبرطيين وقد اعتادوا القوانين الصارمة التي تفرضها مدينتهم ، كانوا يحسون بالغربة والضياع في الخارج ، وكانوا ضعافاً لا يقوون على الصمود في وجه الاغراء . ويزعم بلوتارك ان « التاريخ الذي احست فيه لاكيديمونيا لاول مرة وطأة المرض

الاجتماعي والفساد ، يتفق بالفعل مع اللحظة التي اسقطت فيها امبراطورية اثينا واخذت تغصّ بما استولت عليه من معادن ثمينة »[1] .

واذن فقد كانت الامبريالية الاسبرطية امبريالية خاطفة صاعقة ولكنها قصيرة الأمد : بضع شهور في سنة ٤٠٤ بعد اول انحسار اثيني ، ثم من ٣٨٦ الى ٣٧٨ . وجاءت كارثة ليوكتّريس في ٣٧١ لتضع حداً نهائياً للسيطرة اللاكيديمونية . لقد كان تاريخ اسبرطة في نطاق حدوده الخاصة ارهاصاً بالمصير المتقلّب الذي سوف تلقاه أوروبا .

كانت الدولة المنتصرة في ليوكتّريس ، هي طيبة التي كانت مثل اسبرطة مدينة **قارية** تقع بعيداً عن البحر في داخل البلاد . واذن فقد اتخذت امبريالية طيبة شكل التوسع الاقليمي . وكانت طيبة قبل ليوكتّريس تكتفي بالسيطرة على البلاد المجاورة : بيوتيا . ولكن ايامينونداس ، بعد ان انتصر على الجيش اللاكيديموني « الذي لا يقهر » فكر أن يرث اسبرطة لصالح وطنه . وسرعان ما اصبحت طيبة على رأس حلف عسكري يجمع عدداً كبيراً من مدن اليونان الوسطى ثم من جميع انحاء البيلوبونيز . ومع ذلك فقد كانت الامبريالية الطيبية شيئاً عرضياً سرعان ما آل الى الزوال . فقد كانت وثيقة الصلة بمصير رجل الدولة الخارق الذي اسسها ، ايامينونداس ، فما ان قتل في ٣٦٢ في ساحة المعركة في مانتينيه حتّى اصيب مصير طيبة نفسها بضربة قاتلة وانحدرت بسرعة الى الزوال . ولم تستمر سيطرة طيبة الا عشر سنوات .

كذلك لم تستمر سيطرة سيراكوز الا فترة حكم الطاغية دينيس . كان بعض المستعمرين القادمين من كورنثا قد اسسوا سيراكوز في صقلية ، فهي مدينة بحرية . وكان لتوسعها طابع استعماري . وانتهك دينيس القوانين الديمقراطية التي كانت سائدة في الجانب الأكبر من المدن اليونانية وفرض نفسه بالقوة على اهل سيراكوز وحاول ان يجعلهم ينسون الاسلوب المبني

(١) بلوتارك : حياة آجس

على الغش والخديعة والذي قامت عليه سلطته ، واستخدم الديماغوجية ، والمزايدة ، على غرار طاغية مبتذل آخر مثل موسوليني . واستهدف ان يجعل من سيراكوز اغنى واجمل مدينة وان يغرق مواطنيه بالخيرات وان يكتسب لنفسه المجد فقام بسلسلة من الفتوحات مختلفة الطبيعة والاتجاه .

بدأ بان تطلع الى المملكة وان يجعل مواطنيه يطيعونه كما يطيعون الملوك : ولهذا السبب فقد اعتبره الاثينيون نموذجا **للبربري** « اي الاجنبي » بالرغم من انه كان يونانياً . والواقع ان الاثيني كان يعتبر ان تحرر المدينة يمثل **تقدماً** بالمقارنة الى الوضع الاقطاعي للممالك التي كانت تحيط باثينا : فهو لم يكن يشعر الا بالاحتقار لمملكة مقدونيا . وقد كان البرجوازي في المدن الفلمنكية ، وهي اولى المدن التي تحررت في أوروبا ، في العصور الوسطى ، يحس باحساس مماثل بازاء مملكة فرنسا التي كانت لم تزل اقطاعيّة في ذلك العهد .

وكان التوسع الذي يختطه دينيس يستهدف اقليم صقلية ، كأول خطوة ، ثم يستهدف الاقاليم الخارجية بعد ذلك . وعلى ذلك فقد نقض الاتفاق الذي عقده مع الفينيقيين في ٤٠٥ ، دون سبب وجيه ، وهو الاتفاق الذي كان يترك لقرطاجنة نصف الجزيرة . واستأنف دينيس القتال في ٣٩٨ واضطر القرطاجنيين في النهاية الى ان يلوذوا بالطرف الغربي من صقلية . وبسط الطاغية سيطرته على ثلاثة ارباع الجزيرة وضم المدن اليونانية المستقلة ، واخضع اهل البلاد الاصليين في وسط الجزيرة . بقيت المدن مستقلة استقلالاً ذاتياً لكنها كانت تدفع ضريبة عقارية وكان عليها ان تقبل حامية سيراكوزية .

واخذ دينيس عندئذ يقوم بمشروع للاستعمار بكل معاني الكلمة ، يمكن مقارنته بمشروع فرنسا لاستعمار الجزائر . واستهدافاً لاسباغ الصفة الهيلينية على البلاد ولتوحيدها توحيداً عميقاً ، أتى بمستعمرين ذوي تجربة قديمة على الاراضي الجديدة وعجّل بايقاع سرعة هجرة اليونانيين من ايطاليا ومن البيلوبينيز . ثم بدأ مرحلته الثانية في التوسع : وأقلع لكي يفتح نيباري وميسينا

ويضع قدميه على القارة واخضع لحكمه المدن اليونانية في جنوب ايطاليا : ريجيون ، ولوكريس ، وكروتون ، وغلب الشعوب القاطنة في المنطقة على أمرها . ثم مضى في النهاية لكي يقيم مستعمرات على البحر الادرياتيكي ، وهي مستعمرات كانت تشكل نقطاً استراتيجية ممتازة ، كما اسس مستعمرة ادريا التي كانت نقطة انتهاء تجارة العنبر في أوروبا .

ومع ذلك فقد كان على دينيس في نهاية حياته ان يتراجع وان يخلي بعض الاراضي التي استولى عليها . وفي ٣٧٦ تخلى لقرطاجنة عن جزء هام من صقلية كما تخلى عن مدن تيرمايه ، وسيلنونت ، واجريجنت . ولم يبق الصرح الاستعماري الذي شيده دينيس طويلاً بعد وفاة مهندسه في ٣٦٧ . وحاول اجاثوكليس « الاستراتيجي الاوتوقراطي » ان يعيد بناء هذا الصرح المتفكك منذ ٣١٨ ، بل نجح في ان ينزل على الساحل القرطاجني (٣١٠ — ٣٠٧) ولكنه لم ينجح في البقاء فيه . وتقلبت به صروف الحرب كما تقلبت بسلفه دينيس وان كان ذلك على نحو اقل حدة ولكن كل شيء تفكك وانحلت عراه ، عند وفاته ، نهائياً .

اما المشروع الاستعماري الذي قامت به مساليا « مرسيليا » فقد كان اقل طموحاً واقل عدوانية من سيراكوز . وقد رأينا ان مساليا قد اسست على يدي مستعمرين من مدينة فوسيه اليونانية في آسيا الصغرى وانها بدورها قد أسست مستعمرات نيس ، وانتيب ، واولبيا ، واجد ، وكان هذا المشروع الاستعماري يصدر عن ارادة متجهة الى الغلبة الاقتصادية مماثلة لما رأيناه عند الفينيقيين قبل الامبريالية القرطاجنية . وكانت العلاقات التي اقامتها مساليا مع تابعاتها — على ان العاصمة كانت تحكم نيس بوساطة حكام منها — علاقات يسودها الاحترام وتقوم على مستوى التكافؤ والمساواة الصارمة ، كما كان ذلك ينطبق ايضاً على علاقاتها مع الكتليين والليجريين المجاورين لها ، ومع

« المدن الشقيقة اي المستعمرات الفوسيه الاخرى في بلاد الغال واسبانيا : تيلينه (آرل الحالية) وبيرينيه (بورفوندر) وجاليبوليس (برشلونه) وهيميرو ــ سكوبيون (.فالانسا) وابدير (ملقه).

ومع أن الملاحين المساليين المغامرين اخذوا يتكشفون في نحو ٣٢٥ المحيط المداري ، وبحار الشمال ، حتى وصلوا الى ايسلندا والبلطيق ، فقد ظلت هذه الاكتشافات موقتا بلا نتيجة ، وانتظرت مساليا حتى القرن الثاني لكي تبدأ في ضم الاقاليم الداخلية من بلاد الغال ، وهي المجال الاقليمي الذي يحده الرون والدورناس وتقع على رأسه رودانوسيا (بوكير) وافينيون . وتقع في قاعدته مسترابالا (سان بليز) وجلانون (سان ريمي) . وقد احترمت روما من ١٢٠ الى ٤٩ سلامة حدود الاراضي المسالية .

انعدام العنصرية :

اننا نرى ، من خلال التجارب الاولى للاستعمار التي قمنا بتحليلها حتى الآن ، عدداً من العوامل الجوهرية هي ايضاً في الاستعمار الحديث . ومع ذلك فاننا لا نجد فيها عاملاً بذاته : هو العنصرية ، اي الاحتقار أو العداء الذي يكنه المستعمر لمن يقع في ربقته ، بسبب لون بشرته المختلف . والواقع انه ما من شعب من شعوب العالم القديمة كان عنصرياً على الاقل بالمعنى الذي نعرفه لهذه الكلمة اليوم . « لم يكن التوحد بالاسرى مهما كان لونهم يثير اية غضاضة عند المصريين ولا عند غيرهم من شعوب العالم القديم ، وكانت وجوه بعض الفراعنة تحمل آثار اصولهم الزنجية . ولم يكن اليونانيون بدورهم يعرفون في السود عبيداً بل كان معظم عبيدهم من جنسهم . لم يكن هنالك من شيء يحمل على الربط بين خصائص فيزيقية معينة وبين حالة العبودية . وعلى كل حال فقد كانت التفرقة التي يقيمها اليونانيون بين الناس تعود الى اسباب حضارية لا الى اسباب عنصرية[1] .

(١) كينيث . ل . ليتل : العنصر والمجتمع في العنصرية بازاء العالم .

ظلت العنصرية مجهولة امداً طويلاً ، وكانت العصور الوسطى في أوروبا لا تعرفها كما لم تكن تعرفها شعوب العالم القديم ، ففي تلك العصور لم تكن التفرقة ترجع الى أسباب حضارية بل الى اسباب دينية . لقد ظهرت العنصرية وهي الثمرة المسمومة للاستعمار ، في مرحلة متأخرة نسبياً : في بداية القرن التاسع عشر .

٣ . الاستعمار والامبريالية

حدود غير دقيقة المعالم :

ان الامبراطوريات الكبرى التي ينتهي بها تاريخ العالم القديم سوف تضفي طابعها المتميز على شكلي التوسع اللذين درسناهما . فلم تكن امبريالية الاسكندر ، فقط ، مشروعاً للاستعمار ، ولم تكن ، فحسب ، عملاً من اعمال الفتوح الاقليمية ، ولكنها شكلت اندماجاً بين هذين الشكلين . وهكذا كان الأمر بالنسبة لروما التي وضعت تجربة الاسكندر موضع الاعتبار واستكملت المحاولة العظيمة التي قام بها . وكلما زاد وعي أوروبا بنفسها ، ووسعت في المستقبل من حدود سلطانها ــ وأوربا هنا تعني اليونان ثم روما ــ فانها قد اخذت تجرب ، عن غير وعي وبلا تعمد ، كل اساليب التوسع التي استخدمت من قبل ، وتضيف الى اساليبها الخاصة الطرق التي أتبعت من قبل .

كان الاسكندر هو اول اوربي يستأنف بشكل حاسم الاتصال بالشرق ، منذ الانفصال الذي اعقب الغزوات الاندوأوربية (فلم تكن علاقات المرتزقة اليونانيين بالفرس الا علاقات عرضية وموقوتة) . وقد استخدم الاسكندر طرق الغزو الاقليمي الاثيرة الى الامبرياليات الشرقية بالاضافة الى المناهج المختلفة التي خلفها استعمار الفينيقيين والهيلينيين . وقد لجأ بالتعاقب أو في نفس الوقت الى هذه المناهج أو تلك وفقاً للظروف او للضرورات التي تمليها

الأوضاع في كل لحظة . ومن خلال تحليل الامبرياليتين اليونانية ــ المقدونية ، والرومانية ، سوف يظهر لنا بالتالي أنه قد طبقت سياسة معينة واتبعت مناهج استعمارية نموذجية معينة في سياق لم يكن استعمارياً ، او العكس بالعكس . ويكفي هنا أن نتبيَّن القسمات الَّتي يتميز بها الاستعمار والخصائص الغريبة عن طبيعته في كل شكل من اشكال التوسع .

« يوحنا المعمدان » المقدوني :

في ٣٦٠ قبل الميلاد ، عندما اعتلى فيليب الثاني عرش مقدونيا لم يكن احد في اليونان يلقى بالاً الى ذلك الملك الصغير . ومع ذلك فان هذا العاهل الذي لم يكن يملك سلطاناً ولا مصدراً من مصادر الثروة ، آذن بفاتحة عهد من اكبر العهود الملكية قوة واعظمها مجداً على طول التاريخ وعرضه ، وفتح السبيل امام الحكومة العالمية . ولكنه كان في تلك اللحظة لا يمثل شيئاً على الاطلاق ، بل لا يمثل خطراً محتملاً في اعين اكثر الناس مقدرة على استكناه المستقبل . ثم اننا نعرف الاحتقار الذي كانت تحس به المدن اليونانية ازاء مملكة مقدونيا .

ومع ذلك فلم تكن الامور تجري على ما يرام في بلاد الهيلينيين ، كانت دولة اسبرطة ثم دولة طيبة قد انهارتا واحدة تلو الاخرى .

وكان بعث السيطرة الاثينية عابراً وعرضياً . اتيحت لها اربع سنوات من الراحة ثم انفجرت « الحرب الاجتماعية » ، فدمرت مكانة اثينا . وعندئذ في نحو ٣٥٧ ظهر فيليب المقدوني . واستفاد من الاضطراب السياسي الذي كان يسود المدن الهيلينية فأخذ يقتطع لنفسه امبراطورية .

طبق فيليب اقدم منهج سياسي في العالم : « فرق تسد » . أخذ يستجلب عطف البعض ، ويستثير أحقاد البعض الآخر ، ويجعل نفسه « الحاكم الاستراتيجي » في مدينة ، « والحاكم الاوتوقراطي » في مدينة اخرى ، ويتظاهر بالغضب « المقدس » لما يفعله الفوسيون الذين يعتدون على الحرمات

الدينية (كان بارعاً في ادعاء الغضب المقدّس) ، ويتفق مع عدو الأمس ، اتفاقاً تدوي له الطبول ، وذلك على حساب صديق اليوم . وسرعان ما اتخذ مكانه ، في هذه اللعبة الصغيرة ، باعتباره الحَكَم الاعلى في مصائر اليونان . لم يكن هناك الا رجل واحد يقدر الخطر الوشيك الوقوع ، هو ديموستين الذي لم يمل من استنكار ما يقوم به فيليب ، واستنفار الاثينيين ضده . ولكنه كان يخطب في غير طائل ، حتى جاء اليوم الذي ادرك فيه الاثينيون الخطر ، وعندئذ كان الأوان قد فات . على انه كان يوجد معلم بلاغة اسمه ايسقراط أثر على القرن الرابع كله ، وساعد فيليب مساعدة كبيرة في تحقيق خطته . كان ايسقراط من رسل الوحدة الهيلينية ، وقد خيل اليه انه اكتشف الرجل الذي سوف يحول اليوتوبيا التي كان يحلم بها الى حقيقة واقعة ، على التعاقب ، في جاسون الفيريس ، ودينيس السيراكوزي ، وارشيداموس الاسبرطي ، وعندما ظهر فيليب ادرك ايسقراط ان هذا المقدوني سوف يحقق مشروعه الكبير . وساعده على تحقيقه . وبعد عشرين عاماً من الجهد الصبور الدائب استطاع فيليب ان يؤسس رابطة هيلينية موحدة انضمت اليها كل المدن اليونانية في القارة وفي الجزر على السواء . وكان فيليب هو سيد هذا الجهاز الذي انشىء بناء على اوامره ، بالرغم من انه كان يزعم انه على مبعدة منه .

كان فيليب ملكاً في مقدونيا ، ورئيساً (ارخونت) في تساليا ، وكان في الواقع هو سيد تلك الرابطة الهيلينية . وعندئذ توجه بأبصاره نحو آسيا الصغرى . كانت قد علقت في ذهنه ، من البرنامج الذي وضعه ايسقراط ، فكرة جريئة ، هي فكرة تحرير كل المدن اليونانية على الساحل الآسيوي ، في قيليقيه ، من ربقة « البرابرة » وضمها الى الرابطة الهيلينية ، وتعمير الأراضي الداخلية على أيدي اليونانيين الذين لا وطن لهم ، المنفيين ، المغامرين ، والمرتزقة المسرحين ، الذين كانوا مدعوين الى استعمار هذه المناطق « وادخال المدنية فيها »[1] . وتظاهر فيليب مرة اخرى بالغضب دفاعاً عن حرمة الاديان ،

---

(١) كان ايسقراط على غير علم منه من اوائل منظري الا ستعمار (المؤلف)

حتى يحمل الرابطة الهيلينية على الدخول في « حرب مقدسة » ضد الفرس : فأعاد الى الأذهان ذكرى الاعتداءات الدينية التي اقترفها اكسرسيس ضد الاماكن الهيلينية المقدسة التي كان ينبغي الثأر لها في رأيه . والواقع انه كان يحرص على الاستفادة من الفترة الواقعة بين مقتل ارتاكسرسيس الثالث وبين حكم خلفه . وبينما كانت القوات اليونانية تصطدم بالمرتزقة الذين كانوا يأجرهم الفرس ويقودهم ممنون الروديسي ، بعد قليل من نزولها على ارض آسيا ، اغتيل فيليب المقدوني على يدي احد نبلاء بلاطه .

ظهور الحاكم الكوني : (الكوزموكراتور)

اعتلى الاسكندر عرش ابيه وحقق المشروع الذي اختطه ، بحيث تجاوز به كل ما كان متوقعاً له . لقد ورث الاسكندر الى جانب تاج أبيه وصولجانه ، ايمانه بالوحدة الهيلينية . وهو ما حققه بالفعل : تحرير مدن الساحل الآسيوي (ميليه ، هاليكارناس) وتحريرمصر — حيث استقبل بالفعل استقبال المحررين وانتصاراته على داريوس الثالث ، والقضاء على الامبراطورية الاشيمينية ، كل ذلك حققه باسم الوحدة الهيلينية . وبعد ذلك فكر الاسكندر ، كما فكر ابوه بلا شك ، في أن يصبح الكوزموكراتور أو الحاكم الكوني . ولكي يرتقي الى اعلى درجات السلطة ، قلّد الاسكندر الاستراتيجية السياسية البارعة التي كان ينتهجها الاشيمينيون . توج نفسه على يدي كبير الكهنة الفرعونيين في ممفيس ، واعلن نفسه ملكاً على مصر العليا والسفلى ، واعلن انه الابن المطيع للاله آمون رع . وفي آسيا تلقى تركة « الملك الأكبر » واعتبر الخلف الشرعي لداريوس . وفي بابل سمى نفسه « خادم ماردوك المطيع » ، وملك « الأجزاء الأربعة من العالم ». فهو اذن بدوره وارث الامراء الساميين في صومر واكاد . ان مما له دلالته ان نلاحظ هذا الاهتمام الكبير الذي يبديه الامراء والفاتحون الذين يتطلعون الى السيطرة العالمية بالانتساب الى روح وتقاليد اقدم الامبراطوريات المعروفة ، لقد كان ذلك هو الاهتمام الذي

استحوذ على عقول ملوك اوربا وكبار قادتها العسكريين من العصور الوسطى الى القرن التاسع عشر ، فقد نسبوا انفسهم الى التراث الروماني . فاذا سلمنا بأن هذا التراث هو ايضاً تراث الاسكندر بعد ان زيد عليه الكثير ، فاننا نستطيع ان نؤكد انه لم يكن هناك انقطاع في سلسلة النسب الامبراطوري منذ فجر التاريخ .

كان الاسكندر اذن ملك مقدونيا ، وسيد الهيلينيين ، وفرعون مصر ، وملك آسيا . ولكن ذلك كله لم يكن مجرد وظائف اسمية فقد كان يتقمّص بالفعل كل هذه الوظائف ويضيف اليها التصورات السياسية والدينية التي تتضمنها . «كان يتجاوزها جميعاً في نطاق خطة عالمية حقاً»[1] . ألم يخترع ديوجنيس كلمة «كوزموبوليست» (مواطن العالم) لكي يعبر عن هذا الاتساع في الوعي الانساني ؟ لقد وصل الاسكندر بالفعل الى سيطرة عالمية بالتبرير السياسي والاجتماعي والديني والاقتصادي الذي اضفاه على فتوحاته . «ان الاسكندر هو بلا شك الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي وضع تلك الخطة الهائلة : ان يصبح سيد العالم بالمعنى الحقيقي للكلمة»[2] .

وبعد ان استتب للاسكندر الحكم في آسيا ، وبعد ان وضع بعض المقدونيين من أصدقائه وموضع ثقته على رأس اقسام امبراطوريته التي احتفظ هو بأعنة السيطرة عليها ، قرر ان «يشق طريقه» حتى يصل الى الهند ، واتخذ تعلات مختلفة : ان يعيد الهدوء الى مناطق حدود الامبراطورية ، ان يعاقب نوابه المتمردين ، ان يرهب السيثيين والمساجيتيين ، ومضى كما مضى من قبله سيروز منذ قرنين من الزمان حتى وصل الى ضفاف نهر سيرداريا . ولكنه كان حريصاً على ان يتفوق على سيروز وعلى داريوس كليهما وقرر ان يمضي الى ابعد مما بلغاه . وبعد حملة شاقة بالغة الصعوبة كفلت له في ٣٢٧

---

(١) ج - و . ن . بالانك : الامبرياليات القديمة .

(٢) ويلكين : «الاسكندر الاكبر» .

خضوع الاساكينيين (الافغانيين)، هبط نحو البنجاب حيث غلب بوروس، حاكم وادي هيداسب، وجعل منه تابعاً له. ثم واصل طريقه نحو الشرق، على الرغم من العقبات، فبلغ ضفاف نهر هيفاز (نهر بياس الحالي احد روافد نهر الهندوس) التي تمتد فيما وراءها صحراء تفصل هذا النهر عن الجانج وعن مملكة ماجادها القوية.

أي حافز كان يطيعه الاسكندر في رحلته تلك نحو المجهول؟ اهي شهوة الفتوح؟ أم هي الاعتبارات الاقتصادية؟ أكان الاسكندر ضحية للتعلات التي كان يتعلل بها؟ ام كان منتشياً بما يسميه اليونانيون: «بوثوس» وما يعرّفه ويلكين بأنه «رغبة فطرية في المجهول الذي لم يستكشف، في الغامض الخفي الذي لا يعرف»؟. أهو ذلك «البوثوس» الذي كان يدفع المستكشفين الأوروبيين، اولئك الرسل الدومينيكانيين للاستعمار الاوروبي، نحو رفع حافة الصحراء التي تفصله عن الجانج. ثم اراد ان يواصل طريقه، لكنه اصطدم للمرة الأولى بالمعارضة الحاسمة من جنوده. لقد قرروا في النهاية ان يحملوا الاسكندر على العودة الى عاصمته بعد حملة استمرت ثماني سنوات وبعد ان قطعوا ٨٦ ألف كيلو متر على الاقدام وعاد الاسكندر الى سوس؛ وكان يعد العدة لشن حملة تأديبية على قرطاجنة، والقيام بمهمة للاستكشاف في هيراكانيا على بحر قزوين، وكان هناك ثلاثة من الملاحين البارعين يستعدون — بناء على اوامره — للطواف حول شبه الجزيرة العربية. ولكن موته المفاجىء في ١٣ يونيو سنة ٣٢٣ اوقف هذه المشروعات.

لم تكن الامبراطورية الشاسعة التي أقامها الاسكندر، مثل الامبراطورية الفارسية، دولة ملكية موحدة. بل كانت شكلاً فيدرالياً يضم دولاً تحت حكم عاهل واحد، وكان شخص الاسكندر بذاته هو الرابطة التي توحد بين المملكة اليونانية — المقدونية، والمملكة المصرية، والمملكة الفارسية، والممالك الهندية، التي كانت تحتفظ جميعها بمؤسساتها الخاصة»[1]. وعلى

(١) جاك بيرن: «التيارات الكبرى في التاريخ العالمي».

ان الاسكندر ، كما كان يفعل الاشيمينيون ، جعل نفسه فارسياً في ايران ، وبابلياً فيما بين الرافدين ، ومصرياً في وادي النيل ، وعلى أنه عهد الى اهل البلاد الاصليين بادارة دوله المختلفة ، الا ان المقدونيين واليونانيين احتفظوا دائماً بالسيطرة في ميدانين : الجيش والمالية . وفي كل مدينة جديدة أسسها الاسكندر من أقصى امبراطوريته الى اقصاها (من مصر الى الهند) والتي كانت تحمل في الغالب اسمه ، انشأ موقعاً عسكرياً تحتله حامية يونانية ـ مقدونية .

وحول هذه المراكز الديناميكية التي يقوم كل منها مقام نواةٍ للحياة الهيلينية ، استقر ، ونما الاستعمار : احتلال الاراضي ، نشر الأفكار والعادات اليونانية ، اشعاع الحضارة التي لعل الاسكندر على الرغم منه كان بشيراً بها . ولكننا نلاحظ في الوقت نفسه ان زملاء الاسكندر ، وانه هو نفسه في نهاية حياته ، قد استسلموا شيئاً فشيئاً الى التيار الذي يحيط بهم ، بعد أن ابتعدوا أمداً طويلاً عن الوطن الأم أو انقطعت صلتهم به ، فاتخذوا اسلوب الحياة التي كانت تتبعه الحضارات المحلية ، وتغلغلت فيهم افكارها . ولم يكن خلفاء الاسكندر يفترقون في شيء عن الامراء الشرقيين من أهل البلاد الاصليين . كان الخاضعون للاستعمار قد امتصوا الاستعمار .

والمعتقد انه كان للاسكندر قبيل موته بقليل خطط في التوسع البحري كانت سوف تفضي به بالضرورة الى استعمارات جديدة . كانت احدى هذه الخطط من شأنها أن تفضي الى اقليم بحر قزوين . وكانت الخطط الاخرى من شأنها ان تنتهي الى الحوض الغربي من البحر المتوسط حيث لم يكن هناك معدى من ان يصطدم الاسكندر بالامبريالية الرومانية الناشئة . وقد حال الموت وحده دون تحقيق هذا البرنامج ودون تغيير مجرى التاريخ ، بلا شك ، تغييراً كبيرا .

مخلفات حكم عظيم :

بموت الاسكندر مال ميزان القوى باطراد الى جانب روما . ومع ذلك فان بعض الانتفاضات التي سجلها التاريخ باسم الامبرياليات الهيلنستية قد عبرت تعبيراً غير مترابط عن ارادة السيطرة التي كانت تلهم ثلاث أسر (كلها من أصل مقدوني) تقاسمت تركة الاسكندر — هذه الارادة التي لم يكن ليشبعها شيء . كان النبيل المقدوني لاجوس ، وهو أب بطليموس الأول ، هو حاكم مصر منذ ٣٢٣ . وقد اعطى اسمه للاسرة اللاجوسية التي سيطرت على اقدار مصر ، حتى موت كليوباترا وضم مصر الى الامبراطورية الرومانية .
أما في مقدونيا فان القائد انتيباتر الوصي على العرش الذي فرضه الاسكندر على اليونان ، هو الذي أصبح ملكاً ، وبعد موت ابنه كاسندر اعتلى العرش صهره ديمتريوس بوليوكريتس . وكان ابن ديميتريوس هو الذي اعطى لاسرته اسمه : انتيجون جوناتاس . فأصبحت الاسرة تعرف باسم الاسرة الانتيجونية التي بلغت اوج قوتها في عهد فيليب الخامس . ولكن ابنه بيرسيه سقط تحت اقدام الرومان في بيدنا ، في ١٦٨ ومزقت مملكته شر ممزق ، واختفت من على وجه الخريطة . وكان مؤسس الاسرة السيليوكوزية ، سيليكيوز المقدوني ، حاكم بابل بدوره في ٣٢١ . وقد حاول ان يعيد بناء الامبراطورية الاشيمينية الهائلة ، واوشك خلفه انتيوخوس الثالث الكبير أن يحقق هذا الهدف ، وقد كان معاصراً لفيليب الخامس . وواصل انتيوخوس الرابع العمل لتحقيق هذا الهدف ، ولكن خلفاءه بعد ان هاجمتهم الممالك الناشئة في نفس الوقت مثل مملكة متريدات ، وحلفاء روما الاقوياء ، لم يستطيعوا الا استبقاء سوريا حيث تحللت الاسرة في النهاية بعد أن قوضت اسسها المنازعات الداخلية .
أما السيليوكوزيون ، وان كانوا قد اعتنقوا الحضارة الشرقية بقيمها واسلوب حياتها ، فقد اسهموا — على الرغم من ذلك — في اكمال ما بدأه الاسكندر من اضفاء الطابع الهيليني على جزء من آسيا الصغرى (وعلى الأخص المناطق الساحلية منها) بفضل سياسة الاستعمار المنظم . هذا الى أنهم ، بتأسيس

لمدن مثل انطاكية ، ولاوديكيا ، وابامى ، فقد حولوا بعض المناطق الريفية الى اقاليم حضرية .

ومن القرن الرابع الى القرن الثالث كانت هذه الاسرات الثلاث (اللاجوسية الانتيجونية ، والسيليوكوزية) تواجه بعضها البعض باستمرار ، تحاول كل منها ان تعيد لحسابها بناء امبراطورية الاسكندر الشاسعة . ولم تنجح واحدة منها في ذلك ، وسقطت واحدة بعد الاخرى في براثن روما .

فلاح واقعي :

لا يمكن اعتبار اولى عمليات زحف روما في اللاتيوم ، بل الى قلب شبه الجزيرة الايطالية ، من علامات الامبريالية او الاستعمار . كانت المدينة على العكس تحس بأنها تعمل في نطاق الدفاع الشرعي عن النفس . لم يكن قد مضى عهد طويل منذ ان كانت تهددها السيطرة الاتروسكية (والاتروسكيون شعب ساميّ من اصل آسيوي) ، وكانت روما ما تزال تذكر غزو الغاليين في ٣٨٧ الذي اكتسح المدينة اكتساحاً . فلم تكن المدينة اذن تهاجم ، حتّى ذلك الحين ، الا دفاعاً عن نفسها .

ولم يكن للمدن والشعوب الايطالية التي اخضعتها روما ما تشكو منه في وضعها الجديد . لا شك أنها قد فقدت استقلالها وكانت ملزمة بمقتضى المعاهدات التي ابرمتها مع روما أن تمدها بالقوات وان تدفع لها ضرائب مختلفة ، دون ان نذكر الأراضي التي صادرتها منها روما لكي تقيم عليها ميادينها العامة . ودون ان نذكر جباية الرسوم العينية التي كانت تفرض عليها عسفاً . ولكنها كانت في مقابل ذلك منضمة في اتحاد فيدرالي مع المدينة المنتصرة وكانت تكتسب الجنسية الرومانية . بل كانت هذه المدن والشعوب تمنح الحقوق السياسية الرومانية – حق الترشيح وحق الانتخاب – بشروط معينة . وباستثناء بعض المدن في كمبانيا التي كان يديرها مباشرة محافظون رومانيون ، فقد كان معظم المدن تستطيع ان تواصل الحفاظ على استقلالها الذاتي في الشئون البلدية

مع وجود المجلس الشعبي ، ومجلس الشيوخ ، والقضاة المنتخبين جميعاً .
ألم يكن هذا النجاح الذي حققته روما راجعاً الى طبيعة الرومانيين الأوائل انفسهم ، كان اليونانيون يعتبرونهم لا برابرة فحسب بل كانوا ينظرون اليهم ايضاً بشيء من الاحتقار ، باعتبارهم فلاحين جفاة غلاظاً . ألم تكن الفضائل الأساسية بل والعيوب التي يتصف بها الفلاحون هي التي افادت الرومانيين في اتجاههم نحو السيادة والسيطرة ، وهي التي كانت اصل توفيقهم السياسي والاقتصادي؟ ان الرومانيين أساساً واقعيون ، يتميزون بالحذر والدهاء. واعمالهم جميعاً تتسم بهذه الواقعية ، حتى تلك الأعمال التي قد ينسبها المرء ، عن غير انتباه ، الى دافع الكرم والسخاء.

مثال ذلك : كان منح حق المواطنة الرومانية للمدن المتحالفة وللشعوب التي تمّ اخضاعها أسلوباً من اساليب اخضاعها لروما على نحو دائم. وكان التصريح لمدن لاتيوم وايطاليا الوسطى بالابقاء على استقلالها الذاتي في المسائل البلدية تعبيراً عن الدهاء السياسي لا علامة على كرم الخلق والسماحة. فقد كان الحلف مبنياً على اسس متكافئة وكان من الضروري ان تبذل الجهود للابقاء على وَهْم الحرية ، ومن ثم فقد كانت هذه المدن تخدم روما ، عن طواعية ، كأنما كانت تدافع عن قضيتها الخاصة بها .

وكان منح الجنسية الرومانية ، وهو الميزة الرئيسية في السياسة الخارجية لروما ، أسلوباً بلغ الغاية في الدهاء والفطنة . فلم تفكر اية أمبريالية قديمة — وان كان الفراعنة قد بدأوا في التخطيط لهذه الفكرة بالنسبة للنوبة — في تلك الوسيلة التي لا تقاوم لربط الشعوب بها . ففي حالة الاشيمينيين ، او في امبراطورية الاسكندر ، كان الحاكم يعتبر نفسه وحدة واحدة مع البلد التي يعتزم حكمها ، وكان المبدأ الذي يسود البلاد المحكومة يرتبط بالحكم ارتباطاً لا ينفصم ، فاذا مات الرجل او اختفى المبدأ ، ما يلبث البناء ان ينهار . اما روما فقد تصرفت على عكس ذلك ، لم تكن تعتبر الشعوب او المدن الخاضعة لها وحدة واحدة مع رجل حاكم لا ضمان لمصيره ، ولا

وحدة مع مبدأ قد يختفي ، بل كانت تعتبرها متحدة بالشعب الروماني نفسه اي بالشعب المنتصر. واذن فقد شارك المهزومون المتحالفون في ذلك الانتصار . وتقاسموا مع روما سيادتها التي اصبحت سيادتهم ايضاً. كان هذا التدبير من الناحية السيكولوجية موفقاً . كان يؤثر على من عانى الهزيمة بالأمس ، فاذا به يصبح اليوم متمتعاً بقوة وسلطة لا حد لها . وكان ذلك شعوراً ايجابياً صحياً مقوياً .

كان الرومانيون هم الامبرياليون الاول الذين طبقوا منهج التمثل، ولم يكن ذلك بطريقة مرسوم . فاذا لم يكن الروماني بتجريبية عشوائية بل باسلوب منهجي يتمتع بموهبة الابداع والخلق ، فقد كان في مقابل ذلك يتصف بملكات التنظيم والتأقلم . كانت العبقرية الرومانية تتلخص في التأقلم مع الاكتشافات والاختراعات التي يبدعها الآخرون ، وتكييفها بحيث تتلاءم مع احتياجات روما . وكان العقل الروماني الواضح المنظم التركيبي الذي ترتب عليه ظهور اول المشرعين في العالم ، مدعماً بالحس الواقعي السليم (فطنة الفلاحين) هو الذي نجح في صهر وتنظيم مجموعة المعارف التي ضمتها روما اليها كما ضمت الأراضي والناس ، بحيث اصبح الكيان الروماني الذي اندمجت به عناصر متباينة ، حقيقة واقعة . وهكذا اكتفت روما في أغلب الأحيان باعادة تصدير ما استولت عليه ، في البلاد التي فتحتها ، من اكتشافات واختراعات كانت هذه البلاد نفسها قد ابتدعتها في الماضي ، ولكن روما خلعت عليها في دهاء ، طابعها الروماني الخالص . كان اضفاء الطابع الروماني على المدن ، والأمم ، والشعوب ، المنضمة ، او المفتوحة ، ينحصر في النهاية في ارغامها على تمثل قيم الحضارة التي زعمت روما انها قيم رومانية تتفوق على كل القيم الاخرى . لقد كانت ملكات التركيب والتنظيم والتنسيق التي تتشكل منها المساهمة الوحيدة التي قدمتها روما ، سبباً في تحقيق تقدم واضح : عالمية الثقافة . ان هذه الملكات تفسر ايضاً التفوق الروماني في الميدان العسكري . هناك اسطورة عنيدة تقول بأن الجندي الروماني هو افضل واشجع جندي في العالم . ولكن النكسات التي

عانتها الفيالق الرومانية ، عدة مرات ، وبخاصة في بلاد الغال ، وعلى الرغم من انعدام التنظيم في تلك القبائل التي كانت فقيرة في المعدات والاسلحة ، هذه النكسات تكذب ذلك الرأي .

لا ، الواقع ان التفوق الروماني يكمن في ميادين التنظيم ، والنظام ، والسلاح . وبعد عشرين قرناً نجحت قوات موسوليني الفاشستية بدورها في سحق المقاتلين الاثيوبيين ، نجحت في ذلك بمشقة كبيرة وبعد نكسات كثيرة ، وبعد انقضاء زمن طويل ، ولم يكن هؤلاء المقاتلون الاثيوبيون يملكون الا سهامهم ورماحهم يقاومون بها دبابات الهجوم ، والرشاشات ، والمدافع ، وقاذفات القنابل . هذا الى أن القول بشجاعة « الجندي الروماني » يساهم في استمرار سوء فهم للاوضاع . لم يكن **الجندي الروماني** بالضرورة ينتمي الى مدينة روما في الاصل بل لم يكن بالضرورة ينتمي الى شبه الجزيرة كلها . لقد كان امتداد الجنسية الرومانية الى كل الشعوب المغلوبة على امرها يجعل من الغاليين ، او اليونانيين ، او غيرهم ، جنوداً رومانيين . وفي السنوات الاخيرة من الامبراطورية لم يكن اكبر قادة الجيش بل لم يكن بعض الأباطرة انفسهم رومانيين في الاصل . فالأصح اذن ان نشيد ببسالة الجندي الغالي او النوبي او الاسباني او الاثراسي او اليوناني الذي اكتسب الجنسية الرومانية بدلاً من ان نشيد بالجندي الروماني .

كان التوسع الصاعق الذي قامت به روما ، من ناحية اخرى ، مرتبط بعاملين مكملين . كان الشعب الروماني شعباً فتياً ديناميكياً انتشى بخمر انتصاراته واستمد منها أسباب جهد موصول مستمر . اما الشعوب التي واجهته فقد كانت إما شعوباً تفتقر الى **التنظيم** وتقف على مستوى تكنيكي ادنى ، مثل الغاليين ، أو شعوباً **منهكة** أوهنت قواها جهودها نحو التوسع ، مثل الاتروسكيين او القرطاجنيين ، واما شعوباً منهكة ومنقسمة على نفسها في الوقت نفسه نتيجة للصراعات الداخلية العقيمة ، مثل شعوب الشرق . واستفاد الرومانيون من كل هذه الميزات : سحقوا الشعوب غير المنظمة ، واستغلوا حالة الانهاك والانقسام التي كانت تعانيها الشعوب الاخرى .

الذئبة وجشعها :

اذا لم تكن روما في البداية قد هاجمت الا على سبيل الدفاع عن نفسها فانها شيئاً فشيئاً اخذت تخضع لديالكتيكية الحركة واخذت تهاجم في سبيل الفتح . وللفتح ، في ذاته ، تبريره : فكلما بعدت حدود الامبراطورية عن مركزها الحيوي ، قلّ الخطر الذي تتعرض له روما من جراء ضربات العدو . وبعد ان دمرت روما قوة الاترسكيين توجهت بأبصارها الى الجنوب . وأدى صراعها مع تارنت ، على الرغم من تدخل فيروس ملك ابيريا ، الى احتلال اليونان الكبرى .

واتخذ الرومانيون تعلة لا صحة فيها من المواجهة التي قاموا بها ضد المامارتينيين الذين ترجع اصولهم الى كمباينيا ، والتزموا التزاماً حاسماً كان من شأنه ان يقرر الاتجاه الاستعماري لتوسعهم : نزلوا في ميسينا ، وابدوا ارادتهم في منازعة سيراكوز في سبيل السيطرة على صقلية وقرطاجنة . « في اليوم الذي عبرت فيه الفيالق الرومانية مضيق ميسينا ، بدأت الامبريالية الرومانية ، عن وعي أو عن غير وعي ، تفتتح السلسلة الطويلة من الحروب الاستعمارية ، وتقذف بنفسها نحو قهر العالم المتوسطي »[1] .

واذ انسحبت سيراكوز على الفور من الصراع ، هاجمت روما قرطاجنة للوصول الى السيطرة على البحر الأبيض المتوسط . وكانت تلك هي الحرب البونية الاولى . وكسبتها روما . وضمت اليها ، في صلح ٢٤١ ، صقلية باستثناء مملكة سيراكوز ، وسردينيا ، وكورسيكا . وفي ٢١٨ استأنفت روما الحرب ، وتدخلت روما في شبه جزيرة ايبيريا ، بتحريض من حليفتها مساليا (مرسيليا) التي كانت تخشى تزايد سيطرة قرطاجنة في اسبانيا تحت حكم اسرة باركا وعلى الاخص في عهد هانيبال . فكانت تلك هي بداية الحرب البومية الثانية . ولم يبتسم لها الحظ في تلك الحرب ، في بداية الامر :

---

(١) ل . هومو : « ايطاليا البدائية وبدايات الامبريالية الرومانية »

انهزم قادتها العسكريون وقتل ببليوس سيبيو ، وعبر هانيبال جبال الألب وأخذ يهدد العاصمة . ولكن العجلة دارت فاذا بابن ببليوس سيبيو يثأر لمقتل أبيه ويستولي على الاقاليم المفقودة . وعزل هانيبال في ايطاليا واضطر الى العودة الى افريقيا حيث واجه سيبيو . وهزمه سيبيو في زاما في ٢٠٢ واستحق بذلك لقبه : الافريقي .

كانت شروط معاهدة الصلح تظهر ، للمرة الاولى ، الدافع الاقتصادي الذي حفز روما منذ تلك اللحظة الى المضي في طريق الاستعمار : « ارغمت قرطاجنة على ان تدفع تعويضاً فادحاً عن الحرب لفترة خمسين عاماً ، وان تتنازل عن الاقاليم التي كانت تسودها في شبه جزيرة ايبيريا ، بما فيها من مناجم الفضة . كان الشيوخ الرومانيون يعرفون قيمة الربح ، ولذلك آثروا ان يتركوا خصمهم في حالة عجز كامل حتى يحصلوا منه على تعويضات جسيمة من المال وان ينظموا استثمار الثروات المعدنية في الدورادو الغربية »[1] . وانتفضت قرطاجنة انتفاضة اخيرة فتمردت ، ولكنها سحقت ودمرت تدميراً شاملاً تحقيقاً لامنية كاتو .

وما ان قلبت روما هذه الصفحة حتى اولت الشرق كل عنايتها . وبحجة القيام بوساطتها في اليونان ، استطاعت روما ان تبقي كل المدن الهيلينية في قبضتها . ولا شك أنه من حشو القول هنا ان نروي كل الاحداث التي تتكون منها حملات بومبي وأنطونيو في الشرق ، أو حملات قيصر في بلاد الغال ، وبخاصة ان معظم هذه الاحداث يعرفها عامة القراء ، ومع ذلك فانه من المجدي ان نعرف كيف غرست روما نفسها في البلاد المفتوحة ، وطبيعة تلك العملية ومناهجها .

ففي الفترة التي كانت روما تشن فيها الحرب على الشرق ، انشأت سبعة أقاليم . وعندما أصبحت صقلية ، وكورسيكا — سردينيا ، اقليمين من اقاليم روما ، كانت روما ترسل اليها قائدين بحريين ومدنيين في كل عام حتى يكون

(١) ج — ر . بالانك : « الامبرياليات القديمة » .

الشعب الروماني ممثلاً بواسطة موظفين يستمدون سلطتهم من « الامبريوم » . كما كانت روما تجبي ضرائب فادحة نسبياً وان كانت المدن المتحالفة او المتمتعة بالحصانة تعفى منها . كما اقامت روما في هذه الاقاليم مؤسساتها العامة . كانت سلطة المنتصر سلطة مطلقة . وكان حاكم صقلية ، وحاكم كورسيكا ـ سردينيا لهما السلطة المطلقة في كل الميادين : العسكرية والقضائية والمالية والادارية . ولم يكن يحد من هذه السلطة المطلقة الا قانون الحماية الذي يعرف باسم ـ « ليكسبروفنيسيا » . وهكذا كان الوضع في كل الاقاليم التي افتتحت حديثا .

وفي ١٩٧ انشىء في اسبانيا اقليمان جديدان ، ولكن الايبريين قاوموا القهر الروماني باستماتة طوال القرن الثاني كله تقريباً . وكان حصار نومانسي من اشهر احداث هذه المقاومة . وطبق الرومانيون هنا نفس اساليب « استتباب الهدوء » التي طبقها الغزاة الاسبانيون في القرن السادس عشر في المكسيك : وهي المناهج النموذجية التي يلجأ اليها الاستعمار . فنحن نجد مثلاً ان القنصل كاتو ، المبعوث فوق العادة ، في ١٩٥ ، جرّد ثلاثمائة مدينة ومحلة من ممتلكاتها ، وفي ١٥١ قام الحاكم جالبا بمذبحة ضخمة اباد فيها قبائل كاملة بعد أن بذل لهم وعود السلام .

الرأسمالية المنتصرة :

ومنذ ١٦٠ ظهر عامل حاسم من عوامل الاستعمار اخذ يكتسب اهمية متزايدة : العامل الرأسمالي . فمنذ بداية هذا القرن نشأت ونمت شركات قامت نتيجة لعمل ملتزمي الدولة او مزارعيها ـ الذين عرفوا باسم بيليكاني والذين كونوا فئة جديدة . واخذت هذه الشركات على عاتقها مهمة تموين الحرب والأعمال العامة ، واستغلال الأراضي ، والمناجم ، والغابات التي تملكها الدولة وجباية الضرائب الاقليمية ... الخ . كما تولدت عن التجارة البحرية الجديدة فئة جديدة من رجال الأعمال ـ نيجوتياتوريس ـ أثروا من التصدير والاستيراد وتجهيز السفن والأعمال المصرفية . وتكونت من هاتين

الفئتين من الرأسماليين طبقة الشيفاليه او « حزب الفرسان » . وكان هذا الحزب يدعو الى الحروب فهي دائماً تعود عليه بالأرباح ، كما يدعو الى ضم الأقاليم الجديدة وهي اكثر ربحاً إذ انها تمثل ثروات تنتظر الاستثمار ، واعمالاً تنتظر الادارة والتوجيه ، وجزية تنتظر الجباية . ومع ذلك فقد اصطدم « حزب الفرسان » بطبقة الرجعيين الهيابيين الذين كانوا يخشون المغامرة — وتذكرنا هذه الطبقة بطبقة الرجعيين الفرنسيين الذين ناصبوا فكرة الاستعمار العداء في عهد جول فري — وكان لتلك الطبقة في روما ممثلون كثيرون في مجلس الشيوخ . وقام صراع خفي على النفوذ بين هذين الحزبين خرج منه « حزب الفرسان » منتصراً في النهاية .

وعندما كان يتضح ان القوة لا غناء فيها كان الرأسماليون يلجأون الى الدبلوماسية . وعلى هذا النحو فقد كان من الواضح ان نفوذ رجال المال الرومانيين ، ومفاوضاتهم ، هي التي ادت الى ان ترث روما مملكة برجام ، ١٣٣ ، فقد كان في ذلك ما يحقق مصلحتهم : وفي ١٢٩ أصبحت هذه المملكة اقليماً من اقاليم روما الآسيوية . وفي ١٢٥ شكا المساليون ، بالاتفاق مع المضاربين الرومانيين ، من ان جيرانهم قد هاجموهم . وسرعان ما تقرر ارسال حملة الى بلاد الغال . وعندما استتب الهدوء في الغال ، طبق الرومانيون فيها مناهج الاستعمار ، وان كانت طبيعة التوسع هنا اقليمية ، وكان وجود الرومانيين اقرب ما يكون الى الاحتلال منه الى اي شكل آخر من اشكال الاستقرار .

وأسست مستعمرات رومانية في الاقاليم ، على غرار المراكز العسكرية التي اقامها المواطنون على سواحل ايطاليا : في ١٢٢ ، بجوار قرطاجنة التي تم تدميرها ، وفي ١١٨ ، على مفترق الطرق الذي يقع عند ناربون ويشكل نقطة التقاء للأعصاب الحيوية في هذه المنطقة . وكانت أشهر هذه المستعمرات هي المستعمرة التي انشئت في داشيا ، على ساحل البحر الأسود والتي ظهر فيها اشد الشعوب البلقانية التصاقاً بأصلها الروماني : شعب رومانيا . وقد

نفي اليها أوفيد ومات فيها بعد ان نفث ماكان يشعر به مرارة في كتابه المعروف « الاحزان » .

وقد بلغ من جرأة « حزب الفرسان » ومن تخليه عن كل قيم خلقية ، انه لم يكن ينكص أمام شيء . فقد تهور لوكولوس قاهرميتريداتيا وجرؤ على أن يضع حداً لنسبة الفائدة ولمطالب المرابين ، فأثار « حزب الفرسان » على الفور المتاعب في صفوف جيشه ونجح في أن ينحيه عن القيادة . وكان بومبي هو صنيعة الرأسماليين ، خاضعاً لأوامرهم في مقابل تأييدهم له ، وقد نجح الرأسماليون في ان يضعوه على رأس القوات التي كان عليها ان تسحق ميتريداتيا وان يخلعوا عليه سلطة غير عادية . وكان شيشرون هو لسان حال الرأسماليين ، فأعلن أن تعيين بومبي على رأس تلك القوات ، يتوقف عليه « مجد الشعب الروماني ، وخلاص شعب روما ، وواردات الدولة ، ومستقبل المواطنين الكثيرين الذين لهم مصالح في آسيا » . وأنشأت روما في كل مكان ، على عتبات الامبراطورية ، محميات كانت تمثل بالنسبة لها مصادر للايرادات الاضافية للفرسان . وكانت تكتفي ، للحفاظ على هذه المحميات من الهجمات الخارجية ، بأن تبيد الغزاة الأجانب او تشتتهم وتردهم على اعقابهم : وفي عام ١٤٨ اقيمت مقدونيا باعتبارها اقليماً من اقاليم روما ، وعهد بحكمها الى قنصل ، وسلمت امورها الى البيبليكاني الذين تولوا مهمة استثمار المناجم ومد الطريق وجباية الضرائب . وهكذا يبدو أن الامبراطورية الرومانية كانت إرهاصاً بالامبراطوريات الاستعمارية الاوروبية في القرن التاسع عشر ، بشركاتها . وكان الربح يرتبط كذلك بالاستعمار الذي كان بذاته مرادفاً للاستغلال : كانت الاجراءات الرأسمالية تترتب عليها ايضاً تنمية متزايدة للاستعمار وللاضرار التي تتأتى عنه في البلاد الخاضعة .

ومع ذلك فقد قضى على روما غلوها في التوسع . ففي السنوات الأخيرة من الامبراطورية كان بعض المفكرين يتنبأون بالكارثة النهائية ويدينون أسبابها ، ونحن نسمي مثل هؤلاء المفكرين اليوم بالاخلاقيين الليبراليين أو نسميهم

« غير المحافظين » . فمنذ عهد الجمهورية اصدر سالوست ادانة لا رحمة فيها للاستعمار كتبها على شكل خطاب تخيله صادراً من ميتريدات الى ملك البارتيين : ووصف فيه الرومانيين بأنهم لصوص ، نهابون ، مخربون ، يستميتون في القضاء على اولئك الذين « تترتب على هزيمتهم اعظم الغنائم » . وقد تناول فلوروس هذا الموضوع نفسه مع اختلاف في بعض التفاصيل. وكان من رأيه ان روما قد افسدتها سوريا المغلوبة على أمرها ودبّ اليها العطب من جراء استيلائها على تركة ملك برجام في آسيا : « لست ادري ما اذا لم يكن من الخير للشعب الروماني ان يكتفي بصقلية وافريقيا ، بل ان يستغني عنهما لكي يحكم ايطاليا فقط حيث يكون في وطنه ، بدلاً من ان يوسع من حدوده حتى يلقى حتفه من جراء أفعاله نفسها » . ومهما كان في هذا القول من ادراك سليم ، ومهما كان فيه من نبوءة صادقة الى حد ما ، فيلوح لي مع ذلك ان هذا الإنكار الذي جاء متأخراً للامبريالية يشبه التعالي الذي يفصح عنه الاغنياء بازاء ثرواتهم دون ان يتخلوا عن قسط منها بأي حال. ولكن هذه الوثيقة مع ذلك تشهد بالقلق والاحساس بالذنب الذي كان يتفشى في اوساط واسعة من المثقفين الرومانيين . وهي لذلك تثير اهتمامنا . لقد كان فلوروس محقاً اذ جاءت الاحداث بمصداق نبوءته واخذت الغزوات الرومانية تكتسح ما يقع أمامها ، فلا تجد الا شبح امبراطورية انهكتها فتوحاتها وسحقها ثقل كل الذهب الذي في العالم .

الفصل الثالث

الذهب والصليب والسيف

١. التوسع المسيحي

نكوص أوروبا :

ترتب على سقوط الامبراطورية الرومانية نكوص أوروبا نكوصاً ملحوظاً . واتفق هذا النكوص الذي لم يكن من الممكن تجاوزه الا بعد ذلك ببضع قرون ، مع ظهور المسيحية . كانت السلطات الرومانية تضطهد المجتمعات المسيحية الاولى . ولكن الامبراطور قسطنطين الاول المعروف بقسطنطين الكبير اعتنق الديانة الجديدة وجعل منها ديانة الدولة . لقد نجمت عقابيل مشئومة عما عرف باسم المذهب القسطنطيني أي التواطؤ الوثيق لا بين الكنيسة والدولة فقط على مستوى المجتمعات الانسانية بل بين الجانب الروحي والجانب الدنيوي على مستوى أعمق من ذلك . وكانت أخطر هذه النتائج هي تبعية الجانب الروحي للجانب الدنيوي في نهاية الأمر . لقد التمست الكنيسة من الدولة قوتها المادية ، وبذلك عقدت صفقة أدرك المجمع الفاتيكاني الثاني مدى ما فيها من خديعة ، ذلك ان الحصول على هذه القوة ما لبث أن ترتب عليه اضعاف الطاقة الروحية للمسيحية . ومع ذلك فان « المذهب القسطنطيني » قد لعب ، تاريخياً ، دوراً حاسماً ولكنه مؤقت في الأزمة الأوروبية ، في بداية العصر المسيحي . والواقع ان الكنيسة ، اذ ورثت التركة الرومانية ، وورثت معها في نفس الوقت تقاليدها الاستعمارية ، قد ظلت هي السلطة الوحيدة القادرة على امتصاص الغزوات وتمثلها في النهاية ، وعلى ان تأخذ

على عاتقها مسئولية نكوص أوروبا، وان تمدها بالايديولوجية والديناميكية اللازمة لتوسع جديد.

مارست الكنيسة وظيفة مزدوجة باعتبارها نقطة حشد، ومفاعلاً مساعداً. كانت نقطة حشد ومركز اتصال بين العالم القديم والعالم الجديد الذي يأخذ في بناء صروحه. وكانت تلخص المدنية الأوروبية في المرحلة التي وصلت بها اليها روما. وظلت الكنيسة هي الحافظة لمقتنيات وانجازات أوروبا اليونانية - الرومانية. وكانت مفاعلاً مساعداً للقوى الجديدة التي تكمن في الشعوب الفتية المنبثقة عن الغزوات، احتجزت هذه القوى، وعدلت من مسارها، ونقلت اليها التراث اليوناني - الروماني، واستثمرت ديناميكيتها الطبيعية لأغراض جديدة «في مهمات البناء» وتولت في النهاية امر انصهار القديم والحديث، ومن هنا ولدت اوروبا العصور الوسطى وعصر النهضة. كانت الكنيسة، في السياق الغربي، رومانية اولاً، أي خاضعة تماماً للتقاليد القانونية التي استنتها روما. ولكنها كانت أيضاً غالية، قوطية، وفرنكية، بمعنى ان شعوب الغزوات بينما خضعت لتفوق حضارة اكثر تقدماً تمثلها الكنيسة، ادخلت عليها مع ذلك تعديلات جسيمة صادرة عن تصوراتها وعاداتها واخلاقها المتميزة. ولكن الكنيسة في الشرق لم تمر بمثل هذا التطور فقد اتحدت بالامبراطورية البيزنطية. وكانت هذه الامبراطورية قد انفصلت عن روما فلم تعد تخضع لقانونها ولا لروحها، وكانت اقل تأثراً منها بالغزوات اذ نجحت في صدها عن حدودها، وبذلك احتفظت باستقرار وان كان حرجاً، الا انه ظل مستمراً نسبياً لفترة طويلة من الزمن. وفي هذا السياق احتفظت الكنيسة بتراثها كاملاً ولم تعدل من تقاليدها التي اكتسبتها منذ نشأتها، واختارت ان تتبع تعاليم التقاليد الشفوية بدلاً من ان تخضع لعقائدية جامدة كتابية. كانت النزعة القانونية والحيوية الديناميكية التي يتميز بها التيار الغربي من الكنيسة والذي كان ينتسب الى الكاثوليكية من ناحية، والنزعة التقليدية والاستاتيكية التي كان يتصف بها التيار الشرقي، الذي ينتسب الى الارثوذكسية

من ناحية اخرى ، من شأنهما أن يؤديا بالكنيسة الى انفصال اطرد ظهوره حتى انتهى بالقطيعة النهائية . —

الغزوات :

في عهد الامبراطور تيودوثوس الأول حاصر القوطيون حدود الامبراطورية الرومانية ، وهم شعب جرماني من اصل اندو أوروبي ، استقر في اسكندنافيا ولكنه كان قد انتشر في روسيا الشرقية والجنوبية . وقد اضطر القوطيون الى ذلك ، من بين اسباب اخرى ، نتيجةً لضغط الهان — وهم شعب آسيوي يمت بصلة الى الاتراك والمنغوليين . وحاول تيودوثوس وخلفاؤه ان يوقفوا هذه الشعوب ، وان يعهدوا الى رؤسائها بوظائف ومسئوليات بل ان يتحالفوا مع عائلاتها (تزوج هونوريوس ، ابن تيوثودوس بنت ستيليكون الواندالي) . بل ذهب الاباطرة الرومان الى حد شرائهم ، حتى يصرفوهم بعيداً عن بيزنطة .

وترتب على موت تيودوثوس الانقسام النهائي في الامبراطورية : واصبح اركاديوس الابن الأكبر امبراطور الشرق ، وهونوريوس الابن الاصغر امبراطور الغرب . وعجّل هذا الانقسام بسقوط وتدمير امبراطورية الغرب التي حرمت من ثروات الشرق ولم تعد تملك صناعة قادرة على ان تكون مصدراً للايرادات ، وقد كان عليها مع ذلك أن تحتفظ بجيش كبير ، وبيروقراطية متزايدة ، وان تكفل للشعب الخبز والالعاب . فمن أين لها بالمال اللازم؟ من دافعي الضرائب كما هو واضح . فأخذت روما — والواقع ان « رافين » هي التي اصبحت عاصمة الامبراطورية الرومانية ، فلم يعد يقيم في روما الا الاسقف الاول للمسيحية : البابا — تفرض ضرائب فادحة على قاطني الامبراطورية . وكان معظمهم من البرابرة الذين اكتسبوا الجنسية الرومانية او تحالفوا مع روما ، مما ادى الى نشوب الثورات والقلاقل . وكانت هذه الثورات الداخلية ، بالاضافة الى الغزوات المتعاقبة التي اكتسحت الامبراطورية

الغربية من الخارج ، مما اسهم في زعزعة مقاومة الامبراطورية بشكل كان يزداد خطورة يوماً بعد يوم.

وفي ٢٤ أغسطس ٤٠٨ تغلغل الملك آلاريك ملك القوطيين الشرقيين حتى وصل الى روما التي ظلت منيعة لم تنتهك حرمتها منذ الغزو الغالي عام ٣٩٠ قبل الميلاد. كان ثيودوسوس قد استطاع ان يهدىء من عنف هذا الملك القوطي ، ولكن اركاديوس كان قد وجهه ، في حصافة ، ناحية الغرب. وفي ٢ يونيو سنة ٤٥٥ استولى جنسيريك ، على رأس الونداليين ، على المدينة الخالدة بدوره. وبين هذين التاريخين تعرضت ايطاليا لهجوم مستمر من جانب قبائل مختلفة ومتنوعة. كان كل هذا الهجوم قد بدأ في سنة ٤٠٦ عندما انقضت أقوام مختلفة منها الاقوام الجرمانية ، من الوندال ، والسويف ، ومنها قوم من أصل ايراني هم الآلانيون ، تحت ضغط قبائل الهان. واكتسحت هذه الاقوام جميعاً بلاد الغال واسبانيا. وتبعتها بدورها قبائل الهان التي قامت بالغزوات الاولى. كان أتيلا وجحافله قد قضوا على مملكة القوطيين الجنوبيين ، في روسيا الجنوبية ، وارغموا القوطيين الشرقيين على النزول جنوباً ، واستقروا في حوض نهر الدانوب « المجر الحالية » — مما ترتبت عليه حركة الغزو الكبرى في سنة ٤٠٦ — وبعد ذلك واصلوا حملاتهم في اتجاه بيزنطة لفترة من الزمن : (واستولوا على بلجراد) ولكنهم اصطدموا بمرسيان الامبراطور الشرقي ، فاتجهوا ناحية بلاد الغال واتخذوا نفس الطريق الذي سلكه من قبلهم الواندال والسويف ولكن القوطيين الشرقيين أوقفوهم. وعادت قبائل الهان على أعقابها في اتجاه بانونيا (اقاليم مملكة الماجيار المستقبلة) وجمعوا قواهم من جديد واستأنفوا الهجوم على ايطاليا هذه المرة. واستطاع آتيلا ان يستولي على اكيليا ، ثم ميلان ثم بافيا واخيراً حاصر روما ، ولكنه لم يدخلها. وقبل شروط ليون ، اسقف روما ، وجلا بقواته عن ايطاليا ، وعاد محملاً بالذهب والجواهر الى بانونيا ، حيث ما لبث ان قضى نحبه.

على ان هناك اقواماً اخرى كانت تقوم بحركات واسعة النطاق. غادر

الألمان والفرانك جيرمانيا واتجهوا نحو الجنوب ، واستقر الالمان في منطقة الالزاس واللورين الحالية ، بينما استقر الفرنك في منطقة الغال وبلجيكا (مملكة تورناي) . واستقر البرغنديون المتحالفون في مناطق ليون ، وفيفاريه ، والمناطق المتاخمة لنهر ديرانس . أما القوطيون الشرقيون فقد احتلوا مساحة شاسعة تمتد من اللوار الى مضيق جبل طارق ومن المحيط الاطلنطي الى الالب البحرية .

واخذت الامبراطورية تتفكك من كل ناحية ، واخذ يتنازع العرش اباطرة يقومون بدور الدمى في أيدي الاحزاب والجماعات « البربرية » المتنازعة . وجاء أحد زعماء ثورة من الثورات العسكرية الاخيرة (اورست) وقد كان سكرتير آتيلا ، فتنازل عن العرش لابنه . وكان هذا الابن ، لسخرية القدر ، يحمل اسم احد مؤسسي روما – فيما تجري به الاساطير – روميلوس اوجستول ، فكان آخر امبراطور في الامبراطورية الرومانية الغربية . وقرر احد زعماء المرتزقة القوطيين والسكريين والهيروليين المتمردين – وهو اودواكر – ان يقضي على الامبراطورية المتهاوية : فقتل اورست وسجن روميلوس في سبتمبر ٤٧٦ «كان أول ما قام به اودواكر – بعد ان استقر في قصر رافين – ان يحزم الشارات والالوية الامبراطورية وان يرسلها الى بيزنطة . لقد ماتت الامبراطورية الرومانية في الغرب »[١] .

ان عام ٤٧٦ يصبح بذلك احد الاعوام الرئيسية في التاريخ ، فهو العام الذي اعترفت فيه روما بأنها قد انهزمت هزيمة نهائية امام الغزوات . ولكن هذه الغزوات لم تكن تنتمي ، في اي لحظة من اللحظات ، الى شكل ما من اشكال الاستعمار ، ولا من أشكال التوسع الواعي المقصود المنظم . كانت الفوضى هي ميزة هذه الغزوات أساساً ، وكانت حوافزها العميقة حوافز فطرية وحيوية (ترجع الى اكثر العوامل بدائية في ردود الفعل الحيوية) .

---

(١) بيير ريشيه : الغزوات البربرية .

الغزو الفرنكي :

ما ان استقرت الشعوب المنبثقة عن الغزوات حتّى بلغت مرحلة عليا من مراحل التطور، هي مرحلة التنظيم. ولكن ذلك لم يتأت دون صَدْمات ودون مواجهات عنيفة. ان الفرنكيين الذين شاهدناهم في مرحلة سابقة ضحية لغزو الغاليين ـ البلجيكيين قد تحولوا الى شعب منظم يخضع لنظام دقيق، في مرحلة تالية، وقاموا بفتح مساحات شاسعة في جنوب الميز والاسكو، وكان هذا الفتح شكلاً من اشكال التوسع الواعي المقصود.

وعندما اعتلى العرش كلوفيس، حفيد ميروفيه، الذي كان ينتمي الى فرع الفرنكيين الساليين، لم يكن بعد الا ملك تورنيه. وهو قليل بالنسبة لرجل له طموحه وقدره. كانت الغال في تلك الفترة منقسمة الى مملكتين: الالامانية والبرفوندية، في شمال اللوار، وكانت تحتلها في الجنوب دولة القوطيين الشرقيين الشاسعة. وبعد أن هزم كلوفيس، سياجريوس ابن ايجديوس، بدأ فاستولى على السواسون ثم هاجم الالالمانيين وهزمهم في تولبياك.

ثم عبر اللوار وواجه آلاريك الثاني ملك القوطيين الشرقيين. كان كلوفيس قد اعتنق المسيحية منذ عهد قريب، وكان يعرف ان الاسقفية تؤيده، اذ كانت تشكو من الاحتلال القوطي. ولكن الغاليين الرومانيين لم يكونوا يقفون في صفه اذ كانوا يؤثرون سيطرة أمير آريّ قد شكلته الثقافة والتشريعات الرومانية، على امير مسيحي ما زال «بربرياً» بعد. وتحالف كلوفيس مع البرغنديين واستولى على اوفارني ووصل الى آرل. ولكن تيودوريك، ملك القوطيين الجنوبيين الذي كانت سيطرته تمتد فتشمل ايطاليا كلها[1]، يبادر الى نجدة صهره آلاريك، وباسم التضامن بين القوطيين جميعاً، يرد الفرنكيين

---

(١) كان زينون امبراطور الشرق قد تخلص من تيودريك بان حضه على استرجاع أيطاليا باسمه من اودواكر.

والبرغنديين الى جنوب اللوار . ولم ينجح كلوفيس في زحزحة سلطة القوطيين عن قلاعها الرئيسية : ايطاليا ، واسبانيا ، والبروفانس ، والألب البحرية . فنتج عن ذلك اقامة حدود لغوية وثقافية سوف تكون الأساس لتميز حضارتي جنوب أوروبا ووسطها ، لقرون طويلة من الزمن .

تقبل كلوفيس هذه الهزيمة واكتفى بأن يجمع الاقوام الفرنكية وان يثبتها في مجال اقليمي يمتد من كلوني الى خليج غاسقونيا . ومات في ٥١١ وهو في الخامسة والأربعين من عمره . وبعد اقل من ثلاثة قرون تكونت من جديد ، على القاعدة التي اقامها كلوفيس ، دولة هائلة ، هي دولة شارلمان ، التي انتسبت الى الامبراطورية الرومانية ، وان لم تكن لها بها علاقة . فهل نحن بحاجة الى ان نؤكد ان الفتوحات الميروفية لم تكن لها نقطة التقاء مع التوسع الاستعماري ؟ .

الثيوقراطية (الحكومة الدينية) الشرقية :

استطاعت بيزنطة كما رأينا ان تفلت من القدر المشئوم الذي حل بروما ، بفضل حصافتها الدبلوماسية ، وبفضل ثرواتها التي لم ينضب لها معين . وتخلصت من اكثر الغزاة عتواً وعنفاً ، ورفضت باطراد كل القيم اللاتينية التي اخذت بها روما : وسرعان ما حلّت اليونانية محل اللاتينية في مقام اللغة الرسمية . واتخذ القانون الروماني مسحةً شرقيةً ، وأخذ الفن « البيزنطي » يستوحي الموضوعات الفارسية والسيريانية والارمينية . لقد رأينا ، منذ عهد الاسكندر ، ان التغلغل الثقافي الهيلينستي في اقاليم آسيا لم يستطع قط ان يقاوم تغلغل القيم الآسيوية في اليونان . وما أن « خُلع » آخر اباطرة الغرب ، وما ان سقطت أوربا الغربية في أيدي البرابرة ، حتى أخذت امبراطورية الشرق ، وقد عزلت عن روما ، تبدو بشكل يزداد وضوحاً آخر الامبرياليات اليونانية في التاريخ .

هذا الى ان الامبراطورية البيزنطية قد اصبحت دولة ثيوقراطية : كانت

الديانة المسيحية تتحكم في كل جوانب الحياة الاجتماعية تحكماً مطلقاً لا معقب عليه ، كان القانون الالهي يضفي على الاباطرة طابع القداسة ويكسب اعمالهم تبريراً لا يمكن ان يناقش ، وكان كل عمل يبرر تبريراً دينياً او تتخذ له تعلة دينية . وتحت ستار الدين ، وكفالته ، كانت تشن الحروب ويتم التوسع ، ويستمر الطغيان .

وبعد ان مرت المرحلة الحرجة للغزوات ، عرفت الامبراطورية الشرقية أسباباً أخرى تدعو الى القلق : وكانت آسيا هذه المرة مصدر تلك الأسباب . أعاد الفرس في ٢٢٥ انشاء الاسرة الساسانية والعقيدة المزدوكية . ونشبت الحرب بين الفرس والبيزنطيين باعتبارها **حرباً دينية** حيث وقفت عقيدتان لا هدنة بينهما وجهاً لوجه . وفي ٦١٤ هاجم الفرس اورشليم ، واخذوها عنوة ، واستولوا على « الصليب المقدس » وفي ٦٣٠ هزم هرقل الفرس واستعاد الصليب وارجعه الى القبر المقدس في احتفال مهيب . ألم يكن في ذلك ارهاص بالحروب الصليبية ؟ لا . بل كانت تلك **بالفعل** حرباً صليبية .

التوسع الاسلامي :

بينما كان البيزنطيون والفرس يستنفدون قوى بعضهم البعض في هذه المبارزة القاتلة ، ظهر محمد وأخذ يوحد بين أقوام شبه الجزيرة العربية فيما يمكن ان نسميه **توحيداً فيدرالياً** . وقد جرت التقاليد على التفرقة بين طائفتين من العرب يجريان على طريق التاريخ كفرسي رهان ، وينتسبان الى سلالة ابراهيم : عرب الجنوب (العرب اليمانية) من أبناء قحطان ، وعرب الشمال (العرب النزارية) من أبناء اسماعيل . وينتمي محمد الى قبيلة قريش ذات القوة والمنعة ، التي تنتسب الى العرب النزارية ، وقد ولد في مكة ، وبعد ان استغرق به الزمن بضع سنوات دعا فيها الناس الى ديانته ، بالقرآن ، ثبت له ألا طائل كبيراً يرجى من ذلك ، في عقر مدينة عشيرته ، مكة ، فدعا المؤمنين برسالته الى الهجرة من مكة ، وهاجر منها خفية عن العيون في ٢٤

سبتمبر ٦٢٢ . لقد دق ناقوس التوسع الاسلامي[1] . وبسط محمد ومريدوه شبكة نفوذهم واشعاعهم على جانب كبير من شبه الجزيرة العربية ، ثم هاجموا الشام حيث توقف تغلغلهم سراعا . ومع ذلك فقد بدأت الانطلاقة الكبيرة .

ان نجاح التوسع الاسلامي في عهد خلفاء محمد ، وفي عهد الدولة الأموية بعبارة أدق ، لا تفسير له الا بأن الثورة الاسلامية جاءت في قلب عهد نهضة الشرق الذي هب ضد الهيلينية وضد الارثوذكسية البيزنطية ، آخر شكل من اشكال هذه الهيلينية . لقد كانت الامبراطورية اليونانية — الرومانية الشرقية ، منذ قرنين من الزمان ، تبدو في آسيا تحت صورة عقيدة دينية . وقد أجاب العالم العربي على ذلك ، بالقرآن ، بالجهاد ، بالحرب الاسلامية المقدسة »[2] . ونجحت الدولة الاموية العربية « أن تضم أهل الشام الذين اعتنقوا الاسلام ، الى نواة الفاتحين ، باعتبارهم مواليهم الذين يأخذون بقسط وافر نشيط في تنظيم الدولة وادارتها »[3] .

وفي عهد الامويين بلغت الامبراطورية الاسلامية اعظم مدى من الاتساع . ففي الغرب تعاقب سقوط برقة وتونس ، وفتح المغرب ، وتأسيس القيروان ، وفتح اسبانيا واحتلالها على يدي موسى بن نصير والي المغرب يظاهره مولاه طارق بن زياد الذي يعود اصله الى الشام (وتعود تسمية جبل طارق اليه) ، ثم غزو فرنسا التي كانت تحت حكم الموريفيين . وفي الشرق تعاقب اخضاع الفرس ، والافغان ، وفتح تركستان الصينية ، والتغلغل في بلاد السند والبنجاب . ومع ذلك فقد وضعت ضربتان حداً للتوسع الاسلامي : استطاع ليون الايسوري ، امبراطور الشرق في ٧١٨ أن يرغم الجيش العربي الذي اقبل يحاصر القسطنطينية ، أرضاً ، على التقهقر ، واستطاع شارل مارتل ان يوقف

---

(١) ينبغي من الناحية التاريخية ان نشير الى التوسع الاسلامي لا التوسع العربي ، اذ أن العقيدة الاسلامية سوف تنضوي تحت لوائها فيما بعد شعوب اخرى الى جانب الشعب العربي.

(٢) رينيه جروسيه : « الحروب الصليبية »

(٣) دومينيك سورديل : « الاسلام »

الهجوم الاندلسي في بواتييه ، في ٧٣٢ .

وبلغت قوة السلطان الاسلامي أوجها في عهد الخلافة العباسية : « وعلى ذلك فقد وصل الاسلام الى حدود الصين وبسط سلطانه حتّى المحيط الاطلسي ، واذا كان قد كسب اراضي جديدة بعد ذلك فلم تبلغ امبراطورية اسلامية واحدة ما بلغته من سعة في عهد الخلافة العباسية »[١] . والواقع ان الامبراطورية الاسلامية قد تفتتت الى عدة ممالك في عهد العباسيين .

فهل يمكن ان نعتبر التوسع الاسلامي ظاهرة استعمارية ؟ لا ، فيما أعتقد . ليس ذلك بصحيح ، لا من حيث الاساس ، ولا من حيث البنيان . لا شك أن بعض أساليب الفتح الاسلامي يمكن ان تمتّ بصلة ، في ابعد الفروض ، الى أساليب الغزو الاستعماري ، ولكن ذلك ينطبق على أساليب كل غزو أياً كانت طبيعته . ان التوسع الاسلامي ، **من حيث الأساس لا** تقف وراءه حوافز التوسع الاستعماري ولا يستهدف غايات هذا التوسع . لم يكن الغزو الاسلامي يرمي الى اخضاع الشعوب ولا استغلال مصادر الثروة الاقتصادية في البلاد المفتوحة لصالح الفاتحين وحدهم . بل كان يرمي الى أن تعتنق الشعوب الدين الجديد ، بعد اخضاعها اخضاعاً موقوتاً . كان الفاتح العربي يشرك أهل الشام في الفتح بعد اعتناقهم الدين الجديد ، فيصبح أهل الشام بدورهم فاتحين . وذلك ما لم يفعله المستعمر الأوربي قط . لم يجر فتح أسبانيا على يد العرب بل على يدي الاندلسيين بعد ان اسلموا . هذا الى أن الفتح الاسلامي كان يستلهم هدفاً مزدوجاً : فقد كان يرمي الى غلبة حق القوة ، وقوة الحق في وقت معاً . أما المستعمر الأوربي فلم يكن يستبقي الاّ **حق القوة** . كان الفاتح الاسلامي يعرض على اهل الامصار المفتوحة **حياة جديدة** بمعنى الكلمة يصبحون فيها أكفاء له يقفون معه على **قدم المساواة** . اما المستعمر المسيحي ، عندما كان يدخل اهل المستعمرات في ديانته ، فقد كان

(٣) المصدر السابق .

يمنحهم مساواة شكلية تقع على الصعيد الروحي في احسن الاحوال . اما على المستوى الدنيوي فقد كانت أوربا ، عن طريق المستعمر ، هي التي تحتفظ بكل الحقوق وهي التي تمارس الحكم .

اما من حيث البنيان فلم تكن الامبراطورية الاسلامية ، وهي ثمرة الفتح ، تتميز بالقسمات الخاصة التي يتسم بها الاستعمار . فقد كان مجرد اعتناق الاسلام كافياً أن يتيح لأي شعب ، أياً كان ، ان يشارك في الفتح وفي جني ثمار النصر وتصريف شئون البلاد ، فلم تكن ثم عاصمة ثابتة واحدة يعود التوسع بالمنفعة عليها وحدها . ليس شك في أن نقطة انطلاق التوسع الاسلامي كانت تقع في شبه الجزيرة العربية . ولكن الخلفاء الامويين استقروا في الشام ولم تكن اقليماً عربياً ، واختار العباسيون عاصمتهم في بغداد ، في العراق ، ولم يكن اقليماً عربياً . ولم يكن الفاتحون من العرب وحدهم بل كانوا في اغلب الاحيان من اهل الشام أو مصريين أو اندلسيين . ان ما يسترعي النظر في ظاهرة التوسع الاسلامي انه لم تتحقق السيطرة ، في أية لحظة من اللحظات ، لقوم ما او لجنس ما ، بل كانت سيطرة الدين هي التي تتجاوز اطار الاقوام والاجناس . هذا الى ان الامبراطورية الاسلامية ، كما شاهدنا ، سرعان ما تفتتت ، مما ترتب عليه مولد الدول الاسلامية المستقلة استقلالاً ذاتياً . وعلى ذلك النحو ، فقد كانت اسبانيا تقع تحت حكم الاسبانيين الذين اعتنقوا الاسلام فتغلغل في حياتهم الى أعماق بعيدة ، بعد أن كان لاختلاطهم بالشاميين والمغاربة أثرٌ كبير في خصائصهم القومية . وفي القرنين العاشر والحادي عشر عرفت الاندلس ثقافة رفيعة ، اذ بقيت التقاليد الشامية حية نشطة ، ولم تضارع هذه الثقافة حضارة الشام نفسها بل « عرفت كيف تفرض نفسها فيما وراء الحدود الاسلامية ، وعرفت كيف تسيِّر ، الى حد كبير ، تطور الفكر الاوربي والمعرفة الاوربية في خلال قرون ما قبل عصر النهضة »[1] .

---

(١) أ . ليفي بروفنسال : الحضارة العربية في اسبانيا الاسلامية .

ان ثيوقراطية بيزنطة قد اثارت الرد عليها : ثيوقراطية الاسلام . وعلى ذلك نرى ان التشدّد الاسلامي قد أوقد شعلة التشدّد المسيحي . وجاءت الحروب الصليبية لترد على الجهاد ، الحرب الاسلامية المقدسة . وكانت اسبانيا هي اول بلد تقف فيها الديانتان المتعاديتان ، وقفة بلغت الحد الاقصى من الضراوة ، وجهاً لوجه . وقد بقيت اسبانيا حتى اليوم من آخر البلاد المسيحية التي يسود فيها التعصب للعقيدة . الام نعزو تشدّد المسيحية والاسلام في نشأتهما ؟ أنعزوه الى فترة النشأة الفتية ، أي الى الديناميكية التي تهدف الى استجلاب الانصار والتي تتميز بها هاتان العقيدتان القائمتان على الدعوة والتبشير ؟ أم نعزوه الى أنهما كلتيهما تنتسبان الى الاله **الواحد** وتقومان على دعوى احتكار الحقيقة مما ينطوي على رفض ما يزعمه الآخرون لأنفسهم من حقيقة ؟ ان الشواهد الجادة تدعونا الى اختيار الفرضية الثانية : فما من اثر للتعصب يظهر في تطور ومظاهر الديانات التي تعتنق « حيوية المادة » ، فهي ديانات غير أحادية ، بل هي ديانات بتعريفها ، تقوم على تعدد الالهة .

واياً كان الامر فان سقوط الدولة الاسلامية في الاندلس ، او ما يعرف باعادة الفتح ، لم يكن في الاصل الا أول انتفاضة للاقوام الاسبانية التي افلتت من الاحتلال الاسلامي (الغاليشيين ، والأستريين ، واهل وديان البيرينيه) وسرعان ما اتخذت هذه الانتفاضة لوناً سياسياً . ولا شك أن نداء البابا اسكندر الثاني وجريجوار السابع لنصرة اعادة الفتح الاسباني عدلت تعديلاً طفيفاً من هذا المنظور : فقد ذهب الفرنسيون في آراجون من ١٠٦٣ الى ١٠٦٥ لنجدة زملائهم المسيحيين . ومع ذلك فان من المغالاة القول بأن « العالم الغربي ، بناء على امر البابا ، سارع بالانقضاض على الاسلام » وانه نتيجة لذلك « ولدت فكرة الحرب الصليبية »[1] . ذلك ان نداء البابوات في حالة أسبانيا – كما كان

(١) اوجستان فليش : اشار اليه رينيه جروسيه في « الحروب الصليبية »

في حالة صقلية التي خلصها النورمانديون من الاحتلال الاسلامي — لم يكن يمثل الا تبريراً وضمانةً دينية لعمل من اعمال اعادة الفتح السياسي قد ابتدأ بالفعل. ولم يكن هذا التبرير يهدف الى استثارة الشجاعة المتخاذلة، بل كان يهدف الى نفخ روح الحياة المنطفئة فيها. الا ان ذلك النداء قد اسهم — على اي حال — في تحقيق اول نتيجة حاسمة: الاستيلاء على طليطلة في ١٠٨٥ على يدي الفونس السادس ملك قشتالة.

روح الحرب الصليبية:

كان البيان الذي وجهه البابا ايربان الثاني الى مجمع كليرمونت — فيران في ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ داعياً الى «انقاذ الاماكن المقدسة من الاحتلال وتخليص المسيحيين الذين يقهرهم الاسلام ويضطهدهم» عملاً منزهاً، نسبياً، عن المصلحة (ربما كان واحداً من الأعمال القليلة النادرة في تاريخ الحرب الصليبية المنزهة عن المصلحة بمعنى ترادف المصلحة والمنفعة المادية). ان ما يتميز به هذا البيان من اصالة وتفرد هو أنه، للمرة الأولى، يسبق الحرب والسياسة، بل يدعو اليهما. كان النداء، الى جانب ذلك يتجه الى المسيحية كلها، دون تفرقة في الجنسية، او القومية، وكان يهيب بالمسيحيين ان يعملوا، باسم ديانتهم. من ذلك ندرك لماذا يرتبط العصر الوسيط الاوربي بمنهج ايديولوجي، على خلاف الحضارات السائدة في العالم القديم حيث كانت معايير القيم، معايير ثقافية.

لم يستثر البيان، في بداية الامر، الا الذين كانوا يؤيدون خطط البابا تأييداً تلقائياً، فارتفعت صيحتهم تتردد ألف مرة: «تلك ارادة الله»! كان أول من وضعوا شارة الصليب على صدورهم هم البسطاء من الناس الذين كانت انطلاقتهم سبباً في ان ينضم اليهم الفرسان والبارونات على نحو لا يقاوم. أما الامراء الحاكمون فلم ينضووا تحت لواء الحرب الصليبية الاولى: كانت مصلحة الدولة تبدو متناقضة تناقضاً بيناً مع تلك الحركة الهائلة لايديولوجية

دولية . لقد ظلت اسطورة الحروب الصليبية حتّى النهاية شعلة متقدة تضيء العصر الوسيط ، كله ولكنها اخذت تخبو وينالها الوهن باطراد في اثناء الحملات المتعاقبة . وهي وان كانت قد ظلت مشتعلة عند رجل مثل لويس التاسع ، الا انها مع ذلك قد أخذت « تتدرج شيئاً فشيئاً مع **الفتح** ثم مع **الاستعمار**»[1] .

والواقع ان فتح آسيا الصغرى على ايدي اعضاء الحملة الصليبية الاولى قد أوهن الى حد كبير من حميّتهم **الدينية** ، فقد كان الاستيلاء على أراضي جديدة ونهبها يستثير عندهم الجشع الى الثروات الدنيوية . وكان الرجال الجفاة الغلاظ الذين يتألف منهم الجيش المسيحي ، حيث يكثر « الفرسان — القراصنة » يطلقون السراح ، عن طواعية ، لغرائزهم البدائية ، اذ كانت الكنيسة تمنح غفرانها لكل من ينضم الى الجيش الصليبي . كان هؤلاء الرجال باسم الصليب ، وبحجة اضطرارهم الى ذلك اضطراراً بحكم مهمتهم المقدسة ، يقترفون الآثام ويسرفون في تجاوز كل الحدود .

وما ان انتهت الحرب الصليبية الاولى وحانت اللحظة التي ينبغي فيها تنظيم الغزو ، حتّى ظهرت ضرورة الاستعمار ، مما اسهم في تبديد كل الأوهام الاخيرة التي كان يتعلق بها « الحجاج » الصادقو النية عما يعتقدون أنه « الحرب المقدسة » . وما ان استقر الصليبيون في الشرق حتّى كان سلوكهم بازاء سكان البلاد سلوكاً مزدوجاً : فقد كانوا من ناحية ، وفي بعض الظروف ، (عندما كانت الأحوال غير مواتية) يلجأون الى سياسة التسامح التكتيكي بازاء اولئك الذين استولوا على ثرواتهم وان كانوا سمحوا لهم بالبقاء في اراضيهم ، وبازاء الدول الاسلامية المجاورة اذ كان الحذر والحكمة السياسية تقضي بأن يتحالفوا معها بدلاً من أن يناصبوها العداء . ولكنهم من ناحية أخرى كانوا يسلكون سلوك المستعمرين بكل معاني الكلمة ، فلم يتورعوا ان يستغلوا اهل البلاد استغلالاً اقتصادياً وان يوقعوا بهم ، اذا اقتضى الامر ، اقسى الاجراءات واشدها عنفاً.

---

(١) رينيه جروسيه : « الحروب الصليبية »

كان أبناء المستعمرين الاوائل الذين ولدوا في آسيا يكنّون اكبر الاحتقار « للحجاج » الذين جاءوا في غمار الحروب الصليبية التالية ، وهو احتقار يشابه احتقار المستعمرين الجزائريين الذين عرفوا باسم « الاقدام السوداء » ، للفرنسيين القادمين من فرنسا الأم . كانوا يأخذون عليهم أساساً جهلهم بالضرورات الجديدة التي نشأت عن استقرار الفرنجة في آسيا ، كما كانوا يأخذون عليهم تعصبهم الذي لا يعرف هوادة ، وانهم لا « يعرفون » مثلهم التكوين السيكولوجي العميق للمسلمين وطبيعة النظام الذي يوائمهم . وكان « الحجاج » بدورهم يزدرون ابناء الصليبيين الاول الذين كانوا يعتبرون في نظرهم خائنين لعقيدتهم ، لأنهم استسلموا لحياة من الكسل والرفاهية . كانوا يتهمونهم بأنهم يضحون بشعائرهم الدينية في سبيل حلول ايديولوجية وسطى لا تتفق بحال مع العقائد الكنسية التي لا تُمس ، وبأنهم يلجأون الى وسائل للاستعمار لا يمكن الاقرار بها ، وبأنهم يمارسون سياسة الاستغلال الاقتصادي التي لا تتفق في كثير او قليل مع أصول الحياة المسيحية .

واياً كان الامر ، وعلى الرغم من الصراعات التي كانت صراعات دامية في بعض الاحيان بين « الحجاج » الوافدين وابناء الصليبيين الاول — وهي صراعات تترجم عن المواجهة بين : **فكرة الحروب الصليبية** ، وبين **الحقيقة الاستعمارية** — فقد كان المنهجان يكملان احدهما الآخر في نهاية الامر . والواقع ان عمل الصليبيين لم يكن ليستمر عشر سنوات لولا تلك الواقعية المتزنة الباردة التي تمسك بها المستعمرون الفرنجة ، وان كان من المؤكد ايضاً انه ما كانت لتقوم للاستعمار الفرنجي في الشام قائمة لولا ارتفاده بالتيار الروحي للحرب الصليبية . وفي هذا السياق يبدو نداء البابا اريان الثاني عاملاً حاسماً ، وان كان غير مقصود ، في الغزو والاستعمار . لقد هبط هذا البابا بمستوى المغامرة ، عن غير وعي ، وهي مغامرة لم يكن في وضع يتيح له أن يعرف طبيعتها في المستقبل ، حيث أساءت الاعتبارات الدنيوية اساءة خطيرة الى الاعتبارات الروحية .

االفتوحات الأولى :

كانت الحملة الصليبية الاولى هي الحملة الوحيدة التي حققت الهدف منها : تحرير القبر المقدس . ان السهولة النسبية التي تغلغل بها الصليبيون في الاراضي الاسلامية يمكن ان تفسر بحالة الفوضى التي كانت تسودها في تلك الفترة . كانت الخلافة العباسية في بغداد قد تدهورت تدهوراً بليغا . وجاءت قبيلة تركية ــ هي قبيلة السلاجقة ، وترجع اصولها الى مناطق الاستبس التي تقع الآن في تركستان السوفيتية ــ ففتحت ايران وفرض رئيسها طوغرول بك نفسه على خليفة بغداد منذ سنة ١٠٥٥ ، باعتباره صاحب السلطان ، وأرغم الخليفة على الاكتفاء بمكانته الروحية . واذن فقد كان السلطان السلجوقي ــ منذ تلك اللحظة ــ يمارس الحكم ، باسم الخليفة العباسي ، وأخذ الاتراك يحلون محل العرب شيئاً فشيئا في حكم الدول الاسلامية جميعاً ، فيما عدا مصر حيث كانت تسود الأسرة الفاطمية العربية .

عندما ارتفعت موجة الحملة الصليبية الاولى ، كانت الاسر السلجوقية المختلفة الحاكمة في ايران ، والشام ، وآسيا الصغرى تخوض صراعاً مستميتاً فيما بينها . واستغل الصليبيون ، ببراعة ، هذه الخصومة ، وسحقوا الجيوش الاسلامية المختلفة ، جيشاً تلو الجيش ، كلاً على حدة . ومع ذلك فاننا نستطيع القول ان الحملة الصليبية الاولى قد بدأت بداية لا تبشر بالخير للمسيحيين . فالواقع ان جحافل الاقنان ــ وهم المشاة الذين كانوا في حالة من الشقاء يرثى لها ــ والذين جندهم وقادهم « بيير الناسك » و « جوتيه المعدم » ، اخذوا يقترفون من السلب والنهب خلال رحلتهم على طولها ، ما اضطر البيزنطيين الى ان يقمعوا هذه الأعمال بقسوة في يوليو ١٠٩٦ . ونزلت هذه الجحافل في آسيا ، فقضى عليها الاتراك في مجزرة رهيبة في ٢١ اكتوبر ١٠٩٦ بالقرب من هرسكه ، مما حفز بيير الناسك الى ان يتخلى عن الحملة .

وجاءت الحملة الصليبية التي يقودها البارونات بعد الحملة الصليبية التي

شنها الاقنان ، فكانت اكثر تنظيماً منها بكثير . كان الجيش يتألف من أربع جماعات التأم شملها في القسطنطينية . وكان يقود الجماعة الاولى جودفري ديبويو واخوه بودوان دي بولوني . ويقود الجماعة الثانية بوهيموند ديتارنت وابن اخيه تانكريد : وكانا اميرين نورمنديين من امراء ايطاليا الجنوبية . أما الجماعة الثالثة فكان يقودها ريموند دي سان جيل ، كونت تولوز . ويقود الجماعة الرابعة روبير كورت ـ هيز ، كونت نورماندي ، وروبير الثاني كونت الفلاندر . وفي القسطنطينية ظهرت مشكلة قانونية : من يملك اراضي آسيا الصغرى ، والشام ، وايران على ارجح الاحتمالات ، عندما تصادر من المسلمين ؟ كان من رأي الامبراطور الكسيس كومنين انها من حق الامبراطورية الشرقية التي كانت تملك هذه الأراضي جميعاً في الماضي . ولم يكن الصليبيون يشاركونه الرأي ، ولكنهم اقتنعوا أخيراً به . وسلمت نيقية ، اولى المدن التي استولى عليها الصليبيون من السلاجقة ، الى السلطات البيزنطية تنفيذاً لتلك الاتفاقية . بل استغل الكسيس كومنين تقدم الصليبيين في الشام ، والذعر الذي دب في صفوف الاتراك ، فاستولى على بقية بيتينيا وايونيا (سميرنا وايفسوس) في ١٠٩٧ ، كما استولى على ليديا وفرغانة الغربية في ١٠٩٨ .

وفي تلك الاثناء تقدمت الحرب الصليبية الأولى حتى وصلت الى انطاكية التي كان يحكمها امير تركي يدين بالولاء للسلاجقة . وبعد سبعة شهور شاقة من الحصار سقطت المدينة تحت وطأة هجوم مفاجىء في ٣ يونيو ١٠٨٨ ، بفضل بوهيمونت الذي اطلق على نفسه على الفور اسم **امير انطاكية** ، اما بودوان ديبولوني فقد انشأ من ناحيته كونتيسة مستقلة في اديسا ، وترك اميرها الشرعي ـ وهو ارمني كان يسمى توروس ـ يلقى حتفه في اثناء اضطراب قام في المدينة ، وحل محله . كان ما يقوم به بوهيمونت ، وبودوان ديبولوني المرة بعد المرة من هجران للحملة وتخلٍّ عن مصيرها ، قبل ان يصلا الى اورشليم ، بهدفٍ واحد هو استكمال الأراضي التي يستولون عليها ، سبباً في ظهور موجة كاسحة من الفرار . كان كل من هؤلاء البارونات يريد ان

ينتزع لنفسه مقاطعة في شمال الشام . ولكن زعماء الحملة الصليبية الآخرين ادركوا عوامل السخط التي كانت تجيش في نفوس الحشود من « الحجاج » الصليبيين ، فأخذوا يحتشدون وعلى رأسهم دريمون دي‌سان جيل ، اذ ادركوا الخطر الذي يتربص بهم اذا لم تتحقق امنيتهم كاملة . وعاد جودفري دي‌بويو الى الحملة بعد ان كان قد هجرها ، وان كان ذلك قد جاء متأخراً .

وفي اورشليم استطاعت الحملة الصليبية الاولى ان تستفيد مرة اخرى من الخصومة بين المسلمين . كان المصريون (اسرة الفاطميين العربية) قد استغلوا هزيمة السلاجقة المحاصرين في انطاكية ، فاستولوا على « المدينة المقدسة » وان لم يتح لهم الوقت لتدعيم تحصيناتهم الدفاعية قبل وصول الصليبيين . واستولى عليها الصليبيون في هجومهم يوم ١٥ يوليو ١٠٩٩ . واعقب احتلال المدينة وقوع مذبحة مروعة راح المسلمون ضحيتها ، مما نتج عنه ان مدن الساحل الفلسطيني الاخرى التي كانت في يد المصريين ، تخلت عن كل فكرة في التسليم . ومنح تاج اورشليم لجودفري دي‌بويو الذي رأى نفسه ، بحق ، غير جدير به فرفضه وآثر عليه لقباً اكثر تواضعاً هو لقب « صاحب القبر المقدس » .

عندما وصل نبأ الاستيلاء على اورشليم الى روما عنيت البابوية على الفور بأن توفد حملات صليبية جديدة لتستكمل احتلال البلاد : فقد كانت تلك الجيوش لا غنى عنها لتعمير المستعمرة الجديدة . ولكن حملات النجدة الثلاث التي بلغ مجموع عددها مائتي الف رجل لم تصل قط الى وجهتها : فقد خرجت عن طريقها ، بلا تبصر ، فأحيط بها ، وقضى عليها الاتراك .

الا ان جودفري دي‌بويو ما لبث ان مد الفتح الفرنجي من اليهودية الى السامرة ، والى الجليل . ولكنه مات في ١٨ يوليو ١١٠٠ بعد بضع شهور من قيامه بتلك المهمة .

الاستقرار وغرس الجذور :

خلف بودوان دي‌بولوني اخاه واتخذ لنفسه لقب « ملك اورشليم » الذي كان ينفر منه جودفري : واصبح بودوان الاول . وقام بودوان بتنظيم المستعمرات الفرنجية في آسيا الصغرى والشام واليهودية والسامرة ، تنظيماً دقيقاً . وانتهج « سياسة اسلامية » بارعة فضمن عطف بعض الدول التركية ــ العربية في الشام ، وبذلك نجح في تفتيت القوى الاسلامية المعادية . واستطاع امير انطاكية ، وهو روجيه دي‌سالير ن الذي خلف بوهيموند ودي‌تانكريد ، بفضل تواطؤ حكام الشام المسلمين ، ان يقضي على غزو الجيش السلطاني في تل دنيت (شرقي نهر العاصي) في ١٤ سبتمبر ١١١٥ .

وفكر بودوان الأول كذلك في استجلاب السكان للمستعمرات ، فقد هاجر معظم السكان العرب . وقضى على الحملة التي ارسلها البابا ، ولذلك راح بودوان الأول يحض المسيحيين من أهل البلاد الاصليين الذين كانوا ينتمون الى الكنائس اليونانية ، والسيريانية والذين ظلوا في البلاد تحت الحكم الاسلامي ، ان يتجهوا الى الأراضي الصليبية . ونجحت هذه الهجرة ، وقد كانت كبيرة نسبياً ، في ضمان مستقبل الزراعة والتجارة في المملكة . « في خلال ثمانية عشر عاماً جعل بودوان من مملكة اورشليم دولة وطيدة الأركان ضم اليها الدول الفرنجية الاخرى في اتحاد فيدرالي »[1] . ومع ذلك فقد ظلت الهجرة الفرنجية ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، محدودة ، ومقتصرة على كوادر النبلاء ، والفرسان ، والبرجوازية الحضرية . واستقر هؤلاء النبلاء والفرسان والبرجوازيون في سوريا وفلسطين ، وتزوج معظمهم بأرمنيات أو شاميات ، وأسسوا عائلاتهم في مستقرهم الجديد . وقد حاول المؤرخ فوشيه دي‌شارتر ، وقد استقر في الشرق في نحو ١١٢٥ ، ان يفسر اسباب هذا الاستقرار : « تحول الايطالي أو الفرنسي بعد ان استقر في الأرض الجديدة الى جليلي او

---

(١) رينيه جروسيه : « الحروب الصليبية »

فلسطيني وتحول الرجل القادم من ريمز او شارتر الى شاميّ او انطاكي . لقد نسينا مواطن نشأتنا . فلماذا نعود الى الغرب ما دمنا نجد في الشرق كل ما يلبي أمانينا ؟ » ألسنا نجد في هذه الصورة المستعمر الفرنسي في الجزائر ، أو في جزر الانتيل ، او المهاجر اليهودي الى الكيبوتزيم الاسرائيلية ؟. وأصبحت سورية – فلسطين ، **بلا جدال** ، في خلال ثلاثة وتسعين عاماً من وجودها (١٠٩٨ – ١٢٩١) مستعمرة ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، وعلى الرغم من تدفق الصليبيين الجدد اليها بلا توقف ، فقد تطورت هذه المستعمرة الى دولة تسود فيها روح اشبه بالروح السائدة في مستعمرات فرنسا في الآنتيل ، وادى استقرار المستعمرة الى غرس جذور الاستعمار الذي لم يكن يخلو قط من السعي وراء المنفعة ، وهو الحافز الجوهري للاستعمار .. والواقع انه لولا مساعدة الجمهوريات البحرية الايطالية ، ما استطاع الصليبيون قط ان يجعلوا من انفسهم سادة الموانيء السورية – الفلسطينية : فقد اسهم الجنويون في الاستيلاء على عكا ، وجبله ، وطرابلس ، واسهم اهل جنوه وبيزا في الاستيلاء على بيروت ، واسهم اهل البندقية في الاستيلاء على صيدا وصور . وحصلت المدن الايطالية ، في مقابل ذلك ، على امتيازات تجارية كبيرة ، وقام مستعمرو هذه الجمهوريات الثلاث (والتي تقوم بمهمة بحرية) بتنظيم الاستعمار **الاقتصادي** للأرض المقدسة .

واقبلت أوربا ، منذ تلك اللحظة ، تتزود بما تحتاج اليه من مؤن ، الى الموانيء السورية – الفلسطينية ، وتحصل منها على المنتجات الآسيوية والمنتجات المحلية على الأخص . كانت في السواحل اللبنانية مزارع لقصب السكر ، وكانت صور وانطاكية وطرابلس تصنع البروكار والحرير . ولكن « الثغور السورية » هي التي كانت تجذب أوربا ، على نحو لا يقاوم ، فقد كانت تقوم فيها الاسواق التي تتراكم فيها منتجات الشرق المختلفة التي لا حصر لها : انسجة القطن والموسلين (الاقمشة الموصلية) من العراق أو ايران ، والسجاجيد من آسيا الوسطى ، والتوابل ، والاحجار الكريمة من الشرق الأقصى . لم

يكنِ الوقت قد حان بعد (لم يأت ذلك الا في القرن السادس عشر) حين ذهبت أوربا الى مصادر هذه الثروات ، واستولت عليها ، من مواطنها الأصلية . واكتفت أوربا ، الى حين ، بأن تشتريها من موان مثل صور وطرابلس وعكا ، كانت تصل اليها هذه المنتجات ، بأثمان تتحدى ، منذ تلك اللحظة ، كل منافسة .

ولكن الاستعمار الاقتصادي قد شكل عاملاً اضافياً في إضعاف روح الحرب الصليبية . فإن الاهتمام الذي اناطته اوربا بالأرض المقدسة اصبح اهتماماً يقل فيه الجانب الديني ، باطراد ، ويزداد الجانب الاقتصادي دون توقف . مما يفسر الأهمية المتزايدة التي اكتسبتها جنوة ، وبيزا ، والبندقية ، في المملكة السورية ــ الفلسطينية . لقد شاء التاريخ ، بسخريته المعهودة ، ان تكون « الشام الفرنجية التي خلقتها العقيدة ، مدينةً ببقائها وحياتها لتجارة التوابل »[1] .

(١) رينيه جروسيه : الحروب الصليبية .

٢ . نهاية ومقدمة

كان الهدف الجوهري من الحملات الصليبية اللاحقة – حينما لم تكن تضل طريقها او تتشتت في الطريق – ان تدعم او تعيد من جديد سيطرة أوربا الدنيوية على سورية – فلسطين . ولا شك أن الغاية الدينية كانت دائماً تُستدعى الى الاذهان ، وانما كان ذلك يتم باعتباره تبريراً وتسويفاً . كان سقوط كونتيّة مدينة إرديسا (التي هاجمها واستولى عليها نور الدين اتابك حلب) وقد أدّى الى اقتطاع نصف مساحة امارة انطاكية ، سبباً في قيام الحملة الصليبية الثانية التي دعا اليها سان برنار ، في فيزيلاى . ولكن الحملة اجهضت ، نتيجة لسوء قيادة لويس السابع ملك فرنسا ، وكونراد الثالث الامبراطور الجرماني ، ونتيجة لما اصاب أسسها من خلخلة بالخصومة التي نشبت بين الصليبيين وبارونات سورية .

وقد ادى انهيار مملكة اورشليم ، بدوره ، الى شن الحملة الصليبية الثالثة . وقد جاء انهيار مملكة اورشليم نتيجة لقصور ملكها الجديد جي دي لويزينيان . فقد اشتبك في معركة مع صلاح الدين ، يوم ٤ يوليو ١١٨٧ ، في حطين بالقرب من طبرية ، فقُضي على الجيش الفرنسي برمته ، أو وقع في الاسر (وكان هو نفسه من بين الأسرى) . وسرعان ما استولى صلاح الدين على كل مدن الفرنجة ، بما في ذلك اقواها تحصيناً مثل عكا ، ويافا ، وبيروت ، واورشليم : ولم تقاومه الا صور التي كان يدافع عنها كونراد دي مونفير ،

وطرابلس ، وانطاكية . وعندئذ جاءت الحملة الصليبية الثالثة ، بقيادة فريدريك باباروسه ، وريتشارد قلب الأسد ، وفيليب اغسطس ، وكان فريدريك اول من وصل الى الشام ، ولكنه غرق في مستنقعات سيليف في قلقيلية ، وتشتتت جيشه . وخرج فيليب أغسطس وريتشارد ، على غير وفاق ، من فيزيلاي ، ووصل كل منهما ، على حدة ، امام اسوار عكا . ولكنهما استوليا على المدينة معاً ، على رغم ذلك ، ثم عاد فيليب بعد ذلك مباشرة الى فرنسا ، وبقي ريتشارد وحده على رأس الجيش الصليبي ، وهزم صلاح الدين في أرسوف ويافا ، وبذلك حقق الفرنجة انتصارات باهرة ردت اليهم التفوق العسكري وان لم تتح لهم استرداد اورشليم . وانهكت الحرب ريتشارد فعقد مع صلاح الدين اتفاقاً يستبقي الفرنجي بمقتضاه حكم الساحل الفلسطيني الذي فتحوه من جديد ، بينما يحكم المسلمون اورشليم ، وداخل البلاد . ونقلت عاصمة « مملكة اورشليم » الى « عكا — القديس — يوحنا » .

ولكن روما لم ترض بهذا الصلح ولا باتفاق المسيحيين والمسلمين على التعايش معاً . كان من الواضح ان البابوية لا تقبل ضياع اورشليم . ومن ثم اوفدت حملة صليبية رابعة نحو الشرق بقيادة البابا إنوسنت الثالث . ارسلتها نحو الشرق ، لا الى الشرق ، اذ انها « تحولت » عن هدفها تماماً . ففي المرة الاولى ، وبناء على طلب اهل البندقية ، استولت الحملة على مدينة زارا في المانيا (وكانت من املاك ملك المجر) ، واعادتها الى البندقية ، مدينة الدوجيّين. وفي المرة الثانية ، وبناء على طلب ابن الامبراطور اسحق الثاني ، الذي خلعه اخوه عن العرش ، تغلغلت الحملة الى القسطنطينية . وفي اعقاب المؤامرات والمكائد ، نصب الصليبيون احد زعمائهم — وهو بودوان التاسع كونت دي فلاند امبراطوراً للشرق . وترتبت على انشاء امبراطورية الشرق اللاتينية — وكان ابرز ملوكها بودوان دي‌فلاندر (بودوان الأول) واخوه هنري دي‌هينو — نتيجة محددة هي امتداد سيطرة البندقية الاقتصادية .

وفشلت الحملة الصليبية الخامسة ، بقيادة جان دي‌بريين « ملك اورشليم »

الجديد ، في مصر ، على ابواب القاهرة ، بعد ان هددها فيضان النيل . وبعد موت جان دي بريين اصبح صهره فريدريك الثاني ، بحكم الواقع ، « ملك اورشليم » . وتكشف فريدريك عن رجل بارع الذكاء ، فَطِن ، واسع الحكمة . فقد اعتزم ان يفرض السلام نهائياً ، وان يتخلى عن **روح الحروب الصليبية** ، فأفاد من الود الذي كان يربطه بالسلطان الملك الكامل وعقد معه اتفاقاً وقّعه في يافا ، يوم ١١ فبراير ١٩٢٩ . واستطاع ، ببراعته الدبلوماسية ، ان يحمل السلطان على رد المدن المقدسة الثلاث الى الفرنجة . اورشليم ، وبيت لحم ، والناصرة ، الى جانب عدد من الحصون في الجليل الاعلى وفينيقية . وقد انعقدت هذه التنازلات دون اصطدام بالسلاح ، وان كانت روح الاتفاق تقضي بأن يصحبها استتباب السلام بين الأديان ، والاعتراف بالتعايش الديني في اورشليم التي اصبحت ، **سياسياً** ، مدينة فرنجية ، ولكنها ظلت ، **دينياً** ، « مدينة مقدسة » عند العقيدتين معاً . ودخل فريدريك الثاني اورشليم المحررة في ١٧ مارس ١٢٢٩ ولكنه لم يستمتع بانتصاره طويلاً . فقد طرد من المدينة على اثر الحكم الذي اصدره عليه البابا جريجوار التاسع بالحرمان من الكنيسة . وقد كان السبب **الرسمي** في ذلك احجامه عن القيام بحملة عسكرية ضد المسلمين . ولكن ألم يكن السبب **الحقيقي** في طرده من الكنيسة ، هو ، في الواقع ، تسامحه الصادق العميق ؟

وايّاً كان الامر ، فقد كان من الممكن ان يظل السلام الذي حققه فريدريك الثاني باقياً بعد المحنة التي ألمت بصاحبه ، لو لم ينقسم الاوربيون شيعاً واحزاباً على اثر الخلافات والخصومات بين البارونات ، والمنافسات الاقتصادية بين اهل جنوة ، وبيزا ، والبندقية ، مما اصابهم جميعاً بالضعف البالغ . وفي ١٢٤٤ استولت عصابات من الاتراك الخوارزمية على اورشليم وانتزعتها نهائياً من المسيحيين . ولم تنجح الحملة الصليبية عام ١٢٣٩ في محاولتها الحيلولة دون سقوط اورشليم المحتوم ، ولا حملة القديس لويس (لويس التاسع) ، في محو العار الذي ينطوي عليه هذا الوضع . وسرعان ما بلغت الفوضى ذروتها :

وافاد السلطان المملوكي الاشرف خليل من هذه الفوضى ، وحاصر « عكا — القديس — يوحنا » واستولى على المدينة في ٢٨ مايو ١٢٩١ . واخليت المدن الاخرى من غير قتال . لم تعد الشام الفرنجية بعد ذلك الا مجرد ذكرى ، وصفحة من التاريخ يكاد يطويها النسيان . وبقيت قبرص ، بعد انهيار مملكة اورشليم ، حتى ١٤٨٩ ، تحت حكم أسرة لويزتيان ، وحتى ١٥٧٠ تحت سلطة جمهورية البندقية . وفي اول اغسطس ١٥٧١ استولى الاتراك على فاماجوستا آخر حصون الجزيرة .

يبدو لنا الاستعمار الفرنجي ، في سورية — فلسطين ، ارهاصاً للتوسع الاستعماري الكبير في القرن السادس عشر . فهو يحمل العلامتين المميزتين له : الحجّة الدينية ، والسعي وراء المنفعة . هذا الى انه يجمع بين العناصر المكونة للاستعمار الحديث : العنف ، وأساليب الاخضاع والسيطرة ، وفرض الوصاية ، والاستغلال الاقتصادي ، واتباع ما يعرف « بالسياسة الاسلامية » . وكانت أسباب انهياره هي بعينها اسباب نهاية كل استعمار وكل امبريالية : استنفاد قوى الفاتحين ، ونضوب معين الحكم ، والصراعات الداخلية المتولدة عن السعي وراء المنفعة ، وانبثاق قوة جديدة مغتصبة . وكانت النتائج العسكرية والاقتصادية الرئيسية للحروب الصليبية هي الحيلولة دون الاستيلاء على القسطنطينية — وقد كان ذلك يبدو وشيك الوقوع في ١٠٨١ — واتاحة السبيل لسيطرة المدن البحرية الايطالية (البندقية ، وجنوة ، وبيزا) اذ تأخر سقوط القسطنطينية حتى عام ١٤٥٣ ، كما أتاحت السبيل لان تكتسب اوربا ثروة طائلة . ومع ذلك فان اهم النتائج التي ترتبت ، للفور ، على هذا **التوسع المسيحي الاول** ، هو التقريب بين الشرق والغرب ، وكشف ثروة آسيا امام اعين أوربا . ومنذ تلك اللحظة أصبح الذهب ، والحرير ، والتوابل هي الهدف الاوحد للبلاد الاوربية الأمّ . وسعياً وراءها ، فتحت البرتغال دورة جديدة من التوسعات ، صدر عنها الاستعمار الحديث .

٣ . « الاكتشافات » أو التوسع الحاسم

النهضة البرتغالية :

في ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية في أيدي الاتراك . وقبل ذلك ببضع عشرات من السنين ، كان البرتغاليون قد احتلوا كويته ، مقدمةً لتوسعهم في افريقيا . كان الهدف المزدوج الذي تسعى اليه البرتغال ، ان تمد من حربها الصليبية ضد الاسلام ، وأن تقيم علاقة مباشرة مع البلاد المنتجة للتوابل . كانت ثروة الهند تستثير جشع البرتغاليين . ومع ذلك فلم يكن هناك من أملٍ في الوصول الى تلك البلاد عن طريق البر : كانت تقف دون بلوغها عوائق شتى ، وشعوب معاديةٌ كثيرة . ومن ثم فقد كانت ثم فرصة للنجاح في ذلك ، عن طريق البحر . وكانت اللحظة مواتية . فقد تخلصت البرتغال من الاحتلال المغربي ، واستعادت كل أراضيها من الاسلام . هذا الى أن الاسرة الحاكمة الجديدة « تؤيدها بورجوازية بورتو ، ولشبونة ، قد انتصرت على الارستقراطية العقارية ، بمساندة سكان الموانيء »[1] . وارتبط التوسع الاستعماري ، مرة أخرى ، بسيادة المدن ذات المهمة البحرية (بورتو ولشبونة) .

سوف تحقق البرتغال اذن حلمها المزدوج الذي يرتبط فيه التبرير الديني بهدف المنفعة ، ارتباطاً وثيقاً ، ولم يكن هناك الا طريق واحد للوصول الى

---

(١) شارل ــ اندريه جوليان : رحلات الاكتشافات والمنشآت الاولى .

الهند في ذلك الوقت : طريق رأس الرجاء الصالح . وقد رأينا البرتغاليين ، خلال السنوات التي اعقبت الاستيلاء على كويته ، يتقدمون على نحو منهجي منظم في اتجاه ذلك الموقع ، ويتجاوزونه . « تمّ المرور من رأس بوجادور في ١٤٣٤ ، والوصول الى السنغال في ١٤٤٤ ، واستعمار جزر الرأس الأخضر في ١٤٥٦ . وفي ١٤٨٥ اكتشف دييجو كاو مصب الكونغو . وفي ١٤٨٧ واصل دياس رحلته فيما وراء رأس الرجاء الصالح ، وفي ١٤٩٨ حط فاسكو دي‌جاما رحاله في الهند »[١] .

ويلاحظ بيري اندرسون ، بحق ، ان الاستعمار البرتغالي هو « استعمار رد الفعل » . ولا شك ان الهدف الجوهري والدائم وراء الاكتشافات والرحلات البرتغالية هو السعي الى المنفعة . والوجهة التي كان يقصد اليها ، باستمرار ، هي الهند ، وثرواتها الطائلة . ولكن طبيعة هذا السعي المستمر ما لبثت ان تغيرت ، عدة مرات ، في أثناء الطريق ، وفقاً لما تمليه الظروف المعارضة . وعلى ذلك فقد اضطر البرتغاليون الى ان يقيموا علاماتهم على الطريق المفضي الى الهند ، وبذلك اكتشفوا سواحل افريقيا الغربية ، وحصلوا على الذهب من غينيا ، وحمّلوا به سفنهم ، في مقابل الأقمشة ، او منتجات القصدير ، او النحاس ، او عقود المرجان ، وكنزوا هذا الذهب ، واستبدلوه بذهب السودان الذي اخذ يشحّ وينضب . والواقع انه منذ انهيار مملكة الفرنجة في سورية – فلسطين ، ونهاية الحروب الصليبية ، اخذت التجارة الاوربية تعاني من عجزٍ لم يكن ذهب السودان يغطي الا جزءاً منه . ولكن البرتغاليين لم يقتصروا على تجارة الذهب : بل اخذوا يحملون معهم العبيد .

وما ان وصل فاسكو دي‌جاما الى الهند ، حتى مر التوسع الاقتصادي البرتغالي بتطور هام . لم يعد معيار التجارة هو الذهب ، بل اصبح التوابل (الفلفل الاسود ، وجوز الطيب ، والقرفة ، والقرنفل) . ومنذ تلك اللحظة

---

(١) بيري اندرسون : البرتغال ونهاية آخر عصر الاستعمار .

وُضع كل شيء في خدمة هدف واحد ، هو رواج تلك التجارة . ولكن البندقية لم تكن غافلة . فقد رأينا ان مدينة القديس مرقص قد اصبحت ، بفضل الحروب الصليبية ، هي المستودع الرئيسي لتجارة التوابل في اوربا . وادركت البندقية ان كل تمهل في السعي وراء الربح يعني نكوصاً الى الوراء ، فلم يكن في وسعها ان تقبل دعوات البرتغال باحتكار تجارة تكفل لها ثلاثة ارباع ارباحها . ومن ثم فقد تحالفت مع العرب ، في البحر الاحمر ، ومع الهنود ، في الهند ، حتى تحول بالقوة دون ان يتابع البرتغاليون مشاريعهم : ولكن اسطول الحلفاء المكون من سفن البندقيين ، والعرب ، والهند قُضي عليه في ١٥٠٩ أمام ديو . وكفل هذا النصر للبرتغاليين السيادة على البحار ، والسيطرة على التجارة البحرية للشرق الاوسط . كما أنه دق ناقوس نهاية سيطرة البندقية : وسوف نشهد ، منذ تلك اللحظة ، تدهور مدينة الدوجيين ، تدهوراً بطيئاً .

عصر الذهب اللويزيتاني :

وفي مقابل ذلك كان انتصار « ديو » إيذاناً للبرتغاليين ببدء التوسع المفاجيء في آسيا . وسقطت « جوا » في ١٥١٠ ، وسرعان ما اصبحت تسيطر على الساحل الهندي . وفي ١٥١١ سقطت « مالاكا » بدورها ، ثم جاء دور جزر امبوان وتيرنات ، وتيدور الاندونيسية في ١٥١٤ ، وهي اغنى الجزر الاندونيسية قاطبة بالتوابل . وفي ١٥١٥ سقطت هرمز ، في الخليج الفارسي ، ثم كولومبو في ١٥١٩ . كانت البرتغال ، في منتصف القرن السادس عشر ، تسيطر على المحيط الهندي كله ، من افريقيا الشرقية (سوفالا ، وموزمبيق ، ومومباسا) الى اندونيسيا (امبوان ، وتيدور ، وتيرنات ، وسولور) ، ومن الخليج الفارسي (هرمز ومسقط) الى بورما (كولومبو ، في جزيرة سيلان ، ومالاكا ، في مضيق ماليزيا) دون ان نشير الى الهند ، حيث كانت ديو ، وداماو ، وباسان ، وشول ، وجوا ، وكوشان ، تكفل لها مواقع

وطيدة الأركان . وقد اتاح الاستيلاء على ماكاو للبرتغال ان تنفذ الى جنوب بحر الصين ، بعد ذلك . لم تكن هذه الامبراطورية الجديدة ، وهي بحرية اساساً ، تخلو من اوجه الشبه « بالاتحاد الفيدرالي الاقتصادي » الفينيقي الذي كان يعتمد بدوره على شبكة من المرافق التجارية . ولكن القواعد البرتغالية كانت تختلف عن المستعمرات الفينيقية التي رأيناها تقوم باعتبارها مدناً لها استقلالها الذاتي ، فقد بقيت تحت سلطان لشبونة العاصمة ، بشكل حاسم . وكانت هذه القواعد ، الى ذلك ، تملك ميزة مزدوجة ، اذ كانت تتحكم في مصادر الثروة الاقتصادية (اندونيسيا وسيلان) كما تحكم الطرق البحرية ، فتكفل بذلك السيطرة التجارية البرتغالية على المحيط كله .

كيف نفسر نجاح التوسع البرتغالي على الفور ، ونموه هذا النمو السريع ؟ هل كانت الحضارة اللويزيتانية في تلك الفترة ، أعلى كعباً واكثر تفوقاً من حضارة بلاد الشرق ، والشرق الأقصى ؟ لا يبدو ذلك صحيحاً ، بالمرّة . بل لم تكن تلك الحضارة بأرفع شأناً من حضارة الدول العربية الصغيرة الواقعة على ساحل افريقيا الشرقي : « كان ذلك العالم ، بلا شك ، يملك حضارة مادية تضارع ، ان لم تتفوق على حضارة البرتغال في ١٥٠٠ »[1] فهل كان الامر اذن يتعلق بتفوق بحري تملكه البرتغال ؟ لا يبدو لنا ان ذلك فيه من الصحة شيء ، فقد كانت سفن الحرب الصينية والاندونيسية أرهب جانباً من السفن البرتغالية . أما أدوات الملاحة فقد كانت متعادلة .

ان سر نجاح البرتغاليين يعود الى عاملين كان **لاجتماعهما معاً** شأن حاسم . فلم يكن أيهما ، وحده ، ليكفل للبرتغال غلبتها في هذا الميدان . اما العامل الأول فهو الموقع الداخلي للبلاد التي واجهت البرتغال . واما العامل الثاني فهو قوة نيران سفنها ومدافعها . وكانت للبرتغال ميزة اخرى في ذلك العهد ، فقد كانت البلد الاوربي الوحيد الذي لا يخوض صراعاً على أرض القارة ،

(١) جيمس ديفي : افريقيا البرتغالية .

مما ترك لها ميدان العمل واسعاً . أما البلاد التي اصطدمت بها فقد كانت كلها ، على العكس ، فريسة للصراعات الداخلية ، او ضحية للتدهور والانحلال . كانت الامبراطورية التركية المملوكية في مصر على وشك التردي امام هجمات دولة الاتراك العثمانيين . وكانت النار والدماء تكتسح جنوب الهند وتعيث فيها فساداً . فقد كانت السلطنات العربية الخمس ومملكة فيجاياناهار الهندوكية تنهش بعضها البعض في حرب لا يخبو أوارها . وكانت امبراطورية مادجاباهيت الجاوية في حالة من التفكك الكامل ، وكانت الصين ، تحت حكم اسرة مينج ، تمر بأزمة انعزالية ، والفوضى تسود اليابان . لم تكن هذه الدول المختلفة عاجزة فحسب عن الاتحاد في مواجهة الخطر المشترك ، بل لم تكن أيها ، من باب أولى ، قادرة على ان تواجه البرتغاليين باسطول مسلح يضارع اسطولها في القوة . هذا الى أن البرتغاليين كانوا يملكون ناصية طرائق فنية متفوقة في التدمير (القصف بالمدافع في كالكوت ، والحريق في مومباسا ، والاستيلاء على سوكوترا ، ونهب جوا .. الى آخر ذلك) وهي طرائق تشكل أداة من ادوات الضغط الارهابي لا مقاومة لها . حقاً كان الصينيون يعرفون البارود منذ قرون طويلة ، ولم تكن تعوزهم المدافع ، لكنهم ظلوا بلا حول ولا قوة أمام مدافع البرتغاليين . وكانت مدفعية الدول الشرقية الأخرى اكثر بداية من مدفعية الصين .

الثروة والدمار :

ادى التوسع الاقتصادي البرتغالي – القائم على التبادل – في بداية القرن السادس عشر ، الى رخاء كبير . كان التجديد الذي ادخله البرتغاليون ، بالنسبة الى ظواهر الاستعمار السابقة ، يكمن في أنهم تخلوا عن « شراء » منتجات الشرق ، ونصبوا انفسهم سادة على جزر التوابل (أدوات الانتاج) واستغلوها لحسابهم . ومع ذلك فقد استخدموا التوابل باعتبارها عملة للتبادل ، ودفعوا مقابلها الأنسجة المصنوعة من كورمانديل . واعيد استثمار الرأسمال

المتراكم بفضل استخراج الذهب ، في تجارة التوابل ، مما عاد عليهم بأرباح طائلة . ولكن الايرادات العائدة من ذلك ، بالاضافة الى ما حققه نقل البضائع (الخيول العربية ، الذهب والعاج من أفريقيا ، سبائك الذهب والفضة من الصين واليابان ، ينقلونها من مستودع شرقي الى آخر ، على مسافات قصيرة جداً) من ايرادات ، ظلت جميعاً في الشرق ، بينما كانت تعود السفن الى لشبونه ، محملة بالتوابل والحرير والمنسوجات .

ومع ذلك فقد اتضح ان الثروات الهائلة التي تركزت في لشبونه ، على ذلك النحو ، ظلت بلا طائل في نهاية الامر . ذلك ان البرتغال لم تكن تنتج شيئاً ، لا في ميدان الزراعة ولا في ميدان الصناعة . وبينما كانت الايرادات تثب وثبات شاهقة الارتفاع في الشرق ، اخذ الاقتصاد في البرتغال الأم يتدهور ، وأنشبت المجاعة اظفارها بشكل مزمن لا يريم . كان على البرتغال أن تستورد القمح والشعير من فرنسا ، وشمال افريقيا ، والفلاندر . وكانت لشبونة تستورد العبيد السود من غينيا ليقوموا بدور الايدي العاملة المسترقة ، ومع ذلك فقد كان البرتغاليون يهاجرون الى غرب اسبانيا يحدوهم الأمل في الحصول على عمل يجازون عليه بأجر مقبول (كانت هذه المشكلة التي تعاني منها اوربا اليوم ، مشكلة ملحة خطيرة في القرن السادس عشر !) وقد قال المراقبون المعاصرون الاجانب ، في ذلك الحين ، إن « امبراطورية التوابل لم تكن تشجّع الصناعة والزراعة القوميتين » وكان السحر الذي توقعه هذه الامبراطورية بالرجال سحراً مغناطيسياً لا يقاوم ، وكانت الخسائر التي تنجم عنها لا تكاد تقع تحت الحصر ، فلم يكن من النادر ان يقع ٥٠٪ من افراد طاقم السفينة فريسة للمرض ، ويقضوا نحبهم ، بينما تتضاعف حوادث الغرق نتيجة لتزايد حمولة السفن . هذا الى أن عادة المكسب السريع قد اخذت تنخر في المجتمع ، وتفسده شيئاً فشيئا : « كانت المرحلة الاولى للتوسع البرتغالي فيما وراء البحار قائمة على اقتصاد عاطل ، فيما يبدو واضحاً

للعيان »[1] .

كان التقدم الذي يمثله استغلال ادوات الانتاج ، في نطـاق التسلسل الاستعماري ، قد كلف البرتغاليين جهداً طائلاً ، فركنوا بعد ذلك الى الراحة ، قروناً طوالا . ولم يخرجوا قط من قبضة الحلم الذي غرقوا في أوحاله شيئاً فشيئا . وفي كل نقطة حاسمة من نقط التحول في تاريخهم كان يقع لهم حادث عرضيّ مُوات يبقي لهم الوهم بأن الحظ ما زال يبتسم لهم . فما كادوا يفقدون امبراطورية التوابل حتى كانت البرازيل تقدم لهم مناجمها العامرة بالماس .. وواصلوا تقاليدهم في المقايضة ، بينما كانت اوربا بأسرها قد عرفت كيف توائم بين الاستعمار وبين مقتضيات الاقتصاد التحويلي . وفي القرن السادس عشر كانت البرتغال قد شغلتها تجارة التوابل ، ثم شغلتها بعد ذلك تجـارة الثروات المعدنية ، فأهملت ممتلكاتها الافريقية وعنيت بممتلكاتها في الشرق وأمريكا . واقتصر التغلغل البرتغالي في افريقيا ، قروناً طوالا ، على الساحل الغربي ، وعلى الشاطيء المجاور لمصب نهر زايير (الكونغو) ، ومدينة لواندا التي انصبّ نشاطها على تجارة العبيد وحدها . ولم تذهب البرتغال على الساحل الشرقي الى أبعد من موزمبيق ، وبضع موان مثل مومباسا ظلت مجرد قواعد بحرية . وعندما تيقظت البرتغال ، في القرن العشرين — وهل تيقظت حقاً ؟ — من سباتها الطويل ، وجدت نفسها أكثر البلاد الاوربية فقراً ، محرومة من الصناعة القومية ، ومثقلة بأعباء بضع اقاليم أفريقية في حال رهيبة من الشقاء والعوز ، لم تكد تمسها يد الاصلاح والاستثمار : رواسب تثير السخرية من بقايا امبراطوريتها الشاسعة .

فكرة « الاكتشاف » :

ان كتب التاريخ التقليدية تضع عصر « الاكتشافات الكبرى » في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . والاكتشاف بالمعنى الذي يقصده المؤرخون ،

---

(١) بيري أندرسون : البرتغال ونهاية عصر آخر الاستعمار .

يدل هنا على « التعريف بما لم يكن معروفاً من قبل[1] » . فهل يمكن القول حقاً ان البلاد التي يزعمون انها « قد اكتشفت » في ذلك العهد ، وبعده ، لم تكن معروفة ؟ تبدو هذه الدعوى من قبيل المغالاة . لم تكن افريقيا ، مثلاً ، تنتظر ظهور البرتغاليين الأوائل لكي « تكتشف » . فمنذ أقدم عصور التاريخ ، كانت للمصريين القدامى صلات بافريقيا السوداء ، عبر اعالي النيل ، واثيوبيا ، والنوبة . وكانت للفينيقيين تجارة مع بلاد السودان ، وقد وصف هيرودوت المؤرخ اليوناني (في نحو عام ٤٠٠ قبل الميلاد) شعوب النوبة السوداء والمحاربين الافريقيين في اعالي النيل ، بل وصف الأقزام الذين كانوا ينتشرون في ذلك العهد حتى الصحراء الكبرى . ووضع بطليموس ، الجغرافي المصري ، الهيليني الاصل ، خريطة لافريقيا (في القرن الثاني بعد الميلاد) . « في نهاية الالف الاولى قبل الميلاد ، كانت البلاد الواقعة جنوب مصر ، واثيوبيا ، والسودان ، ممالك قوية الجانب . كانت عاصمة مملكة اثيوبيا تقع في ميرويه . بل سيطر الاثيوبيون والسودانيون على مصر ، خلال فترة من الزمن[2] » .

ولم يكن هناك « اكتشاف ما » ، في حالة الهند ، حين استشرفها سيروز ، وغزاها جيش الاسكندر ؛ ولا في حالة الصين التي زارها التجار الاوربيون ، وتعرف على معالمها ماركو بولو ؛ بل ولا في حالة اليابان التي اطلق عليها « الكذاب » البندقي الشهير اسم «كيانجو » . بل الامر على الأكثر ، هو اعادة اكتشاف . واذن يبدو لنا ان كلمة « اكتشاف » لا تنطبق ، بحق ، الا في حالة امريكا ، وان كانت هناك بعض الدعاوى الحديثة التي ترجع اتصال « العالم الجديد » بأوربا الى ما قبل ذلك العهد ، وتعود به الى الفايكنج ، لا الى كولومبوس . وأياً كان الأمر ، فان « اكتشاف » كولومبس قد كان له أثره الحاسم ، بينما طوى النسيان اكتشاف النورديين ، على خلاف في

(١) قاموس ليتريه .

(٢) جبريل تمسير نيان ، وسوريه ـ كنال : تاريخ افريقيا الغربية .

صحته . ولم يكن كولومبس ، نفسه ، يعتزم اكتشاف أرضٍ جديدة ، بل كان يبغي الوصول الى الهند بحراً . وظل حتى آخر لحظة على يقين من أن جزر الكاريبي هي اليابان ، أو كيانجو كما سماها ماركو بولو ، فقد كان يعرف موقعها الجغرافي بالنسبة للقارة الآسيوية .

ولم تستخدم كلمة « الاكتشاف » على اي حال ، الا متأخراً ، وخاصة في القرن التاسع عشر ، لتبرير الموقع الممتاز الذي تشغله اوربا في مركز العالم . ان اوربا المتمدينة ، التي تحتكر المدنية لنفسها ، ما تكاد تكتشف الاجزاء الاخرى من العالم ، حتى تفرض ، بالضرورة ، فكرة أن هذه القارات ، وتلك البلاد ، لا كيان لها ، بل لا وجود لها ، إلا منذ تلك اللحظة . ان هذا البرهان الذي يدلل به الخالق على أنه أصل خليقته ، تحتاج أوربا الى اقامته ، لكي تبرر سيطرتها واستعمارها .

إلامَ نعزو الدوافع الى « اكتشاف » امريكا ، وهو الاكتشاف الوحيد الذي نقر به ، مع التحفظ الكامل ، والذي سوف نرسم فيما يلي أهم أحداثه ؟ أهو الظمأ الى المغامرة ، ام التوق الى المجهول ، أم « البوثوس » الذي عرف الاسكندر نشوته ، ودواره ؟ لا شك أن الملاحين والجغرافيين لم يكن يعوزهم الاحساس بذلك كله ، ولكن مما لا يقل عن ذلك صدقاً ، ان الرحلة الاولى التي قام بها كولومبوس لحساب ملك قشطالة وأراجون ، انما كان هدفها الاوليّ افتتاح طريق جديد ، اقصر شقة واقل خطراً (فيما كان يظهر) ، الى الهند ، وثرواتها ، وكانت اسبانيا قد عقدت العزم على ان تسلبها من البرتغال . وها نحن نجد السعي وراء المنفعة ، مرة أخرى ، يسيطر على كل الاهتمامات الاخرى ، ويحكمها .

كولومبوس مكتشف رغم أنفه :

بينما كانت البرتغال تمضي سعياً وراء بناء امبراطورية ، كانت ممالك أسبانيا تعاني هموماً خطيرة تصرف أنظارها عن القيام بمغامرة في البحر ،

أياً كان نوعها. كانت أراجون غارقة في مشاكلها الايطالية، تبدو أقرب الى مستعمرة من مستعمرات نابولي، منها الى عاصمة من العواصم الام. ونازعت لشبونة البنادقة والجنويين، والبيزيين على تجارة البحر المتوسط، وأفادت من خلافاتهم وانقساماتهم. وكانت فالنيسيا تحارب لشبونة، بينما قشطالة تواصل استعادة فتح الأراضي التي ما زالت تحت حكم المسلمين، بعد أن بدأ بيلايو يستعيدها منذ القرن الثامن. ومع ذلك فان زواج فرديناند وايزابيلا، إذ ربط مصائر اراجون وقشطالة، قد اتاح انشاء حكومة قوية الجانب، قادرة على انتهاج سياسة استعمارية واسعة النطاق. واستتب السلام بعد ان انتهت حروب استعادة الفتح، مما اطلق سراح القوى المغامرة التي وجدت نفسها عاطلة لا عمل لها.

يوم قبل الملوك الكاثوليكيون، تحت اسوار غرناطة المحاصرة، ما عرضه عليهم كولومبوس، ربطوا بين سياسة التوسع، وتحرير الأرض، في عمل من اعمال الايمان والثقة سيكون له اكبر المدى[1].

كان كولومبوس قد أقام عدة سنوات من قبل في البرتغال، وشارك في حملات بحرية الى أفريقية الغربية (الى ساحل الذهب على الأخص)، عندما عرض على جان الثاني ملك البرتغال في ١٤٨٤، مشروعاً لحملة تستهدف الوصول الى كيبانجو (اليابان) عن طريق الغرب. وبعد عامين من التسويف والتفاوض، رفض جان الثاني مقترحات كولومبوس بزعم وجود اخطاء في حسابه. اما الحقيقة فهي ان الاعتمادات التي طلبها كولومبوس كانت تبدو له باهظة. وعاود كولومبوس جهوده في ١٤٨٨، ولكنه وصل الى لشبونه في اللحظة التي عاد فيها دياس من رحلته الى رأس الرجاء الصالح. فقد اكتشف طريق الهند شرقاً، إذن، ولم يعد جان الثاني يهتم باكتشاف طريق لها من الغرب. وعلى ذلك عاد كولومبوس، للمرة الأخيرة، الى اسبانيا، وشد

---

(١) شارل ـــ اندريه جوليان: رحلات الاكتشافات والمنشآت الاولى.

ما كانت سعادته ، في ١ ابريل ١٤٩٢ ، عندما قبل فرديناند وايزابيلا اقتراحاته ، بفضل وقوف ايزابيلا الى صفه ، في شجاعة واصرار وعناد . وهكذا تحدد مصير اسبانيا الاستعماري بفعل المصادفة والظروف العارضة . وهكذا خسرت البرتغال ، نتيجة لتسويف جان الثاني ، امبراطورية شاسعة لم يعوضها عنها ضم البرازيل في وقت متأخر بعد ذلك . « لقد اسهم التوسع الامريكي في تحويل اسبانيا عن سياستها المتوسطية ، وكان العامل الحاسم في صعودها ، ثم انحدارها »[١] .

ثم جاءت علامة جديدة من علامات القدر ، في صف كولومبوس : نقطة الرحيل التي اختارها لرحلته . كان بعض الملاحين الآخرين ، من قبل ، قد حاولوا اجتياز المحيط الاطلنطي ، في غير طائل . «كان سر الفشل يرجع الى الموقع المختار للاقلاع : تيراسييرا في جزر الازور . فقد اصطدم دولمو ، واستيريتو ، كما اصطدم من سبقهما من المكتشفين البرتغاليين ، بالرياح الغربية ، لأنهم جميعاً بدأوا رحلتهم من خط عرض اكثر ارتفاعاً الى الشمال مما ينبغي »[٢] ولكن كولومبوس لم يقترف ذلك الخطأ : فقد اقلع من جزر الكاناري ، وهي ملك لاسبانيا ، ونجح في اجتياز حاجز الرياح المعادية . ولو كان جان الثاني قد قبل مقترحاته لكان من الممكن ألا يصبح كولولبوس هو « مكتشف » امريكا .

وفي ٦ سبتمبر ١٤٩٢ رحل كولومبوس ، والاخوان بينزون ، من جزر الكاناري ، للمرة الاخيرة ، على متن « نينا » و « بينتا » و « سانتا ما يا » يحملون « خطابات ملكية بالتوصية الى الخان الأكبر والى كل ملوك ورؤساء الهند وكل منطقة اخرى قد يكتشفونها » وقد كان هذا الخطاب الممهور بتوقيع فردينان وايزابيلا ، ينص على ما يلي :

---

(١) شارل ــ اندريه جوليان : رحلات الاكتشافات والمنشآت الاولى .

(٢) صمويل اليوت موريسون : خريستوف كولمبوس .

«الى صاحب السمو الامير، صديقنا العزيز، من فرديناند وايزابيلا ملك وملكة قشطالة وأراجون وليون وغيرها، السلام والرخاء والرفاهية. لقد نمي الى علمنا بمزيد الفرح، مدى ما تكنّونه لنا من تقدير واعتبار، نحن وشعوبنا، ومدى ما تنتظرون به انباء توفيقنا ونجاحنا من لهفة ونفاد صبر. وعلى ذلك فقد انعقد عزمنا على ان نوفد اليكم قبطاننا النبيل، خريستوفروس كولون، يحمل منا خطابات تبلغكم بأننا في صحة طيبة، ويحالفنا التوفيق. نحن، ملك...، نحن، ملكة...

تم تحريره من ثلاث نسخ».

ان هذا الخطاب الاصلي، بالاضافة الى ما فيه من هجاء شائق للكلمات، يضفي على الاميرال الكبير للبحر المحيط قيمة تكاد تنتسب الى النبوءة؛ وهو خطاب له دلالة في أكثر من مجال. فهو يثبت ان كولومبوس انما يذهب الى بلاد معروفة، فيما يعتقد الملك والملكة. والرسالة موجهة الى الخان الأكبر، ثم إلى ملوك ورؤساء الهند، ثم هي بعد ذلك، وحرصاً على الا ينسى الملك والملكة أحداً، الى ملوك وامراء «كل منطقة اخرى قد يكتشفونها». ان لهجة الخطاب توحي بأن الملك والملكة يكنان احتراماً كبيراً للملوك والامراء الذين يتجهان اليهم بالخطاب. ويبدو هذا التوقير أوضح وأجلى في المراسلات التي يتبادلها ملوك البرتغال وملوك الكونغو، منذ نهاية القرن الخامس عشر، ويشيع في كل العلاقات التي تقيمها قصور أوربا مع الاباطرة والملوك الافريقيين. فلم يكن يبدو ثم أثر، مهما كان ضئيلاً، في هذه الفترة، للاحساس بالتفوق أو لأي مظهر للعنصرية. ولكن الوضع يتغير تماماً في القرن التاسع عشر. ذلك أنه، في هذه الاثناء، قامت في البلاد المفتوحة والمستعمرة، علاقات السادة بالعبيد التي تعتمد على اذلال المستعمرين، مما اثار الوعي بالتفوق عند المستعمرين، وتوطد هذا الوعي بمرأى ذلك الاذلال.

«الأرض! الأرض!» في ١٢ اكتوبر ١٤٩٢ ظهرت على الافق أرض

الشاطيء . كان ذلك شاطيء جزيرة من جزر الباهاما ، اسمها جوانا هانى . وأطلق عليها كولومبوس اسم « سان سالفادور » تكريماً « لسيدنا ومخلصنا » . ويوحي رد الفعل الاول عند كولومبوس، عندما وطئت قدماه الأرض ، انه كان يعرف، منذ تلك اللحظة، انه لم يكن في كيانجو، ولا في نواحي جزيرة «متمدينة» : فقد استولى على الجزيرة ، بالفعل ، باسم سادته الملوك الكاثوليكيين. وعندما اخذ بعد ذلك يتأمل اجسام الأهالي العارية ، وبساطتهم المتبسمة ، احس شعوراً بالحماسة الدافقة ، وكتب ، في رسالة الى الملك والملكة ، يقول : « ما اطيبهم ! انهم يعطون كل ما يملكون ، عن طيب خاطر ، لا يصدق المرء ذلك الا اذا رآه رأي العين » . ولكن سرعان ما تحل « الواقعية » محل الشاعرية الغنائية ، في يومياته : « يبدو لي انه من الممكن ان نجعلهم مسيحيين ، بسرعة ، اذ أنهم لا يدينون بديانة ما . وسوف آتي الى جلالتكما بستة منهم ، ان شاء الرب ، حتى يتعلموا الكلام » . وهو يكتب في ١٤ اكتوبر : « هؤلاء الرجال لا يحسنون استخدام السلاح ... ويكفي خمسون جندياً لاخضاعهم وحملهم على ان يفعلوا كل ما يريدهم المرء ان يفعلوا .. » .

الا تكفي هذه العبارات القلائل في التعبير عن كل تاريخ الاستعمار ، بايجاز يستوقف الانتباه ، فنحن نجد لأول وهلة العجب والانبهار أمام مشهد الطبيعة ، وبمجرد الاتصال مع أبناء الطبيعة في كل طيبتهم « وكل عذوبتهم » : إنها اسطورة « المتوحش الطيب » . ولكننا نجد بعد ذلك على الفور ان روح الاوربي الذي يهدف الى التمثّل والقهر تقتّرن بارتباط وثيق مع نزعته المسيحية التي تستهدف استجلاب الانصار والأشياع ، واستخدام اهل البلاد الاصليين لأغراض روحية تختفي وراءها اغراض لا يسهل الاعتراف بها : فيتم إدخالهم الى الدين الجديد ، في انتظار ما يأتي به الغد . ومن السهل العثور على الحجة التي تستند اليها الاطلاقية الشمولية الدينية : « يبدو أنهم لا يعتنقون ديانة ما » . فما من كنيسة تبدو بمنائرها وقبابها ، وما من معبد يلوح على الافق ، ومن

المعقول أن نستنتج من ذلك أن هؤلاء « المتوحشين الطيبين » ليس لهم من إله . ثم تأتي بعد ذلك المرحلة التالية التي تنطوي عليها المعادلة القائلة : انهم لا يتحدثون الاسبانية ، معنى ذلك انهم لا يعرفون الكلام اطلاقاً . واذن فقد حان الوقت حتى تخلع عليهم أوربا نعمة الكلام . ومن ثم فان اوربا سوف تمدينهم . واخيراً تأتي الملاحظة التي تصدر عن الرثاء لهم ولكنها تنطوي في الوقت نفسه على ازدراء وتعال : انهم لا يملكون اسلحة اطلاقاً ، أو أسلحتهم من البدائية والسذاجة بمكان (الرماح التي تنتهي بأسنان السمك) . ومن ثم فلن ينالوا الا ما هم جديرون به : اخضاعهم . « ان الحقيقة التي يؤسف لها وان كانت لها دلالتها ، هي ان هنود جزر البحر الكاريبي الذين بقوا على قيد الحياة ، هم الذين استطاعوا او عرفوا كيف يدافعون عن انفسهم ، وحدهم . أما « التاينوس » فقد انطفأت جذوتهم منذ زمن بعيد »[1] .

وبعد ان كتب كولومبوس خطابه ، وزود « يومياته » ببعض افكار لن تنسى بعد اليوم عاد فأقلع بسفينته سعياً وراء كيانجو . وصادف جزراً أخرى من جزر ارخبيل الباهاما . وفي ٢٨ اكتوبر ١٤٩٢ حطّ رحاله في كوبا ، وفي ٥ ديسمبر كانت هاييتي تقع على مرمى البصر منه ، فأسماها هيسبانيولا . وغرقت سانتا ماريا عشية عيد الميلاد ، مما ارغم كولومبوس على انشاء مستعمرة أولى في الجزيرة ، في الموقع الذي اسماه « لانافيداد » : ذلك انه كان يعتقد ان الله قد أراد ان تقع له الحادثة . وعاد الى اوربا على متن « نينا » . لقد « كشف في خلال رحلات ثلاث لاحقة ، مجموعة جزر الكاريبي ، وسواحل القارة الأمريكية ، عند مصب نهر الاورينوث ، ومر بازاء الأراضي التي تقع في هندوراس الحالية ، ونيكاراجوا ، وكولومبيا ، وفنزويلا . ويبدو من يومياته التي كان يحرص على تدوين ما يقع له من احداث وما يعنّ له من افكار فيها ، بدقة ، أن هناك شيئين يشغلانه طوال الوقت : ان يثبت ،

---

(١) صمويل اليوت موريسون : خريستوف كولمبوس .

من الشواهد التي يرى انها دالّة ، وان كانت في الواقع غير مقنعة ، (بضع عروق من الذهب) أنه قد اكتشف في الواقع الطريق المفضي الى كيانجو والى الهند . أما الشيء الثاني الذي يشغله فهو ان يحض الملوك الكاثوليكيين على استعمار الكاريبي وضم الشعوب التي تقطنه الى رحاب المسيحية . أما « البرهان » فانه لم يقنع الملوك ، وأما الاقتراح الذي يدعو الى تعميد السكان فقد وضع ، على العكس ، موضع الاعتبار وأقر في النهاية وترتبت عليه كل آثاره .

القسمة والغزو :

كان أول ما عني به الملوك المسيحيون ، بالفعل ، هو اعتماد « الكشوفات » « التي قام بها كولومبوس ، من قبل السلطة العليا الوحيدة » التي كان يعترف لها القانون العام في أوربا العصر الوسيط ، بسلطة منح الأراضي التي لم يكن يملكها اي أمير مسيحي » [1] البابوية . ألم تكن البابوية من قبل قد أيدت حقوق البرتغال في سواحل افريقيا بمقتضى « اوامر » متعاقبة من الفاتيكان؟ وافاد فرديناند وايزابيلا من اختيار احد امراء الكنيسة الاسبانية لارتقاء عرش القديس بطرس — نتيجة لمؤامرتهما — للحصول على عدة « أوامر » بابوية تضع حدود ملكية اسبانيا وملكية البرتغال . كان البابا الكسندر الرابع صنيعتهما ، فخلع عليهما ميزات سافرة . وكان ذلك القرار الذي اتخذ في مايو ١٤٩٣ من شأنه أن يثير القلق عند البرتغال ، بشكل واضح ، حتى ان جان الثاني احس باستياء بالغ بازائه . ووافق فرديناند وازابيلا ، امام غضب جان الثاني ، على ان يوقعا معاهدة القسمة في توردیسیلاس ، في ٧ يونيو ١٤٩٤ ، وهي المعاهدة التي تعدل تعديلاً طفيفاً ما جاء في الأوامر البابوية ، لمصلحة البرتغال . واقامت معاهدة توردیسیلاس تقليداً جديداً : هو تقاسم العالم على ايدي اوربا ، الى مناطق نفوذ . وسوف نرى في القرن

التاسع عشر معاهدة برلين (قسمة افريقيا) وفي القرن العاشر معاهدة يالتا التي تضع حدود العالم « الحر » والعالم الشيوعي . وبينما كان الاسبانيون ، بناء على نصيحة كولومبوس ، يستولون على جزر الانتيل الكبرى ، ويخضعون التاينوس بقسوة ، كان هناك ملاحون ومكتشفون آخرون يكملون إكتشاف القارة الامريكية : امريجو فسبوتشي (الذي اعطى اسمه للقـارةالامريكية) واوجيدو ، وجوان دي لاكوزا (زميل كولومبوس) ونونـيز دي بالبوا (اول من وصل في ٢٥ سبتمبر ١٥١٣ الى الساحل الباسفيكي) وبدرو الفريز كابرال البرتغالي (الذي مر بالصدفة في ٢٤ ابريل ١٥٠٠ امام ساحل البرازيل) . وفي هذه الأثناء مات كولومبوس ١٩ مايو ١٥٠٦ مجللا بالعار تحت وطأة الشقاء والعوز .

يقول دي ماركيه ، وهو مؤرخ فرنسي من القرن الثامن عشر ، ان « اكتشاف » البرازيل ينبغي ان يضاف الى رصيد بحار من مدينة دييب يسمى جون كوزا ، أشار في اثناء رحلة بحرية في ١٤٨٨ « الى مصب نهر عظيم اسماه مارانيو ؛ وقد سمي بعد ذلك باسم نهر الامازون » ولكن يبدوان هذه الدعوى لا تقوم على أساس[1] . أما المؤكد فهو أن دييجو الفريز كوريا ، بعد تسع سنوات تقريباً من رحلة كابرال ، حط رحاله في الموقع الذي كان « المكتشف » قد مر بجواره ، وعقد اتفاقية مع ملك البلاد وأسس أول أسرة برازيليـة مختلطة . وقد اعتبر ، بحق ، مؤسس البرازيل . وجاء برتغالي آخر هو جوآو راماليو ، فاحتذى حذوه في المنطقة التي تقع فيها الآن ساوباولو ، بينما حط اليكسو جارسيا رحاله في ١٥٢٦ فيما يعرف اليوم بدولة سانتاكاتارينا ، وابتدأ يسعى وراء الذهب على رأس مجموعة من سكان البلاد الاصليين . وفي العام نفسه نشأ أحد الاسبانيين الذين كانوا من مرتزقة ملك البرتغال ، وهـو

(١) تبدو هذه الدعوى خرافية كالدعوى القائلة « باكتشاف » غينيا على يدي ملاحي مدينة دييب في سنة ١٣٦٤ والتي يشير اليها فييو دي بلفو وهو رحالة فرنسي من القرن السابع عشر .

كريستوفاو جاك ، مزرعة لقصب السكر غير بعيد من بيرنام بوك المستقبلة .

وبينما كان البرتغاليون ، بمقتضى معاهدة تورديسيلاس ، يستقرون في البرازيل شيئاً فشيئا ، كان الاسبانيون يستثمرون جزر البحر الكاريبي او جزر الانتيل الكبرى بشكل حاد . كان عهد جس النبض قد انتهى . وكان المكتشفون الأوائل الذين اعقبوا كولومبوس ، بما فيهم نينوز دي بالبوا « مكتشف » المحيط الباسفيكي ، ما زالوا يعتقدون ان القارة ليست الا عقبة في طريق التوابل ، في طريق الهند ، وكاثاي « الصين » الخرافية وكيبانجو « اليابان » التي تحيط بها الأسوار ، عقبة من السهل الدوران حولها . وان لم يحقق ذلك الا ماجلان البرتغالي (فرناو دي ماجالهايس) ، من ١٥١٩ الى ١٥٢١ ، لحساب ملك أسبانيا . وكان ذلك العمل حاسماً ، اذ انه اتاح معرفة القارة معرفة أفضل ، واتاح ايضاً الاستيلاء على الفيلبين التي انضمت الى الممتلكات الاسبانية لتثريها .

واتفقت رحلة ماجلان مع ظهور اخطر رجال « الكونكيستادور » الفاتحين وابرزهم وارهبهم جانباً : هيرناندوكورتيز . وتقرر غزو المكسيك يوم انصرف الاسبانيون عن جزر الانتيل دون ان يتخلوا عنها مع ذلك . فقد كانت هذه الجزر بلا شك مخيبة للآمال . كان يعوزها الذهب ــ الحلم الخالد الذي يجتذب اجيالاً من الرجال نحو كيبانجو . ولم تكن المزارع تأتي بالنتائج المرجوة ، وكانت الايدي العاملة تذوب أمام اعين الاسبانيين بسرعة ملحوظة . كان التاينوس يموتون بالآلاف من جراء المعاملة المجافية للانسانية التي كانوا يلقونها والتي كان كولومبوس قد أوحى بها من قبل في شيء من الاستياء . ان كل الشواهد تدعو الى الافتراض بأن جزيرة سان دومينجو (هاييتي) عند رحلة كولومبوس الاولى يقطنها نحو ٥٠٠ ألف من التاينوس . ومنذ ١٥١٠ لم يبق فيها الا ٥٠ ألفاً . وفي ١٥٣٠ تناقصوا الى ١٦ ألفــاً . وبعد عشر سنوات لم يكد يبقى فيها واحد من أهل البلاد الاصليين .

المغامرة المكسيكية :

كان الاسبانيون قد ثبطهم اختفاء ماشيتهم الانسانية التي كانوا يرون نسبة الوفاة فيها مسرفة ، وقد اقتنعوا بافتقار جزر الكاريبي الى الذهب ، ومن ثم فقد أناطوا كل آمالهم بالقارة الامريكية . وارسلت اليها عدة حملات ، من ١٥١٧ الى ١٥١٩ ، في اتجاه سواحل المكسيك ، ولكنها عادت في الطريق بعد أن تخلت عن مهمتها . وعندئذ لجأ فيلاسكويز حاكم كوبا الى هيرناند وكورتيز . كان كورتيز رجلاً على قدر خارق من الطاقة والحيوية ، ولم يكن يتورع عن اي شيء ، وكان يلهمه ايمان اسباني يبرر في عينيه كل جريمة ، فشرع في العمل . جيّش احدى عشرة سفينة وزودها بنحو ١٠٠ برميل واخذ معه عشرة مدافع وستة عشر حصاناً وحط رحاله على رأس ستمائة جندي في فبراير ١٥١٩ على ساحل يوكاتان .

كانت أراضي يوكاتان « المكسيك » الواطئة قد شهدت بين ٣٠٠ و ٤٠٠ قبل الميلاد قيام امبراطورية مايا القوية . وكانت الأمة الماياوية مثل الأمة الهيلينية ، تعتمد على اقتصاد ريفي بلغ حداً كبيراً من النمو . لم يكن اهل مايا يستطيعون القيام بالتجارة بين المدن ، لافتقارهم الى وسائل النقل (لم يكونوا يعرفون العجلة ولا يملكون الحصان او غيره من الدواب) . وادت زراعة الأرز ، واللوبيا ، والكاكاو ، والفلفل ، زراعة كثيفة ، الى تعرية الأرض وانهاكها بسرعة .

ونتيجة لذلك أسس الماياويون في القرن الحادي عشر امبراطورية جديدة في شمال يوكاتان ثم أخذت هذه الامبراطورية تتدهور منذ بداية القرن الثالث عشر .

وفي تلك الفترة ظهرت قبيلة التولتيكيين ، وعلى رأسها كويتز الكواآتل[1] .

---

(١) الاله « الثعبان المجنح » الذي ترجع تسميته الى «كويتز ال» وهو طائر من طيور غابات امريكا الوسطى بالغ الندرة يكاد يكون اسطوريا ، وقد سميت باسمه العملة الحالية في جواتيمالا .

واخضعت هذه القبيلة المایاويين ولكنها اخذت تعتنق باطراد الفضائل السائدة في حضارتهم. وجاء الازتيكيون، وهم يمتّون بصلة القرابة الى التولتيكيين ويتكلمون اللغة نفسها (لغة ناهاواتل) فغزوا المكسيك في نحو ١٣٠٠ واخضعوا المایاويين والتولتيكيين وسرعان ما أسسوا مدينة أقام فيها مائة الف شخص وأطلقوا عليهم اسم «تينشتيكلان» (مكسيكو الحالية)[١].

عندما هبط كورتيز على ساحل يوكاتان لم تكن السيطرة الازتيكية قد استمرت الا قرنين من الزمان، فقد كانت إذن سيطرة هشة ضعيفة الجناح. ان مهمة كورتيز، ووصوله الى تينشتيكلان، ولقاءه مع مونتزوما الامبراطور الازتيكي التاسع وموت هذا الاخير ونهب العاصمة وتدميرها، اذ كانت معزولة في وسط بحيرتها، امور معروفة وشائعة فلن نزيد فيها القول. واستغرق كورتيز ثلاثة شهور لكي يخضع المدينة «في ١٥٢١» ويقبض على زعيم المتمردين كواهتيموك، ابن أخي مونتزوما والامبراطور الحادي عشر والأخير من اباطرة الازنتيكيين الذي يجعل منه كاركو شيولي بطل كتاب رائع[٢].

كان ذلك النصر يعزى الى افتقار العدو الى المنعة والقوة اكثر مما يعزى الى ما للفاتح من قدرٍ وقيمة. فلم يكن كورتيز يتمتع فقط بميزة المفاجأة التي يتصف به كل المهاجمين، ولكنه كان يتمتع ايضاً بميزة مجابهة عالم منقسمٍ على نفسه. فلم تكن قرنان من الزمان كافيين لكي يروض الازتيكيون القبائل المجاورة ترويضاً نهائياً. واستغل كورتيز الخصومة الكامنة عند التيلاكسكالتيكيين، وسمّم العلاقات بين تيكسكوكو وتينشوتتلان، كما ناصر التمرد الذي قامت به شعوب لم تكن خاضعة تماماً للامبراطورية مثل شعوب الزابوتيكيين. وجاءت عناصر أخرى كان من شأنها أن تسهم في انهيار الامبراطورية الازتيكية. منها على سبيل

---

(١) من المسلم به عامة ان السكان البدائيين في امريكا يرجعون الى اصول الهجرات المتعاقبة القادمة من آسيا (منغوليا ؟)

(٢) كارلو كوتشيولي : سقوط نسر الأزتيك.

المثال إدخال الحديد ، والحصان ، وهي تجديدات كانت بطبيعتها تشل خيالهم . ألم يفرض الإندوأوربيون سيطرتهم الموقوتة في آسيا ، في الالف الثالثة قبل الميلاد ، بفضل هذين العاملين على وجه الدقة ؟[1] . كانت الاسلحة النارية ايضاً — وعلى الأخص المدافع — عاملاً حاسماً في النصر وفي سرعته الصاعقة . وأخيراً كان هناك عامل سيكولوجي لا يستهان به — هو تلك النبوءة القديمة التي لم ينسها الازتيكيون قط منذ انتصارهم على التولتيكيين ، وهي النبوءة القائلة بعودة بعودة كويتز الكوتل ، الثعبان المجنح ، والذي ربط مونتزوما بينه وبين وصول الاسبانيين ، نتيجة لاعتناقه تلك الخرافة ، وما من شك أن هذا العامل لم يكن قليل الشأن في انهيار امبراطورية تحشد عدة مئات من الآلاف من الرجال ، وتتمتع بهيكل عسكري قوي ، أمام حفنة تتكون من ستمائة من المغامرين .

ان اللقاء بين كورتيز ومونتزوما ، هذا اللقاء الأول بين حضارتين ، تلك النظرة المتعالية التي تكن الاحتقار يلقيها الفاتح على الشعب المقهور الذي ينتوي أن يستعمره ، وتلك النظرة من المغلوب على امره يرقب الفاتح ويتأمله ، ذلك كله يضع الخطوط الاولى في صورة العلاقات التي سوف تسود بين المستعمر والخاضع للاستعمار ، في القرن التاسع عشر . كانت اسبانيا ترى خصمها أدنى منها لأنه قد انهزم ، ولأنه ليس مسيحيا. وكان ادخال المغلوبين على أمرهم في حظيرة المسيحية يبدو هو العمل الكريم الوحيد الذي يمكن أن يقبله الفاتحون ، والعمل الوحيد الذي من شأنه أن يرفع المغلوبين على أمرهم الى مصافهم ، هم الاوربيين الذين أحاطوا علماً بكل شيء ، ووسعت قدرتهم كل شيء ، وعرفوا العقيدة الحقة الوحيدة . ان ما يتميز به موقف كورتيز اساساً (وموقف المستعمر الاوربي ، في الغد القريب) هو رفض فهم الآخر ، رفضاً جوهرياً . (ولكن أليست تلك هي الوسيلة الوحيدة للحيلولة دون الذوبان في الآخر ؟) .

---

(١) ألا يمكن ان نستخلص من ذلك ان الهجرات الآسيوية الاولى في اتجاه امريكا قد جاءت في فترة سابقة على وصول الاندوأوروبيين او جاءت من مناطق لم تمسها التيارات الاندو - أوروبية مساً مباشراً ؟ ومن ثم جاء الافتقار الى هذين العنصرين : الحديد والحصان .

وكان موقف الازتيكيين المغلوبين على امرهم له دلالته ايضاً. كانوا ينظرون الى قاهريهم بفضول ودهشة اكثر مما يكنّون لهم من كراهية. وكان سلوك الاسبانيين، بما فيه من اضطراب، اذ لم يكن يطّرد على وتيرة واحدة، يصيبهم بالحيرة. فكيف «يستفظع» كورتيز (أو يتظاهر بذلك) القرابين البشرية التي تقتضيها عقيدة الهويزيلويشتيلي،[1] بينما يعذّب بيده الرجال الذين انقذهم من سكين الأضحية حتى يقضوا نحبهم لكي يحصل على اعترافات منهم وباشتراك مزعوم في مؤامرة ما؟ ولماذا يعتزم أن يفرض، بالقوة، ديانة ذلك الذي يرفع المحبة فوق كل شيء؟ أليس من غير المعقول أن يمجد فقر المسيح وبره بينما يقف على أهبة الاستعداد لاشعال الحرائق وارتكاب جرائم القتل، ولا يعيش الا من أجل ذهب الازتيكيين؟

حاول مونتزوما ان يحدس ويستبصر ما الذي يدفع كورتيز الى التصرف على هذا النحو الذي لا يمت الى العقل بصلة. كان الازتيكيون قد اعتادوا ان يشيدوا مدنهم بناءً على اعتبارات هندسية وفلكية مجردة. فافترضوا وجود ملكات خفية ميتافزيقية وروحية عند قاهريهم. ولم يتوقفوا منذ تلك اللحظة عن تأملهم وتعلم كلماتهم وايماءاتهم عن ظهر قلب، وأن يحاولوا تبيّن خططهم. وقد انتهوا بأن عرفوهم. ان اختلال التوازن النسبي الذي يترتب على عماية القاهرين من ناحية، واستنارة بصيرة المقهورين من ناحية اخرى، هو بالضبط اختلال التوازن الذي يمكن ان نشاهده فيما بعد في العلاقات بين المستعمرين والخاضعين للاستعمار.

وايّاً كان الأمر فقد سار الغزو في مساره. واستطاع نواب كورتيز: بدرو دي الفارادو وكريستوبال دي اوليد، ان يقيما السلام» في جواتيمالا، ونيكاراجوا والهندوراس. ورحل الفارادوا، على رأس ثلاثمائة من المشاة ومائة وخمسة وثلاثين من الفرسان واربعة مدافع وثلاثمائة من الهنود الامريكيين المتحالفين معه في ١٦ ديسمبر ١٥٢٣، في اتجاه الجنوب. وهاجم تيكوم — أومان رئيس الاتحاد

(١) إله الازتيكيين الاعلى.

الكونفيدرالي المايأوي ، واتباعه من الكيشيين ، في اكسلاهوه ، غير بعيد من كويتز التنانجو (جواتيمالا) ، وقبض على أربعة ملوك ، وأحرقهم ، ودمر العاصمة . واستقر في الهضبات العالية ، وأسس المدن والاسقفيات : الاولى في ليون دي نيكاراجوا ، في ١٥٣١ ، والثانية في جواتيمالاكيوداد انتيجوا في ١٥٣٤ . «كان غزو أمريكا الوسطى واستكشافها نتيجة لعمل رواد المكسيك ، ورواد بنما ، على غير تآلف بينهما »[1] .

هل في ذلك ما يعني أن ثم تنافساً جوهرياً بين كورتيز وبدراریاس ؟ لا ، بلا شك ، وان كان الصلف والكبرياء والقسوة والافتقار الى النظام التي يتصف بها نواب وضباط الفاتحين قد حولت حملات الكشف في الغالب الى صراعات داخلية . ولم يتردد كورتيز نفسه عن ان يقاتل دييجو فيلاسكويز حاكم كوبا ، ولكنه دعا كريستوبال دي اوليد الى نجدته ، فخانه . وحاول اثنان من اتباع كورتيز المخلصين ، جيلكونزالس دافيلا وفرانسسكو دي لاس كاساس ، ان يقبضا على الخائن ، ففشلا وألقي بهما في زنزانة واحدة . واستطاعا أن يفرا منها ، وقتلا كريستوبال دي اوليد ، ولجآ الى كورتيز الذي انضم اليهما .

ثم أسس كورتيز بعد ذلك مدينة تروجيلو في هندوراس . اي ان الغزو قد سار في سياق من العنف والجشع والايمان الزائغ عن طريقه السوي . وسرعان ما أدرك الهنود الامريكيون الذين اسهموا اكبر الاسهام في تدمير الامبراطورية الازتيكية مدى خواء انتصارهم . كانوا من قبل خاضعين لسلطة تينوشتيتلان او متحالفين مع مونتزوما : أما الآن فقد اصبحوا يلقون معاملة السائمة او الجمادات . لقد اصبحوا عبيداً من جراء استعمار مجموع الأراضي المفتوحة في امريكا الوسطى التي سوف تتسمى منذ تلك اللحظة باسم اسبانيا الجديدة .

كلّ ذهب بيرو :

بعد اثنتي عشرة سنة من نزول كورتيز على سواحل يوكاتان ظهر فرنسيسكو

---

(١) شارل ــ ف . اوبران : امريكا الوسطى .

بيزاوو او بيزار (الغريب) وهو فاتح جديد سوف يستطير له صيت ذائع ، فغادر بناما (في ينايا ١٥٣١) وفي جيبه « وثيقة التسليم » ، على رأس ١٨٠ رجلا و ٣٧ حصاناً . واستطاع بيزار ، بقواته المحدودة – وهي اقل بكثير من قوات كورتيز – أن يهزم دولة قوية هي امبراطورية الانكا ، في خلال عامين اثنين ، وأن يحطم حضارتين كبيرتين : حضارة الانكا وحضارة الشيبشاس . كانت امبراطورية الانكا تتسمى باسم الملك : انكا ، كما كان الحال في امبراطورية غانا. « ولم يكن الانكا في بداية الامر الا رئيس عائلة او عشيرة وصل الى مكانة عالية في احدى القبائل »[1] . ولكن الانكا اصبح هو الرئيس المدني والديني والعسكري الأعلى للدولة عندما بسطت الامبراطورية نفوذها (منذ القرن الثالث عشر) في المجال المواتي الذي كان متاحاً لها والذي يتفق تقريباً مع أراضي بيرو الراهنة .

لم يكن التنظيم الاجتماعي والسياسي لامبراطورية الانكا يخلو من أوجه شبه بتنظيم اسبرطة : حيث نجد الخليط نفسه بين الاوتوقراطية والمساواة . لم تكن الملكية الخاصة لادوات الانتاج معروفة عند الانكا الذين كانوا يطبقون المبدأ الأساسي في الاشتراكية . وكان نظام الانكا الذي يقوم على اسلوب الانتاج الآسيوي ، او البيروقراطي (الأعمال الكبرى ، والملكية الجماعية ، وقيام طبقة الموظفين) نظاماً عسكرياً لا هوادة فيه ، من ناحية اخرى . كان الانكا هم اول من رحّلوا السكان والشعوب الذين اعتبروهم معادين لهم ، ترحيلاً جماعياً ، من ادنى أطراف الامبراطورية الى اقصاها . وبلغت امبراطورية الانكا ذروتها قبل وصول بيزار بمائة سنة تقريباً ، ثم تحطمت عندئذ بشكل قاصم . كانت قد بدأت فتوحاتها منذ ١٤٤٥ (احتلال تياهواناكو واقليم بحيرة تيتيكاكا) واستمرت هذه الفتوحات في ١٤٧٠ ثم انقطعت بانقضاض الاسبانيين .

وفي ١٥٣١ كانت الامبراطورية تمتد من ريو آنكاسمايو ، في جنوب كولومبيا الى ريو مولى، في شيلي على مساحة مقدارها نحو ٤٠٠٠ كيلو متر (من خط عرض

---

(١) هنري ليهمان : الحضارات السابقة على الكشف الكولمبي .

٢ شمالاً الى خط عرض ٣٤ جنوباً) . وكانت العاصمة اسمها كوزكو منقسمة الى مدينتين : كوزكو العليا « هانان — كوزكو » وكوزكو السفلى « هورين — كوزكو » . وترتبط بأربعة أقاليم (سويو) : كونتي — سويو ، وكولا — سويو ، ولهما علاقة روحية بكوزكو هورين ، وأنتي — سويو ، وشنشا — سويو ، اللتان على علاقة روحية بهانان — كوزكو . وكانت تخرج منها أربعة طرق تربط بين العاصمة وعواصم الاقاليم وأقل القرى شأناً في الوقت نفسه. وكان للديانة الرسمية ، عبادة الشمس ، معبد في كوزكو حيث يحتفظ بمومياءات ملوك الانكا . وكانت ثم اوجه شبه اخرى مع الاسبرطيين ؛ لم تنشىء حضارة الانكا الا فناً هزيلاً نسبياً . فاننا نفتقر هنا الى النحت على الحجر الذي كان عند الماياويين والازتيكيين يتمتع بغنى عظيم وتنوع باهر . الا ان المعمار عند الانكا كان يدل ، بعكس ذلك على طرائق تكنيكية متقدمة الى حد فذ «كان هذا الشكل من اشكال المعمار يمتاز بمقاومة كبيرة (فما من زلزال استطاع أن يمسها) وكان يستخدم في تشييد الحصون مثل حصن ساكسا هوامان »[1] .

هذه هي الامبراطورية التي هاجمها بيزار في يناير ١٥٣١ واستطاع ان يطوح بها أرضاً ، بالخديعة والعنف ، بعد عامين من الصراع الذي لم يتوقف . وان كان ينبغي أن ينتظر الاسبانيون عشر سنوات اخرى حتى يجعلوا من انفسهم سادة على البلاد . وعرف غزو ما اطلق عليه فيما بعد قشطالة الجديدة الصراعات الداخلية ايضاً : فقد وقف انصار بيزار ، وانصار دييجو الماجرو ، زميله القديم ، (وقد كان أمياً مثله ، وان كان أكثر منه شراسة وضراوة وجشعاً بكثير) وجهاً الى وجه في صراع قاس . وخُنق الماجرو في ١٥٣٨ ، بناء على أمر من بيزار الذي اغتيل هو الآخر بعد ذلك بسنتين ، في ليما ، على يد ابن ضحيته الذي قطع رأسه بدوره . وهكذا سار الغزو الاسباني ، باستمرار ، في جو من الثأر والانتقام الذي يشبه ما يدور في كورسيكا أو في جو من الدراما الشيكسبيرية .

---

(١) هنري ليهمان : الحضارات السابقة على الكشف الكولمبي .

وعندما « استتب السلام » في بيرو اصبحت بدورها ـ كما كانت المكسيك من قبلها ـ نقطة انطلاق لعدد من الفاتحين الذين سوف يستولون على مناطق استراتيجية أخرى من أمريكا الجنوبية مثل بيلالا كازار ، وفيدرمان ، وبرويلانا . وفي ٥٣٣ اسس بيترودي ماندوزا مدينة بوينس ايرس بهدف واضح مسلم به هو الوصول الى كل ذهب بيرو عن طريق أسهل منالا .

ادارة المستعمرات :

في الفترة التي انقضت منذ اقلاع كولومبوس في ١٤٩٢ الى تأسيس بوينس يرس في ١٥٣٣ تغيرت اشياء كثيرة في اسبانيا وفي اوربا ، فقد ماتت في ١٥٠٤ الملكة ايزابيلا ملكة قشطالة التي كانت محاكم التفتيش تجد فيها دائماً مسيحية نقية متحمسة (ولا يخلو ذلك من أن يلقى الضوء القاسي على اتجاه معين من اتجاهات العقيدة التي كان يؤمن بها رعاياها اذ مضوا في العالم الجديد يشنون حرباً صليبية) ثوتبعتها ابنتها جان (التي اطلق عليها فيما بعد لقب : المجنونة) ملكةً لقشطالة ، وتزوجت فيليب الجميل ، ارشيدوق النمسا ، وأنجبت منه ولداً هو شارل الذي اصبح ، بعد موت فرديناند الثاني في ١٥١٦ ، شارل الأول ملك أسبانيا . وبعد ثلاث سنوات ، عندما مات أبوه فيليب ديهابسبورج ورث شارل الامبراطورية الرومانية المقدسة الجيرمانية . واصبح شارل الخامس أو شارلكان .

عندما ارتقى شارلكان العرش في ١٥١٩ (السنة التي حط فيها كورتيز رحاله في المكسيك) كان اقوى امبراطور في العالم . كان يحكم اسبانيا ، والفلاندر ، والبرابرانت ، والبلاد الواطئة ، والمانيا ، والنمسا ، في اوربا . وكان في العالم الجديد يحكم الوسط والجنوب من القارة الامريكية (فيما عدا البرازيل) كما يحكم جزر الكاريبي . كانت سيادته تكاد تكون عالمية . وما من شك انه قد راوده حلم حكومة عالمية مثل الاسكندر ، ولكنه كان أقرب منه الى تحقيقها . وفي عهده نظّم استعمار اسبانيا الجديدة وقشطالة الجديدة : كان شارلكان يعنى بذلك بنفسه عناية خاصة ؛ وفي ١٥٢٦ ، خلع كورتيز وأحل محله ، في بداية الأمر ، موظفاً

لويس بونس دي ليون الذي كان لا يتمتع بحظ من الذكاء او اللمعان . ثم احل محله ، في ١٣ ديسمبر ١٥٢٧ ، « الحكومة الاولى في اسبانيا الجديدة ، (وهي الجنين الذي سوف يتطور الى الادارة المستقبلة للمستعمرات) .

وفي ١٥٥٠ ، قبل نزول شارلكان عن العرش في بروكسل ، كان الغزو الاسباني للقارة الامريكية قد انتهى تقريباً . ومنذ تلك اللحظة ظهرت البوادر الاولى للاستعمار : ثم اخذ الاستعمار ينمو في كل مكان منذ ١٥٥٠ . وعندما تنازل شارلكان عن العرش ، تقاسم الامبراطورية أخوه وابنه : فكانت الامبراطورية الرومانية الجيرمانية من نصيب فرديناند، وكانت الفلاندر واسبانيا واقاليم ما وراء البحار ، أي المستعمرات الهندية الامريكية التي استتب فيها السلام والتي اخذ الاستعمار سبيله اليها — من نصيب فيليب (الذي عرف باسم فيليب الثاني) .

والواقع ان الاستعمار الأول ، استعمار الفاتحين ، « الكونكيستادور » كان استعماراً تجريبياً . وقد صححت أسسه الادارة الاصلية التي اقامتها اسبانيـا . ففي البداية ، وزع بدرو دي الفارادو الأراضي بين مائة وخمسين من اصفيائه الذين اختارهم من زملائه المغامرين والذين كانوا في معظمهم ينبثقون من أدنى فئات المجتمع الاسباني . لقد أحل طبقات اجتماعية جديدة في محل الرتب العسكرية الهرمية . ووزع على المائة وخمسين من الارستقراطيين الجدد ضياعاً شاسعة وأعطاهم عدداً من الاقنان من سكان البلاد الاصليين كان عليهم أن يفلحوا هذه الضياع . وحتى يبقي على هذه الارستقراطية الجديدة ويديم استقرارها ، استجلب الفارادو من اسبانيا ، في ١٥٣٩ اثنتي عشرة امرأة من النبيلات سافرن على السفن التي جاءت بأولى عينات القمح ، والشعير ، والأرز ، وشجرة البرتقال الاولى ، وحصاناً ذكراً ، وثوراً فحلاً ... الخ . كانت أراضي النبلاء الجدد تقع غير بعيد من المدينة التي بناها الفاتح ، جواتيمالا كيوداد الجديدة ، بجانب انتيجا . ودعي الحرفيون من اسبانيا لكي يتموا بناء المدينة فطالبوا بأن تجزل لهم الاجور وفقاً

للمعايير السائدة في قشطالة . وبينما كان العامل اليدوي في اسبانيا لا يتمتع بحظ من الاحترام والتقدير ، فان مجرد عبوره المحيط يجعله يصل ، دفعة واحدة ، الى الطبقة العليا ، كالجندي سواء بسواء . « ومن هنا جاء أصل الصفوة المختلطة الأنساب في امريكا الوسطى »[1] . ظهرت على الفور مشكلة اخرى امام المستعمرين الاوائل : مشكلة الأيدي العاملة . فمن أين تأتى الأيدي العاملة الرخيصة الا من بين سكان البلاد الاصليين ؟ ولكن انهيار امبراطوريتي الازتيك والانكا ترتب عليه انهيار من نوع آخر عند الشعوب التي كانت تتمتع فيما مضى بالسيادة على مصيرها : هو الانهيار الخلقي والسيكلوجي . فقد انطفأت فجأة ارادة الحياة فيها . ولم تعد تعرف ما هي فاعلة بالحرية التي أتيحت لها على غير انتظار بينما كانت قد اعدت نفسها لوجود تحكمه أحكام صارمة . . واء منها من كانت متحالفة مع الامبراطوريات المنهارة او من كانت خاضعة لقوانينها . وتفشّى وباء الانتحار عند الازتيكيين والمايا والانكا . وجاءت الأمراض التي استوردها الغزاة الاسبانيون فزادت الامر سوءاً اذ كانت حميدة عند الأوربيين مثل الحصبة او الجدري ولكنها قاتلة عند الهنود الامريكيين . ولم يرق قلب أوربا لمشهد هذه المجازر ولكن احساسها بالمنفعة والمصلحة قد اهتز واستثير . ونظمت حملات لمطاردة الرجال في الجبال : كان الاسرى يحولون الى عمال . فاذا زاد عددهم عن الحاجة استفاد منهم المستعمرون الذين استقروا في اماكن اخرى، في البرزخ الى الجنوب . وهكذا وجد المايا انفسهم يجرون جراً الى نيكاراجو والى الهندوراس والى بناما بل والى بيرو. فاذا لم توجد ايد عاملة من اهل البلاد الاصليين اطلاقاً في مكان ما، قام الاسبانيون انفسهم بهذه المهمة وصنعوها صنعاً : كانوا يستجلبون النساء من اهل البلاد الاصليين ويستولدونهم جيلاً جديداً من المخلطين ثم يستولدون جيلاً ثانياً من النساء المخلطات وهكذا .

كان على الادارة الاسبانية التي ضربت بجذورها في المناطق التي « استتب

---

(١) شارل ــ ف · أوبران : امريكا الوسطى .

فيها السلام » ان تواجه موقفاً فيه مفارقة وأن تحل كثيراً من التناقضات . ففي الوقت الذي كانت تؤسس فيه هذه الادارة منشآت تشبه منشآت اسبانيا نفسها شبهاً كاملاً ، كان عليها أن تقبل وأن تبقي على التقاليد التجريبية التي وضعها الاستعمار الأول الذي خلفه الفاتحون . ولكن « الهند كانت قشطالية ، قبل ان تكون اسبانية ، كانت ملكاً للملك الذي انشأ سلسلة من الأجهزة لادارتها نمت وتطورت بالتوازي مع نمو الأجهزة القائمة في العاصمة . كان الملك يعهد الى من يرضى عنه بمهمة فتح اجزاء من ممتلكاته ، وكان يوزع على اتباعه الأوفياء اراضي الهند وماشيتها فقد كانت كلها ملكه الخاص . (وهكذا نشأت المزارع الكبيرة « انكومينده ») . كان الملك يمارس السلطة التي منحتها اياه أوامر الاسكندر السادس البابوية على الهند ، بوساطة اجهزة تشابه المؤسسات التي توجد في العاصمة »[1] .

مصير البرازيل :

كانت مزارع قصب السكر القليلة المتناثرة التي رأيناها تظهر في شمال شرقي البرازيل هي نتاج الجهد الوحيد الذي قامت به البرتغال في سبيل تنمية الاستعمار ، خلال فترة من الزمن . والواقع ان « كشف » البرازيل الذي جاء عفوياً وعرضياً كان يلقى على البرتغال بشيء من الحرج ، فقد كانت تصب اهتمامها أساساً في آسيا الى تجارة التوابل . ولكن حدثاً رئيسياً — هو انضمام البرتغال الى مملكة اسبانيا في ١٥٨٠ — عدل من اتجاه السياسة الاستعمارية البرتغالية تعديلاً جذريا . والواقع ان البرتغال قد اضطرت الى الاشتراك في الحروب التي شنها فيليب الثاني على انجلترا والبلاد الواطئة ، ومن ثم أصبحت هدفاً لحملات الثأر التي كان من السهل التنبؤ بوقوعها : فهاجم الهولنديون الممتلكات البرتغالية في الشرق . واستولوا

---

(١) بيير شوفو — تاريخ امريكا اللاتينية . عرفت امريكا زمناً طويلا باسم الهند نتيجة للاختلاط الذي ادخله المكتشفون الاوائل وكان منهم كولمبوس : ومن هنا جاء اسم سكان البلاد الاصليين : الهنود .

على امبوان في ١٦٠٦ ، وعلى تيرنات وتيدور في ١٦٠٧ . وعلى هيرمز في ١٦٢٢ وطردوا التجار البرتغاليين من اليابان في ١٦٣٩ . وعندما استعادت البرتغال استقلالها في ١٦٤٠ كانت قد فقدت نصف امبراطوريتها الشرقية . ولم تقف المحن التي حلت بها عند ذلك الحد : ففي ١٦٤١ انتزعت منها مالاكا . وسقطت سيلان وساحل مالابار في أيدي الباتافيين بين ١٦٥٥ و ١٦٦٣ .

وأصيبت تجارة التوابل « البرتغالية » بأضرار جسيمة منذ بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر . وعندئذ اتجهت البرتغال بأبصارها الى البرازيل الذي انقذها انتاج السكر فيها من كارثة اقتصادية لا مثيل لها . « في ١٦١٢ ومن بين احدى عشرة « قبطانية » مقامة في البرازيل كانت ثماني « قبطانيات » تصدر مجموعاً يتراوح بين ٧٠٠٠ و ٨٠٠٠ طن من السكر سنوياً — وكانت قيمة هذا المحصول كبيرة : فقد كانت تقدر في ١٦٢٧ بمبلغ ٤٠٠ ألف كروزادوس في السنة »[1] . واذن فقد حل سكر البرازيل محل توابل الشرق ، كما كانت هذه التوابل قد حلت محل ذهب غينيا . ولكن النظام الاقتصادي البرتغالي لم يلحق به انقلاب أساسي من جراء ذلك . ولنكتف بالقول ان اتجاه الامبريالية البرتغالية قد انتقل ببساطة من آسيا الى امريكا .

ومع ذلك فان نمو صناعة السكر قد ترتبت عليه زيادة حدة الاستعمار وتعميمه ؛ وتغلغل البرتغاليون تغلغلاً عميقاً في داخل البرازيل — الى حد بعيد وراء خط العرض الذي وضعه الأمر البابوي للبابا اسكندر السادس ومعاهدة توردیسیلاس . واخذ المستعمرون يستصلحون مساحات شاسعة من الأراضي . وسرعان ما ظهرت الحاجة الى الايدي العاملة — فقد قضى اهل البلاد الاصليين نحبهم بالآلاف من جراء الأمراض وأساليب القنانة التي لا رحمة فيها ، فلم يعودوا قادرين على القيام بتلك المهمة — مما اضطر البرتغال الى استيراد عدد كبير من العبيد من ممتلكاتها الافريقية . واصبحت انجولا بسرعة هي المورد الرئيسي

(١) بيري اندرسون : البرتغال ونهاية عصر آخر الاستعمار .

للايدي العاملة ـ الى حد أنه قد ظهر في القرن السابع عشر قول شائع : « لولا السكر ما وجدت البرازيل ـ ولولا انجولا ما وجد السكر » .

ولكن انتاج السكر في جزر الانتيل أخذ ينافس انتاج سكر البرازيل منافسة خطيرة منذ نهاية القرن السابع عشر . فليكن من أمر ذلك ما يكون : لقد جاءت معجزة جديدة . اكتشف الذهب في البرازيل في ١٦٨٤ ، كما اكتشف الماس فيها بعد ذلك بقليل . وحل الذهب والماس محل السكر . وهكذا دارت الدورة كاملة . وان لم يحل ذلك دون ان تجد البرتغال نفسها أشد فقراً عن ذي قبل في ١٨٢٢ ـ تاريخ اعلان استقلال البرازيل .

التوسع الفرنسي :

كانت فرنسا هي الدولة الاوربية الثالثة التي شاركت في المنافسة الاستعمارية . ولكن ممّ جاء هذا التأخير؟ جاء أساساً لأن فرنسا عُنيت فترة من الزمن باستكمال وحدتها الداخلية اكثر بكثير مما عنيت بمغامرات بحرية . كان لويس الحادي عشر ، الذي اتفق عهده مع فترة الرحلة البرتغالية الاولى حول افريقيا ، مشغولاً بالصراع الذي خاضه ضد شارل الجسور . وبينما كان كولومبوس يقوم برحلاته ـ كان شارل الثامن يفتح مملكة نابولي . اما لويس الثامن عشر الذي مات قبل نزول كورتيز في يوكاتان بأربع سنوات ، فقد كان عليه طيلة حياته أن يقاتل : تارةً ليستولي على دوقية ميلانو وتارة ليصد هجوم الاسبانيين والسويسريين وهنري الثامن ومكسيميليان . ولكن ذلك لم يحل دون أن تعنى فرنسا ، وخاصة في عهد لويس الحادي عشر ، بتوسعها في البحر الأبيض المتوسط وبأن تستفيد من تجارة التوابل . بل غامر بعض البحارة الفرنسيين او القراصنة على الأصح في أثناء القرن الخامس عشر ووصلوا الى سواحل غينيا وعادوا منها بحمولات من الذهب .

وبقيت هذه المشروعات مع ذلك محدودة . ولم تبدأ فرنسا في تخطيط سياسة توسع بحري على قدر من الأهمية الا في عهد فرانسوا الأول . واتفق ظهور حركة

كبيرة من الاهتمام بالاكتشافات مع نمو موانيء المحيط الاطلنطي في فرنسا . واسهم رجلان يختلفان كل منهما عن الآخر اختلافاً كبيراً في دفع هذه الحركة من الاهتمام دفعاً جديداً : جان أنجو مجهز السفن في دييب ، والملاح الفلورنسي الأصل فيرازانو . دفع الأول بسفنه الى « اكتشاف » ما بقي من امريكا قابلاً للاكتشاف ، والى التعرف بالسواحل الافريقية والهند الشرقية . وكانت احدى سفن جان انجو وهي « بونسيه » هي التي أتت الى روان للمرة الاولى في ١٥٠٩ ببعض سكان تلك البلاد ولعلهم كانوا من الأرض الجديدة . وكان جان انجو أيضاً هو الذي اتصل بفيررازانو بوساطة بعض اصحاب المصارف الايطاليين اللاجئين في روان .

واقلع فيرازانو من جزيرة ماديرفي ١٧ يناير ١٥٢٤ على متن سفينته « دوفين » وبعد رحلة استغرقت خمسة وعشرين يوماً اقترب من أرض « لم يكن احد قد رآها من قبل ولا على عهدنا ، ابداً » . كان فيرازانو في تلك الفترة ما زال على يقين من أنه يوجد طريق يتيح الوصول الى كاثاي (الصين) الغامضة . « بعد خمسين فرسخاً وبعد ان ترك فيرازانو خليج شيسابيك دون ان يتعرف عليه ، وضع قدميه على أرض سماها اركاديا لجمال أشجارها ، ومن هنا اشتق اسم اكاد الكندية ، فقد شوه اصحاب الخرائط اسمها فيما بعد »[1] . واستأنفت دوفين رحلتها نحو الشمال الشرقي ، وبعد مائة فرسخ وصلت الى « موضع جميل يقع بين تلين صغيرين ينتهي فيه الى البحر نهر عظيم » . صعد فيرازانو ذلك النهر بالقوارب حتى وصل الى بحيرة يبلغ محيطها نحو ثلاثة فراسخ . فهو بلا شك الأوربي الأول الذي تغلغل في الخليج الذي سوف تقوم عليه فيما بعد نيويورك . واستمر فيرازانو في مسيرته وسرعان ما اقترب من سواحل كانت قد اكتشفت من قبل ولم يعد عنده أمل ان يكتشف منها طريقاً الى الغرب . فقبل عندئذ ان يعود الى فرنسا ، وفي ٨ يوليو ١٥٢٤ حط رحاله في دييب . وفي اليوم نفسه ارسل تقريره الى

---

(١) شارل اندريه جوليان : رحلات الاكتشاف والمنشآت الاولى .

الملك فرانسوا الأول الذي كان قد قام برحلته بناء على امره . كانت هذه الرحلة في نهاية الأمر مخيبة للآمال : فانها لم تتح له أن يعثر على المضيق الذي يفتح لـه الطريق الى كاثاي وان يجلب منها الذهب والعقاقير والخمور التي كان يظنها غنية بها . ومن ناحية أخرى فشل فيرازانو في محاولته المزدوجة ان يصرح له الملك بحملة اخرى للدراسة والكشف وان يضع خططاً لاستعمار الأراضي « المكتشفة » التي سماها « فرانسيسكا » تكريماً للملك ، فقدكان فرانسوا الأول في تلك اللحظة يعبيء قواه جميعاً لغرض واحد : مقاتلة قائد الجيش البربوني الذيغزا البروفانس.

أما من الناحية الجغرافية فقد وصل فيرازانو الى نتائج ملحوظة . فقد كان أول من وضع حداً نهائياً لحلم الملاحين والجغرافيين الذي كان يصور امريكا باعتبارها موقعاً متقدماً من مواقع الصين او اليابان او الهند . فقد أكد انه « اكتشف أرضاً لم يكن يعرفها القدماء . « عالم جديد يختلف عما عرفوه ، قد ظهر بوضوح انه أكبر من أوربا ، وأفريقيا ، وآسيا تقريباً ، اذا تأملنا مساحته تأملاً دقيقا . إن هذه الأرض أوهذا العالم الجديد ... يشكل كلاً واحداً . فهو لا يتصل بآسيا ولا بأفريقيا (نحن على يقين من ذلك) . » ويواصل فيرازانو قوله : « هذه القارة اذن محصورة بين البحر الشرقي والبحر الغربي وهي تحدّهما »كان ذلك يدحض رأي أرسطو الذي كان يظن « ان محيطنا الغربي متحد مع المحيط الشرقي الهندي ، دون وجود أية قارة بينهما » . وهي وجهة النظر التي استخلص الملاح الفلورنسي ان « التجربة تثبت خطأها » . ولقي فيرازانو حتفه أثناء حملة ثانية الى جـزر ألانتيل .

وفي نحو تلك الفترة ظهرت اولى الاصطدامات بين الفرنسيين والبرتغاليين في البرازيل . كانت هذه الاصطدامات تدور حول تجارة اخشاب الصباغة التي سميت البلاد باسمها . كان التجار البرتغاليون الذين يسعون وراء الخشب الأحمر — وكانوا يسمون برازيلييروس — يجندون اهـالي البلاد الاصليين بالقوة ويرغمونهم على قطع الأشجار ثم نقلهـا متدحرجة على كريات خلال مسافة

تتراوح من خمسة عشر الى عشرين فرسخاً. ثار جشع النورمنديين والبرتونيين وطمعوا في الأرباح الطائلة التي تتأتى من تلك التجارة، فحذوا حذو البرتغاليين، مما أثار نزاعاً مستمراً. وجر الفرنسيون والبرتغاليون، كلّ من ناحيته، القبائل المتنافسة من أهل البلاد الاصليين في هذا الصراع. وامتدت هذه الحرب فشملت البحر حيث كان القراصنة الفرنسيون يترصدون مرور السفن البرتغالية المحملة بالخشب الأحمر فيطاردونها والعكس بالعكس. ومع ذلك فلم يكن ذلك يتعدى حدود المناوشات. ولكن هذه المواجهة، في نحو منتصف القرن السادس عشر، اتخذت سمة جذرية اكثر خطورة، عند قيام الشيفالييه دي فيليجانيو بحملته.

كان جان انجو قد نظم رحلتين اخريين انتهتا بالفشل. قاد الرحلة الاولى الاخوان جان وراؤول بارمنتييه اللذان أقلعا في ٢ ابريل في سنة ١٥٢٩ على متن السفينتين «ساكر» و «بونسيه»؛ كانا يهدفان الوصول الى الصين. واتخذا الطريق الذي اصبح تقليدياً والذي يمر من رأس الرجاء الصالح. ونزلا في مدغشقر ولكنهما لم يكونا أول فرنسيين ينزلان بها: فقد كان بعض البحارة من دييب قد وصلوا اليها منذ سنتين فظنوا انهم قد وصلوا الى شواطيء الهند. وواصل الاخوان بارمنتييه رحلتهما نحو سومطرة حيث كانا ينتويان المقايضة على الأغذية المحفوظة لديهما مقابل التوابل. ولكن خطتهما احبطت، فقد اتضح ان الملاويين تجار بارعون حاذقون. وفي هذه الأثناء سقط الاخوان بارمنتييه فريسة «لنوبات من الحمى ساخنة وحادة» وقرر البحارة أن يعودوا بعد محاولة اخيرة للمقايضة على ما لديهم من سلع، فشلت بدورها، في اندرابوييرا. اما الرحلة الثانية — كان جان انجو قد اختار نهائياً «الطريق» الاطلنطي — في رحلة السفينة «بيليرين» في ١٥٣١. وأدى الاستيلاء على مصانع بيرنامبوك (البرازيل) الى حملات انتقام خطيرة. وبعد قتال دام ثمانية عشر يوماً اضطرت الحامية الفرنسية الى انزال العلم أمام الطابور البرتغالي الذي كان يقوده لوبيز دي سوزا.

الاحتلال الدائم :

عرف التوسع الفرنسي ازدهاراً جديداً بظهور جاك كارتييه، لا لأن اكتشاف هذا الملاح قد تولد عنه ظهور الاستعمار على الفور، ولا لأنه قد تبعته آثار مباشرة بل لأن هذا « الاكتشاف » ينطوي على استعمار مستقبل، ولأنه سوف يدفع فرانسوا الأول الى التخلي عن مبدأ قسمة الأراضي الجديدة الذي اقامه التشريع البابوي . لم تكن حملة كارتييه، عند الملك، تهدف الى اعتناق سكان البلاد الاصليين الديانة المسيحية ولا الى استعمارهم، بل كانت تهدف ببساطة الى « اكتشاف بعض بلاد او جزر يقال انها تحتوي على كميات كبيرة من الذهب والمعادن الثمينة الاخرى » فهو هدف اذن يرمى الى المصلحة ويحكمه السعي وراء الربح .

اقلع جاك كارتييه في ٢٠ ابريل ١٥٣٤، ووصل الى : « تيرانوفا » في ١٠ مايو . كانت « تيرانوفا » في تلك الفترة يتردد عليها البحارة والصيادون النورمانديون والبريتونيون في فترات متقاربة نسبياً . ومر جاك كارتييه بازاء ساحل لابرادور وتغلغل في خليج جاسبيه حيث اتصل بقبيلة رحالة من قبائل هورون — ايروكوا من منطقة كويبيك، واقيم احتفال الاستيلاء على هذه الأرض باسم ملك فرنسا — على ذروة ربوة تتحكم في مدخل الخليج في ٢٤ يوليو ١٥٣٤ . واقام كارتييه صليباً يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدماً، مزيناً بثلاث ازهار من الزنبق وقد نقش عليه : « يحيا ملك فرنسا » .

كان « صليب جاسبيه » هذا يمثل شهادة ميلاد كندا الفرنسية . وكان ذلك كل شيء، الى حين . وعاد كارتييه الى فرنسا عن طريق تيرانوفا .

وفي العام التالي جهز جاك كارتييه ثلاث سفن : جراند هيرمين، بيتت هرمين، اميريو، وغادر سان مالو في ١٩ مايو ١٥٣٥ . وعندما عاد الى سواحل خليج جاسبيه سمع من أهل البلاد الاصليين انه توجد ناحية الغرب (شمال منطقة كويبك الحالية)، « ارض معمورة » بالسكان، تسمى ساجوني، « يأتي منها

النحاس الأحمر » . مما دعا كارتييه على الفور الى ان يعقد العزم على صعود النهر (سان لوران) . وكان يعرف ، من المعلومات التي ادلى بها سكان البلاد ، انه ينبغي عليه عبور بلاد «كندا» لكي يصل الى محلة هوشيلاجا . وما أن ظهرت هذه المحلة على مرمى البصر حتى اطلق كارتييه على الربوة التي تشرف عليها اسم « مونرويال » . وسوف تكون تلك هي مدينة مونتريال الحالية . كانت الملاحة في النهر تبدو مستحيلة بعد هوشيلاجا . ومن ثم فقد عاد كارتييه على اعقابه وانضم في سانت كروا الى بقية الحملة التي كانت قد أقامت حصناً في اثناء غيابه ، هناك . وكانت محنة الشتاء في تلك البقعة محنة قاسية . ومات عدد كبير من الملاحين نتيجة لبرودة الجو ولمرض الاسقربوط . وفي الربيع قرر كارتييه ان يعود الى فرنسا . ومع انه لم يبلغ ساجوني قط ولا حمل منها النحاس او الذهب (وهو هدف الحملة) الا انه مع ذلك قد قرر ، عن يقين ، ان تيرانوفا ارض يحيط بها الماء كما عرف مجرى سان لورين حتى منطقة دوامات لاشين .

لم يكن فرانسوا الأول يعنى في ذلك العهد ادنى عناية لا بالجغرافيا ولا بالاستعمار بل كان يشغله الذهب وحده . فكانت هذه الحملة عنده فشلاً ذريعاً . وعلى ذلك فقد تخلى عن المشروع الكندي للمرة الأولى . ولكن هذا المشروع استؤنف من جديد في سبتمبر ١٥٣٨ . كان الملك هذه المرة قد قرر ان ينشىء « مستعمرة » في كندا تكون مهمتها الاساسية ان تستثمر ذهب ساجوني . «كان الملك يريد ، ككل ملوك شبه الجزيرة ، ان يمتلك « الهند » الخاصة به[1] . ولكن هذا القرار الملكي اصطدم مع ذلك بعقبة قانونية ناشئة عن « الأوامر البابوية » التي اصدرها الاسكندر السادس ، ومعاهدة توردیسیلاس الي لم تكن تعترف الا باسبانيا والبرتغال باعتبارهما البلدين الوحيدين اللذين من حقهما ان يستفيدا من الاكتشافات . فمضى فرانسوا الأول ، في البداية ، يعيد الاطمئنان الى قلب ملك البرتغال جان الثالث ، ويؤكد له ان التوسع الفرنسي لن يضع البرازيل ولا غينيا

(١) شارل ـ اندريه جوليان : رحلات الاكتشاف والمنشآت الاولى .

أبداً موضع الطموح . وبقي بعد ذلك شارلكان . ولم يكن هذا الملك يعتزم قبول اي انتهاك لمناطق نفوذه ، فقد كان مسلحاً بدعوى قشطالة أنها هي صاحبة السيطرة المطلقة على امريكا ، وهي الدعوى التي كان يؤيدها البابا الاسكندر السادس . ومن ثم فقد بدأ فرانسوا الأول بأن أثار الشكوك حول سلامة الاساس الذي يقوم عليه التشريع البابوي في المسائل الدنيوية . واجاب على سفير اسبانيا قائلاً على الاخص أن « للباباوات سلطة قانونية روحية ، وان كان لا يدخل في اختصاصهم ان يوزعوا الأراضي بين الملوك ، وخاصة ان ملوك فرنسا وغيرهم من الملوك المسيحيين لم يدعوا الى الاشتراك في المشاورة عندما تم التقسيم » . واضاف بلهجة تمتاز بسخرية واضحة أن « الشمس تشرق عليه كما تشرق على الآخرين ، وأنه يود كثيراً ان يرى وصية آدم ليعرف كيف قُسم العالم بين أولاده ... » . ثم اعلن فرانسوا الأول بعد ذلك أن كل ارض حرة يمكن احتلالها ، وزاد الامر إيضاحاً (في رده على السفير الاسباني) فقال انه لا يكفي عبور الأرض أو « اكتشافها » على مرمى البصر لكي تصبح ، بحكم الأمر الواقع ، « ملكية اجنبية » بل يمكن على العكس ان تعتبر الأراضي المعمورة بالسكان والمحصنة ، أراضي اجنبية . وبذلك فان فرانسوا ا: ول كان أول من يصوغ بهذا الاعلان نظرية الاحتلال الدائم التي سوف تكون منذ القرن التاسع عشر هي النظرية الاساسية للاستعمار الحديث .

ومع ذلك فانه مما تجدر الاشارة اليه أن ملك فرنسا ، بما يمتاز به الأوربيون من اكتفاء بالذات لا ينال منه شيء ، قد اطلق اسم « الأرض الحرة » على كل أرض حرة ، للأوربيين واطلق اسم « الأرض المعمورة بالسكان والمحصنة » على الأراضي التي يعمرها الاوربيون ويدافعون عنها ، فقد كان من المفهوم ضمناً ان السكان الشرعيين لا يحسب لهم في ذلك كله حساب . واذْ سويت هذه المنازعات القانونية ، تسوية مؤقتة ، اخذ فرانسوا الأول يفكر تفكيراً جدياً في الاستعمار . لم يكن من الممكن كما هو واضح ان يعهد بادراة وتنظيم المستعمرة الى جاك كارتييه الذي لم يكن في نهاية الامر الا مجرد بحار . ومن ثم فقد عين الملك في هذه الوظيفة

« صديقه وتابعه جان فرانسوا دي لاروك ، شيفاليه ، نبيل روبرفال ،نائباً عاماً ورئيساً ، وقبطاناً ، وقائداً » وقد كان من رجال البلاط. وعهد الى كارتييه بادارة الحملة البحرية والاكتشافات .

أخذ فرانسوا الاول يسعى الى ترضية الكرسي البابوي ، فقد كان يخشى أن يثير استياءه بموقفه من تلك القضية ، فأبرز للمرة الأولى الهدف الرسمي للحملة باعتباره التبشير بالانجيل للشعوب القاطنة في تلك المناطق . ولكن هذا الهدف الرسمي يظهر بوضوح – بل بوضوح اكثر مما كان في حالة المستعمرين البرتغاليين والاسبانيين اذا أمكن القول – باعتباره مجرد حجة وتعلة ضرورية وتكتيكية . وأياً كان الأمر ، فقد غادرت طلائع الحملة ، بقيادة جاك كارتييه ، ميناء سان مالو في ٢٣ مايو ١٥٤١ ، على متن خمس سفن : عليها بضع مئات من المستعمرين ومؤن تكفيهم مدة سنتين . كان المستعمرون قد جندوا من بين المحاربين ، والحرفيين ، وان كان من بينهم الكثير من حثالة السجون ايضاً .

واذ وصل كارتييه الى وجهته ، أسس المستعمرة موقتاً في انتظار وصول دي روبرفال على ضفاف نهر الرأس الاحمر ، في موضع أطلق عليه اسم : شارل – بور – رويال تكريماً لشارل دوق اورليان الابن الثالث للملك . اما هو فقد واصل اكتشافاته فيما وراء « هوشلاجا » ولكنه تخلى عن عبور « الوثبة » الثالثة وعاد على أعقابه . وفي اثناء غيابه اكتشف المستعمرون في شارل – بور – رويال ، الحديد والذهب والماس . ولكن الافتقار الى النظام كان يعيث في صفوفهم فقد استخدموا أهل البلاد دواب وسائمة وكانوا يتمرغون في أعطاف الراحة والكسل ، عن طيب خاطر ، أياماً بطولها . لم يكن كارتييه يملك موهبة كبيرة على التنظيم ، وثبت ايضاً انه كان رئيساً متخاذلاً ضعيفاً . فلم يوقع عقوبة ما على المذنبين . كان قد ترك أعمالاً من القسوة لا يمكن انكارها اقترفها الملاحون في خلال الرحلة السابقة ، دون عقاب . ويروي احد المشتركين في هذه الحملة وهو الأب الكبوشي تيفيت أنه : « عند نزولنا الى الارض أخذ

بعض الشبان من بيننا ، لتزجية الفراغ وقتل الوقت ، يقطعون اذرع وسيقان بعض هؤلاء الناس التعساء ، وان كانت تلك تسلية شريرة لا مبرر لها من العقل وتصدر عن نوع من أنواع الطغيان ، إلا انهم قالوا ان ذلك كان لتجربة مدى نفاذ سيوفهم وحدة سنانها ، ومع ذلك فقد كان هؤلاء البرابرة التعساء قد استقبلونا استقبالاً انسانياً ، بكل عذوبة وصداقة » .

وانتهت هذه الأعمال الى إثارة اهل البلاد ضد تلك المستعمرات الصغيرة ، واستبد الاشمئزاز والاستياء بكارتييه ، فمضى عنها دون ان ينتظر وصول دي روبرفال . كان كارتييه يتعجّل العودة الى فرنسا لكي يثمّن الذهب والفضة التي وجدها في كندا ، وعلى أنه التقى بروبرفال في تيرانوفا مع نجدات أتى بها من الجنود والمستعمرين ، فقد آثر أن يفترق عنه وأن يغادر الجزيرة ليلاً ، وبذلك حرم المستعمرة الوليدة من خبرته ومساعدته .

كان روبرفال ينتمي الى الديانة الاصلاحية فأعاد استتباب النظام في المستعمرة ، وحاول ان يصل الى ساجونيي . ولكن فرانسوا الاول كان قد لحقته الشيخوخة ، وكان قد عاد فشنّ الحرب ضد خصمه العجوز شارلكان ، مما حمله على أن يفقد اهتمامه تماماً بكندا ، فأعاد منها بقايا المستعمرة قبل ١٥٣٤ .

أما جاك كارتييه الذي عرف في فرنسا أن الماس الذي جاء به لا قيمة له فلم يعرف في حياته شهرة ما . كان شخصية لا تتمتع بعظمة حقيقة . وكانت قيمته الوحيدة ، في نطاق المنظور الاستعماري انه افتتح الطريق الذي سلكه شانبلان بنجاح في القرن التالي . ومع ذلك فقد استمر وجود الفرنسيين في كندا . والواقع ان الملاحين من دييب وسان مالو كانوا دائماً يعادون حملات كارتييه ، بل يعارضون تجنيد البحارة ، فقد كانوا يخشون أن يترتب على استعمار كندا إصدار الأمر باحتكار الصين على ساحل تيرانوفا ، لحساب الملك . وكانوا يقومون بتجارة رائجة ومثمرة في الفراء منذ ان قفل المستعمرون عائدين الى فرنسا .

مستعمرات عرضية عابرة :

عند ارتقاء الملك هنري الثاني عرش فرنسا ، لم يكن الاميرال جاسبار دي كولوني — الذي عينه عمه قائد الجيش ، آن دي مونت مورنتي ، على رأس الشؤون البحرية — قد انضم للديانة الاصلاحية ، ولكنه كان يكنّ لها عطفاً متزايداً . ويقال احياناً ان خطة الاستعمار الكبيرة التي تصورها كوارني كانت تهدف الى ايجاد أرض يلوذ بها البروتستانتيون المطاردون من أوروبا . والواقع ان عدداً كبيراً من الشواهد يؤكد هذا الغرض فيما يبدو .

وأياً كان الأمر ففي ١٤ أغسطس ١٥٥٥ (السنة التي تنازل شارلكان فيها عن العرش) خرجت حملة تقصد البرازيل بتشجيع من كولوني . وقاد الحملة الشيفياليه دي فلجانيو وكانت تتكون من عدد من البروتستانتيين ، وحرس من الاسكتدلنديين ، ومن الاب الكابتشيني دي فييت (الذي كان قد صحب كارتييه الى كندا) ومن بعض من أدانتهم العدالة ، وقوداً للاستعمار في المستقبل . كانوا جميعاً ثلاثمائة الى اربعمائة رجل . وبعد ان عبرت السفن الثلاث المحيط ، في رحلة شاقة ، القت مراسيها في خليج جوانبارا الذي كان البرتغاليون قد اطلقوا عليه اسم : « نهر يناير » (ريو دي جانييرو) . واختار فلجانيو احدى الجزر الثلاث (التي ما زالت تسمى الى اليوم : جزيرة الفرنسيين) ، وهي التي تتحكم في المجرى ، لكي يقيم فيها زملاؤه ويتحصنوا . كان فلجانيو نموذجاً لرجل الحرب ، شجاعاً ، لا يتورع عن شيء ، وكان فارساً من فرسان طائفة سان جان اورشليم ، (الذي لجأ الى مالطة بعد أن طرد من رودس) ولكنه كان رجلاً متعدد المواهب ، قلقاً ، ذا مزاج تطهّري . كانت « الحياة الحرة » التي يحياها الفرنسيون قبل وصوله على الشاطىء البرازيلي ، وفي المساحات الشاسعة من الساحل الواقعة بين نقط التحصينات البرتغالية ، فيستولدون النساء من أهل البلاد ذريةً خليطة النسب ، حياة تثير عنده شعوراً بالغضب والفضيحة . ولذلك ، ولكي يتجنب كل اتصال مع الهنود الامريكيين ،

ويتفادى تلوث الحياة التي يراها اباحية ، فقد حبس الاربعمائة رجل الذين تتكون منهم حملته في « جزيرة الفرنسيين » (التي كانت في ظنه مقدراً لها ان تصبح « مالطه الامريكية ») وأخضعهم لنظام عسكري صارم يمت بأوثق الصلة الى نظام الرهبنة .

ما لبثت هذه الصرامة أن ادخلت السرور على قلوب البروتستانتيين ، الى حد ان حملة ثانية تتألف من ٢٩٠ رجلاً كلهم تقريباً من أهل جنيف اقلعت من هونفلير في ١٩ نوفمبر ١٥٥٦ وحطت رحالها في جزيرة الفرنسيين في ٧ مارس ١٥٥٧ . ولكن هذا النظام لم يكن ليرضي الآخرين ، ففر الكثيرون وانضموا الى صفوف الفرنسيين المقيمين على الشاطىء . كان فلجانيو وزملاؤه معزولين في جزيرتهم يعتمدون اعتماداً كلياً على حسن نية الفرنسيين على الشاطىء وعلى أفراد قبيلة تامايو ، حلفائهم الطبيعيين ، لكي يمدّوهم بما يعيشون عليه . هذا الى ان ذلك « المعزل » لم يسهم إطلاقاً في تنمية الاستعمار . ولم تغب هذه المفارقة عن إدراك واحد من أوائل الكتاب المعاصرين — واسمه ليسكاربو — الذين شغلهم احتلال الارض واستصلاحها . فكتب في هذا الصدد يقول : « أي جدوى من تجشم كل هذه المشقة للذهاب الى أرض الفتح ، ان لم يكن ذلك لتملكها تماماً ؟ وينبغي لتملكها ان يعسكر الوافدون على الارض الصلبة وان يفلحوها فلاحة جيدة : فمن العبث الاقامة في بلد لا يتوفر فيه ما يقيم الأود . فاذا لم يكن المرء من القوة بحيث يقنع ويحكم الشعوب التي تسكن تلك البلاد ، فمن الجنون النهوض بمثل هذا المشروع والتعرض لمثل تلك المخاطر ، فهناك من السجون الكفاية في كل مكان دون ان نمضي سعياً اليها في اماكن بعيدة »[1] . ذلك درس جميل في المنطق الاستعماري !

ولم يكتف فلجانيو بذلك ، بل تضاعفت اخطاؤه . فقد غيّر من موقفه فجأة بازاء البروتستانتيين . لم يكن فلجانيو يعتبر في اي وقت من الاوقات من

(١) ليسكاربو : تاريخ فرنسا الجديدة (نشر في ١٦٠٩) .

معتنقي الاصلاح . ولكنه كان قد قدم من الأدلة على تعاطفه مع البروتستانتين (تشهد بذلك خطاباته الحارة الى كالفن) ما كان فيه الكفاية لان يعتبروه صديقاً و « رفيق طريق » . وكان الترحاب الذي لقي به أهل جنيف قد وطد هذا الرأي الشائع عنه . ولكنه فجأة ادار العجلة وظهر على حقيقته ، خادماً متحمساً للجزويت الفرنسيين ، واخذ يضطهد البروتستانتيين في الجزيرة وحاول أن يحملهم على النكوص عن عقيدتهم . وبازاء هذا الموقف هرب اهل جنيف والاصلاحيون الآخرون بدورهم ولاذوا بالفرنسيين على الشاطىء ، ثم عادوا الى فرنسا وسويسرا حيث أدت « التقارير » التي رفعوها الى كولوني وكالفن الى اثارة الاستياء عندهما .

أصبح فلجانيو سيد الموقف ، حراً في أن يمارس طغيانه ، ولكنه فجأة غادر « جزيرة الفرنسيين » دون تفسير وعاد الى فرنسا . واستغل البرتغاليون غيابه لمهاجمة الجزيرة والاستيلاء عليها في ١٦ مارس سنة ١٥٦٠ . وكان اصحاب هذا النصر هم اليسوعيون البرتغاليون بقيادة رئيسهم الاب نوبريجا . كان نفوذهم سائداً في البرازيل وهم الذين اسسوا مدينة ساوباولو ، وأعادوا تجميع قبائل ماراكاجي (الموالية للبرتغاليين ، واعداء قبيلة تامايو) ونظموها وادخلوها الى المسيحية . « كان نوبريجا اول من قام بتجميع الهنود وحشدهم حشداً إجبارياً عن طريق إدماج عدد من قراهم في مراكز كبيرة واخضاعهم لرقابة دقيقة »[1] . (ألا يذكرنا ذلك بـ « القرى الاستراتيجية » في فيتنام و « معسكرات التجميع » في الجزائر ؟) كان اليسوعيّون البرتغاليون هم الذين حملوا « ميمديسا » حاكم البرازيل الجديد على مهاجمة « جزيرة الفرنسيين » هذا « العش الذي يأوي اليه الكفار » . ذلك أن فلجانيو الذي كان يستظل بحماية الجزويت الفرنسيين ، كان عند الجزويت البرتغاليين كافراً . ألا تعزى زندقته وكفره ، اذن ، الى صفته الفرنسية ؟ وأخيراً فقد كان الجزويت البرتغاليون

---

(١) شارل – اندريه جوليان : رحلات الاكتشاف والمنشئات الاولى .

هم ايضاً الذين نصحوا بتدمير قبيلة تامايو تدميراً كاملاً ، لأنهم كانوا السند الرئيسي للفرنسيين في البرازيل . (أين يمكن ان تلجأ السماحة المسيحية !) ولكن سقوط جزيرة الفرنسيين لم يضع حداً ، على الفور ، للاستعمار الفرنسي في البرازيل . فقد واصل الفرنسيون على الشاطىء كفاحهم ضد البرتغاليين ، تؤيدهم القبائل « المخلصة » ، ولكنهم ردوا على اعقابهم الى الداخل ، باطراد . وفي ١٦٠٣ ، قضي نهائياً على آخر مقاومة فرنسية . لم يبق الفرنسيون بالفعل إلا قرناً واحداً على سواحل البرازيل ، ولكن ما فشل فيه البروتستانتيون في البرازيل ، استطاع حجاج سفينة « ماي فلاور » ان يحققوه بعد سبعين عاماً ، في امريكا الشمالية .

وبعد عودة فلجانيو الى فرنسا ببضع سنوات، وفي أثناء حكم شارل التاسع قبل ان يصل الى سن الرشد ، عندما كانت كاترين دي ميدتشي وصية على المملكة — كان هنري الثاني وابنه الاكبر فرانسوا الثاني قد ماتا في هذه الاثناء — حاول جاسبار دي كولوني ان ينظم حملة استعمارية جديدة ، في اتجاه سواحل فلوريدا هذه المرة . وعهد الى جان ريبو الملاح الهيجونوت الذي يعود أصله الى دييت ، بالقيام بها ، ولكنه فشل . وعاد ريبو فأقلع من الهافر مرة اخرى ، في ١٨ فبراير ١٥٦٢ ، ومعه جولين دي لو دونيير ، وهو هيجونوتي آخر ، على رأس سفينتين . ووصل الى ساحل فلوريدا في ٣٠ ابريل ، غير بعيد من رأس يقع على خط عرض ٢٩ — ٣٠ شمالاً — اسماه : « رأس فرانسوا » ، وصعد مجرى نهر أطلق عليه اسم « نهر ماي » (نهر سان جون) . مما كان سبباً في ان يستقر عزم كولوني على ان يرسل مستعمرين الى فلوريدا — فقد كانت مدينة كيبولو الغامضة تجتذبه بالثروات التي تكمن فيها كما جاء في أقوال ماركوس دي نيزا الفرنسيسكاني ، وكان يحدوه الامل من ناحية اخرى ان ينشيء مستعمرات بروتستانية قوية في امريكا .

لم تبق المستعمرة التي انشئت على شاطىء « نهر ماي » طويلاً ، بعد رحيل

ريبو ، ودونيير اللذين عادا الى فرنسا سعياً وراء نجدات اخرى . كانت أخطاء « جزيرة الفرنسيين » تتكرر من جديد في فلوريدا . أناط المستعمرون اكثر مما ينبغي من الثقة بصداقة القبائل التي كانت تمدهم بالمؤن دائماً . فلم يضعوا في حسابهم اعتبار الارهاق والكلفة التي كانت تقع على عاتق « الهنود » بشكل مطرد . واضيفت الى ذلك اخطاء أخرى . كان الذهب الذي مضوا يبحثون عنه في كيبولا هو الهدف الوحيد عند الفرنسيين . ومن ثم فقد اهملوا الشيء الجوهري : زراعة الأرض ، والمنتجات الضرورية ، وبضائع المقايضة . وسرعان ما وجد المستعمرون انفسهم مضطرين الى الاقلاع من جديد والعودة الى فرنسا .

وفي فرنسا كانت الحرب الاهلية مشتعلة الاوار . كان ريبو الذي انضم الى صفوف الهيجونوت ، قد فر في نهاية الأمر الى انجلترا حيث وقع أسيراً . وعندما عاد السلام فاستتب من جديد ، بفضل منشور امبواز (١٩ مارس ١٥٦٣) قرر كولوني ان يوفد حملة جديدة الى فلوريدا ، بقيادة لودونيير وحده ، في غياب ريبو . كانت الحملة مكونة كسابقتها من أغلبية من البروتستانت. تخلى لودونيير عن الموقع الاول « شارل فورت » وبنى حصناً على بعد ستة او ثمانية كيلومترات من « نهر ماي » اطلق عليه اسم « حصن كارولين » . وتحت وطأة المناخ المرهق ، سرعان ما تدهورت المستعمرة الى حالة من السوء تشبه حالة سابقتها ، ولاسباب مماثلة : افتقار الارض الى الاستثمار وحبوط همة القبائل المتحالفة . كانت المستعمرة على وشك أن تشد رحالها للعودة الى الوطن عندما ظهر الاسطول الذي كان يقوده جان ريبو — وقد افرج عنه اخيراً — يأتي بنجدة تتألف من ستمائة رجل كلهم من البروتستانت .

إلا أن الحملات الفرنسية الى فلوريدا ما لبثت أن أثارت استياء فيليب الثاني ، وقد كان خلفاً صارماً ارتقى عرش شارلكان من بعده . كان ذلك لسببين جوهريين : جاءت دولة اجنبية فاستقرت في « المنطقة المخصصة له » في

امريكا ، بجوار ممتلكاته في الانتيل . وظهرت « بؤرة لعدوى الكفر والزندقة » تؤذن بنشر سمومها في البلاد التي كان ملك اسبانيا فيما يعتقد قد تلقى تفويضاً إلهياً ان يبسط عليها جناح الديانة الكاثوليكية . كان الهدف المزدوج الذي يرمي اليه كولوني ، وقد انضم الى الديانة الاصلاحية منذ ١٥٥٩ ، هو في الواقع ان يتيح للبروتستانت امكانيات التوسع في فلوريدا وان يكفل فيها لفرنسا « رأس جسر » بغرض القيام بهجمات لاحقة ضد الممتلكات الاسبانية في

امريكا الوسطى . ومن ناحية اخرى فقد كان الحقد الذي ظل كولوني يكنه طول حياته لاسبانيا والبرتغال ، بالتأكيد ، يرجع الى اسباب وطنية — فقد كانتا عدوّي فرنسا — ولكنه كان ايضاً يرجع الى أسباب دينية — فقد كانتا قلعتي الديانة الكاثوليكية . اما كاترين دي ميدتشي فقد كان التوسع الفرنسي في فلوريدا يمثل عندها مصلحة اخرى ، هي ان تتخلص فرنسا من البروتستانت . ألم تعترف لسفير اسبانيا : « لو كان الامر بيدي لتمنيت ان يذهب كل الهيجونوت الى تلك البلاد » ؟

ولكن فيليب الثاني لم يكن يفهم الأمر على ذلك النحو ، وعهد الى بدرو مينينديز دي افيلاس بعملية تنظيف فلوريدا . واقلع هذا الاخير على رأس الفي ومائتي واربعين رجلاً ، وحط رحاله في خليج يلائم انشاء ميناء فيه ، وأسس أول مدينة اوروبية في امريكا الشمالية ، هي سان اوجستا (وهي سانت اوجستين الحالية) . ثم استطاع ان يجتذب ريبو خارج « حصن كارولين » وان يحضه عن طريق الخديعة ، على ان يقلع الى البحر ، وهاجم القلعة الفرنسية واستولى عليها . وعند عودة ريبو ورفقائه من الهيجونوت سقطوا في كمين وأبيدوا بعد ان تعرضوا لابشع أنواع التعذيب . واثار نبأ المذبحة الاستياء الاجماعي ، لا في فرنسا وحدها ، بل في انجلترا ايضاً ، حيث اتخذت منه اليزابيث حجة لاعلان الحرب على اسبانيا . واقسم الدومنيك دي جورج وهو هيجونوتي فرنسي آخر ، على ان يثأر لزملائه

في العقيدة واستغل غياب ميننديز ليقوم بغارة خاطفة على الحاميات الاسبانية المرابطة في فلوريدا وان يقضي عليها بحد السيف .

كان شارل التاسع قد بدأ يناله الإرهاق من التعقيدات الدبلوماسية التي تجرها عليه مغامرته في فلوريدا ، فلم يرحب بأنباء هذا الانتقام . ثم ان هذه الحادثة كانت قد اعقبت غارة مماثلة قام بها بيير برترا دي مونليك على « مادير » احدى ممتلكات ملك البرتغال مما ترتب عليه تدمير ونهب « فنشال » ومما ادى الى فشل مشروع للزواج الملكي بين مارجريت الفرنسية وسيباستيان ملك البرتغال . ومع ذلك فلم يتخل كولوني عن وضع خطط جديدة ، بمساعدة اصدقائه الهيجونوت ، للاستعمار على حساب اسبانيا والبرتغال . ولكن الملكة الأم التي كانت تتطلع الى « اعلان السلام » مع دول شبه الجزيرة الاسبانية ، كانت تحس بالاشياء ، ويطرد احساسها بالضيق يوماً بعد يوم ، نتيجة لسلوك الاميرال وزملائه الثائرين الذين كانوا يعرضون سياستها للخطر . وليس من المستبعد أن مذبحة سان بارتيلمي كانت من وحي توجيهات اصدرتها كاترين دي مديتشي ، وقد هلك فيها جاسبار دي كولوني ، ولعل احد الحوافز الى تلك المذبحة يكمن في الرغبة في التخلص من ذلك الخطر المتزايد الذي يمثله جاسبار دي كولوني وزملاؤه .

معارضة الاستعمار :

إذا كانت الحملات الاستعمارية الفرنسية الاولى في امريكا ، قد وجدت أنصارها من بين الكاثوليك والبرتستانت ، ومن بين رجال الأموال ، ومجهزي السفن ، والملاحين ، واعيان الملكة ، فإنها قد اصطدمت على أي حال بخصوم اقوياء من بين المثقفين في ذلك العصر . ولاشك انه كان يوجد من يعارض الاستعمار ، لاسباب رومانتيكية . تلك حالة رونسار مثلاً فقد كان يرى فيه تشويهاً « للروح النقي » الذي يعمر المتوحش الطيب كما كان يشدو بذلك في هذه الاشعار التي توجه بها الى فلجانيو :

إنهم قد أقبلوا على الشاطىء الذي اقمت عليه معسكرك
فاتيح لهم ان يعرفوا الشر ، وانهالوا عليك باللعنة .
وردوا على جريمتك بالنار المحرقة .
وفي قلوبهم الكراهية والبغضاء .
لليوم الذي بدت فيه شراعك البيض ،
على رمال نهرهم الغريب .
فاتركهم هناك ، في اوطانهم .
لا تضع على اعناقهم ربقة الاسترقاق ،
فسوف تضيق منهم الانفاس ،
تحت قسوة طاغية ، او قاض ، او قانون جديد[1] ! !

ولكن هناك آخرون ، مثل مونتيني يحدوهم وضوح الفهم وواقعية الإدراك . فقد كان كاتب « المقالات » يعرف زملاء فلجانيو كما يعرف فرنسيين آخرين عاشوا في البرازيل وقد التقى أيضاً ببعض أهل البلاد الأصليين الذين جيء بهم من امريكا ، الى روان « في الوقت الذي كان الملك شارل التاسع فيها » . وتكلم اليهم الملك وقتاً طويلاً . « وقد اطلعناهم على طريقتنا في الحياة ، ومظاهر ابهتنا ، والأسلوب المنسق الذي نحيا به . وبعد ذلك طلب منهم أحدنا رأيهم فقد أراد ان يعرف منهم ما الذي اثار إعجابهم اكثر من اي شيء آخر ... فقالوا في البداية انهم يجدون من الغرابة بمكان ان كل هذا العدد الكبير من الرجال الكبار ، ذوي اللحي ، الاقوياء ، المسلحين ، الذين يحيطون بالملك (ولعله من الارجح انهم كانوا يتحدثون عن حرسه السويسري) يخضعون لطفل صغير ويطيعونه ، بدلاً من ان يختاروا من بينهم من يحكمهم . ثم قالوا بعد ذلك انهم كانوا يرون من بيننا رجالاً يغصون بكل أنواع الخيرات ،

(١) رونار : شكاة من القدر — الكتاب الثاني من « متنوعات » سنة ١٥٥٨ .

ممتلئي الاجسام ، بينما كان النصف الآخر من الرجال يتسولون على الأبواب وقد انهكهم الجوع والفقر ، وكانوا يجدون من الغريب ان رجال هذا النصف الذي ينوء تحت ثقل العوز ويعاني من هذا الجور ، لا يمسكون بخناق الاخرين ويشعلون النار في بيوتهم . وقد تكلم الملك الى احدهم زمناً طويلا"[1] » .

وهناك فقرة اخرى من « الموضوعات » لها دلالتها ايضاً ، توضح موقف مونتيني . فقد رد الفيلسوف على الاعتراضات التي كانت توجه ضد الأعمال « القاسية » التي يقترفها سكان امريكا باعتراض آخر وصف فيه الاعمال التي يقترفها الفاتحون الاوروبيون والتي تزيد عنها قسوة : « ان البرتغاليين .. يوقعون بهم نوعاً آخر من الموت ، فقد كانوا عندما يقبضون عليهم ، يدفنونهم في الأرض حتى منتصف أجسامهم ، ويسددون اليهم ضربات من القوة بمكان ، ويجلدونهم ، ثم يشنقونهم »[2] .

ويوضح مونتيني مدى عبث التظاهر بالرثاء والاستفظاع امام قسوة « البرابرة » بينما حدث في خلال الحرب الدينية الاخيرة التي كانت ما تزال ذكراها عالقة بالاذهان ، ان رجالاً يقال عنهم « متمدينين » قد اقترفوا من الجرائم ما يفوقها ضراوة . « انهم يظنون انه من البربرية بمكان ان يُؤكل رجل حياً عن ان يؤكل ميتاً ، ويفضلون ان يمزق جسم مازالت تهتز فيه الحياة بالتعذيب والنار ، وان تنهشه الكلاب والخنازير (كما رأينا ذلك منذ عهد قريب يحدث لا بين الاعداء القدماء بل بين الجيران والمواطنين وذلك بحجة الورع والتقوى ، وهو أسوأ وأضل سبيلا) بدلاً من أن يشوى الرجال ويؤكلون بعد موتهم »[3] . ومونتيني يشير هنا كما هو واضح الى التعذيب الذي كانت تقوم به محاكم التفتيش ومواقد النار التي كانت تشعلها لخصومها .

---

(١) مونتيني : الموضوعات : الكتاب الأول – الفصل ٣١ – « اكلة لحوم البشر ».
(٢) موقتيني : الموضوعات الكتاب الاول ــ الفصل ٣١ « اكلة لحوم البشر » .
(٣) نفس المصدر السابق .

وهو ما أتاح للفيلسوف الفرنسي ، على وجه الدقة ، ان يدين تقلّب الاوروبي وعدم إطراد سلوكه على وتيرة واحدة . أي أن يكون ما هو ليس به . والواقع ان مونتيني كان احد الاوروبيين القلائل في عصره الذين استطاعوا ان يعيشوا الآخر وان يدركوا أبعاده . كان هذا الحرص على « فهم الآخر » يشكل النغمة الاساسية في عمله . مثال ذلك : « ان كلاً منا يطلق على ما يخرج عن عاداته وتقاليده اسم البربرية ، ومن الحق أنه ليس لدينا مرآة للحقيقة والعقل الا مثال الآراء ، والافكار ، التي تسود في بلادنا ، هناك فقط ، توجد الديانة الكاملة دائماً ، والسياسة الكاملة ، واستخدام كل شيء في موضعه الصحيح وعلى نحو كامل »[1] . او يقول في موضع آخر « إننا نلاحظ الفظاعة البربرية في مثل هذا العمل ولكننا لا نرى ما في أعماقنا من بشاعة » .[2] .

وأخيراً ، وفي عبارة تمت بصلة الى النبوءة ، وتمتاز بايجاز باهر ، يلخص مونتيني عملية تحلل الامبراطوريات ، وأسباب انهيار كل استعمار : « انني أخشى ان تكون عيوننا اكبر من بطوننا ، وان يكون فضولنا اكثر من مقدرتنا ؛ أننا نحيط بذراعينا كل شيء لكننا لا نعانق الا قبض الريح . »[3]

أرض الثلج :

ان المشروعات الاستعمارية التي تخلى عنها عهد شارل التاسع ، قد استؤنفت من جديد في عهد هنري الرابع . وفي خلال بضع سنوات وقعت أحداث هامة قلبت شكل مملكة فرنسا ، وسياستها ، رأساً على عقب . مات ملكان : شارل التاسع واخوه هنري الثالث . مما ادى الى انقراض فرع فالوا من الأسرة المالكة ، والقى بكاترين دي ميدتشي في هوة اليأس . وحل محله فرع البربون ، باسم ضرورة استمرار حكم اسرة « كابيه » . واضطر هنري الرابع منذ

---

(١) نفس المصدر السابق .
(٢) » » » .
(٣) » » » .

بداية حكمه ان يقاتل : في الخارج ضد اسبانيا ، وفي فرنسا نفسها ضد « العصبية » . لكنه وضع حداً للصراع الخارجي ، اذ وقع في ١٥٩٥ ، معاهدة للصلح في فيرفان ، كما وضع حداً نهائياً للحروب الدينية باصداره منشور نانت في ١٥٩٨ وما ان تخلص من متاعب الحرب حتى اتيح له الوقت ان يستأنف تفكيره في الاستعمار .

كان الرجل الذي ارسلت به العناية الالهية ليجسم مصير فرنسا الاستعماري يسمى صامويل دي شامبلان . وقد اقنع هنري الرابع ووزيره سولي بضرورة استئناف العمل الذي كان قد تصوره فرانسوا الاول وبدأه جاك كارتييه . ووافق الملك ، ورحل شامبلان في ١٦٠٣ ، في رحلته الاولى الى كندا ، ولم يعد الأمر هنا يتعلق بـ : « اكتشاف » بلاد الذهب ، ساجيوني الغامضة : بل كان الاستعمار يتخذ طريقه الى النمو والتطور بشكل آخر يختلف عما اتخذه خلال الحملات الاولى التي قام بها كارتييه وروبرفال . وقد اشرنا من قبل الى ان ثم تجارة رائجة للفراء قد نشأت في كندا منذ ان سقط مشروع الاستعمار في عهد فرانسوا الاول . وقد ازدادت هذه التجارة رواجاً حتى وصول شامبلان . كان زملاء شامبلان الاول هم هرتل ، وجودفري ، ولوتارديف ، ومارجري ، الذين أطلق عليهم اسم : « المترجمين » وقد كانوا صيادين شجعاناً يعرفون لغة أهل البلاد ، فيسّروا من امر الصفقات التجارية التي يقوم بها تجار جلود حيوانات القندس والوعل . لم تكن المستعمرة في الاصل اذن الا مجرد مرفق تجاري حتى جاء شامبلان فاسس كويبيك في ١٦٠٨ .

ومنذ تلك اللحظة بدأت المستعمرة تغص بالوافدين اليها ، وان كان الوافدون الجدد ليسوا الا تجاراً ، وباحثين عن الخشب ، وصيادين . ولم يطب هؤلاء قلباً عندما رأوا البعثات الاولى تهبط في أرضهم في ١٥١٦ ثم يأتي بعدها الجزويت في ١٦٢٥ . فقد كانت هذه البعثات تهدف الى شيء واحد هو ادخال أهل البلاد في المسيحية . ومن ثم فقد قطعت مجرى المغامرات والعلاقات

الغرامية التي اقامها هؤلاء الرواد مع الفتيات الجميلات من أهل البلاد . كانت هذه البعثات التبشيرية تزعم انها تريد ان تخلص الأرواح ومن ثم فقد كانت تعوق التجارة . وعلى ذلك فقد ظهر التوتر بين صيادي الحيوانات من ناحية و « صيادي الأرواح » من ناحية اخرى .

وعندما اخذت المستعمرة تنمو وتتسع ، زاد ضغط قبائل الايروكوا . ظل الايروكوا حتى النهاية هم الاعداء الالداء للفرنسيين ، لان اولئك قد اغتصبوا ارضهم بلاشك ، ولأنهم قد تحالفوا ايضاً مع خصومهم التقليديين قبائل الهورون . عندما وضع الهولنديون ، ثم الانجليز ، أقدامهم في امريكا الشمالية ، اصبح الايروكوا حلفاءهم الطبيعيون ضد الفرنسيين . اما المبشرين فقد كانوا يضيقون ذرعاً ، أساساً لأنهم لا يستطيعون عقد العلاقات مع أهل البلاد الاصليين ، فلم يكونوا يعرفون لغتهم ، وقد رفض « المترجمون » والصيادون والقناصون ان يسدوا خدماتهم الى « الآباء الطيبين » . ولكن المبشرين عندما تغلبوا على هذه العقبة ، كانوا يضيقون ذرعاً ، اكثر من ذلك لأنهم لم يستطيعوا ان يمسوا أهل البلاد من قريب أو بعيد أو أن ينالوا شيئاً من لا مبالاتهم الرائعة بازاء الديانة الجديدة . كان أعضاء قبائل الهورون ، التي استطاع المبشرون مع ذلك ان يدخلوا كثيرين منها الى الديانة الجديدة ، يجيبون على المبشرين عندما يدعونهم الى الدين الجديد قائلين : « هذه الديانة التي تدعون اليها ربما كانت ديانة طيبة عند الفرنسيين ، ولكننا شعب آخر ، وما يطيب للفرنسيين ، لا يطيب للهورون »[1] .

أما قبائل الايروكوا فقد كانت عصية على المبشرين كل الاستعصاء . والى جانب الحرب التي شنها عليها الفرنسيون جاءت الحرب التي شنها الجزويت في سبيل خلاص أرواحهم : « جاء يوم ايقن فيه الجزويت انه من الافضل ان تموت قبائل الايروكوا بل ان تموت على نحو يتسم بقسوة بالغة . فكلما زاد عذاب

---

(١) كلود دي بونو : تاريخ كندا الفرنسية (١٥٣٤ — ١٧٦٣)

احدهم ، اتيحت له فرص الخلاص ، ففي هذه الحالة وحدها كان الفرد من قبائل الايروكوا يطلب العماد »[1] . كتب الاب جيروم لالمان وهو احد أوائل المبشرين الجزويت في كندا ، يبرر هذه الأساليب « الفعالة » بصدق يمس شغاف القلب : « من كان يظن ان التعذيب بالنار الذي كان يدعو افضل المسيحيين غالباً الى اليأس ويصيب إيمانهم بالاهتزاز ، هو الذي يفتح الطريق الى السماء امام اعضاء قبائل الايروكوا ، وأن هذه القبائل كانت هي أفضل الوسائل لذلك واكثرها يقيناً ؟ بل لقد بلغ من يقين هذه الوسائل وفاعليتها اننا لم نكن نحرق منهم أحداً ، تقريباً ، الا اذا كنا قد رأيناه جديراً بدخول الفردوس ، ولم نر أحداً منهم جديراً بدخول الفردوس ، بالتأكيد ، الا اذا كنا قد اوقعنا عليه هذا العذاب »[2] . وكانت النتيجة المنطقية التي استخلصها الجزويت من هذه التجربة هي ان افضل أفراد الايروكوا هم الموتى منهم .

وقد تأكد هذا اليقين باستمرار ، كلما مضى القضاء على أفراد قبائل الهورون في طريقه حتى النهاية ، وقد كانت هذه القبائل هي رعايا « الآباء . الطيبين » وحدها . ولاشك أن قسوة قبائل الايروكوا ليست مجرد اسطورة من الأساطير . ولكن كيف ننسى انهم كانوا يذودون عن ارضهم وان الفرنسيين كانوا يوقعون بهم قسوة أعتى واشد ضراوة لكي يزحزحوهم عنها ؟ كان الفرنسيون يردون على الفظائع التي يقترفها الايراكوا بفظائع مماثلة أو أشد فلم يكن في ذلك ما يدعو لشيء من الاحترام ، كان الايروكوا قساة ، ولكن الفرنسيين علموهم ان يكونوا اشد قسوة والا يتورعوا عن شيء . ولم يأخذ الايروكوا في إحراق النساء والاطفال الا عندما احتذوا حذو الفرنسيين في ذلك »[3] . وعلى ذلك النحو فقد أخذ استعمار كندا يشيد صروحه في سياق من العنف ، والمجافاة للقيم الانسانية ، اشترك فيه رجل الكنيسة ورجل الدولة

---

(١) نفس المصدر السابق .
(٢) » » » .
(٣) » » » .

في تضامن وثيق ، وحمل كل منهما نصيبه من المسؤولية عنه . كان شامبلان حاكماً قوياً حتى مات في ١٦٣٥ . وقد صد هجوماً قام به الانجليز في ١٦٣٢ وأعاد بناء كويبيك بعد رحيلهم . اما في فرنسا فقد جاء عهد لويس الثالث عشر ، تحت سيطرة ريشلييه القوية . وما لبث الكاردينال الاحمر ان اعلن الحرب على مملكتي هابيسبورج في اوروبا : مملكة اسبانيا ومملكة النمسا ، وما لبث ان امتد بهذا الصراع فبلغ به امريكا حتى يضرب اسبانيا في قلب امبراطوريتها . وقام « سيد الملاحة والتجارة العظيم » بالهجوم على مدريد في اضعف نقطة من امبراطوريتها ، في جزر الانتيل ، وذلك حتى يجعل معين ارباحها يسير الى النضوب . فاستولى على سان كريستوف ، وجواديلوب . وما لبث ريشلييه ان اولى اهتمامه ، شخصياً ، بتنمية الاستعمار في كندا . كان المستعمرون يتدفقون الى « فرنسا الجديدة » منذ ١٦٣٢ ، وهو العام الذي اعيد فيه تشييد كويبيك . كان تعمير الأراضي القطبية بالعدد الغفير من السكان ، ووجود اهالي البلاد الاصليين الذين استخدموا في مقام السائمة ودواب الحمل ، قد أتاح لكندا الا تلجأ الى الأيدي العاملة الافريقية التي تأتي بها تجارة الرقيق . ومات ريشلييه في ١٦٤٢ قبل ان يستطيع ان يبدأ في تنفيذ مشروع الأب لوجان ، وهو جزويتي آخر من جزويت كندا ، كان يقترح ان يقوم الفرنسيون باجلاء الهولنديين والفلامنكيين من امستردام الجديدة (نيويورك) ومن بلجيكا الجديدة (امريكا الشمالية) .

وفي ١٧ مايو من نفس العام جاء بعض القسس والمدنيين من « جماعة القربان المقدس » ، يستهدفون تأسيس فرع لجماعتهم في كندا (وقد سمى هذا الفرع فيما بعد : جمعية نوتردام دي مونتريال) فنزلوا في جزيرة هوشيلاجا (التي أطلق عليها كارتييه اسم : مونريال) فأقاموا فيها نواة للعاصمة المستقبلة وسموها فيل ماري (مدينة ماري) ومع ذلك ، وفي عهد لويس الرابع عشر ، قبل ان يبلغ سن الرسد (وعلى الأخص في فترة الفروند) كانت المستعمرة

الفرنسية في كندا ، محرومة من كل عون من العاصمة ، تتعرض لمحنة قاسية حقاً . ولكن ما ان بلغ « الملك الشمس » سن الرشد حتى اعاد الأمور الى نصابها . وعرف التوسع الفرنسي نمواً جديداً في اتجاهات مختلفة . ففي ١٦٦٣ أصبحت كندا من املاك التاج تحت الرقابة المباشرة للملك . وهكذا اقبل الجنود والمستعمرون أفواجاً يوطدون من بنيان المستعمرة ، وتراجع الايروكوا الذين كانوا يهددون بالقائهم الى البحر في فترة من الفترات . وأخيراً جاءت سنة ١٦٦٤ التي انشئت فيها « الشركة الفرنسية للهند الغربية » .

التمزق والانفصال الكبير :

في ١٦٦٥ كان الفرنسيون في سان — دومينيج (هاييتي) . وفي ١٦٧٣ كان جولييه وماركيت يكتشفان وادي المسيسبي الذي هبط في مجراه كافالييه دي لاسال في ١٦٨٢ . وأخذ الفرنسيون يستولون شيئاً فشيئاً على لويزيانا ويقيمون الصلة بينهم وبين مواطنيهم في كندا . — وفي ١٧١٨ (بعد موت لويس الرابع عشر بثلاث سنوات) اسسوا اورليان الجديدة (نيو اورليانز) وفي خلال القرن السابع عشر ايضاً أقام الفرنسيون اولى مرافقهم في السنغال ، وسلبوا جزيرة جوريه من الهولنديين . كانت تجاة الرقيق الأسود هي النشاط الرئيسي لهذه المرافق . فقد كانت تمد جزر الانتيل بحاجتها منهم بعد ان حرمت هذه الجزر من الايدي العاملة على اثر انقراض سكانها الأصليين .

وفي ١٦٧٠ أنشأ كولبير « شركة المشرق » (لاكومباني دي ليفانت) وفي ١٦٧٤ استقر الفرنسيون في بونديشيري على الساحل الهندي . وقد اخذ التغلغل الفرنسي في الهند يزداد سنة بعد سنة . ففي ١٦٨٦ اسست شاندرناجور . وحصل ديبلييه ، الحاكم العام للهند الفرنسية ، في ١٧٤٩ ، وعلى تنازلات اقليمية كبيرة من الامراء الهنود . ولكن فرنسا عرفت ، منذ موت لويس الرابع عشر في ١٧١٥ ، تدهوراً بطيئاً اخذ يزداد حدة في عهد لويس الخامس عشر .

بدأت الممتلكات الفرنسية تسقط واحدة بعد الاخرى في ايدي العدو . ففي

كندا كان الانجليز ، منذ استيلائهم على نيوامستردام في ١٦٦٤ (التي اصبحت نيويورك) يحتلون الاراضي التي استعمرها الهولنديون ، ويصبون على الفرنسيين محناً متوالية ، بمساعدة حلفائهم الايروكوا . وفي ١٧٥٥ احتل الانجليز اكاديا و « رحلوا » سكانها . لقد انقضى العصر الذهبي الذي عرفته فرنسا في عهد حكومتي فرونتيناك (١٦٨١ – ١٦٨٢ ، ١٦٨٩ – ١٦٩٨) . وادى تدخل مونتكالم في مايو ١٧٥٦ الى استقرار الموقف موقتاً . ولكن الكارثة حلت بموته في ١٧٥٩ . وسلمت كويبيك نهائياً واستولى الانجليز في نفس العام على جواديلوب. وجاء سقوط مونتريال في العام التالي بينما كان جيش صاحب الجلالة يحاصر بونديشيري التي سلمت بدورها في ١٧٦١ . وسقطت المارتينيك في ايدي البريطانيين في ١٧٦٢ . كانت حرب السبع سنوات ضربة قاتلة لفرنسا . واذا كانت كندا قد افلتت من يديها ، فذلك أساساً نتيجة للميزان غير المتكافيء : « بينما كان الانجلوامريكيين يقترب عددهم من نحو مليون ونصف ، مركزين في اقليم ضيق الحدود نسبياً ، لم يبلغ عدد الفرنسيون الا نحو ستين ألفاً مشتين على حيز كبير من الأرض يكاد يصل الى سعة قارة بأكملها »[١] . هذا الى ان المساعدة التي كانت انجلترا تمد مستعمراتها بها كانت اسخى بكثير مما كانت فرنسا تفعل في عهد لويس الخامس عشر الذي كان لا يولي مصير مستعمرته كبير اهتمام . ثم ان الغلبة البحرية البريطانية كانت في نهاية الأمر عاملاً حاسماً . كانت السفن الحربية الانجليزية تسهر على حراسة المستعمرات وتقطع الطريق على القوافل الفرنسية . وفي هذه الظروف كانت المغامرة الكندية محكوماً عليها بالمصير الذي حدده لها التاريخ . ووقعت معاهدة باريس في ١٠ فبراير ١٧٦٣ ، وبمقتضاها سلمت فرنسا لانجلترا ، كندا وكل متعلقاتها ، وعدة جزر من جزر الانتيل ، والهند ، والسنغال ، وتخلت عن كل دعاويها في أكاديا . وفي مقابل ذلك اعادت انجلترا الى فرنسا ، جواد يلوب ، والمارتينيك ومارجالانتت ، وديزراد ، وسان

---

(١) رينيه ريمون : تاريخ الولايات المتحدة .

بيبرواميكيلون ، كما أعادت اليها بيل ــ ايل كما احتفظ الفرنسيون بالاضافة الى ذلك بحق الصيد وتجفيف الاسماك على ساحل تيرانوفا . كان هذا الحساب الختامي الذي يحمل نذر الكارثة هو الذي وضع حداً ، في نهاية القرن الثامن عشر ، للمرحلة الاولى من تاريخ فرنسا الاستعماري .

سوف أبقى :

كان وصول هولندا متأخرة في سياق المنافسة الاستعمارية الأوروبية ، اذ جاءت في المركز الرابع منها ، أمراً منطقياً تماماً . فهي لم تنفصل عن « الاقاليم السبعة عشر » او « البلاد الواطئة البلجيكية » ــ وهي مجموع الاقاليم التي خلفتها اسرة هابيبسورج في النمسا واورثها شارلكان ابنه فيليب الثاني ملك اسبانيا ، عند تنازله عن العرش ــ الا في عام ١٥٧٢ . ونحن نعرف المناسبة التي انفصلت فيها عنها . كانت الديانة الاصلاحية قد انتشرت انتشاراً واسعاً في « الاقاليم السبعة عشر » ، وكان فيليب الثاني من غلاة المدافعين عن العقيدة الكاثوليكية ، فعهد الى دوق دالب بأن يوقف نمو هذا « الشر » الوبيل . وبدأ الدوق مهمته بأن جعل الرؤوس تتهاوى ، رؤوس الاشراف البروتستانت من بروكسل . وكونتات ايجمونت وهورن . مما ادى الى اندلاع ثورة سافرة للاشراف والبرجوازيين البروتستانت في « البلاد الواطئة البلجيكية » . وأخذ جويوم دورانج ــ وهو ابن احد الاشراف الفرنسيين الذين لجأوا الى البلاط الامبراطوري مع سيده قائد الجيش البريوني ، يقف على رأس « المتدينين » الذين كان الاسبانيون يسمونهم على سبيل السخرية باسم « الصعاليك » ، وينظم الدفاع عنهم . ولكن الب ثم فرنيز استطاعا ان يطردهم الى الفلاندر ثم يصدهم حتى ما وراء اسكو ، على حدود ليمبورج . ولم يستطع الاسبانيون قط ان يعبروا هذه الحدود . وفي ١٥٩٧ اصبح الانقسام في « الاقاليم السبعة عشر » بين بلجيكا والبلاد الواطئة ، أمراً واقعاً . وفي ١٦٠٩ اعترفت أوروبا رسمياً باستقلال البلاد الواطئة التي اتخذت اسم « الاقاليم المتحدة » والتي نصّب جويوم (ويلم دي زفيجر)

نفسه حامياً لها .

وبذلك اتيحت لهولندا الفرصة والفراغ لكي تفكر في التوسع . بل أصمت اسماع القرن السابع عشر كله بدوي أعمالها . كان الباتافيون شعباً بحرياً ، وكانت ابصارهم تتجه الى البحر العريض اكثر من أي شعب آخر . وسرعان ما اصطدموا بامبرياليات متدهورة : امبرياليات البرتغال واسبانيا (وقد كانتا مملكة واحدة منذ ١٥٨٠) . ولم يكن مما يسوءهم بالطبع ان يكون قاهروهم بالامس هم اعداءهم اليوم . وما لبثوا ان انتقموا لانفسهم وان جعلوا سادتهم القدامى يدفعون غالياً ثمن المذلة التي فرضوها عليهم في الماضي .

كان الملاحون الهولنديون منذ ١٥٩٥ يجوبون المحيطات . قام فان نورت برحلته الطويلة حول العالم من ١٥٩٨ الى ١٦٠٠ . وفي ١٥٩٩ مر الهولنديون بازاء سواحل اليابان ، وجاء اسطول ثان لهم فاقام فيها من ١٦٠٧ الى ١٦٠٩ . وفي ١٦٠١ نزلوا في آنام ، وفي العام التالي تأسست في امستردام « شركة الهند الشرقية » . وفي ١٦٠٥ استولى الهولنديون من البرتغاليين على ترنات وتيدور ، واستولوا على امبوان في ١٦٠٧ .

كان انشاء « شركة الهند الغربية » في ١٦٢١ شاهداً على اكتشاف منظورات جديدة وآفاق واسعة . والواقع ان الهولنديين اسسوا نيوامستردام « نيويورك » بالفعل في ١٦٢٦ واحتل الهولنديون ، ساحات شاسعة من امريكا الشمالية كما اقيمت فيها مستعمرات فلامنكية والونية . لقد أسس سكان انفيرس احد احياء نيويورك الحالية : هوبوكن . كانت هذه المنشآت الاولى تحمل على التعاقب اسماء : هولندا الجديدة ، وبلجيكا الجديدة ، والبلاد الواطئة الجديدة . وحصل الهولنديون ١٦٠٩ من الروس على حق الاتجار في ارخانجليسك وفي العام التالي استطاعوا ان يطردوا البرتغاليين من بيرنام بوك وان يستقروا فيها . واخذوا يؤسسون شيئاً فشيئاً ، امبراطورية في البرازيل (ولكنهم فقدوها في ١٦٥٤) . وفي ١٦٣٠ انتزعوا من الاسبانيين سورينام وكاركاس . وكانوا

في كيراساو في ١٦٣٢ . واستولوا على فيلادلفيا في ١٦٤٣ ولكنهم طردوا منها في العام التالي .

إلا أن اهتمام الهولنديين قد تركز اساساً في الهند الشرقية منذ ان استولوا على مالاكا في ١٦٤١ . ففي ١٦٥٠ نشب صراع طويل في سبيل الاستيلاء على جزيرة جاوه التي لم يتم غزوها الا بعد ٣٤ عاماً . ان الجزر التي اتجهت اليها مطامع الهولنديين : جاوه ، سومطرة ، جرر موليك ، كيرام ، هالماهيرا ، امبوان ، تيدور ، تيرانات بورو (جزر التوابل) بالي ، لومبوك ، سومباوه ، سومبا ، فلوريس ، سولو ، ادينارا ، لومبلين ، بانتار ، آلور ، وتيمور (جزر السوند) والتي استولوا عليها واحدة بعد الاخرى ، هي التي تكونت منها ، اندونسيا ، في القرن العشرين .

كان تعمير هذه الجزر بالسكان امراً معقداً . فالعنصر المالاوي يسودها ، مختلطاً بعناصر سابقة عليه ، مثل شعوب نيجريتوس وفيدا ، وهي معروفة ايضاً في الهند . وينتمي الاندونيسيون الى العنصر الميلانيزي المنتشر في جميع انحاء المحيط الهندي حتى مدغشقر . وكانت مراكز الحضارة الاساسية تقع في سومطرة وجاوه اللتين تمت لكل منهما السيادة واحدة بعد الاخرى ، وان كانتا تمثلان جوانب اقتصادية متغايرة ، ومتكاملة في الوقت نفسه . فان سومطرة تسيطر على المضايق التي تمر بها السفن المتجهة نحو الصين او نحو جزر التوابل . وقد ظهرت في سومطرة ، على أيدي الهنود ، مدن تجارية غنية ، كانت تسود الامبراطوريات التجارية التي سيطرت على الارخبيل كله . اما جاوه على العكس ، فقد كانت مستودع الغلال في جزر التوابل ، فهي بلد زراعي غني يتاح فيه بناء الثغور على ساحله .

كان تأثير الهند ، في اول الأمر ، سائداً ولكنه تضاءل بعد ذلك . وكانت الهند هي التي نشرت الديانة الهندوكية ، ثم الديانة البوذية ، في الارخبيل . وقد وجدت في سومطرة منذ القرن الخامس مملكتان « هنديتان » — ماليزيتان » :

مملكة مالايو في الوسط ، ومملكة شيريفيجايا في الجنوب . وكانت هذه المملكة اقوى جانباً وكانت تبسط سيطرتها شيئاً فشيئاً ، على سومطرة كلها ثم على كمبوديا ، وسيام ، وسيلان ، والجزء الاكبر من جاوه ، والمناطق الساحلية من كاليمنتان ، والفيلبين . وانهارت مملكة شيريفيجايا – التي بلغت اوج قوتها بين القرنين العاشر والثاني عشر – بموت ملكها الاخير كيرتانيجارا . فاعقبتها دولة جديدة عرفت باسم مملكة مدجاباهيت . وقد أسسها الاميرفيجايا ، صهر كيرتانيجارا ، فأصبحت امبراطورية بحرية كبرى سيطرت على الارخبيل خلال القرن الرابع عشر كله . وكان لها عدد كبير من الاتباع استخدمهم البرتغاليون والهولنديون ثم قضوا عليهم في الفترة الاستعمارية .

زار ماركوبولو سومطرة في طريق عودته من الصين . فقد كان سفير كوبيلاي الذي كان قد قهر امبراطورية الوسط وكان حريصاً على ان يوثق علاقات التبعية التي تربط الارخبيل بجارتها القوية والتي كانت في ظنه علاقات نظرية متراخية اكثر مما ينبغي . وخيبت آمال كوبيلاي في نتائج هذه السفارة ، فارسل اسطولاً وجيشاً على جانب كبير من القوة الى جاوه وانْ مني الاثنان بالهزيمة . الا انه قد نجم عن ذلك ان استقر التجار الصينيون في الجزر وغرسوا جذورهم في أرضها وعرفت التجارة فيها على ايديهم رواجاً جديداً .

وكان من العوامل الحاسمة ايضاً تغلغل الاسلام منذ نهاية القرن الثالث عشر إذ ان ٨٨٪ من الاندونيسيين اليوم مسلمون . كانت الديانة الجديدة التي استوردها الملاحون والتجار العرب الى الجزر تروق للمالاويين ، فقد كانت تبدو من المرونة بحيث تتيح التسامح والتعايش بين العقائد المختلفة . وغزا الاسلام كل الجزر شيئاً فشيئاً ، باستثناء بالى التي ما زالت حتى اليوم معقلاً للهندوكية والبوذية . وكان للاسلام ايضاً اثر آخر على مصير الأرخبيل . فقد كان السبب غير المباشر في الاستعمار . كان العرب الذين نقلوا الديانة الجديدة يعودون ليبيعوا ما جاءوا به من ثروات في اوروبا ، فعرفت اوروبا وجود جزر التوابل ،

عن غير قصد من العرب .

وهكذا غامر البرتغاليون بالرحيل الى تلك المناطق في القرن الخامس عشر ، ووضعوا أقدامهم فيها ، وفرضوا انفسهم عليها بالقوة . ولم يظهر الهولنديون الا بعد ذلك بقرن من الزمان . كانت التنظيمات البلدية التي لم يكن لها وجود تقريباً في البرتغال او اسبانيا بل في فرنسا قد نمت نمواً كبيراً في البلاد الواطئة . وبينما كان تنظيم الحملات البحرية في كل مكان من اختصاصات وامتيازات العاهل أو النبلاء ، اختصت به البرجوازية التجارية في « الاقاليم المتحدة » ، وهي البرجوازية التي بلغت ذروة قوتها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . قامت « شركة فان فير » التي تتألف من بعض الأفراد الاغنياء ، بتمويل رحلة القافلة الاولى التي سافرت نحو الهند في ٢ أبريل ١٥٩٥ ووصلت الى بنتام بعد ذلك بخمسة عشر شهراً . وكانت نتائج العملية مرضية وان لم تكن خارقة أو باهرة . واتاحت الارباح العائدة منها تنظيم حملات اخرى . وانشئت شركات اخرى في مدن مختلفة من البلاد الواطئة . وولدت شركة الهند الشرقية من اندماج هذه الشركات .

ان أهل البلاد الواطئة شعب من التجار والملاحين ، واذن فقد ادركوا ما يمكن أن يعود من ربح على الجمع بين هاتين الصفتين . كما أدرك ذلك من قبلهم الفينيقيون . ومن بعدهم الانجليز . ومن ثم فلم يعتنق الاستعمار الهولندي مبادىء معينة ولا احتمى وراء تعلات دينية ما . ولم يهتد الا بحافز واحد هو الحافز التجاري . وكان يقر بذلك صراحة . أكانت « اخلاقية الربح » هذه هي تراث الوعي البروتستانتي ؟ لست أشك في أن ماكس ويبر يجيب على هذا السؤال بالايجاب [1] .

---

(١) ماكس ويبر : الاخلاقية البروتستانتينية وروح الرأسمالية .

من التجارة الى الاستعمار :

لم تكن العلاقات الاولى التي عقدتها هولندا مع الارخبيل تنطوي الا على صلات تجارية : شراء منتجات الشرق التي تباع بعد ذلك على الفور في اوروبا. ولم ينشب الصراع الا اذا كان ذلك من قبيل الضرورة. فقد كان من الافضل ان تحل محل الصراع «علاقات ودية» مع الامراء والملوك المحليين. ولكن عدوانية البرتغاليين الذين لم يتخلوا عن استعادة غزو مواقعهم السابقة، دفع بالهولنديين الى احتلال الجزر احتلالاً وطيد الاركان. وعندما وقّعت «الاقاليم المتحدة» هدنة مع اسبانيا، ١٦٠٩، كانت قد حصلت بالفعل على مواقع لا يمكن زحزحتهم عنها : امبوان، وبانداز، ومرفق في بانتام، ووكلاء في بورنيو (للماس)، واتفاقيات مع الامراء المحليين، ومنهم امير ماكاسار. وفي خارج الارخبيل كان للهولنديين «وكيل» في اليابان وممثلون على سواحل كورو ماندل، وكانت لهم علاقات عمل مع امراء شبه جزيرة ماليزيا، وكاليكوت وسيلان.

كانت الهدنة مواتية للهولنديين. وفي صالحهم. فقد ضمنت لهم السلام في الغرب، وبذلك اتاحت لهم حرية تحريك جزء من اسطولهم للسيطرة على جزر التوابل، وسرعان ما تأتى عن هذا المناخ من الأمن والهدوء، عهد من الرفاهية ترجم عنه توزيع ارباح للمساهمين في «شركة الهند الشرقية» بلغت : ١٧٪ في ١٦٠٥، ٧٥٪ في ١٦٠٦، ٤٠٪ في ١٦٠٧، ٢٠٪ في ١٦٠٨، ٢٥٪ في ١٦٠٩، ٥٠٪ في ١٦١٠.

وعندما طرد الهولنديون البرتغاليين نهائياً تعرضوا لاغراء قوي في ان يحتذوا حذوهم وان يقلدوا تنظيماتهم الادارية. وقرر «السبعة عشر» وهم السلطة العليا في جمهورية «الاقاليم المتحدة»، بالتالي أن يعهدوا الى «حاكم عام» بادارة كل ما كان يقع من قبل تحت سلطة «الشركة» (المرافق التجارية، الحصون، الاقاليم، القوات العسكرية والبحرية). وكان اول حاكم عام

هو بيير بوث الذي خلفه يان بيترزون كوين .

وعندما تقلد هذا الاخير مهام منصبه ١٦١٨ كانت الجزر تمر بفترة اضطراب وفوران . ففي جابارا (جاوة) كان المرفق التجاري قد هاجمه ودمره جيش الامير ماتارام . وقد كان المسؤولون الحقيقيون عن هذه الغارة ، في الخفاء ، هم منافسو الهولنديين الجدد : الانجليز . اتخذ الانجليز أمام الامراء المحليين مظهر « المحررين » الذين اقبلوا الى الارخبيل ليخلصوه من قبضة الهولنديين ، ومظهر خصوم الطغيان الهولندي ، كما كان الهولنديون انفسهم من قبل يتخذون مظهر « المخلصين » الذين جاءوا يحررون المالاويين من قهر البرتغاليين . واذن فقد اسفر الانجليز عن حقيقتهم باعتبارهم ألد اعداء الهولنديين ، بعد القضاء على البرتغاليين ، وهاجموا مصانع جاكرتا (دجاكرتا) بمساعدة العاهل المحلي . ومضى كوين يستجلب النجدة من جزر مولوك ، وحرر الحصن ، وهزم الانجليز ، وحطم جاكارتا تحطيماً ، وبنى مدينة جديدة أطلق عليها اسم باتافيا في ٢٨ مايو ١٦١٩ . ثم أخذ كوين بعد ذلك يقوم بتوسع منهجي منظم ، يقيم على أثره استعماراً لا هوادة فيه . وكانت الأساليب التي يتبعها تلبي مقتضيات السياسة الهولندية : ان تأتي المصلحة في المحل الأول . فعندما كان خصومه ضعفاء ، كان كوين يتصرف بلا رحمة ولا شفقة . ففي جزر باندا (لونتور — رون — روساجين) حيث كان السكان الذين يعارضون جَمْع التوابل معزولين ، أباد الهولنديون كل الرجال والذكور من السكان واسترقوا النساء والاطفال . اما اذا كان خصومه اقوياء ، فقد كان يتملقهم ويفاوضهم . ففي جاوه حيث كان يتنازع الغلبة والسيادة عاهلان متنافسان ، تحالف كوين مع اضعفهما ، سلطان بانتام ، وصد هجوم سلطان ماترام على باتافيا . وعند موت الحاكم العام في ١٦٢٩ كان الهولنديون يتحكمون في كل بحار الارخبيل .

وهكذا أدت المقتضيات التجارية بـ « شركة الهند الشرقية » على نحو غير محسوس ، الى إقامة ابنية استعمارية متينة والى احتلال أراض تتسع مساحتها

شيئاً فشيئاً . لم تكن باتافيا في تلك الفترة الا حصناً تدافع عنه حامية مكونة من ١٢٠٠ رجل ، وبضع بيوت مبنية على الطراز الهولندي ، يأوى اليها بضع مئات من الموظفين والتجار الهولنديين . ومع ذلك فان الفاتحين ، كانوا اذا خرجوا من المدينة ، معرضين للوقوع في الكمائن ، وكانت أراضي سلطان بانتام وسلطان ماتارام تمتد حول المدينة وتحيط بها من ألجانبين . كان تموين باتافيا (وعلى الاخص فيما يتعلق بالارز او الماشية) يعتمد على حسن نية سلطان ماتارام ، وكثيراً ما كان يتوقف . ومن ناحية اخرى فقدكان التزايد المستمر في السكان الصينيين الذين اضطر الهولنديون الى أن يسلموا لهم بشيء من الاستقلال الذاتي ، عاملاً من عوامل القلق عند المستعمرين الباتافيين . واخيراً فقد كان الاسبانيون الذين احتفظوا ببعض الحصون في جزر مولوك ، يحضون المالاويين على الثورة . وخلقت كل هذه العوامل المقلقة المتجمعة ، موقفاً حرجاً اضطر الهولنديين معه الى انتهاج سياسة توسع نشط .

وبمقتضى هذه السياسة ، استولوا على مالاكا في ١٤ يناير ١٦٤١ . كانت تلك ضربة قاسية موجهة الى البرتغال التي كانت قد تحررت في العام الماضي من التبعية الاسبانية . كما اضعفت الامراء الاندونيسيين، واسهمت في حصار سلطنة اتيجيه وجعلت سلطان ماترام يفقد حليفاً وعميلاً (للأرز) . وتحت إدارة الحاكم فان دي مين ، جعل الهولنديون من انفسهم سادة المواقع الهامة في سيلان ، واضطرت البرتغال ، في اتفاقية جوا عام ١٦٤٤ أن تعترف بالسيطرة الفعلية لـ «الاقاليم المتحدة» على الجزيرة كلها . واحتل الهولنديون من ناحية اخرى جزيرة جاشيما ، وكانوا وحدهم هم الاوروبيين الذين يقيمون علاقات مع اليابان . كما استقروا ايضاً في تايوان (فرموزا) حيث كان يودع السكر المجلوب من الصين . واخيراً وصل الملاحون الهولنديون الى غينيا الجديدة (وقد اطلق عليها البرتغاليون هذا الاسم في ذكرى ممتلكاتهم الافريقية) . كما وصلوا الى تسمانيا حيث ثبتوا أقدامهم منذ ١٦٤٢ .

الارهاب والربح والتوسع :

لم تتم السيطرة الهولندية على جزر مولوك الا عن طريق القمع الضاري العاتي . فقد كان كل شيء يتخذ حجة وتعلة للقمع والقهر . ففي تلك الفترة التي قلت فيها المنافسة ، حاول سكان البلاد الاصليون ان يهرّبوا ، بوساطة بعض المهربين الذين يعيشون في ماكاسر ، الفائض من بذور القرنفل وجوز الطيب التي كانت الشركة الهولندية ترفض شراءها منهم . وسرعان ما وقع السكان تحت وطأة اجراءات انتقامية عنيفة . كانت لهذه السياسة التي لا رحمة فيها ميزة بارزة هي رواج «الاعمال» وأحس المساهمون الهولنديون بالرضا العميق عنها ، ذلك أنهم ، على الرغم من بعض السنوات الكاسدة ، كانوا يحصلون على أرباح تتراوح بين ٢٥٪ في ١٦٢٩ ، ٥٠٪ في ١٦٤٢ .

حصلت هولندا على مكاسب اقليمية جديدة في خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر تحت الادارة الحازمة لثلاثة حكام على الاخص هم : جوان مايتسيوكر ، (١٦٥٣ – ١٦٧٨) وهو ريجكلوف فان جويز (١٦٧٨ – ١٦٨١) ، وكورنيليس سبلمان (١٦٨١ – ١٦٨٤) ، وبين عامي ١٦٦٠ و ١٦٦٧ هاجم الهولنديون جزر سيليب وارغموا سلطان ماكاسار في النهاية على قبول شروطهم : حظر الاتجار منذ تلك اللحظة مع البرتغاليين والانجليز وطرد الجزويت . كانت سومطرة هي الهدف التالي . وسقطت مدينة باليمبانج في ١٦٥٩ واضطر كل الامراء المحليين – بما فيهم سلطان التجيه – الى قبول الحماية الهولندية . وفي جاوه مات اجونج سلطان ماترام . وباختفائه ظهرت أزمة فيما يتعلق بوراثة العرش : واستفاد منها الهولنديون ليضموا الجزيرة اليهم . اما في بورنيو فقد كان الصراع بين الانجليز والهولنديين من أجل السيادة مريراً غاية المرارة ، حيث كانت الغنيمة المتنازع عليها اكبر قيمة بكثير (الذهب – الماس – والفلفل) .

ومع ذلك فقد لقي الهولنديون اعنف المقاومة في اقدم ممتلكاتهم ، مثل جزر

مولوك. كانت «الشركة» قد انتزعت من الارض اشجار القرنفل اذ لم تكن بحاجة الى انتاجها، فشبت الثورة في امبوان في ١٦٤٨، وفي تيرنات في ١٦٥٠. بل ذبحت الحاميات الهولندية ذبحاً في تلك المناسبة. وما لبث الانتقام ان حل سريعاً: دمرت المزارع من ادناها الى اقصاها، ورحل السكان قسراً من جزيرة الى اخرى، وزج بهم في السجون، بل ارغم المالاويون للمرة الاولى، عن طريق القسر، الى التحول الى الديانة البروتستانتيّة.

وحقق الهولنديون نجاحاً مرموقاً على الصعيد الدولي. فوقّعت اسبانيا في ١٦٤٨، مع تابعتها القديمة، معاهدة للصلح اعترفت فيها اعترافاً رسمياً باستقلال البلاد الواطئة وتخلت فيها عن كل توسع في الارخبيل الملاوي. ولاشك أن الهولنديين، بمقتضى معاهدة بريدا في ١٦٦٧، قد تخلوا عن أراضيهم في امريكا الشمالية الى انجلترا، ولكن ذلك كان مجرد اعتراف بالأمر الواقع: فقد كانت نيوامستردام قد سقطت في ايدي البريطانيين في أغسطس ١٦٦٤. وفي مقابل ذلك سلمت لهم بريطانيا بآخرممتلكاتها في جزر باندا. وأخيراً أعاد الهولنديون الى فرنسا، في اتفاقية صلح ريجسويجك في ١٦٩٧، بونديشيري التي كانوا قد استولوا عليها في ١٦٩٣، ولكنهم احتفظوا بملكية الأرخبيل كله.

روح الاستعمار الباتافي وأساليبه:

ينتهي عصر التوسع الهولندي بنهاية القرن السابع عشر. وفي مقابل ذلك، كان القرن الثامن عشر هو عصر الاستعمار البحت: العصر الذهبي «للشركة». كانت الروح التي يستهلمها الاستعمار الباتافي والاساليب التي يتبعها هي الروح والأساليب التي قد طبقت فيما بعد، على نطاق اوسع، في القرنين التاسع عشر والعشرين. كانت كل جهود الاستعمار الهولندي تهدف الى إقامة احتكار يقوم فيه الامراء المحليون بدور الوسطاء، اذ بقي هؤلاء الامراء ملتزمين بالاحتفاظ بالانتاج كله وتسليمه الى «الشركة» التي تقوم بتركيزه في باتافيا. وعندما كانت «المعاهدة» التي تعقد بين الامراء والشركة تنتج عن تسليم من الامراء،

فقد كان هؤلاء يضطرون الى نقل السلع الى باتافيا على حسابهم .

ومن ناحية اخرى كان الهولنديون يتدخلون مباشرة في الحياة الاقتصادية للامارات ويقررون مدى اهمية الزراعات المختلفة وطبيعتها وفقاً لاحتياجاتهم ، ومن ثم أصبح الامراء مقاولين للزراعات ، وما لبث البولنديون ان أخذوا يعدلون من اتجاه اقتصادهم ، في الغالب ، وبذلك تنوعت مظاهر نشاط السكان الاصليين : « في القرن الثامن عشر ، وفي الفترة التي بلغ فيها نشاط « الشركة » ذروته في جاوه او في جزر مولوك ، كان الهولنديون يحظرون تلك الزراعة او يوصون بها وفقاً لمصالحهم — وقد كان الأمر يتعلق أحياناً بزراعات لا تأتي بعائد مذكور الا بعد بضع سنوات . ففي ١٧٣٤ (وليس ذلك الا مثالاً من أمثلة كثيرة) منحت « الشركة » لامير ماتارام اعانة كبيرة حتى ينمي زراعة الفلفل ، ولكنه اضطر بعد ستة اشهر ان ينزع من الارض كل اشجار البن في دولته » .[١]

وانتهت تلك السياسة الى التخصص المسرف في كل منطقة ، استهدافاً للتصدير وحده . ولكن المواد الغذائية اخذت تشح واضطر السكان الى ان يحصلوا عليها من الخارج ، عن طريق « الشركة » . وما لبثت هذه الأساليب ان دفعت بالسكان الى هوة اليأس . فهل نحن بحاجة الى تأكيد ذلك ؟ ولكن المستعمر استفاد من هذه السياسة ميزات اضافية . هي ميزات اثارة التنازع والتنافس المستمر بين الا راء : وكان في ذلك العائق الاساسي دون توحيد الارخبيل سياسياً . وبالفعل لم يكن الأمراء المحليون يستهدفون الاغرضاً واحداً هو تحسين موقفهم في تلك المنافسات التجارية ولو كان ذلك على حساب رعاياهم .

وهكذا حل انتاج البن محل كل انتاج آخر في نحو نهاية القرن الثامن عشر ، على الرغم من تحفظ الهولنديين الذين اعتادوا تجارة السكر والتوابل . واتخذت

---

(١) جان بروهات : تاريخ اندونيسيا .

اجراءات رهيبة فرضها المستعمر ، وتردد صدى هذه الاجراءات من وسيط الى آخر حتى حلت بكل ثقلها وصرامتها في النهاية على صغار الزارعين . كان الامراء ملتزمين بتزويد كميات محددة ، سواء كان ذلك مجاناً — على سبيل الجزية — أو باسعار تضعها « الشركة » ، وكانوا مع ذلك يريدون باستمرار وعلى الرغم من كل شيء ان يحققوا ارباحاً كبيرة ، ومن ثم كانوا يفرضون على رعاياهم شروطاً من شأنها ان تهبط بهم الى درك الفاقة . وكان منطق الاستعمار ، حيث يحمل المستعمر ضحيته على إطاعة قوانين نظامه الخاص ، يرغمه على ان يوقع الارهاب بابناء بلاده ، فهو بذلك يمكن مقارنته بالمنطق الذي ساد معسكرات الاعتقال والذي أدى الى ظهور علاقات من هذا النوع بين المعتقلين انفسهم .

كان الاستعمار في المناطق التي سميت — حتى استقلال اندونيسيا — باسم الهند الهولندية ، يقوم على ثلاثة نماذج من العلاقات مع السلطة التقليدية المحلية . فعندما كانت (الشركة) تحتل البلد كانت ترى نفسها « وريثة » للامراء المحليين ، وتفرض سياستها الاقتصادية ، دون وسيط . أما عندما كان الامير يبقى على عرشه ، بعد ان هزم وجرد من حقوقه ، فلم يكن يصبح الا تابعاً خاضعاً لأوامر الممثلين المحليين للحاكم . واخيراً ، فاذا بقي الأمير قوي الجانب ، حتى وان كان قد هزم من قبل ، فانه يحتفظ بسلطته السياسية ، ولكن « الشركة » تفرض عليه اتفاقات تجارية ، فاذا قاوم ، نظمت « الشركة » حملة تأديبية أو أقامت منافساً له .

الهولنديون في جنوب افريقيا :

كانت العناية الالهية ، او الصدفة ، (كيفما شئت) هي التي دفعت بالهولنديين الى الاستقرار في رأس الرجاء الصالح . كان البرتغالي ، دياس ، هو اول من وصل اليه في ١٤٨٧ . وجاء فاسكو دي جاما بعده في ١٤٩٧ ، وظل رأس الرجاء الصالح ، اسمياً ، من متعلقات التاج البرتغالي . ولكن ما ابداه البرتغاليون في تلك الفترة من عدم اهتمام بممتلكاتهم الافريقية ، شجعت

الانجليزي« دريك » في ١٥٨١ ، وشيلينج وفريتز هيربرت ، في ١٦٢٠ على ان يقيموا فيه منشآت لهم . ومع ذلك فلم تبق هذه المنشآت . وابتسم الحظ للهولنديين . فقد غرقت سفينة « هارليم » ، وهي من سفن « شركة الهند الشرقية » في ١٦٤٨ ، في طريقها الى ارخبيل الملايو ، وذلك في خليج « تابل » حيث اقام بحارتها اكثر من عام . وعندما عاد البحارة الى هولندا صوروا ذلك الموقع وظروف الحياة فيه تصويراً بلغ من حماسته وتوقده ان قررت « الشركة » على الفور ان تقيم فيها موقعاً دائماً .

وفي ١٦ ابريل ١٦٥٢ جاءت ثلاث سفن : جويدي هوب ، درومیدارس ، وريبجر ، بقيادة احد مديري « الشركة » ، يان فان ريبيك ، فألقت بمراسيها في خليج تابل . كانت اهداف هذه المستعمرات الأولى محدودة ، واكتفى الرواد « بتشييد ميناء صغير والاحتفاظ باحتياطي من الماء العذب والاغذية الطازجة ، والحصول على ماشية اللحم من السكان الاصليين[1] » . لم يكن الرأس في ذلك العهد الا ميناء صغيراً « للتموين » على الطريق الذي يربط بين امستردام وباتافيا .

كانت كثافة السكان الاصليين — في جنوب افريقيا — في المرحلة التي حط فيها الهولنديون رحالهم ، متنوعة وكبيرة وان لم تكن شديدة . كان البوشمن الذين يعود اصلهم الى جنوب شرقي آسيا ، قد هاجروا من منطقة البحيرات الكبرى ، في اتجاه جنوب افريقيا بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر . وكانوا في تلك الفترة قد استطاعوا ان يصلوا الى انتاج رسومات على قدر من الجمال والروعة وان لم يبلغوا الا مستوى بدائياً من الحياة . وجاء الهوتنتوت من الشمال عن طريق المحيط الاطلنطي ، في خلال القرن الخامس عشر ، وكانوا مزارعين يربون الماشية . واخيراً فقد كان البانتو ، وهم اعضاء الاسرة الكبيرة من الافريقيين السود الذين يعمرون كل افريقيا الوسطى والشرقية ،

(١) جان آلان ليسور : جمهورية جنوب افريقيا .

والذين تنتظمهم قبائل شتى ، من المزارعين الذين عرفوا بالاضافة الى ذلك ، استخدام الحديد ، منذ القرن الخامس عشر . وصل البانتو[1] الى جنوب افريقيا في نفس الوقت تقريباً الذي وصل فيه الهولنديون وان لم تنعقد العلاقات الاولى بين المهاجرين البيض والسود الا في بداية القرن الثامن عشر . وهذه هي الظاهرة التي تقوم عليها اليوم دعوى البيض في الاستئثار بملكية الأراضي والسيطرة السياسية .

أنشأ ريبيك النواة الاولى للادارة الاستعمارية ، اذ اقام حاكماً يساعده مجلس معين وبيروقراطية محلية ، ويشرف عليهم ، بدورهم ، مراقب من جانب « الشركة » . وتألف السكان البيض الأول من موظفي « الشركة » القدامى ثم من المهاجرين الهولنديين والالمان والاسكندنافيين ، وفي ١٦٨٨ ترتب على « الغاء منشور نانت » تدفق عدد كبير من الهيجونوت الفرنسيين الذين زادوا من السكان البيض في جنوب افريقيا . وبلغ عددهم نحو ١٦ ألف ابيض في ١٧٩٥ .

مرت العلاقات بين الهولنديين والسكان الاصليين بمراحل مختلفة . استطاع الزراع البيض الذين كانوا يقيمون حوالي كيب تاون (الرأس) ان يخضعوا الهوتنتوت بسهولة ، ولكن اصحاب قطعان الماشية الذين غامروا فدخلوا اقاليم البانتوفي في القرن الثامن عشر ردوا على أعقابهم على الفور . وترتبت على هذه المواجهة الحروب الاولى التي استمرت نحو عشر سنوات (١٧٧٩ — ١٧٨٩) واثبت فيها الهولنديون انهم على وحشية لم يسمع بها من قبل . كان الهولنديون ينفرون من الزواج المختلط (لا نكاد نجد اليوم الا عدداً نادراً من المخلطين او الملونين من بينهم) ومن ثم فقد اختاروا طريق الابادة والقتل الجماعي بدلاً من الاختلاط .

ومع ذلك فقد ادرك المستعمرون — بعد ان فتحوا هذه الأراضي — ان

(١) بانتو هي جمع كلمة مونتو التي تعني الرجل أو الكيان الميتافيزيقي .

عمل الأيدي العاملة البيضاء انما كان يعني في الواقع : « القصور ، والكسل ، والنفقات الباهظة »[1] وهو اعتراف لن يجرؤ المستعمر بعد ذلك ان يدلي به ، فان نظريته تقوم على « الكسل الذائع الصيت الذي ينسبه الى الزنوج » .
ولعلاج ذلك القصور والكسل الذي ثبت من جانب البيض قررت الادارة ان تستخدم العبيد . ومنذ ١٦٥٨ جيء ببضع مئات من السود ومن الآسيويين ومن الملاويين والملجاشيين ، لكي يعملوا في المزارع . أما الهوتنتوت فقد استولى عليهم المستعمرون بالقوة في مكانهم . وبلغ عددهم ١٧ ألف في نهاية القرن الثامن عشر . واتخذ الحاكم فاندر ستيل بعض الاجراءات ووضع لهم أحكاماً معينة كانت تنطوي على حالات من العتق بالنسبة « للمسيحيين الطيبين » او « لذوي السلوك الحميد » فيا له من كرم عظيم . ! وعلى الرغم من ان المستعمرين قد تملكوا الأرض ، وحصلوا على الأيدي العاملة مجاناً ، فقد لقوا فشلاً ذريعاً في ميادين متعددة : تربية دودة القز ، زراعة اشجار الزيتون ، والطباق ، ... الخ . وعلى العكس من ذلك جاءت المحاصيل الزراعية مثل الحبوب ، والعنب ، وأشجار الفاكهة ، كما جاءت تربية الضأن والبقر بنتائج ممتازة . ولكن رفاهية المستعمرين كانت تحدها القواعد والقوانين الصارمة التي كانت تضعها « الشركة » . كانت هذه القواعد تعوق التجارة والانتاج وتثقل التبادل التجاري بضرائب فادحة . وحاول المستعمرون عدة مرات ، في ١٦٧٥ ، و ١٧٠٠ ، ١٧١٧ ، ١٧٧٩ ان يحصلوا على الغاء لهذا التشريع الذي كان يشل نشاطهم . كان موقف المستعمرين ، بما يتضمنه من مطالب ، يؤدي الى حدوث اصطدامات كثيرة وخطيرة مع الادارة . ولا يفوتنا هنا ان نلاحظ ظاهرة سوف تتضح بعد ذلك في الجزائر في خلال الفترة الاستعمارية ، وتظهر اليوم في روديسيا . عندما كان الحكام والادارات على قدر كبير من الصرامة والدقة في تنفيذ سياسة استردام كان الصراع ينشب بينهم وبين المستعمرة .

---

(١) جان آلان ليسور : جمهورية جنوب افريقيا .

اما عندما كانوا على العكس اكثر إدراكاً وتلبية لمصالح المجتمع في المستعمرة ، والمتطلبات المحلية فيها ، فقد كانوا ينضمون الى المستعمرين في رفض ما تمليه عليهم « الشركة » والسلطة المركزية . وبذلك كانوا يغامرون بأن يحدث انفصال للمستعمرة عن العاصمة . واياً كان الأمر فان هذا التعارض الذي كان نشطاً تارة ، وكامناً تارة اخرى ، قد ترتب عليه ، من ناحية ، التعجيل بهجرة المستعمرين الى داخل البلاد ، بعيداً عن متاعب الادارة ورقابتها ، كما ترتب عليه من ناحية اخرى اضعاف طاقة المستعمرة على مقاومـــة تغلغل المنافسة الانجليزية . وبالفعل ظهرت الامبريالية البريطانية ، أداة للدولة في أوج ازدهارها في ١٧٩٥ ، واخضعت المستعمرة الهولندية في جنوب افريقيا دون كبير عناء .

مصير جزيرة :

كان الشعب البريطاني شعب تجار وملاحين ، مثل الهولنديين ، ولكنه كان يجمع بين هاتين الصفتين بطبيعة مزاجه وتكوينه ، وبالضرورة الصارمة كذلك . فقد كان على وعي حاد بانعزاله في جزيرته . ان ما كان مهمة ورسالة عند البرتغاليين والفرنسيين والهولنديين والاسبانيين —أصبح عند الانجليز حاجة حيوية . فان البحر يملي شروطه على وجودهم ، وهو طريق النجاة الوحيد المفتوح أمامهم . ان انجلترا لا تكفي نفسها بنفسها بأية حال من الاحوال فيجب الحصول على المواد الاولية مما وراء المحيط ويجب ان تستبدل بها المواد الغذائية عيناً او نقداً . ومن ثم فيجب ان يكون الانجليزي تاجراً ، ولكي يكون تاجراً لا معدى أمامه عن أن يكون ملاحاً .

وحتى ارتقاء اليزابيث العرش ، كان النشاط البريطاني التجاري يقتصر على اوربا حيث كان ينافس فيها نشاط العصبة الهانسياتية . ولكن الانجليز سرعان ما احسوا بالحاجة الى الرسملة . كانوا يشاركون في الرأي الشائع في ذلك العصر القائل بأن قوة امة انما تقاس بكمية النقود المتراكمة عندها . « وهكذا كانت المحاولات الاولى في سبيل الاستقرار في امريكا تهدف إلى البحث فيها عن

مناجم المعادن الثمينة . ولقيت هذه المحاولات الفشل[1] . وقد اثبت مثال هولندا مع ذلك أن التجارة الخارجية يمكن أن تأتي بعائد افضل .

اعتمدت انجلترا في البداية على « الأقاليم المتحدة » فاشترت منها منتجات الشرق وخاصة التوابل . ولكن لم لا تتخلص من رابطة الاعتماد هذه اذ تتزود بما تحتاج اليه من المصدر مباشرة ، وتحصل على المواد الخام بأسعار زهيدة على ذلك النحو ثم تعود فتصدر المنتجات المصنوعة المرتفعة القيمة ؟ ولم لا تحصل بالاضافة الى ذلك على المنتجات المدارية « مباشرة » من مصادرها ثم تعود فتصدر جزءاً منها ؟ « اذا كانت السلع القومية المصدرة تتجاوز في قيمتها المنتجات الأجنبية المستوردة ، فان تلك قاعدة مطلقة تصبح المملكة بمقتضاها غنية ومزدهرة ، تتوفر فيها السلع ذات القيمة ، لان الفائض يجب — بالضرورة أن يدخل في نطاق الاحتياط . » كما كتب الاقتصادي ميسيل دين في ١٦٢٣ ، وأضاف الى ذلك يقول : « ولو كان الأمر غير ذلك لأصبحت التجارة عملية تنطوي على أكبر الخراب وتؤدي حتماً الى دمار الدولة »[2] .

كان الانجليز مقتنعين بذلك كل الاقتناع ، بل كانوا مقتنعين به قبل أن يكتبه ميسيل دين . مما يفسر انشاء شركة الهند في ١٦٠٠ ، ومع ذلك فانه كان قد عهد بانشاء شركة « ذات ميثاق » منذ ١٥٨٤ الى هـ . جلبرت ثم و . رالييه وهي التي أصبحت في ١٦٠٦ « شركة فرجينيا » بغرض استعمار امريكا الشمالية . وهكذا اقيم المحوران الرئيسيان في الاستعمار البريطاني . يمر أحدهما بآسيا ، ويمر الآخر بأمريكا . لقد ظهرت الشركات ذات الميثاق نتيجة لعجز الدولة عن ان تتولى مسئولية استعمار الأراضي الجديدة ، كاملة . كانت الدولة ترعى ، عن طيب خاطر ، كل مبادرة فردية ، وكانت تمنح ميثاقاً لجمعيات المواطنين الراغبين في فتح اسواق جديدة للتجارة البحرية وتعطيهم

---

(١) هنري جريمال : تاريخ الكومنولث البريطاني .

(٢) اشار الى ذلك هنري جريمال في المصدر السابق .

احتكاراً قانونياً ضد نشاط المهربين . وكان الميثاق يحدد حدود الأراضي القابلـــة للاستعمار ، بالنسبة لكـــل شركة كما يحــدد الفترة الزمنية لنشاطها ، وطبيعة امتيازاتها . كان هذا الشكل من أشكال التنظيم ينطوي ، منذ ذلك الحين ، على النفور البريطاني من كل مركزية مسرفة ، كما ينطوي على ايثار مرموق للمشروعات التجريبية والفردية ، سوف تتولد عنهما في بداية القرن التاسع عشر ، الليبرالية الاقتصادية .

ومما ينطوي على دلالة ايضاً أن قواعد الاستعمار الانجليزي قد أرسيت في عهد اليزابيث ، اذ ان السياسة الاستعمارية لانجلترا سوف تحمل تلك السمة الاصلية خلال قرون طوال . كانت اليزابيث هي حامية الديانة الاصلاحية المتحمسة في الدفاع عنها ، ومن هنا جاء حقدها الذي لا هوادة فيها عـــلى فيليب الثاني « ملك الكاثوليكيين المخلصين » الذي كانت تطمع في امبراطوريته ، مما لم يلبث أن اثرى سلوكها الايديولوجي بمحتوى محدد . وفي هذا المنظور ، كان عام ١٥٨٨ عاماً رئيسياً : فهو العام الذي دمرت فيه الأرمادا « التي لا تقهر » . ومنذ تلك اللحظة انطوت صفحة سيادة اسبانيا البحرية ، واصبح « الاسطول الملكي » الانجليزي في طريقه الى الاستئثار بسيادة البحار قروناً طوالا . وان لم يكن العامل الايديولوجي هو العامل الحاسم . فان التضامن بين البريطانيين والهولنديين ، في الميدان الديني ، لم يحل دونهم وان يواجهوا بعضهم البعض ، بقسوة ، فقد كان الحرص على الربح عند الأمم البحرية هو الأقوى دائماً .

المستعمرات الامريكية :

انشأت انجلترا ، وفقاً لنظام الشركات ذات الميثاق ، لا مستعمرة واحدة — بل عدة مستعمرات في امريكا الشمالية من ١٦٠٧ الى ١٧٣٢ . وكانت اولى هذه المستعمرات هي المستعمرة التي انشأتها « شركة فرجينيا » . كانت اهدافها في البداية هي اكتشاف مناجم الذهب والوصول الى « بحر الجنوب » . ولم

يتحقق الهدف الاول قطّ، ولكن المستعمرين اسسوا مدينة « جيمس تاون » (التي اطلق عليها هذا الاسم تكريماً لجاك الأول) . وفي ١٦٢٠ انزلت « ماي فلاور » المئتين من ركابها « الآباء الحجاج » البروتستانت التطهريّين الذين كانوا قد لجأوا قبل ذلك الى « الأقاليم المتحدة » . واستقروا ، دون ميثاق في بلايموث وأسسوا نواة ما سوف يصبح فيما بعد ولاية ماساشوستس .

منذ ان ارتقى عرش انجلترا جاك ستيوارت الاول اعيدت للديانة الكاثوليكية حقوقها . ومن ثم اضطهد البروتستانت . وفر هؤلاء من حملات الانتقام ، فهاجروا من بلادهم واخذوا يستقرون عادة في شمال امريكا الشمالية . بينما كانت الشركات ذات الميثاق ، تحت رعاية الحكم الملكي ، تؤسس مستعمرات كاثوليكية في الجنوب ، وهكذا انشئت فرجينيا ، وميريلاند (التي كرست للعذراء مريم) ، والتي اسسها لورد بالتيمور . وجاءت جماعة جديدة من المتطهرين . هرباً من اضطهادات لود ، في سنة ١٦٣٢ ، لتستقر في الشمال ، بالقرب من حجاج ماي فلاور ، واسسوا معهم مستعمرة ماساشوستس . ولكن التعصب السائد بينهم ادى الى ظهور انفصالات ، فأنشأ الساخطون مستعمرتين جديدتين في رودز آيلاند ، وكونيكتكات . وعندما انتصرت الثورة التطهرية التي قام بها كرومويل في انجلترا ، وقطعت رأس الملك شارل الأول ، هرب الكاثوليكيون الذين طردوا بدورهم ، الى أمريكا ولاذوا بمستعمرات الجنوب .

وعند عودة الملكية ، خصص شارل الثاني اقليم كارولينا ، في الجنوب ، لثماني شخصيات كبيرة يحفزها ، فيما يقولون ، الحماس والورع ، في سبيل نشر الايمان »[1] . والواقع انه كان يحفزها الظمأ الى الربح . أدخل هؤلاء الاشراف العظماء نظام المزارع ، والعبيد ، ومجتمعاً يقوم على التسلسل الهرمي

(١) هنري جريمال : تاريخ الكومنولث البريطاني .

الكبير . مما يختلف اكبر اختلاف عن المجتمع الذي قام في الشمال .ومع عودة الملكية ايضاً ، قامت مجموعة مثالية من المستعمرات ، بين الشمال والجنوب ، وان كانت تمت بصلة الى الشمال ، ونمت على الاخص بعد الاستيلاء على نيو امستردام في ١٦٦٤. وهي مستعمرات : نيويورك ونيوجرسي وديلاوار ، (مستعمرات سويدية استولى عليها الهولنديون في ١٦٥٥ وتخلوا عنها للانجليز في ١٦٦٧ ، بمقتضى معاهدة بريدر) ومستعمرة بنسلفانيا (التي اسست في ١٦٨١ ، على يدي ويليم بن ، بغرض إيواء زملائه في الدين « الكويكرز » الذين كانت انجلترا تضطهدهم) . وكانت مستعمرة جورجيا من آخر المستعمرات ، وقد أسست في جنوب امريكا وحملت اسم جورج الأول ملك انجلترا منذ ١٧١٤ .

منذ نشأة الاستعمار ، ظهرت إذن اختلافات أساسية تفرق بين الشمال والجنوب : اختلافات في السكان وفي الاصل الديني . فقد كان التنظيم ، في الجنوب ، ارستقراطياً ، بينما كان ديمقراطياً في الشمال . وكانت الأراضي في الجنوب اوسع بكثير واقل سكاناً عنها في الشمال . وكانت المدن في الجنوب نادرة . والملاك العقاريون الأغنياء أكثر منهم في الشمال ، وكانت اساليب الاحتلال واستثمار الأرض تختلف عنها في انجلترا الجديدة حيث كان الاحتلال اكثر تركيزاً والاستثمار اكثر اتساعاً . وفي الجنوب كانت الايدي العاملة السوداء المستوردة من افريقيا والتي كانت تجارة الرقيق ما تفتأ تجددها ، كبيرة . بينما كان البيض انفسهم يزرعون الأرض في الشمال . وفي الجنوب كان السود أكثر عدداً من البيض منذ القرن الثامن عشر . وكان فيه من العبيد اكثر من الاحرار . ونمت في الجنوب تربية الماشية وزراعة الطباق والأرز والنيلة ، في انتظار زراعة القطن التي اتت بعد ذلك . ومع ذلك فقد كانت المستعمرات الثلاث عشرة الاولى – اياً كان وضعها – (سواء كانت مستعمرة من مستعمرات التاج ، او احدى ملكيات الحكومة ، او مستعمرة ذات ميثاق) كانت تشترك جميعها في انها تصدر عن نفس خصيصة الاستعمار

(الزراعي أساساً) وانها كانت تعتمد على العاصمة البريطانية .

كانت طبيعة الاستعمار الانجليزي تفرق بينه وبين كل استعمار آخر ، على وجه الدقة . فقد كانت اسبانيا والبرتغال ، في الواقع ، قد فتحتا امريكا الوسطى وامريكا الجنوبية قبل ان تستعمراها . اما الانجليز فقد استعمروا اقاليم ضيقة الرقعة نسبياً ، قبل ان ينتشروا تدريجياً ووفقاً لاحتياجاتهم .وهم اذ كانوا يفعلون ذلك ، ألم يكونوا يلبون مقتضيات الروح البراجماتية العملية التجريبية التي يمتاز بها الانجلو — سكسونيون ، بينما كان الاسبانيون والبرتغاليون يتبعون ما تمليه عليهم الروح اللاتينية ؟ هذا الى ان الهدف الاساسي للفتح الاسباني او البرتغالي (بل والفرنسي) كان دائماً هو السعي وراء المنفعة المباشرة الفورية (من الذهب) . فلكي يحصلوا عليها كان لا غنى لهم عن عون اهل البلاد الاصليين ، فاختلطوا بهم ومن ثم نشأ اختلاط الانساب . ومن هنا جاء نوع من التكافل العضوي . ولم يحدث من ذلك شيء في الاستعمار البريطاني . فلم يكن المستعمرون الأوائل ظامئين الى الذهب بل الى ما يأتيهم به : اراض خصبة للزراعة وتربية الماشية . ومن هنا جاءت صورة انتزاعها بالقوة من حائزيها الطبيعيين ، اهل البلاد الاصليين . وترتب على ذلك قيام حروب مستمرة ، ثم القضاء على قبائل بأسرها ، وأخيراً إبادة شعب بأكمله . فكيف نتصور ، في هذه الظروف ، اي شكل من اشكال العلاقات بين القاهر والمقهور ؟ ومن هنا جاءت تقاليد التفرقة العنصرية . كانت المستعمرات الامريكية ، عند انجلترا ، لا تمثل الا جزءاً ضئيلاً من نظامها التجاري الذي يتجه الى تحويلها الى أجزاء تابعة اقتصادياً للعاصمة ، مخصصة لتزويد تجارتها القائمة على التصدير والاستيراد ، ولتشجيع صناعتها ، وباختصار لضمان أرباح كبيرة لها . كان استقرار المستعمرين الاول في امريكا لا يبدو مما يحقق مصلحة من وجهة نظر انجلترا فقد كان يُخشى أن يترتب عليه افقار للعاصمة . ولكن المسألة كانت أمراً واقعاً ، لقد استمر المشردون يصلون الى امريكا ويعمرونها بلا كلل ، وعلى ذلك فقد رأت انجلترا أن

تحول الحركة « الى مصلحتها » . كانت للمستعمرات الامريكية ميزة مزدوجة ، فقد كانت تملك اقتصاداً متكاملاً مع اقتصاد انجلترا . وتمثل في نفس الوقت سوقاً جديداً لمنتجاتها . وان كان ينبغي ، حرصاً على استثمار هذه الميزات بشكل يعود بالربح ، ان ترغم المستعمرات على الاتجار مع الوطن الأم . وهو ما حدث . كانت القيود في البداية لا وجود لها . فلم يكن الاقتصاد الاستعماري ذا قيمة ما على الاطلاق . ولكن اجراءات التحكم والتقييد اخذت تزداد صرامة منذ ١٦٥٠ بل وصلت احياناً الى درجة التضييق فثارت ماسوشيستس مرتين ، في ١٨٦٤ و ١٦٨٩ ، فالغي دستورها . وفي ١٧٥٠ حظر البرلمان البريطاني على المستعمرين الامريكيين تنمية بل انشاء صناعة الحديد .

ولم تطق المستعمرات هذه القيود ، وان كانت ثم أخطار اقرب واكثر إلحاحاً دفعتها الى احتمال محنتها في صمت . كان ثم خطران رئيسيان يأتيان أحياناً في نفس الوقت بل يأتلفان معاً : الخطر الهندي والخطر الفرنسي . وكان المستعمرون ما زالوا بحاجة ، بازاء هذين الخطرين ، الى نجدة الجنود البريطانيين . كان الفرنسيون الذين استقروا ووطدوا مراكزهم في كندا وفي لويزيانا يهددون بحصار مستعمرات التاج تهديداً مستمراً . وامكن التغلب على هذا الخطر ، بفضل التفوق العددي للانجلو — امريكيين والتفوق البحري لبريطانيا العظمى . أما الخطر الهندي فقد قضى عليه الى حد كبير نتيجة لاختفاء الخطر الفرنسي نفسه الذي كان مرتبطاً به وبفضل الابادة المنهجية المنظمة للهنود « الحمر » .

وعندما استتب السلام نتيجة لمعاهدة باريس في ١٧٦٣ ظهرت الشقاقات بين الوطن الأم والمستعمرات ، ولم يعد المستعمرون يتحملون بصبر وجود الجنود الانجليز على أرضهم ، فلم يعودوا يرون لهم من فائدة بعد . اما انجلترا التي أثقلتها هذه الحرب باعباء جسيمة فقد كانت ترى ان لها كل الحق في أن تفرض على المستعمرات ما تراه . وكانت حريصة من ناحية اخرى على أن

توثق علاقات التبعية التي كانت قد تراخت بين اقاليم ما وراء البحار والعاصمة ، ورفضت فوق ذلك أن تعترف بالمواطنين الامريكيين الجدد الذين جاءوا على الأغلب من نسل المجرمين المحكوم عليهم والاشخاص غير المرغوب فيهم ، باعتبارهم « انجليزاً خلّصاً » . فيئس هؤلاء من ان يصلوا في يوم من الأيام الى أن يكونوا « انجليزاً » ، وقبلوا في النهاية أن يكونوا امريكيين فقط ، ولكنْ امريكيين متمتعين بالسيادة . ونشأ باطراد جوٌّ مواتٍ للانفصال نتيجة لهذه الأوضاع ، دون ان ننسى اهم ما كان يشكو منه المستعمرون : حظر الاتجار مع دول اخرى غير انجلترا ، بما يقتضيه ذلك من حركات تهدف الى المطالبة بشتى الحقوق . وهو ما حدث في ١٧٧٦ : حرب الاستقلال . ونلاحظ ان سياسة التدخل الاقتصادي القائمة على العسف والتضييق والتي كانت تمارسها انجلترا في مستعمراتها الامريكية مشابهة للسياسة التي تمارسها الولايات المتحدة اليوم في كثير من انحاء العالم ولكن على الأخص في امريكا اللاتينية . وفقدت انجلترا المستعمرات الثلاث عشرة في امريكا الشمالية ولكنها احتفظت مع ذلك بكندا وجزر الانتيل (جزر الهند الغربية) . كانت جزر الانتيل الصغرى قد احتلت في البداية بين ١٦٢٠ و ١٦٣٠ على يدي القراصنة الانجليز « كلاب البحر » الذين اسهموا في تدمير « الارمادا التي لا تقهر » والذين كانوا منذ ذلك الحين يهاجمون كل سفينة ترفع العلم الاسباني . وفي خلال القرن السابع عشر كله وجزء من القرن الثامن عشر كانت الأمم التي لها مصلحة في المجال الامريكي (اسبانيا ، والبرتغال ، وهولندا ، وفرنسا ، وانجلترا) تفيد من خدمات هؤلاء القراصنة لتعرض النقص في بحريتها الحربية . لم يكن القراصنة يواجهون بعضهم البعض الا نادراً ، ولكنهم كانوا يفضلون ان يستولوا على السفن التجارية وعلى السلع التي يملكها العدو . ولا شك ان هذا النشاط ترتب عليه اثراء القرصنة بشكل اساسي ولكنه أيضاً ادى خدمات كبيرة للامم التي كان هؤلاء القراصنة من رعاياها وهي امم لم تتردد إذا اقتضى الأمر ان تعهد اليهم رسمياً بمهام الحرب . وهكذا استولى القراصنة الانجليز على سان

كريستوف ، ونيفيس ، وبابروس ، ومونتسيرا .

وفي ١٦٥٥ استولى اسطول كرومويل على جامايكا على أثر هجوم مباشر . واعترفت إسبانيا في معاهدة مدريد في ١٦٧٠ بشرعية الفتوحات الانجليزية في « البحر الكاريبي » وعرفت هذه الجزر على الفور موجة متدفقة كبيرة من هجرة البيض فقد كانت تتوفر فيها الظروف المثالية لاقامة مستعمرات للزراعة . كان في باربروس ٣٠ ألف مستعمر عام ١٦٤٠ ، و ٢٠ ألف مستعمر في سان كريستوف ، وكان في جامايكا ٥٠ ألف مستعمر في ١٦٦٠ . ومع ذلك فقد فشلت سياسة التعمير بالسكان البيض لان اصحاب المزارع لم يكونوا يريدون أن يلحقوا البيض بالعمل ولم تكن لديهم أراض يتعاقدون معهم على زراعتها وكانوا يستطيعون ان يلحقوا ثلاثة عبيد سود بمزارعهم بثمن عامل واحد أبيض .

ومن ثم فقد ارتبط تقدم جزر الهند الغربية منذ تلك الفترة ارتباطاً وثيقاً بتقدم ورواج تجارة العبيد . واصبحت تجارة الرقيق ، منذ منتصف القرن السابع عشر هي النشاط الجوهري للتجار الانجليز و « مصدراً لا مثيل له من مصادر ثروة الأمة[1] » . كان هوكنز في الواقع هو الذي بدأ التجارة الانجليزية في الرقيق ، في العصر الاليزابيثي ، من افريقيا الى جزر الانتيل . ووصفت اليزابيث هذا النشاط ، من ناحية ، بأنه : « بغيض من شأنه أن يستنزل انتقام السماء » ولكنها من ناحية اخرى رفعت هوكنز الى مصاف النبلاء ، أول مثال من امثلة النفاق الاستعماري ! وقد عهد بالتجارة في البداية الى تجار أفراد ولكن شركات عديدة حصلت بعد ذلك على ميثاق للتجارة مع سواحل افريقيا ، لتجنب المنافسة بين تجار الرقيق وبالتالي هبوط سعر البضاعة . وكانت اشهر هذه الشركات هي « الشركة الافريقية الملكية لانجلترا » التي اسست في ١٦٧٢ .

---

(١) هنري جريمال : تاريخ الكومنولث البريطاني .

ثروات الهند :

على اثر انشاء « شركة الهند » التي أصبح لها في ١٦٠٠ احتكار التجارة مع الهند الشرقية لمدة خمسة عشر عاماً كما أصبح لها حق الملكية الكاملة في الاراضي التي يمكن أن تقتنيها ، اصبح التوسع الانجليزي في الهند ، في البداية ، توسعاً تجارياً بحتاً . واوفد توماس رو سفيراً له حصل في ١٦١٦ من الموغول الاكبر على تصريح للانجليز بان يستقروا في أراضيه وان يقوموا بالتجارة فيها . قصرت « شركة الهند » نشاطها التجاري على القارة الهندية وامتنعت موقتاً عن كل خطوة تؤدي الى استيلاء على الارض . وفي ١٦٣٩ اسست مدراس ، وفي ١٦٥٨ كلكتا وفي ١٦٠٢ بومباي . ولم تكن في البداية الا مجرد مرافق تجارية . كانت السفن الآتية من انجلترا تحمل الحديد والمعادن الثمينة ، وتعود محملة بالتوابل والحرير والانسجة الهندية وعادت هذه التجارة على الشركة بارباح كبيرة (١٠٠ — الى ١٥٠ — من الرأسمال العامل في ١٦٤٠) ولا شك أن الانجليز ما لبثوا أن ضاقوا صدراً بالمنافسة الفرنسية وخاصة في عهد ديبلييه . وعندما استدعي هذا الاخير الى فرنسا في ١٧٤٥ عاد اليهم التفوق . وفي ١٧٦١ قضي على القوات الفرنسية وسقطت مواقعها ، وجاءت معاهدة باريس (١٧٦٣) فصدّقت على انتصار انجلترا : ولم تبق ذكريات الوجود الفرنسي في الهند الا في خمس مرافق تجارية فقط . ومنذ تلك اللحظة دقت ساعة ميلاد الامبريالية في لندن .

كان الرجل الذي قرر المصير الاستعماري البريطاني في آسيا يسمى كلايف . جاء الى الهند في اللحظة التي كانت فيها امبراطورية الموغول الاكبر تتفكك ويتنازع على فتاتها الامراء المحليون ، فاستطاع كلايف ان يفيد من المنافسات بين الاقطاعيين وان يحصل على تأييد الرأسماليين الانجليز الجدد الذين اثروا من الصفقات المعقودة مع الاوروبيين . اسهم هؤلاء الرأسماليون في انتصار انجلترا في بلاسيي فقد اشتروا القواد العسكريين الذين كانوا يقودون جيش

ناباب البنغال ، فرفض هؤلاء القواد ان يقاتلوا قوات كلايف . وفي مقابل ذلك وضعت الشركة احدهم وهو أمير جعفر على عرش البنغال . ودفع هذا الانتصار الأول كلايف الى مواصلة حركة التوسع . وقد كتب في هذا الصدد : « حانت اللحظة التي كنت انتظرها منذ زمن بعيد حيث يتعين علينا ان نقرر ما اذا كنا نريد أن نحصل على كل شيء لحسابنا ، او لا نريد . ان امبراطورية الموغول الاكبر يمكن ان تكون غداً تحت حكمنا ... ويجب أن نكون نحن الحكام » .[1]

كانت إدارة البنغال ، كما يقول بانيكار ، « تشبه مشروعاً هائلاً للسلب والنهب » وطلب كلايف من حاكم البنغال الجديد مبلغ ١٧,٧ مليون روبيه احتفظ لنفسه منها بـ ٢,٣ مليون جنيه بالاضافة الى ايرادات دولة جاجهير اي ٢٧٠ ألف جنيه سنوياً (حسب القيمة في ١٩٥٩ [2]) . واحتذى وكلاء الشركة حذو هذا النموذج الرائع ، واستفادوا منه لكي يكونوا لانفسهم ثروات طائلة . ومع ذلك فقد استمر التغلغل جنباً الى جنب مع التنظيم الاداري . وعدل الغزو تعديلاً خطيراً من طبيعة التجارة التقليدية . فحتى ١٧٥٦ كان وكلاء الشركة يهتمون بالتجارة من الهند وفي الهند نفسها ، لحساب الشركة . ولكن الغزو ترتبت عليه نفقات عسكرية وإدارية تفوق الايرادات وان كانت هذه الايرادات قد زادت زيادة ملحوظة . وتعرضت الشركة لخطر التدهور . فوسعت من نطاق تجارتها ، حتى تبقى على قيد الحياة ، الى الصين ، وخاصة عن طريق تصدير الافيون . وفي مقابل ذلك كانت ارباح وكلاء الشركة لا تكف عن التزايد وكان هؤلاء يحولون بانتظام رؤوس أموال كبيرة الى لندن . واستنزفت الهند استنزافاً . من اكثر التقديرات تواضعاً في هذا الشأن ان ١,٨ مليون من الجنيهات كانت تحول سنوياً في خلال ١٧٨٣ الى ١٧٩٣ ،

---

(١) كما اشار الى ذلك هنري جريمال : تاريخ الكومنولث البريطاني .

(٢) ج . ستراشي : نهاية الامبراطورية كما اشار اليه هـ . جريمال .

ومن ثم فان الحساب الختامي ايجابيّ بالنسبة للمستعمر ولكنه عاد بالكارثة على المستعمرين (بفتح الميم) ، مما اختتم في نهاية القرن الثامن عشر المرحلة الاولى من الاستعمار البريطاني . واذا كانت العملية الاستعمارية الانجليزية قد ظهرت متأخرة في التاريخ وكانت بطيئة في حركتها فانها مع ذلك كانت هي الاكثر فعالية والاكثر استمراراً والاقل تعرضاً للانحسارات . ولم تتوقف الامبريالية البريطانية ، من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين ، عن أن تتسع وتمتد حتى شملت اكبر واضخم امبراطورية في العالم .

ولكن الانجليز كانوا ايضاً هم أول من فهموا ان المستعمرات لا تمثل منفعة ما الا بقدر ما تندمج في أداة الاثراء المستمر للوطن الأم اذ تزوّد الصناعات الوليدة بما تحتاجه من مواد خام وتكوّن في نفس الوقت اسواقاً لتصريف منتجاتها . وبتطبيق هذه الفكرة افتتح البريطانيون عصر الاستعمار الحديث .

٤. تجارة الرقيق تضرب ضربة مزدوجة

عبودية تختلف عن عبودية :

كان الأمر يتعلق بالذهب (ذهب غينيا) في الصفقات التجارية اللويزيتانية الاولى مع افريقيا ، ولكنه كان يتعلق ايضاً بالسائمة البشرية . وكان يقع مصدرها الأساسي للتوريد في مصب نهر زاييرا (الكونغو) ، في منطقة تتفق الآن تقريباً مع منطقة أنجولا . ولنسلم بادىء ذي بدء ان العبودية لم تكن تبدو في اعين البرتغاليين ولا في أعين غيرهم من الاوروبيين منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر باعتبارها مؤسسة مكروهة العاقبة . فان المسيحية لم تنجح قط في القضاء عليها بعد ان ورثتها من العالم القديم . ومع ذلك فان هناك ما يدعو للتفرقة بين العبودية القائمة على التكافل العضوي والعبودية الطفيلية .

إن العبودية القائمة على التكافل العضوي تبدو بالمقارنة الى العبودية الثانية هينة الجانب نسبياً . وقد وجدناها في اقدم انماط المجتمعات في العالم القديم . كانت ظاهرة فردية اكثر منها جماعية . وكانت تمثل « الملاذ » لكل انسان مهدد ، أنّى جاء هذا التهديد ، وسواء ترتب على الحرب أو الفقر او الجوع . ومن ثم فيمكن اعتبار العبودية ، بمعنى من المعاني ، وضعاً يتوفر فيه قدر أكبر من الأمن ، اذ انه يقوم على « تلك الحاجة التي يحسها الفقير نحو الغني ويحسها الغني نحو الفقير » وهي الحاجة التي « تخلق من يقومون بالخدمات » كما قال

فيستيل دي كولانج . كان من الواضح أن أحد الحوافز التي دعت الى ظهور « العبودية القائمة على التكافل العضوي » هو الجوع الذي يحمل الرجل إذ ينضب معين دخله الى البحث عن ملاذ عند رب العائلة القديم أو صاحب الثروة . وكان هذا الاخير يقبل العبد في بيته ، فيقبل بذلك الواجبات التي تترتب على ذلك العبء ، ذلك ان الالتزامات لم تكن من جانب واحد فقط . كان السيد مديناً لخادمه بتوفير الخبز والمأوى . فاذا لم يستطع ان يوفر أحدهما اختفت روابط العبودية بحكم الأمر الواقع . بل قد حدث ان كان السيد يتنازل عن حقوقه وان كان يلتزم بواجباته . وعلى ذلك تزايد عدد العبيد المعتقين ، في عهد روما الامبريالية ، وانضموا الى صفوف اولئك الذين كانوا يطالبون سادتهم القدماء كل صباح بالغذاء والالعاب .

كانت الحرب ايضاً من مصادر « عبودية التكافل العضوي » فقد كانت الحرب تتيح للمنتصر ان يبقى على العدو التعس الحظ حياته بشرط الا تكون « حياة حرة » . فاذا كانت العبودية تظهر في كلتا الحالتين باعتبارها اهون الشرين ، فقد كانت يحكمها ، هنا وهناك ، قانون مشترك هو قانون الوصاية الابوية . ومن أفضل الامثلة على ذلك مثال روبنسون كروزو الذي خلّص « يوم الجمعة » من ايدي أكلة لحوم البشر . فقد عرف تاجر الرقيق القديم ، للمرة الاولى في حياته ، معنى العبودية القائمة على التكافل العضوي : « اقتنعت عندئذ اقتناعاً كاملاً بأن الفرصة كانت مواتية لكي أحصل على زميل ورفيق وان السماء كانت تدعوني بوضوح الى انقاذ حياة هذا الشقي التعس . واخيراً وبعد ان اشرت اليه ان يقترب مني للمرة الثالثة على نحو هو أدعى ما يكون الى بثّ الطمأنينة في قلبه ، غامر بذلك وهو يركع على ركبتيه كل عشر او اثنتي عشرة خطوة ، لكي يدلني على طاعته . وفي خلال هذه الاثناء كنت ابتسم طول الوقت بكل ما كان يسعني من عطف . واخيراً وصل بالقرب مني ، فألقى بنفسه على ركبتي وقبّل الأرض وأخذ احدى قدمي فوضعها على رأسه لكي افهم ، بلا شك ، أنه كان يقسم يمين الولاء والاخلاص لي ويدين لي

بالعبودية .. »[1] .

أما العبودية الطفيلية فقدكانت تشويهاً للعبودية القائمة على التكافل العضوي ، وانحرافاً بها : فالسيد هنا يعيش على حساب أسراه ، والعبد يصبح « بشراً سائمة » . كان أول منظّرى « البشر السائمة » فلاسفة المدرسة السقراطية . فالانسان ، وفقاً لتعريف أرسطو هو : « حيوان اجتماعي » . ولكن الناس لا يتمتعون بنفس الوضع في داخل المجتمع . يكوّن العبيد القاعدة المادية للجسم الاجتماعي : فالمدينة تستمد غذاءها منهم ، ولكنها لا تقوم بوظيفتها من أجلهم . ووضع العبد ، بهذا التحديد ، يماثل وضع العامل البروليتاري في القرن التاسع عشر في خلال المرحلة الاولى للتوسع الصناعي . ولا يقول مينيوس أجريبا شيئاً يختلف عن ذلك ، للعامة من الرومان ، في « خرافته » التي تصف الجسم الاجتماعي ، فهو يصف العاملين بانهم « ذراع هذا الجسم » ويصف السادة بأنهم « معدته » . فما من ثروة بغير عمل ، والعمل تتولد عنه بالضرورة عدم المساواة : هكذا يفهم ارسطو الأمر . فمن المهم عنده ان يعمل البعض لكي يستمتع الآخرون .

ان المجتمع الذي يدعو اليه أرسطو مجتمع قائم على الانانية أساساً : « ان فائدة الحيوانات الخاصة وفائدة العبيد هي تقريباً نفس الشيء : فكلاهما يساعدنا بقوته الجسمانية على تلبية حاجات الوجود ... وهكذا فان الحرب تصبح بمعنى من المعاني وسيلة طبيعية ، اذ أنها تتضمن تلك المطاردة التي ينبغي ان يقوم بها المرء سعياً لاقتناص الحيوانات المتوحشة والعبيد ، الذين ولدوا لكي يدينوا لنا بالطاعة ويرفضون مع ذلك ان يخضعوا ... ومن ثم فان العبودية وسيلة طبيعية من وسائل الاقتناء تشكل جزءاً من الاقتصاد المنزلي . وينبغي ان تتوفر العبودية لهذا الاقتصاد سواء كانت موجودة من قبل أو أوجدناها ايجاداً ، والا عجزنا عن توفير وسائل البقاء الضرورية لوجود الدولة او

(١) دانيال دي فو : روبنسون كروزو كما اشار اليه موريس لنجليه في كتابه (العبودية) .

العائلة » . [1]

فما من مجال للغموض على الاطلاق : العبد حيوان . لعله يتمتع بملكات اكبر ولكنه مع ذلك حيوان . ويجب أن يعامل معاملة الحيوان . كان كاتو ينصح ملاك المزارع (اللاتيفوندي) ان يحددوا غذاء العبيد على نحو صارم : « خمسة أرطال من الخبز منذ اللحظة التي يبدأون فيها حرث الارض حتى نضوج التين .. أما النصيب المحدد لهم بقية الوقت فينبغي أن يخفض الى اربعة ارطال » ويشير ارسطو واكسانوفون ، في رسالتيهما عن الاقتصاد ، ان الاسرى لا حق لهم في النبيذ ولكنهم يجب ان يتلقوا من سيدهم : العمل ، والغذاء ، والتوبيخ . وبعد ذلك بألفي سنة ، في القرن السابع عشر أيد انتونيل سلامة هذا الرأي ، اذ كان يزعم ان العبد في المزارع البرازيلية يحتاج الى ثلاثة أشياء : الخبز والعصا وقطعة من النسيج تكسو عريه .

ومع ذلك فاذا كان المرء يحرص على أن تبقى هذه المادة البشرية قائمة بعملها فقد كان ينبغي الاحتفاظ بها في حالة حسنة ، والعناية بها اذا لزم الأمر كما يعنى المرء بحمار أو ثور ، وان كان ذلك كما يحدده ارسطو تحديداً دقيقاً « لمصلحتنا اكثر مما هو لمصلحته » . ولم تنجح المسيحية قط حتى في عصر الكنيسة الاولى — سواء كانت غير راغبة في ذلك او غير قادرة عليه — في الغاء موسسة العبودية . كان العبد المسيحي ، بلاشك ، مساوياً من الناحية الروحية لسيده وهو ما تناقض المسيحية فيه نظرية « البشر السائمة » تناقضاً اساسياً على وجه الدقة . والكنيسة لم تسلم في اية لحظة بالمعادلة بين العبد والحيوان ، بل كانت تنصح السادة على العكس بعتق عبيدهم . ومع ذلك فان المسيحية لم تكن تعترض في الاصل ، على العبودية القائمة على التكافل العضوي . فقد أدان القديس بولس عصيان العبد لسيده . « عندما ابدى بعض آباء الكنيسة ، فيما بعد ، موافقتهم على ذلك النظام ، فقد كانوا يفكرون في العبودية المفيدة

---

(١) ارسطو : « السياسة » .

العائلية القائمة على التكافل العضوي »[1] . وذهب بوسويه الى ابعد من ذلك ، بمناسبة نزاعة مع جوريو الوزير البروتستانتي فقال : « ان إدانة هذا الوضع يدخل في نطاق المشاعر التي يسميها جوريو نفسه مشاعر مسرفة لا مبرر لها ، اي مشاعر اولئك الذين يجدون كل حرب جائرة ظالمة .. انه يعني لا ادانة حق الناس فقط ، حيث أن هذا الحق يسلم بالعبودية ، كما يتضح من كل القوانين ، ولكنه ايضاً ادانة الروح القدس الذي يأمر العبيد ، من فم القديس بولس ان يبقوا في وضعهم وآلا يرغموا سادتهم على عتقهم »[2] .

كان هذا الموقف الثاني من الكنيسة مواتياً لصناعة الرق . ففي كل مرحلة من مراحل تجارة الرقيق ، كان المعنيون بالأمر — أصحاب السفن والتجار الأوربيون وتجار العبيد وكبار الملاك في جزر الانتيل — يبررون نشاطهم بالرجوع الى شرعية « العبودية القائمة على التكافل العضوي » ، وان كانوا مدركين انهم يسهمون في الواقع في العبودية الطفيلية . وكان هذا الأسلوب في الاحتماء من العقوبات (الخلقية) ، وفي تبرئة الذمة ، باللعب على الكلمات ، اسلوباً له قيمته الكبيرة خلال القرون الاربعة التي استمرت فيها تجارة الرقيق . ومع ذلك فمن الممكن تفسير هذا العجز الواضح الذي ابدته الكنيسة اذا سلمنا بان العبودية كانت حتى القرن التاسع عشر عاملاً حاسماً في الاقتصاد العالمي . فما من جهد كبير للبناء يمكن ان نتصوره دون الأيدي العاملة من الرقيق ، وما كان من الممكن بدونها ان تتوفر ثروة ما . ولم تستطع الكنيسة قط ان تصل الى مركز من القوة يتيح لها ان تكافح بشكل فعال ضد التيار الذي لا يقاوم والذي دفع بالناس الى الغزو والربح بكل أشكالهما ، في خلال ذلك الزمن . هذا الى ان الكنيسة قد وجدت نفسها عاجزة عن العمل في أغلب الأحيان نتيجة لتواطئها الدائم مع السلطان الدنيوي وقوة المال .

---

(١) موريس لنجليه : « العبودية » .

(٢) بوسويه : « الانذار الخامس للبروتستانت بشأن خطابات الوزير جوريو أساس الامبراطوريات التي يقبلها الوزير » .

وبظهور الآلة اتضح أن فائدة الأيدي العاملة من الرقيق أخذت تشغل مرتبة ثانوية بل كادت تنعدم تماماً . حلت الآلة محل العبد باعتبارها اداة لا غنى عنها للاقتصاد ، ومن ثم فان أنصار تجارة الرقيق لا فضل لهم على الاطلاق اذ تحولوا في القرن التاسع عشر الى مناهضة هذه التجارة . ومع ذلك فان ظهور الآلة لم يكن علاجاً لكل شيء . ان القضاء على نظام الرق لم يترتب عليه بالضرورة القضاء على العبودية . وهكذا لاحظ انثيم كوربون[1] :
« وصل العمل الى آخر حد من التبسيط فحلت الآلة محل الانسان ، وتولى الانسان عملاً آخر اكثر تعقيداً اخذ بعد ذلك يقسمه ويبسطه حتى يجعل منه مهمة جديدة من مهمات الآلة ، وهكذا .. بحيث غزت الآلة ميدان العمل اليدوي شيئاً فشيئاً ودفعت بهذا النظام الى آخر حدوده ، فأصبحت وظيفة العامل عقلية أكثر فأكثر . ان هذا النظام المثالي يروق لي كثيراً ، ولكن الانتقال اليه شاق ووعر ، اذ ينبغي للعامل ، قبل ان يجد الآلة ، ان يصبح هو نفسه آلة نتيجة لتبسيط العمل ، وأن يعاني النتائج البغيضة لتلك الضرورة التي تقضي بحرمانه من كل ذكاء ... » .

واليوم ، عندما نجد أن الأوتومية تأخذ في تبسيط أعمال الانسان الى حد كبير ، وتهوّن من حياة العامل وتخفف من عبثها يبقى مع ذلك عدد من أوجه النشاط التي تحط بالكرامة ولا تنال الا جزءاً ضئيلاً ، لا يرضى اي غربيّ أن يقوم بها ، ولهذا فهي مخصصة « للبروليتان ـــ الدنيا » التي تأتي على الأخص من افريقيا . ان هذا الرق المستتر الذي يستمد رصيده من نفس الاحتياطي الانساني هو الثمرة المسمومة لذلك الحرص الاناني الوحيد الذي يشغل أوروبا باستمرار : حرصها على رفاهيتها وحدها ولو كان ذلك بثمن تدمير القارات الاخرى وانهيارها .

---

(١) كان عاملا ثم اصبح نائب رئيس الجمعية الدستورية في ١٨٤٨ ، واشار اليه جورج فريدمان في كتابه « تفتيت العمل » .

أصل العنصرية :

لقد اكدنا عدة مرات أن العالم القديم لم يكن يقيم مشكلة اختيار العبيد على معايير من الجنس او لون البشرة ، (فقد كان يوجد عبيد يونانيون ورومانيون) ولكن على معايير الضعف ، وسوء الحظ ، والفقر . وكان التصور الدارويني لتطور الأنواع الحيوانية ، عندما وضع على الصعيد الانساني في القرن التاسع عشر ، من شأنه أن يؤكد يقيناً راسخ الجذور عند انسان العالم القديم ، او العصر الوسيط ، الذي كان يفكر بشكل طبيعي أن « كل فرد يجب ان يقاتل الآخرين ، لكي يبقى على قيد الحياة » .. وأن الافضل والاقوى والاقدر على الحكم ، يبرزون من المنافسة في سبيل السلطة التي تنشأ عنها ميزات معينة »[1] .

ولذلك فان الضعاف وتعسي الحظ جديرون بالوضع الذليل الذي يقضي به عليهم افتقارهم الى المَلَكة والمقدرة . وقد عدل الاستعمار ، في نموه ، من اتجاه هذا الحكم الذي لم يعد ينطبق فقط على الأفراد بل اصبح ايضاً ينطبق على الجماعات . كما عجلت تجارة الرقيق اكثر من انتقال هذا الشعور من الفرد الى الجماعة . ولا شك أن تجار الرقيق الذين كانوا يشهدون الاختلافات في الوضع القائم في افريقيا ، اذ كانت « مهنتهم » تدعوهم الى التفاوض مع الملوك السود الاقوياء ، كانوا أميل الى اعتبار بضاعتهم البشرية من حثالة المجتمع التي وقع عليها سوء الحظ : اي انها حالات فردية من الضعف . ولكن كبار الملاك ، والمزارعين ، ومستعمري امريكا وجزر الانتيل ، بازاء تدفق جموع الافريقيين السود من العبيد التي ما فتئت تتزايد في خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، قد اعتادوا شيئاً فشيئاً على فكرة أن الافراد ليسوا هم وحدهم جديرين بالعبودية ، بل الشعوب ايضاً جديرة بها ، وأنّ هناك : « جنساً معيناً أقدر من الآخرين على الحكم وقد خلق بطبيعته

---

(٢) موريس دي فرجيه : « مقدمة في السياسة » .

لكي يسيطر » بينما خلق الآخرون « بطبيعتهم لكي يدينوا بالطاعة »[1] . وكان غزو أفريقيا في القرن التاسع عشر من شأنه أن يؤيد هذا الحس في اوروبا . وإذن فقد كانت العنصرية عاهرة متأخرة نسبياً بعد ان نـمَت في الخفاء ، مثل سرطان أُغفل أمره طويلاً ، في داخل اللاوعي الأوروبي ، خلال اربعة قرون من تجارة الرقيق والعبودية المنتشرة ، ثم ظهر فجأة في القرن التاسع عشر على شكل نهائي محدد الهيكل .

بدايات تجارة الرقيق :

ظهرت تجارة الرقيق في نهاية القرن الخامس عشر وكانت تمارس على استحياء في القرن السادس عشر ، ثم تأكدت في القرن السابع عشر باعتبارها عملية تعود بالربح ، وعرفت ذروتها في القرن الثامن عشر . وقد ألقى برناردان دى سان بيير ضوءاً مفيداً على مقتضيات نشوء هذه التجارة : « لست ادري ما اذا كان البن والسكر ضروريين لسعادة اوروبا ولكنني أدرى تماماً ان هذين المحصولين قد اديا الى شقاء ثلثي العالم . لقد قضي على سكان أمريكا حتى تتوفر الأرض لزراعتهما وقضي على سكان افريقيا حتى تتوفر أمة كاملة تقوم بهذه الزراعة »[2] . وبالفعل ، فقد شاهدنا من قبل ان عدداً كبيراً من أهل البلاد الاصليين قد قضي عليهم بشكل منهجي بل محي وجودهم اصلاً ، في خلال قرن من الزمان ، واحياناً في خلال بضعة عقود من الزمن فقط ، منهم التاينوس في جزر الانتيل ، والتامايو في البرازيل ، والهورون والايروكوا ، وغيرهم من الأقوام الهندية الامريكية ، في أمريكا الشمالية . وفي كل مكان تمت فيه هذه الإبادة الجماعية كان استجلاب الأيدي العاملة الهندية يفرض نفسه كضرورة ملحة .

---

(١) موريس دي فرجيه : « مقدمة في السياسة »

(٢) برناردان دي سان بيير : « رحلة الى ايل دي فرانس » الخطاب الثاني عشر كما اشار اليه موريس لنجليه في « العبودية » .

وفي القرن السابع عشر رسم انتونيل خريطة دقيقة للمقدرات الطبيعية التي يتمتع بها الزنوج المستخدمون في البرازيل : «ان عبيدنا ينتمون الى أمم مختلفة ، وتتباين قوتهم وذكاؤهم . ومن ثم فهناك ما يدعو الى توزيعهم بحرص وعناية . فان اولئك الذين يأتون الى البرازيل هم من الأردا ، والمينا ، والكونجو ، ورعايا جزر سان توميه وبرانس ، وانجولا ، والرأس الأخضر . ويأتي بعضهم من موزمبيق ومن الهند : أما الذين يأتون من الرأس الأخضر وسان توميه فهم اكثرهم ضعفاً وهشاشة . والذين يأتون من انجولا أقدر على تعلم الفنون الميكانيكية من غيرهم . ومن الكونجوليين عدد لا بأس به من ذوي النشاط وطيبة الخلق . فمن الافضل الا يستخدموا في أعمال قصب السكر ، بل في خدمة المنازل والعناية بها » .[1] كان البرتغاليون هم أول من كانت لهم ممتلكات في افريقيا (أنجولا ، غينيا) ، وفي امريكا (البرازيل) في نفس الوقت . ولذلك كانت لهم تجارتهم الزنجية الخاصة بهم . اما الاسبانيون فقد اكتفوا بابرام معاهدات مع الدول الاجنبية التي تولت تزويدهم بالايدي العاملة لمستعمراتهم الامريكية : فلجأوا أولاً الى الهولنديين ثم الى الانجليز بعد ذلك . وعندما خلف حفيد لويس الرابع عشر أسرة هابيسبورج على عرش اسبانيا ، عهد بهذه المهمة الى شركة فرنسية كانت تقوم بعملها في خليج غينيا . لقد عرض الفرنسيون خدماتهم لبلاد اخرى قبل ان يمارسوا تجارة الرقيق لحسابهم الخاص ، وعندما جمعت الجهود الفردية في شركات معترف بها رسمياً ، حصلت « شركة الهند الغربية » على امتياز القيام « بتجارة الزنوج » وخلفتها في ذلك « شركة السنغال » في ١٦٧٣ . وتبعهم الانجليز في نفس الطريق فبعد ان كانت هذه المهمة معهوداً بها الى الأفراد تولت الشركات ذوات الامتياز تجارة « خشب الابنوس » ، ومنها « الشركة الافريقية الملكية لانجلترا » التي تأسست في ١٦٧٢ .

---

(١) أشار اليه موريس لنجليه في « العبودية » .

كان من الحوافز الاخرى وراء تجارة الرقيق ، عجز البيض عن الاستقرار في الجزر والعمل فيها . « كانت المحاولات التي تهدف الى تأقلم الاوروبيين في الجزر ، حتى ولو كانت بعض قوافل الهجرة تتألف جزئياً من فلاحين ، تنتهي بنتائج مخيبة للآمال : نسبة كبيرة من الوفيات ، عوائد قليلة من الربح ، عودة ادنى العناصر شأناً الى الموانيء ليحيوا فيها حياة من التشرد الوضيع »[1] . وعلى العكس من ذلك اتضح ان العائد الناتج من عمل السود اكثر بكثير . يعترف بذلك صراحة المرسوم الصادر في ٢٦ أغسطس ١٦٧٠ الذي يقضي بحل شركة الهند الغربية والذي جاء معبراً عن تفكير لويس الرابع عشر نفسه : « ليس هناك ما يسهم في زيادة المستعمرات وزراعة الارض اكثر من العمل الشاق الذي يقوم به الزنوج »[2] . وهو تكذيب « معتمد » ورسمي جديد لاسطورة « الزنوج الكسالى » التي اخترعت بعد ذلك بقرنين من الزمان .

جاء في مذكرات نانت ، في ١٧٦٠ ، أنه قد وجدت في تلك الفترة على طول سواحل افريقيا الغربية — من الشمال الى الجنوب — سبع مناطق لتجارة الرقيق : من الرأس الأبيض الى نهر سيراليون ، ومن نهر سيراليون الى رأس بالم ، ومن رأس بالم الى رأس النقط الثلاث ، ومن رأس النقط الثلاث الى نهر الفولتا ، ومن نهر الفولتا الى باداجري ، ومن بينين الى رأس فرموزا ، ومن رأس فرموزا الى الكونغو . وكان المركز الاوروبي لتجارة الرقيق يقع بين رأس النقط الثلاث والفولتا ، ومن بين خمس وسبعين موضعاً على الساحل ، انشأ الهولنديون والبريطانيون والدانيمركيون ٢٣ حصناً : اكسيم ، النقاط الثلاث ، واكادا ، (هولندا) — ديسكوف ، روترون ، تاكوراري ، (انجلترا) — سوكوندي (واحدة انجليزية وواحدة هولندية) — شاما (هولندا) ، كومبريندرا (واحدة انجليزية وواحدة هولندية) — المنجم

---

(١) جاستون مارتان : « تاريخ العبودية في المستعمرات الفرنسية » .

(٢) أشار اليه جاستون مارتان في المصدر السابق .

(مقر اقامة الحاكم العام الهولندي) ، رأس الساحل (مقر اقامة الحاكم العام الانجليزي) الدريه (هولندا) ، آنامابو (انجلترا) ، كورمانتين (هولندا) تانكوانكري (انجلترا) ، آباما (هولندا) ، وينشأ (انجلترا) ، باراتي (هولندا) وأكرا (واحدة انجليزية وواحدة هولندية وواحدة دانمركية) .

أما الفرنسيون فلم تكن لهم قلعة واحدة ولا مرفق تجاري واحد ولا موطىء قدم مهما قل شأنه . في تلك المنطقة . ولذلك كانوا مضطرين الى التفاوض مع حكام القلاع او الى القيام « بالتجارة » على سبيل التهريب . كان البرتغاليون يستمدون من انجولا ، برصيدها الذي لا يغيض له معين ، الايدي العاملة الضرورية لهم ، ويبيعون الفائض منها الى دول اخرى ، وكانت الاحتياجات المتزايدة لجزر الانتيل ونضوب الأسواق الاولى للعبيد باطراد تفضي بالتجار الى النزول نحو الجنوب اكثر فاكثر ، والى التزود (من انجولا) بحاجتهم في اسواق : لوانج (لوانجو) ، وماجومبا ، ومالمبا ، وكابيندا . وكان الاسرى يساقون اليها باعداد ضخمة ، في خلال القرن الثامن عشر ، أياً كانت قيمتهم هزيلة ومهما ارتفعت الرسوم المفروضة في هذه الأسواق ، اذا صدقنا ما جاء في « مذكرات نانت » . الا ان هذا الحكم يناقضه ما يقوله الكابتن فان آليشتين الذي كتب في « يوميات سفينة » ، بصدد زنوج انجولا والكونغو : « انهم زنوج أقوياء مفتولو العضل ، قادرون على مقاومة الانهاك ، هم أفضل من في مستعمراتنا بلا شك . وهم يتصفون بطيبة الخلق والهدوء ، قد خلقوا للعبودية »[1] .

وكانت جزيرة جوريه ايضاً من مراكز تجارة الزنوج النشطة . كانت من منشآت الهولنديين في البداية ، ثم استولى عليها الفرنسيون في القرن السابع عشر واعلنوها « من الممتلكات الملكية » ثم انتزعها منهم الانجليز وفقدوها

(١) اشار اليه ر . ب . ديودونيه رانشون : « تجارة الرقيق والعبودية » .
(٢) استرقاق الأوروبيين للكونغوليين واتجارهم بهم .

اربع مرات واخيراً اعطيت الجزيرة لانجلترا ، كما اعطيت لها السنغال ، بمقتضى معاهدة باريس في ١٧٦٣ وتصفها « مذكرات نانت » بأنها : « مستودع يأتي فيه الزنوج ببعض العبيد منهم ، ويحملون الينا قليلاً من الذهب . وتستطيع السفن ان ترسو في هذه الجزيرة ، فتجد فيها أحسن الظروف المواتية ، ويمكن اعتبارها مفتاح السنغال » .

أساليب تجارة الرقيق :

عندما كان تاجر الرقيق ينزل الى الارض كان يتصل على الفور اما بالأمير المحلي ، او بأحد افراد بلاطه المفوضين من قبله لهذه المهمة ، واما بحاكم القلعة الأبيض . وبعد ان يؤدي رسوم إلقاء المرسى والاقامة ، يأخذ في المفاوضات المبدئية . وتدفع لرجل البلاط الافريقي كمية من المال في بداية المفاوضات ولا يجب الخلط بينها وبين قيمة السمسرة التي تدفع عند ابرام الصفقة . لم يكن التاجر ، من حيث المبدأ ، يشتري من الملوك الافريقيين الا اسرى الحرب الذين يبيعهم آسروهم ، اذن ان كل ملك كان يستحوذ على قدر منهم ، بحكم الامر الواقع وبناء على حق المنتصر . ويزعم التاجر انه يشتري هؤلاء الاسرى لانقاذهم من مصير انكى وبالاً : الموت . وهو تبرير عبودية « التكافل العضوي » الذي أفادت منه اجيال من عائلات التجار والمسترقون والزراع وكبار الملاك ، في خلال اربعة قرون من عهد تجارة الرقيق . كان تجار الرقيق انفسهم يزعمون انهم يسهمون في التبشير بالانجيل اذ يرسلون بهؤلاء « الوثنيين التعساء » الى العالم الجديد حيث تنتظرهم الأعمال الشاقة المؤبدة التي من شأنها ، بطبيعتها ، أن تنقذ أرواحهم .

والواقع انه كان من الحق أن نسبة مئوية ضئيلة للغاية من الزنوج المسترقين تندرج تحت تعريف « أسرى الحرب » ، الا ان عدداً أكبر ، بما لا يقاس ، كانوا من الرجال الاحرار : أعضاء الاسرة او التابعين لبلاط الملك الافريقي الذين لم يعودوا يروقون في عين ملكهم ، يقبض عليهم بالقوة ويجرون جراً

الى سفن الرقيق . استمرت هذه التجارة امداً طويلا ، فاخذ معين « السائمة البشرية » ينضب شيئاً فشيئاً . وعندئذ بدأت مطاردة الرجال تقوم على أسس منظمة ، في غير نطاق حرب ما . كان الامر اذن يتعلق بايقاع الرجال الاحرار في قبضة الأسر ، على نحو منهجي منظم ، ولم يكن هنـــاك أسرى حرب بأي شكل من الأشكال . شن البرتغاليون حملات في انجولا بغرض أسر اكبر عدد ممكن من الارقاء ، صراحة ودون مواراة . ان هناك الكثير من الشك حول حجة التبشير بالانجيل عندما نرى اللامبالاة والاستهتار من جانب اصحاب الرقيق في هذا الشأن وعندما نرى أنه ما من جهد واسع النطاق قد بذل على الاطلاق في هذا الصدد .

وعندما تبرم الصفقة بين تاجر الرقيق والامير الافريقي أو نائبه ، يصل البحارة المسلحون ، ويدفعون بارقاء المستقبل دفعاً ، ويقيدون كل اثنين معاً في الاغلال — كان الاسرى يثورون في الغالب في لحظة السفر او تحدث هجمات مضادة عندئذ . ويقول الكابتن فان آلشتاين في « يوميات سفينة » : « كان نجار السفينة يتأكد صباحاً ومساء أن الأسرى لم يحاولوا ان يتخلصوا من الأغلال » . وكان الأسرى قبل الرحيل يوسمون بعلامات معينة . « كانت العملية تتم عادة عن طريق الوصم بواسطة شفرة رقيقة من الفضة تحمل علامة السفينة او صاحبها . وكان لاداة الوصم تلك يد من الفضة مثبتة بمقبض خشبي ويسخنها الموكل بالعملية على النار ، ويدعك بالشحم ذلك الموضع من الجسم الذي يريد ان يصمه (على الكتفين احياناً ، او الفخذين ، او حلمتي الصدر وفقاً لطبيعة ونوع البضاعة) [1] . ويضع فوقه ورقاً دهنياً ثم يختم بالعلامة من فوق الورقة . فكان الجسم ينتفخ ويسبب الألم . ويظهر الحرف أو العلامـــة بارزة ولا تنمحي ابداً » .

ويظل الاسرى مقيدين بالأغلال في أماكنهم ، تفادياً للثورة او الانتحار ،

---

(١) جاستون مارتان : تاريخ العبودية في المستعمرات الفرنسية .

حتى تصل السفينة الى عرض البحر ويبتعد الشاطيء الافريقي تماماً عن مرمى النظر . وقد قال قبطان « سفينة الشمس » بالفعل في ١٣ سبتمبر ١٧٧٤ : « ألقت اربع عشرة امرأة بأنفسهن معاً في البحر من فوق ظهر السفينة » ولكن الكابتن فان آليشتاين وصف حادثاً مماثلاً على نحو آخر (ربما كان فيه نفاق كبير) : « استبد الفضول بالنساء فملن جميعاً من نفس الناحية : وتعرضن لخطر السقوط في الماء مع أولادهن » . ان الصور واللوحات التي رسمت لسفن تجارة الرقيق ، والتي نشرت كثيراً[1] تكشف بشكل قاس عن احتشاد الاسرى وتكومهم في بطون السفن : فقد كان بعض مجهزي السفن الجشعين (مثل واليش من مدينة نانت الذي أنشأ شركة أنجولا والذي عُرف بأنه رجل قاس في دوائر تجارة العبيد) يضعون كل ثلاثة من العبيد فيما يقابل الحيز الذي يشغله برميل واحد من البضاعة ، وكان مجموع ارتفاع الطوابق التي يحشد فيها الاسرى حشداً يتراوح من متر ونصف الى مترين مما يحول دون ان يقف الأسير منتصباً دون انحناء . وبلغ من جشع بعض القباطنة ان كان تكوم الاسرى يصل الى حد ان يضموا الى بعضهم ، جنباً الى جنب ورأساً برأس ، حتى يستخدم الحيز المتاح من السفينة الى اقصى درجة ممكنة . فليس هناك ما يثير الدهشة اذن في هذه الظروف البشعة وبالنظر الى الاوضاع الصحية التي كانت سائدة في ذلك العصر بما تتصف به عادة من قصور ، أن تصل نسبة الوفيات الى درجة مخيفة بين الاسرى . فقد كانت تتراوح من ٥٪ (١٧٤٦ ، ١٧٧٤) الى ٣٤٪ (١٧٣٢) بينما كان معدل الوفيات دائماً يقع بين ١٠٪ و ١٥٪ .

وعندما يهبط الليل كان الأسرى ، مغللين بالاصفاد ، لا يكادون يجدون الهواء ، يُحظر عليهم الغناء ، ويحال بينهم ودون إصدار أدنى صوت ،

---

(١) اشهر هذه الصور هي صورة « ماري سيرافيك » التي رسمها بروك وظهرت في كتاب من تأليف كلاركسون واعيد نشرها في ١٨٢٢ ، وصورة « فيجيلانت » التي طبعت بالحجر بواسطة شارل دي لاستري في ١٨٢٣ .

والا عوقبوا بالضرب : « ست ضربات ، تُضاعف في حالة العود » . وكان كل من يتمرد يعذب حتى الموت اذا ما وقع في قبضة آسريه . في هذه الظروف لم يكن يصل الى أمريكا أو الجزر الا أشد الزنوج قوة ومقاومة . وفي الفترة التي كانت تقع بين لحظة شرائهم في افريقيا ، ولحظة بيعهم في جزر الانتيل أو أمريكا ، كانوا ملكاً خالصاً لاصحابهم الاوروبيين « ليس لهم وضع قانوني خاص ، فهم يمرون بمرحلة متوسطة يباشر فيها القبطان حقوق الملكية الكاملة عليهم بحكم الأمر الواقع ، وان كانت هذه الحقوق تعود من الناحية القانونية الى صاحب السفينة »[1] .

فإذا أُنزل الزنوج في الوجهة المقصودة كانوا يمنحون فترة أسبوع للراحة ، يغذون فيها حتى الغَصَص بل يزوقون فيها أحياناً ، ثم يباعون للمستعمرين وفقاً لاجراءات معقدة غاية التعقيد . ويحصلون منذ تلك اللحظة فقط على وضعهم القانوني باعتبارهم عبيداً .

كانت تجارة الرقيق الزنجي تعود بارباح طائلة . وكانت تتخذ مسار ما اصطلح على تسميته بالتجارة الثلاثية الاضلاع : فقد كان الطريق الذي تتخذه السفن المحملة بالرقيق من أوروبا الى أفريقيا ، ومن افريقيا الى امريكا ، ومن امريكا الى اوروبا ، تتخذ خطوط مثلث على التقريب . كانت السلعة التي تحملها هذه السفن (الخرز الملون والانسجة والكحول والبارود والاسلحة النارية) من اوروبا ، يتم تبادلها في افريقيا مقابل شحنة من العبيد تصل الى امريكا وتباع بدورها مقابل منتجات المزارع (الطباق ، النيلة ، السكر ، القطن) التي تباع بدورها في أوروبا فتأتي بأرباح لها قيمتها الكبيرة . ومما لا ينكر ان اكبر عائلات التجار في الموانىء الفرنسية على المحيط الاطلنطي التي تعود ثروتها الى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، قد شاركت في تجارة « خشب الابنوس » . وقد كان كل شيء يشجعها على ذلك . فالكنيسة تهدىء

(١) جاستون مارتان : تاريخ العبودية في المستعمرات الفرنسية .

ضمائرهم وتبرىء ذمتهم ، والسلطة الدنيوية تلح عليهم وتحضهم . كتب شيخ طائفة التجار في نانت في اوائل القرن الثامن عشر يقول : « أي تجارة يمكن ان تقارن بتجارة ينجم عنها الحصول على رجال في مقابل البضائع ؟ » وقال كولبير ، قبل ذلك ببضع سنوات في غضون تعليماته التي وجهها الى مدير شركة الهند الشرقية في ٢١ يونيو ١٦٧٠ : « اما فيما يتعلق بفائض سفن الشركة فيجب ان ترسلها الى غينيا للحصول على عدد كبير من الزنوج ، وعليك ان تفحص الميزة التي تترتب على ذلك ، بعد أن تأتي بنحو ألفي زنجي تحتاج اليهم جزرنا ، وعلى الشركة ان يتوفر لديها القان آخران لنقلهم الى الاسبانيين هناك ، فهي بضاعة لا يرفضونها أبداً ثم أنهم يشترونها من الهولنديين بأثمان غالية جداً »[1] . وقد تجاوز الواقع ما كان كولبير ينتظره بكثير ، فقد نقل ثلاثة آلاف أسير افريقي الى جزر الانتيل ، تحت العلم الفرنسي ، من ١٦٧٠ الى ١٦٧٢ .

القيود الاستعمارية :

كانت جزر الانتيل الفرنسية في ١٧١٥ تتألف من المارتينيك وجواديلوب والجزء الغربي من سان دومينيج « هاييتي » . وكانت فرنسا من الناحية الاسمية تتمتع بالسيادة على تاباجو وسان لوسي باعتبارها اول من احتلهما . ولم يتحقق الهدف من نقل السكان السود الى هذه الجزر بالفعل الا منذ اللحظة التي ادخل جان اوبير فيها زراعة قصب السكر في ١٦٤٠ . فقد كانت هذه الزراعة تتطلب عدداً كبيراً من الأيدي العاملة قادرة على تحمل الشمس القاسية التي تصلي بلهيبها الزنوج أياماً بطولها على خط الاستواء ، وكان المقدر ان الزنوج قادرون على تحمل هذه الظروف القاسية . ولكنهم كان مقضياً عليهم ان يعانوا من القهر الاستعماري بكل صرامته . وكان السوط هو الأداة الرئيسية لمعاملة

(١) اشار اليه لانجليه في : العبودية .

العبد . ثم تأتي بعد ذلك درجات من العقوبات لها قواعد وأصول : لمن عرف عنه العنف ولمن ضرب سيده : الموت . وللسارق : صلم الاذنين والوسم بعلامة زهرة الزنبق على الكتف . وللهارب مدة شهر : قطع الساق وعلامة اخرى بوصمة زهرة الزنبق لمن يعود الى الهرب أما لمن اعتاد الهرب بحيث لا يرعوي عنه : الموت » .[1]

ولم يكن هذا النظام قد تغير في الفترة التي زار فيها فيكتور شلشير جزر الانتيل ، في منتصف القرن التاسع عشر . فقد كان السوط ما زال مستخدماً والاغلال والاصفاد ، ولكي بالحديد . وكان الزراع يتمتعون بسلطات مطلقة . وكان المستعمرون يقترفون جرائمهم دون خوف من العقاب . فمن ذا الذي سوف يقيم عليهم الدعوى ، او يقدم الأدلة والبراهين ؟ — لا أحد . وأين يمكن الحصول على آثار للجريمة ؟ لا وجود لها في أي مكان »[2] . وكان يحدث أحياناً ان يثور الرأي العام الأبيض عندما يسيء احد السادة معاملة عبيده الى حد مسرف . ولكن ما هي الفظائع التي يمكن أن تثير رجالاً اعتادوا ان يعاقبوا العبيد على ادنى هفوة بالجلد بالسوط ؟ ثم ما هي العقوبة التي يتعرض لها هذا السيد القاسي ؟ — أن يحكم عليه بالحرمان من عبيده ، هذا هو كل شيء . « كان صاحب المزرعة ، السيد المطلق على كل المقيمين في مزرعته ، فهو يقوم فيها مقام ممثل الادعاء ، والقضاء ، والجلاد »[3] . وقد التقى شلشير في اثناء احدى رحلاته الى المارتينيك بأحد ملاك الأراضي ، « رجل عجوز ، محترم ، وطيب كان ليدهشه كثيراً أن يقال له انه يقترف الفظائع » وكان هذا الشيخ يحتفظ من تركة أسلافه بـ « قفص من الخشب المصمت يبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام على الاكثر ، كأنه نعش ، لا يمكن الدخول اليه الا زحفاً » وكان هذا الرجل الطيب القلب يسميه « السجن » جاداً دون

(١) ايمي سيزير : مقدمة لكتاب العبودية والاستعمار من تأليف فيكتور شلشير .
(٢) فيكتور شلشير : العبودية والاستعمار .
(٣) نفس المصدر السابق .

ان تلوح على شفتيه ابتسامة . « وعندما عبّر احد الشبان الذين كانوا هناك عن أفكاره بشأن هذا الصندوق البشع وقال له ان الهواء لا يكاد يدخل اليه الا من خلال بضعة ثقوب ، أجاب الرجل بكل هدوء : « ولكنهم يا سيدي لا يدخلون اليه لكي يكونوا على راحتهم »[1] .

وعلينا مع ذلك ان نشير الى انه قد انشىء وضع قانوني للعبودية منذ ١٦٨٥ ، عرف باسم : « القانون الأسود » أعده كولبير وصدر بعد موته بسنتين . وكان هذا الوضع عند انصاره يمثل ضمانة قانونية لصالح العبيد ، ولكن لم يكن له نظير في الواقع في اي تشريع اجنبي . وقد اصدر القانون الأسود لا بغرض كفالة رفاهية السود بقدر ما كان ذلك استهدافاً لتوطيد السلطة المركزية ضد المشروعات الساديّة القاتلة لبعض سادة العبيد ، وهي المشروعات التي كان من شأنها أن تتولد عنها القلاقل بل ان تشب من جرائها الثورات ومن ثم تلقى بالاضطراب في نظام الدولة . كان الجانب الايجابي للقانون الأسود يتعلق « بواجبات » السيد . فالسيد ملزم بان يطعم عبيده بشكل مناسب ، بألا يبيع الأم والأطفال دون سن البلوغ كلاً على حدة ، بألا يحكم بالموت أو السجن أو التشويه الا بمقتضى حكم صادر من المحاكم ، وألا يطيل ساعات العمل عن القدر الذي يقع بين شروق الشمس وغروبها . وجاء في هذا القانون نص ثوري نسبياً ، فهو يبيح للعبد الحق في ان يقيم الدعوى على سيده أمام المحكمة في حالة إخلاله بتلك « الواجبات » . ومع ذلك فان التضامن الوثيق بين البيض عامة ، والتواطؤ الكامل بين ملاك الأراضي والقضاة ، على نحو خاص ، جعل من هذا النص حبراً على ورق في معظم الأحيان.

وسرعان ما مُحي كل اثر طيب لبعض « الميزات » التي منحها القانون الأسود ، على استحياء . ذلك أن الكثير من نصوص هذا القانون كانت تهدف الى ارساء الاسس القانونية لمؤسسة العبودية . وعلى ذلك اعتبر العبيد « منقولات »

---

(١) فيكتور شلشير : العبودية والاستعمار .

تخضع حيازتها وبيعها لـ « المراسيم والعرف الذي نتبعه في حيازة الاشياء المنقولة » هذا الى أن « للسيد على أرضه اختصاص توقيع العقوبات ، وحق جلد أسراه ووضعهم في الأغلال ، وحق احداث تشويهات باجسام الفارين منهم ومعتادي الفرار ، تتراوح من الوصم الى بتر أحد الاعضاء »[1] . وتكشف الأوضاع القانونية التي يتضمنها هذا القانون عن الحدود الضيقة التي تقتصر عليها ضمانات العبيد من الناحية القانونية فليس فيها الا مادة واحدة ، تلك التي تحظر بيع الأم وأطفالها دون سن البلوغ على حدة — يمكن اعتبارها « انسانية » الى حد ما بالمقارنة الى ما كان يحدث في أمريكا الشمالية حتى حرب الانفصال . ومع ذلك فان الشقة واسعة بل لا يمكن تخطيها ، بين النصوص والحقائق . فمن الناحية العملية كان العبد في كل منازعة قضائية مع سيده ، يُعتبر مذنباً منذ البداية ويعتبر السيد بريئاً . وبقيت النصوص الايجابية التي كانت في صالح دفاع العبد ، في القانون الأسود ، حبراً على ورق في الغالب الأعم .

أصدر فيكتور شلشير حكماً واضحاً على هذا المجتمع العبودي عندما كتب : « ان القانون يقضي بأن يتلمس المجتمع ، أياً كان ، وسائل البقاء ، فاذا كان المجتمع مضاداً للطبيعة لم يتسن له البقاء الا عن طريق قوانين مضادة للانسانية . وكلما كانت الطاعة المطلوبة صعبة المنال كانت العقوبة على العصيان أشد إمعاناً في القسوة ، وقد حدث ان جلدت امرأة ٤٣ جلدة بالسوط ، وقد كانت في السادسة والستين من العمر » . ونلاحظ مع ذلك أن شلشير لم يكتب إلا عما رآه رأي العيان . ويجب ان نستخلص من ذلك ان المستعمر قد تخلى عن هذه الوسائل ، لا نتيجة لاعتبارات انسانية بل لأنها لم تعد تخدم مصالحه .

وهو ما حدث بالنسبة لانجلترا . فقد اخذت زمام المبادرة في بداية القرن التاسع عشر ، فحظرت تجارة الرقيق ، لسبب واحد هو انها لم تعد تملك

---

(١) جاستون مارتان : تاريخ العبودية في المستعمرات الفرنسية .

احتكارها . والتزمت عدة بلاد في هذه الفترة بالأ تستورد عبيداً من مستعمراتها . وان كان هذا الالتزام الرسمي لم يَحُل في البداية دون ان تعيث تجارة الرقيق فساداً ، وان كان ذلك في الخفاء . ومع ذلك فقد ساهمت الاجراءات التي اتخذت في تضييق الخناق على تلك التجارة شيئاً فشيئاً . ففي ١٨٠٨ صدر قانون فيدرالي يحظر استيراد أسرى جدد الى الولايات المتحدة . وقد أثر هذا الاجراء تأثيراً جسيماً على مزارع القطن التي كانت تتطلب زيادة مستمرة في الأيدي العاملة وللتخفيف من آثار هذا القرار ، واستجابةً في نفس الوقت للمطالبة المتزايدة باعداد أخرى من العبيد ، بدأ بعض زراع الأراضي عملية تربية الماشية الانسانية . فأخذوا يقومون بتجارب في التطعيم بين الاجناس الزنجية المختلفة ، كما لو كان الأمر يتعلق بالخيل او بالنباتات .

لم يظهر هذا « التهجين الانساني » الذي يعتمد على انتقاء أفضل الخصائص في سلالات الزنوج ، الا في الولايات المتحدة وحدها فلم تلجأ اليه مستعمرة اسبانية ولا برتغالية ولا هولندية واحدة أو لم تستطع أن تطبقه . وظهر انتاج « الابقار الملونة » على الأخص في ولايات ميريلانه وفرجينيا وكارولينا الشمالية وكينتاكي ، وتينسي ، وميسوري (ست ولايات جنوبية) ونما فيها نمواً ملحوظاً .

كانت هذه التربية لسلالة معينة من الزنوج تستهدف تحسين النوع عن طريق التطعيم . وقد رأينا في خريطة المقدرات والمواهب التي رسمها أنتونيل أن الزراع والمستعمرين كانوا يرجعون الى الأصول السلالية للعبيد خصائص معينة يتميزون بها . ولذلك كان المزارعون في كارولينا الجنوبية يفضلون زنوج جامبيا ولكنهم كانوا يقبلون أيضاً زنوج أنجولا . أما السنغاليون فكان يُفضل استخدامهم في الأعمال المنزلية لذكائهم الكبير . وزعم أصحاب مزارع التربية انهم قادرون على مضاعفة هذه الملكات والخصائص بطرقهم الخاصة . وينبغي في هذا الصدد أن نقرأ كتاب « ماندينجو » ، وهو كتاب يوحي للقارىء

بأنه نتاج رؤى هذيان مجنون ، لكي نرى وصف الحياة في احدى هذه المؤسسات التي كانت تعمل في القرن التاسع عشر في احدى ولايات الجنوب ، وصفاً بالغ الدقة [1] .

النتيجة المزدوجة لتجارة الرق :

رحّلت أوروبا ، من نهاية القرن الخامس الى منتصف القرن التاسع عشر ، ما يقرب من مائتي مليون من السود (١٣ مليون من حوض الكونغو وحده) . وبذلك حققت نتيجة مزدوجة : حصلت على أيد عاملة بدون مقابل لها قيمتها الكبيرة ، مما كان عاملاً حاسماً في رفاهيتها ، في امريكا ، وفي الجزر ، ونتيجة لذلك زادت من قوتها وسلطانها. وأدت تجارة الرقيق من ناحية أخرى الى إلحاق الوهن بافريقيا الى حد كبير جداً ، فقد افقرتها من صفوة سكانها ، مما أتاح لاوروبا ان تقهرها في القرن التاسع عشر وأن تخضعها دون أن تجد مقاومة كبيرة ، فقد كان المحور الحيوي لشعوب افريقيا قد حطمته تجارة الرقيق. ولا شك أنه يجب ان نعزو الى عدد من الافريقيين مسؤولية هذا الرقيق . الاستنزاف (الملوك والامراء السود ونوابهم موردو الرقيق) ولكنهم ليسوا مسؤولين بالقدر الذي ترجع فيه المسؤولية الى الاوروبيين الذين اخترعوا هذا النظام واصبحوا سادة له يديرونه بحيث يحقق منفعة أوروبا وحدها .

أي ضرر ألحقته افريقيا بأوروبا حتى تخضع لمثل هذه المعاملة ؟ « من كان هؤلاء الرجال الذين انتزعتهم الوحشية الاوروبية التي لم يسبق لها مثيل خلال القرون الطويلة ، من بلادهم ، ومن آلهتهم ، ومن عائلاتهم ؟ كانوا رجالاً يتصفون بدماثة الخلق ، والكياسة ، ولين الجانب ، يتفوقون بالتأكيد على جلاديهم : حثالة من المغامرين القادمين من أوروبا ينهبون ، ويغتصبون ، وينتهكون ، ويلحقون الاهانة بافريقيا حتى يجردوها مما تملك . كان هؤلاء

(١) كايل اونسوت : « ماندينجو » .

الافريقيون يعرفون كيف يشيدون البيوت ، ويديرون الامبراطوريات ، ويقيمون المدن ، ويزرعون الحقول ، ويصهرون المعادن ، وينسجون القطن ، ويصوغون الحديد »[1] . وبهذه الخصائص والملكات اسهم الافريقيون في بناء الحضارة البيضاء . كما لو كانوا يردون بالخير على الجريمة التي اقترفت في حقهم . كتب جوزيه دي كاسترو يتحدث عن الاطعمة وعادات الأغذية في المناطق المجاورة لباهيا في البرازيل : « كان من الآثار الطيبة بلاشك أثر الزنوج الذين أكسبوا عادات الطعام في هذه المنطقة مسحة نبيلة . فقد كان العبد المستورد من افريقيا ، حيث اعتاد أن يزرع محصولات متنوعة ، يسير على نهج صحي سليم في التغذية ، وأسهم هذا النهج الغذائي في تكوين نماذج انسانية رائعة ، كما تثبت ذلك الرسوم التي لا حصر لها والتي تصور ذلك العهد » . وفي الولايات المتحدة نجد أن كل ما يحسب له حساب اليوم وما يتسم بالأصالة ، وخاصة في الرقص والموسيقى ، انما يحمل السمة الزنجية . أما البيض ، فكيف يمكن لهم الادعاء بأنهم أثروا الثقافة السوداء ، إلا بأنهم ادخلوا اليها ما تتميز به حضارتهم المادية المنفعية من قيم تشلّ قوى الحياة وبأنهم ألقوا عليها بظلال اليأس ؟ .

إن نتائج تجارة الرقيق لا حصر لها وهي على قدر من الجسامة لا نكاد نحيط به ، وما زالت آثارها حتى اليوم تسمّم المناخ السياسي الاجتماعي الذي نعيش فيه في كثير من بقاع الأرض . ولم تستطع افريقيا حتى اليوم ان تستعيد توازنها ، ولذلك فان البلاد الحديثة العهد بالاستقلال ما زالت تعاني القلق وتمر بالأزمة تلو الأزمة . وتظهر مخلوقات لا قوام لها ولا شخصية في جزر الانتيل التي لحقها الاغتراب وشلتها الصدمة ، من جراء العبودية ، ثم من جراء التمثل بين العبيد والبيض . أما أمريكا فتواجه مشكلة الزنوج التي لا تعرف حلاً لها . وأخيراً فقد تولدت العنصرية عن تجارة الرقيق . والواقع ان الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر سوف يواصل مساره ، باعتباره استعماراً عنصرياً .

---

(٢) ايمي سيزار : مقدمة لكتاب العبودية والاستعمار من تأليف فيكتور شلشير .

الفصل الرابع

مستودع غلال الرأسمالية

١. بقاء مخلفات الاستعمار العتيق

قرن جديد :

أيكفي الانتقال من قرن الى قرن لتغيير طبيعة الاشياء على الفور ؟ لا يسلم بذلك الا فكر يعتمد على التخطيطات الفجة ، او مؤرخ ساذج . واذن فلم يغير القرن التاسع عشر في شيء مجرى التوسع والاستعمار في العالم . واصلت انجلترا من قرن الى قرن غزوها المنهجي للهند : استولى ويلسلي على ولاية ميسور في ١٧٩٩ وفرض الحماية الانجليزية على نظام حيدر آباد في ١٨٠٠ . بينما هزم ابن أخيه، ويلنجتون ، المهراتيين في ١٨٠٣ . الا أن للتوسع والاستعمار ديناميكية خاصة تفضي بهما الى التطور . وسوف نلاحظ بالفعل نتائج معينة لذلك التطور في القرن التاسع عشر . وتتفق ابرز هذه النتائج مع ظهور التصنيع : ونقصد بها الليبرالية الاقتصادية التي سوف تحل محل السياسة التجارية البريطانية ، في ١٨١٥ ، وتفرض على الاستعمار في البلاد الأوروبية المتقدمة اقتصادياً ، تحولاً أساسياً — أو تترتب عليه .

لقد شهد القرن التاسع عشر كذلك ، توسعاً استعمارياً جديداً يقع مشرحه في افريقيا وجنوب شرقي آسيا ، بينما حصلت المستعمرات القديمة في امريكا على استقلالها ، واسهم هذا التوسع ، بالنسبة لانجلترا وفرنسا ، في التعويض عن فقدان مستعمراتهما الامريكية ، وتغذية ثورتهما الصناعية . اما بالنسبة

للبلاد الاستعمارية الجديدة : بلجيكا ، والمانيا ، وايطاليا ، فان استثمار القارة السوداء يمثل عاملاً للاثراء ضرورياً لصناعاتها الوليدة . والى جانب هذا الرخاء الذي أسهم في زيادة التقدم ، واصلت البلاد الاستعمارية القديمة ، لاسيما البرتغال واسبانيا ، حلمهما القديم الذي كان لزاماً عليهما ان تتيقظا منه فجأة . اما الاستعمار الهولندي فقد ظل قرابة القرنين متوازناً ، في منتصف الطريق بين الرفاهية والتدهور . وسوف نتناول المصير الذي آلت اليه هذه البلاد الاستعمارية الثلاثة ، في البداية .

البرتغال تقتصر على افريقيا :

عندما أصبحت البرازيل بلداً مستقلاً في ١٨٢٢ وحاولت في هذه المناسبة ، دون نجاح ، ان تتملك أنجولا لنفسها ، اقتصرت الامبراطورية البرتغالية على جزيرة واحدة : تيمور ، ومدينة واحدة في القارة الصينية : مكاو ، ومدينة اخرى في القارة الهندية : جوا ، وثلاث مناطق افريقية : انغولا ، موزمبيق ، غينيا . ومع ذلك فقد كانت البرتغال قد اهملت ممتلكاتها الافريقية زمناً طويلاً ، على أنها كانت هي الممتلكات التي تتمتع بالأهمية ، وجاءت ظروف أخرى مشددة : فقدان البرازيل ، وحظر تجارة الرقيق ، وإدانة العبودية ، وبذلك فقدت انجولا سبب وجودها ، ولم يكن البرتغاليون يحتلون الا سدس أراضيها في ذلك العصر (١,٢٦٣,٧٠٠ كيلومتر مربع) وإن على المستعمرة الموت والركود حتى نهاية القرن التاسع عشر . ووفقاً لاحصاء أجري في ١٨٣٠ كان عدد البيض فيها ١٨٣٢ شخصاً منهم ١٥٠٠ في لواندا وحدها ، و ٣٣٢ في سائر البلاد . ولم يكن في بنجويلا الا ٣٨ شخصاً من البيض ، في ١٨٤٥ . ولاحظ ليفنجستون في اثناء مروره بمدينة لواندا في ١٨٥٤ انه لم يعد فيها الا ٨٣٠ شخصاً من البيض بينما تناثر مائة آخرون في سائر انحاء المنطقة ، ولم يتحقق استعمار الممتلكات البرتغالية ، استعماراً متعمقاً ، تحت ضغط الأحداث الخارجية ، الا في خلال العقدين الأخيرين من

القرن التاسع عشر .

فما هي هذه الأحداث الخارجية؟ هي بالطبع الفتوحات الاوروبية. اصبحت افريقيا فجأة هي محط جميع المطامع وبؤرتها الجوهرية . وسارع الجميع الى اقتطاع امبراطورية تخص كلاً منهم . في خلال الفترة التي بقيت فيها القارة الافريقية بعيدة عن المناوشات والمطامع الاوروبية لم تكن البرتغال تخشى شيئاً ، فقد كانت أول محتل للمواقع الافريقية – ولكن ذلك الوضع لم يستمر طويلاً . وسرعان ما تعدلت المواقف التي تتخذها البلاد الاوروبية . كانت انجلترا منذ ١٨٢٠ تصر على رفض الاعتراف بالمطالب البرتغالية التي تستهدف الاقاليم غير المحتلة من مملكة باكونجو ، طوال ستين عاماً ، ولكنها أعادت النظر في هذا الموقف فجأة عندما قام برازا من ناحية واستانلي من ناحية اخرى باكتشافات تسير جنباً الى جنب ، مما أثار مخاوف الانجليز من ثبوت أقدام البلاد المعادية لمصالحهم في افريقيا الوسطى . كانت انجلترا عندئذ على استعداد لأن تقرّ بما كانت تتظاهر حتى تلك اللحظة بتجاهله : أي سيادة البرتغال على شاطئي الكونغو حتى « نوكي » ، على شريطة ان تلتزم البرتغال في مقابل ذلك بقبول انشاء لجنة مشتركة « انجليزية – برتغالية » للاشراف على التجارة النهرية ، وبمنح الانجليز حق الملاحة الحرة في النهر ، والتسليم لهم برسوم جمركية مخفضة . ولكن هذه المعاهدة لم يصدق عليها ، اذ لم توافق عليها فرنسا وألمانيا اللتان اتخذتا موقف الرفض البات ، ونتيجة للموقف المعادي الذي اتخذته « المعارضة » الانجليزية بازاء هذا المشروع .

تضاعفت صراعات المصالح بين البلاد المستعمرة ، فقررت الدول الاوروبية الكبرى ان تجتمع في برلين في ١٨٨٥ ، واقر المؤتمر رسمياً تجزئة افريقيا وسلمت كل قطعة منها الى احدى البلاد الاوروبية المتنافسة ، وفقاً لما تستحقه ، ولقوة مقدرتها العسكرية على الاقناع ، او لجشعها وتفتح شهيتها .

أما البرتغال فقد أحبطت آمالها . فلم يكن من نصيبها الا الشاطىء الجنوبي

لنهر الكونغو ، وقد نصت احدى المواد الهامة في اتفاقية مؤتمر برلين على أن كل منطقة مستعمرة متنازع في السيادة عليها ، يجب ان تكون محتلة احتلالاً فعلياً (وهي الصيغة التي استعملها فرانسوا الاول كما نذكر) . وإلا ما أمكن الاعتراف بالسيادة عليها .

وبمقتضى هذه المادة اعترضت انجلترا على الدعاوى البرتغالية . ولكن البرتغال كانت تحتفظ بطموح عنيف للعظمة . بينما كانت تفتقر الى القوة الحقيقية . كانت مطامحها ترمي الى تملك امبراطورية متصلة الأطراف ، ولو كان ذلك اسمياً ، تمتد من المحيط الهندي الى المحيط الاطلنطي ، اي من موزمبيق الى أنجولا . ولكن هذا المشروع كان يعرّض المصالح البريطانية للخطر (سيسيل رودس في جنوب افريقيا وروديسيا ، والمبشرون الانجليز في منطقة شير ، في نياسالاند) فوجهت لندن مذكرة الى لشبونة في ١٨٨٧ تثبت فيها أن هذا المشروع البرتغالي لا يتفق في شيء مع روح معاهدة برلين ومع المادة الجوهرية فيها على الأخص ، اذ ان الاقاليم «المتوسطة» التي تطالب بها البرتغال ليست واقعة تحت «الاحتلال الفعلي» . وقد اسهم هذا «الانذار» في أن يحفز البرتغال على القيام بخطوة ضرورية وحاسمة تدعوها الى غزو موزمبيق وانجولا ، على الأقل ، غزواً منهجياً شاملاً . ولكن الغزو كان بطيئاً ، وشاقاً ، نتيجة للثورات المستمرة ، وللمقاومة العنيدة التي أبداها السكان . ولم يتحقق بالفعل الا عند نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ .

المستعمر الواقع في قبضة الاستعمار :

كانت المطالب الاقليمية التي أشرنا اليها ، والمحاولات غير المثمرة لاشتراك البرتغال مع المانيا في استغلال جنوب انجولا ، هي آخر مظاهر استقلال البرتغال. لقد تحول المستعمر البرتغالي ، بالتدريج ، فأخذ يسقط في قبضة استعمار اقتصادي توقعه عليه الدول الصناعية الأوروبية الكبرى . وقد رأينا كيف آلت البرتغال الى مثل هذا المصير نتيجة لسياسة الاستسلام المتتابع . لقد

اعتمدت اعتماداً كبيراً على ذهب غينيا ، ثم على توابل الهند ، ثم على الماس والسكر والذهب من البرازيل ، ثم فقدت لشبونه أجمل مستعمراتها ، فوجدت نفسها أفقر مما كانت في البداية . هذا الى انها كانت تفتقر الى صناعة قومية خاصة بها . وقّعت البرتغال مع انجلترا في ١٧٠٣ معاهدة مثيووان التي كفلت دخول الانسجة الانجليزية الى البرتغال دون عائق ، في مقابل رسوم جمركية مخفضة تتمتع بها الأنبذة البرتغالية المستوردة الى انجلترا ، مما كان له أثر حاسم في الاخلال بكل فرصة لنمو اقتصادي داخلي في البرتغال ، وبذلك نحيت نهائياً كل مشروعات انشاء صناعة الصوف في البرتغال .

وأدى توقيع معاهدة مثيووان الى تبعية البرتغال لبريطانيا العظمى تبعية اقتصادية متزايدة باستمرار ، واصبحت أسهم الرأسمال البريطاني هي صاحبة الأغلبية في كل المشروعات البرتغالية . حتى لقد انتهى الأمر بلندن الى حد انها كانت ترى في البرتغال احـــد ممتلكاتها . وذلك ما يفسر ان البرتغال كانت تعتمد على انجلترا في الدفاع عنها في كل لحظة حرجة من تاريخها — حتى العهد القريب عندما شبت الثورة الوطنية في أنجولا أخيراً .

إن التقاليد الاستعمارية العتيقة للبرتغال تقف في وجه تصور ديناميكي للاستعمار عند الشعوب الاوروبية التي قطع فيها التصنيع شوطاً بعيداً . والسمة الجديدة في هذا التصور تكمن في أن الاستعمار لا يتحقق على أيدي السلطة المركزية بل على ايدي مشروعات رأسمالية خاصة قوية تتخذ ، في معظم الحالات ، « المبادرة على الصعيد السياسي والجغرافي ، قبل ان تتدخل الدولة بزمن طويل »[1] .

وتملك هذه الشركات سلطة سياسية تكاد تكون مطلقة لا منازع فيها ، وتدير مناطق شاسعة ، بميزانياتها الخاصة ، ووفقاً لقوانينها ، وشرطتها ، ودبلوماسيتها . وعلى ذلك النحو نجد أن نيجيريا ، في افريقيا الغربية ، تخضع

---

(١) بيري اندرسون : البرتغال ونهاية عصر آخر الاستعمار .

لاحتلال « شركة افريقيا المتحدة » ، وإدارتها ، في معظم انحائها . ثم تخضع لاحتلال وإدارة الشركات التي خلفتها على التعاقب وهي : « شركة افريقيا الوطنية » في ١٨٨١ ، و « شركة نيجر الملكية » في ١٨٨٥ . اما في افريقيا الشرقية فقد كانت « شركة افريقيا الشرقية الالمانية » تدير تنجانيقا منذ ١٨٨٥ ، و « شركة افريقيا الشرقيـــة البريطانية » تدير كينيا منذ نفس العام . وفي افريقيا الوسطى تبتت « الجمعية الدولية للكونغو » أقدامها ، بناء على مبادرة من الملك ليوبولد الثاني ، وان كان ذلك بفضل رؤوس أموال « البنك البلجيكي لما وراء البحار » ، الذي اندمج فيما بعد مع « الشركة العامة البلجيكا » وأصبح واحداً من أقوى التراستات الاستعمارية في العالم . ومن فروعها « اتحاد مناجم كاتانجا العليا » ، و « شركة فورمينيير » ، و « شركة كيلو – موتو » .. الخ التي تقتطع لنفسها موارد ثروة الكونجو بانتظام . أما في جنوب افريقيا فقد ضمت « شركة جنوب افريقيا البريطانية » اقاليم روديسيا الشمالية والجنوبية ونياسالاند ، كما ضمت « الشركة الاستعمارية الالمانية » أراضي جنوب غرب افريقيا . وأخيراً كانت « شركة فيلوناردي » تتحكم في الصومال الا يطالي منذ ١٨٩٣ .

كانت هذه الظاهرة الرأسمالية في التملك والاستثمار التلقائي ، نتيجة للثورة الصناعية الأوروبية التي كانت من العنف والسعة بحيث تجاوزت الاطار الضيق الذي ظهرت فيه . كانت ضرورة ايجاد أسواق جديدة ، وضرورة ايجاد المواد الأولية الضرورية لتغذية الصناعات الوليدة ، قبل كل شيء ، هي التي أدت برجال الأعمال والماليين الاوروبيين الى استكشاف افريقيا والاستقرار فيها . « وما أن بدأت هذه العجلة تدور ، حتى ظهرت الاعتبارات السياسية والاستراتيجية ، وتدخلت السياسة القومية ، وتحولت محميات الشركات الى مستعمرات » .[1] ومع ذلك فان الاولوية الرأسمالية والصناعية في عملية

(١) بيري اندرسون : البرتغال ونهاية عصر آخر الاستعمار .

الاستعمار لم تكن قاعدة عامة . ففي بعض الحالات كانت الدولة ترفض ان تتبع الشركات وان تغطي سياستها التوسعية . ومن ناحية اخرى كانت بعض السياسات الاستعمارية ، كما هي الحال في فرنسا مثلاً — (وهي بطبيعتها سياسة عسكرية توجهها الدولة) اكثر استعصاء على تلبية مطالب الاحتكارات الرأسمالية .

أما البرتغال فقد كان عليها ان تقبل الخضوع للرأسمالية الاجنبية لاسباب كثيرة أشرنا اليها من قبل : افتقارها الى الصناعة القومية ، اقتصادها الاستعماري المتخلف بل الذي لا يكاد يوجد ، ولكن على الأخص نتيجة لتدهورها المالي الذي ينذر بحلول كارثة . « في ١٨٨٨ كان الدين العام الذي تنوء به البرتغال هو اكبر ما يكون بالنسبة للايراد القومي (٢٧,٥٪) في جميع بلاد أوروبا ، ولم تتجاوز هذه النسبة الا تركيا التي وصلت نسبة الدين العام فيها الى الايراد القومي ٣٠٪ »[1] ولذلك فان الشركة الرئيسية في انجولا « شركة ديامانج » (شركة الماس لانجولا) على الرغم من اسمها البرتغالي ، فرع من « اتحاد شركات الماس الانجلو امريكية » ، والشركة التي تتمتع باكبر امتياز في البترول « شركة لوبيتو لوقود الزيت » تعتمد على الشركة البلجيكية « بتروفينا » بنسبة ٧٠٪ ، وتتحكم شركة « لويزأ . تيريز بيرمان » تحكماً كاملاً في انتاج المنجنيز ، وشركة « بيشني » (التي تتخذ اسماً مستعاراً هو الالومنيوم البرتغالي) تتحكم تماماً في انتاج الالومنيوم ، بينما تسيطر على انتاج البوكسيت شركة « بلتون ماتشابيج الهولندية » . اما الحديد فتستثمره ، من الناحية الاسمية شركة برتغالية هي « كومباني منييرا دي لوبيتو » وهي شركة عاجزة كل العجز في الحقيقة ما لم تستند الى تأييد احتكار كروب في آسن .

لم تكن المشروعات البرتغالية الكبرى ذات الامتياز التي انشئت في نهاية القرن التاسع عشر ، على سبيل التقليد للمشروعات الانجليزية والالمانية والبلجيكية

(١) المصدر السابق .

والايطالية والتي استقرت في افريقيا ، تستطيع ان تقوم بنفسها لولا رؤوس الأموال الاجنبية . فاعتمدت « شركة موزمبيق » على الاستثمارات الانجليزية والالمانية واستثمارات جنوب افريقيا ، بينما كانت أموال « شركة نياسا » بريطانية تماماً ، اما اسهم « شركة زامبيزيا » فقد بيعت أساساً في انجلترا وفرنسا والمانيا وجنوب افريقيا . وفي ١٩٠٠ كانت هذه الشركات الثلاث تتحكم في ثلثي موزمبيق .

استعمار يرتد الى الوراء ويحطّ بكل القيم :

بعد التدخل البريطاني واصل الغزو الداخلي للمستعمرات البرتغالية في افريقيا (انجولا . موزمبيق ، غينيا) مساره ، يصحبه استقرار عدد معين من المستعمرين . وكان هؤلاء المستعمرون ينتمون الى اكثر الطبقات فقراً في البرتغال ، وقد اصبحوا أساساً من العاطلين ، في مقامهم الجديد . كان نظام السخرة ــ الذي ما زال معمولاً به حتى اليوم ، والذي اتضح أنه أسوأ من نظام العبودية في كثير من النواحي ــ قد أقيم منذ البداية حتى يوفر لهؤلاء المستعمرين خدمات الأيدي العاملة بدون مقابل او زهيدة الاجر الى حد يثير السخرية .

وينقسم عمل السخرة (الذي لا يندرج تحته العمل الذي يهدف الى اقامة الاقتصاد الافريقي اللازم لبقاء الافريقيين على قيد الحياة) الى اربعة اقسام : سخرة على سبيل العقوبة ، وسخرة إجبارية ، وسخرة بناء على عقد ، وسخرة اختيارية . اما السخرة على سبيل العقوبة فهي من الجزاءات التي توقع على الافريقيين ، عقوبةً على جرائم وهمية بصفة عامة . والمستعمر الذي يستفيد من عمل الرجال المحكوم عليهم بتلك العقوبة ليس ملزماً بأن يدفع لهم اجراً . اما السخرة الاجبارية فتفرضها الحكومة بمناسبة قيامها بمشروعات كبرى من مشروعات المرافق العامة (منشآت الموانى ، السكك الحديدية، والطرق ... الخ) ، ويعفى منها ، رسمياً : النساء والشيوخ الذين يزيد عمرهم على

الستين عاماً ، والاطفال الذين تقل اعمارهم عن الرابعة عشرة . أما الواقع (وتتفق كل الشواهد في هذا الصدد) فهو أن النساء والاطفال يقسرون على اداء هذا العمل الاجباري مثل الاخرين سواء بسواء . « وهكذا نرى النساء واطفالهن على ظهورهن ، والنساء الحوامل والفتيات الصغيرات ، يضربن الأرض بمعاولهن البدائية لشق الطرق فيها »[1] وهذه الشهادة التي يدلي بها بازيل دافيدسون – بعد رحلة قام بها في انجولا في ١٩٥٤ تؤكدها شهادة أخرى يدلي بها جويندولن كارتر الذي زار نفس المنطقة في ١٩٥٩ : « وغالباً ما رأيت النساء الافريقيات بأدواتهن البدائية ، يكنسن الشوارع ويصلحن الحفر فيها »[2] .

أما العمل الاجباري بناء على عقد ، فهو اكثر أنواع السخرة شيوعاً ، وهو الذي تشير اليه عامة كل معلوماتنا عن « السخرة » . والشروط التي تبيح الاعفاء من هذا العمل (المقدرة على دفع الرسوم المستحقة للدولة ، الحياة في مسكن صحي ، المقدرة على اثبات القيام بالعمل خلال ستة اشهر اثباتاً رسمياً في خلال السنة الماضية ... الخ) . شروط من الفداحة بحيث لا يفلت من القاعدة العامة الا القليل النادر من السكان الافريقيين الذكور ، اذا أفلت منهم احد على الاطلاق . وتستفيد من هذه الأيدي العاملة : الدولة ، الشركات الكبرى ، والمزارع والمستعمرون في المناطق البعيدة . ويكفي على أي حال ان يُرفع الى الادارة المختصة طلب يستوفي الشروط اللازمة ويذكر عدد الرجال المطلوبين حتى تبدأ على الفور عملية مطاردة وجمع العاملين . « ويجري النظام على النحو التالي بالتقريب : يحيط المزارع الحكومة علماً بأنه يحتاج الى عدد معين من الرجال ، فيوفر له رئيس المركز او ضابط المنطقة ذلك العدد . ويطوف الموكلون بذلك العمل من أهل البلاد بالقرى المختلفة ويجمعون

---

(١) بازيل دافيدسون : « ثقل افريقيا » .
(٢) جويندولن كارتر : « استقلال افريقيا » .

العدد اللازم من الرجال الذين يسلمون الى المزارع . ولكن المزارع ، لضمان الحصول على كل من يحتاج اليهم من الرجال ، يجب عليه بصفة عامة ، أن يدفع (للدولة) عشر أضعاف أجور العمال المتعاقد عليهم لفترة ستة أشهر ، ولا يمكن ان نتصور نظاماً أشد من ذلك شراً »[1] .

ولا اكثر من ذلك مجافاة للانسانية . فان هؤلاء الفلاحين الذين ينتزعون على ذلك النحو من أرضهم لفترة ستة اشهر او تزيد ، يفقدون ثمرة سنوات طوال من العمل الشاق دون أمل في ان يعوضوا خسارتهم بربح يقاربها ، اذ ان الأجور التي يتلقونها هي في الواقع أجور رمزية . ففي ١٩٢٨ كانت الأجور التي تدفع في الريف ، في انجولا ، تتراوح بين ٠,٤٢ ، ٠,٥٠ فرنك قديم ، في اليوم ، وفي ١٩٥٤ بلغت هذه الأجور ٠,٦٨ فرنك قديم في اليوم ، وان كانت زيادة نفقات المعيشة قد وصلت الى ٠,٣٠٠ .

وقد ثبت أن نظام « العمل الاجباري » أكثر مجافاة للانسانية من العبودية . فقد رأينا ان العبد يمثل عند سيده « رأس مال — العمل » ، وكان السيد يجد صعوبة في استبداله ويتجشم في ذلك نفقة كبيرة . ومن ثم كان عليه ان يوليه رعاية نسبية . اما في نظام « العمل الاجباري » فما من حاجة تدعو الى رعاية الايدي العاملة على الاطلاق اذ ان مصدر التزود بها لا ينضب له معين . وما ان يسقط العامل حتى تبادر الادارة بتزويد صاحب العمل برجل جديد ، بمجرد طلبه ، والعامل الجديد بدوره يسهل استبداله بغيره ، كسابقه . فليس من الغريب اذن ان تبدو نسبة الوفيات بين الاهالي ، في المزارع والمشروعات الخاصة ، مرتفعة ارتفاعاً كبيراً ، اذا وضعنا موضع الاعتبار ايضاً صرامة وسائل الارغام على العمل ، صرامة شديدة : فما زال الجلد بالسوط والضرب بالمقرعة يستخدمان بشكل شائع حتى اليوم .

أما العمل الاختياري ، الفئة الرابعة من فئات « السخرة » ، فهو العمل

---

(١) مارفن هاريس : عنابر العمل الافريقية البرتغالية .

الوحيد الذي لا تتحكم فيه الادارة والذي يتيح للعامل الافريقي ان يلتحق مباشرة بالعمل الذي يختاره . ولاشك أن العامل يحصل على ميزة لا جدال فيها هنا فهو يختار اقرب اماكن العمل الى موطن اقامته . ولكنه في مقابل ذلك يتلقى أجراً أقل بكثير ، وفي كل الاحوال ، من الاجر الذي يتلقاه عن العمل « بعقد » . على أن هناك نظامين آخرين هما نظام الزراعة الاجبارية ، ونظام الترحيل يرجعان الافريقي الى حالة العبودية المستترة التي تجعله لا يختلف في شيء عن « الرجل السائمة » . وتمارس الزراعة الاجبارية اساساً في موزمبيق حيث تتقاسم اثنتا عشرة شركة برتغالية ذات امتياز ، احتكار زراعة القطن : يزرع الافريقيون القطن على أراضيهم فتشتريها الشركات باسعار أقل بكثير من مستوى سعر السوق الحر . فاذا وضعنا موضع الاعتبار انه ليس من المسموح به على الاطلاق القيام بعمل بأجر على الأراضي الخاضعة للامتياز ، وان الافريقي ليس له على الاطلاق حق اتخاذ مبادرة ما ، اذ ان حياته محكومة تماماً بوسائل الاخضاع والقسر ، وان الأراضي المخصصة لزراعة القطن تخرج ، بالضرورة ، من الاقتصاد الضروري لبقاء الافريقيين على قيد الحياة — وهو اجراء يؤدي الى حدوث مجاعات كثيرة — استطعنا ان ندرك قيمة هذا النظام في مجموعه. وقد كتب الاسقف الكاثوليكي في مدينة بيرا يقول : « توجد في اسقفيتي منطقة كان شبح الجوع الأسود طوال ستة شهور ، يحصد حياة السكان »[1] وقد كتب نفس الاسقف منذ عهد قريب في أحد خطاباته يؤكد ان الأفريقيين في بعض المناطق ، يزرعون القطن ويحصلون على ٦ أو ١٥ فرنكاً في مقابله ، على أرض يمكن أن تنتج من المحاصيل الغذائية ما يزيد قيمته عن ذلك ٨٦ الى ٨٠ مرة . وفي ١٩٥٦ حصل صغار المزارعين الافريقيين ، في المتوسط ، على ٥٥ فرنكاً لكل شخص ، مقابل محصول السنة بأكملها .

أما الترحيل ، فهو عملية تعود بربح كبير ، من ناحية أخرى ، وهي

(١) اشار اليه بيري اندرسون : البرتغال ونهاية عصر آخر الاستعمار .

تتلخص في ان تقوم الحكومة بتأجير العمال ، من الموزمبيقيين اساساً ، لجنوب افريقيا التي تستغل هذه الأيدي العاملة في مناجم الذهب في الترانسفال . وقد وقعت اتفاقية موزمبيق والترانسفال للمرة الاولى في ١٩٠٩ ، وجددت في ١٩٢٨ – ١٩٣٤ – ١٩٣٦ – ١٩٤٠ على التوالي . وتتعلق هذه المعاهدة « بترحيل » ١٠٠ ألف افريقي من موزمبيق على الاكثر سنوياً . وتقبض الحكومة البرتغالية نحو ٢٥ فرنكاً مقابل كل عامل ، وتحتفظ بنصف أجر العامل ، وتعيد النصف الآخر الى صاحب الشأن ، من الناحية النظرية ، عند انقضاء فترة العقد (التي يجب ان لا تزيد عن ١٨ شهراً) . وتزود هذه الفقرة لشبونه بميزات اخرى هامة : تمر ٧٤,٥٪ من تجارة الاستيراد الى منطقة جوهانسبرج من ميناء لورينسو ماركيز في موزمبيق ويصدر ٣٤٠ ألف صندوق من موالح جمهورية افريقيا من هذا الميناء سنوياً .

ومع ذلك فان النظام القائم على القسر والاخضاع والذي ينطوي على « السخرة » و « الزراعة الاجبارية » و « الترحيل » ، نظام عبثي اساساً إذ انه ينوء بثقل فادح ، ولا جدوى منه ، على سكان الثلاث مستعمرات دون ان ينجح مع ذلك في اثراء المستعمرين البيض اذ ان ارباح المشروع تعود في النهاية الى الاحتكارات الاجنبية . ولاشك أن بعض البرتغاليين من ذوي الامتيازات : مديري شركات الامتياز ، والماليين ، وكبار موظفي الحكومة ، يشاركون في هذه الأرباح وان كانت تلك المشاركة متواضعة نسبياً . وتقوم البرتغال ، رسمياً ، بالتحكم والسيطرة على الانتاج الزراعي للمستعمرات البرتغالية (البن ، السيسال ، والأذرة ، والقطن) وذلك بوساطة المستعمرين البرتغاليين المستقرين في مزارعهم (فازنداس) او بوساطة شركات الامتياز — . ولكن هذه الشركات تقع تحت سيطرة رؤوس الأموال الأجنبية جزئياً او كلياً . فان « شركة انجولا الزراعية » التي تستنزف ٨٠٪ من انتاج البن ، يملك « بنك ماليه وشركاه » (وهو بنك فرنسي) أغلبية اسهمها ، وهو ايضاً صاحب معظم الاسهم في الشركات الزراعية الاقل اهمية مثل « الشركة الزراعية

في كازنجو » و « الشركة الانجولية للزراعة » . اما اهم شركات احتكار القطن (في موزمبيق) فهي « الشركة البلجيكية العامة » واسمها المستعار «كومبانهيا جيرال دوس الجودوس » ، و « البنك البلجيكي لافريقيا » ، و « شركة الاقطان الكونغولية » ... الخ وهي تعطى جزءاً من ارباحها للادارة .

ان هذا العرض السريع يكشف بوضوح عن المصالح الحقيقية التي ينطوي عليها الاستعمار البرتغالي ، ومن شأنه ايضاً ان يفسر الموقف الذي ما كان من الممكن أن يفسر الا بذلك ، والذي تتخذه عدة دول أوروبية تستميت أمام أعلى المحافل الدولية (وخاصة هيئة الأمم المتحدة) في الدفاع صراحة أو ضمناً (بامتناعها عن التصويت) عن « العمل الاستعماري » الذي تنهض به البرتغال » . ان الاستعمار البرتغالي هو اكثر الاستعمار ردةً الى الوراء وأشدها إهداراً لكل القيم . لا بسبب طبيعته العتيقة فحسب او بسبب خضوعه للرأسمالية الأجنبية ، بل أساساً ، لأن السخرة هي أساس الاقتصاد الذي يقوم عليه ومحرك هذا الاقتصاد ، وذلك على عكس كل التجارب الاستعمارية الاخرى التي تقع فيها السخرة موقعاً ثانوياً ، على هامش أوجه نشاطها الجوهرية.

اسبانيا تفقد امبراطوريتها :

منذ بداية القرن التاسع عشر اخذت المستعمرات الاسبانية في امريكا تطالب باستقلالها واصبحت مسرحاً للقلاقل المتزايدة — . ففي ١٨٠٦ حاول ميراندا أن يقيم من نفسه سيداً على فنزويلا ، وفي ١٨٠٨ استولى بوليفار على الحكم في كاركاس ، ومن مايو الى سبتمبر ١٨١٠ نشبت ثورة مترابطة الحلقات امتدت الى جميع المستعمرات الاسبانية . وقد كانت اللحظة مواتية . فقد كانت اسبانيا تشتبك على أرضها نفسها مع جيوش نابليون . وهكذا نشبت « حربان للاستقلال » جنباً الى جنب : حرب اسبانيا ضد فرنسا ، وحرب المستعمرات الاسبانية في امريكا ضد اسبانيا . ان هذه الحرب الثانية — التي سوف نحلل

طبيعتها وتطورها في كتاب تالٍ[1] — لم يعلنها ويقودها اهل البلاد الاصليين بل أحفاد « الفاتحين » والمستعمرين الاسبانيين الأول — كما كان الشأن في امريكا الشمالية — أي أعلنها وقادها المستعمرون الذين اطلق عليهم اسم « الاقدام السوداء » ، في الجزائر . ومع ذلك فان الصراع الذي خاضه السكان البيض والمخلطون على الممتلكات الاسبانية مرّ بتطورات مختلفة وتقلبت به الصروف . ففي ١٨١٢ استعاد الاسبانيون غزو فنزويلا التي كانت قد اعلنت استقلالها في العام السابق وارغموا ميراندا على التسليم . وفي ١٨١٣ وبينما كان الاسبانيون يخضعون ثورة شيلي ، استولى بوليفار مرة أخرى على كاراكاس وعلى فنزويلا التي عادت القوات « الملكية » فاستولت عليها من جديد بعد عام . وفي ١٨١٦ أعلن مؤتمر توكومان استقلال الارجنتين . وما أن مرت سنتان (١٨١٧ — ١٨١٨) حتى نجح سان مارتان في تحرير شيلي بينما هزم بوليفار الاسبانيين هزيمة نهائية قاصمة في ١٨١٩ على نهر بوياكا ، فحرر غرناطة الجديدة . وفي نفس العام ولدت جمهورية كولومبيا . وفي ١٨٢١ أعلنت بيرو استقلالها . وفي العام التالي ، وبينما تحررت الاكوادور والبرازيل ، بدورهما ، (قطعت البرازيل علاقاتها مع البرتغال اذ سارت في غمار هذه الحركة الشاملة) وبينما كان الامبراطور اتروبيد قد ارتقى عرش المكسيك على نحو عرضي عابر ، اعترفت الولايات المتحدة الامريكية بالدول الجديدة في امريكا اللاتينية .

وفي نهاية القرن فقدت اسبانيا آخر قلاع امبراطوريتها الامريكية : الفيليبين وكوبا في ١٨٩٨ ، وقد اسهمت الولايات المتحدة اسهاماً قوياً في فصلها عن الوطن الأم . ولم تبق لاسبانيا بعد ذلك الا ممتلكاتها في مراكش التي حصلت عليها على أثر « الفتح » الكبير وبضعة أجزاء من افريقيا زهيدة القيمة مثل غينيا المسماة بالاسبانية . لقد تميز الاستعمار الاسباني ، الذي ينتمي الى النمط

(١) المؤلف : في الجزء الثاني من الكتاب : آفاق التحرر من الاستعمار .

البرتغالي ، في هذه المناطق بجموده عن الحركة ونزعته العتيقة . ان افتقار هذه التجربة الى كل ما يثير الاهتمام يدعونا الى الصمت الذي نطويها تحته .

التوازن الهولندي الحرج :

كان القرن التاسع عشر يمثل بالنسبة لهولندا فترة من فترات الجمود عن الحركة ، والنكوص نسبياً ، فنحن لم ننس في الواقع الصعوبات التي كانت تثور في مستعمرة جنوب افريقيا في بداية القرن الثامن عشر ، وظهور بريطانيا العظمى ظهوراً مفاجئاً في رأس الرجاء في ١٧٩٥ ، ولكي ندرك دلالة ذلك ، ينبغي ان نعرف انه في شهر مايو من ذلك العام كانت جيوش الجمهورية الفرنسية الثورية تحتل هولندا وتعلن فيها « جمهورية باتافيا » ولجأ جيوم الخامس ملك البلاد الواطئة الى لندن واستطاع ان يحصل من انجلترا على وعد بان تضع المستعمرات الهولندية تحت « حمايتها » . وبمقتضى هذه الاتفاقية استطاع الانجليز ان يخرجوا رأس الرجاء من دائرة النزاع . ولكن لندن ، بمقتضى معاهدة آمين الموقعة بين انجلترا وفرنسا في ١٨٠٢ ، اعترفت بجمهورية باتافيا وسلمت لها مدينة الرأس « الكاب » . وعندما استؤنفت الحرب بين فرنسا وانجلترا بعد ذلك بثلاث سنوات نزل البريطانيون مرة أخرى في خليج تابل واستقروا نهائياً في جنوب افريقيا . وفي ١٣ أغسطس ١٨١٤ ، في نطاق مؤتمر فينا الذي انعقد ليصدق على هزيمة نابليون ، وقعت معاهدة خاصة بين انجلترا وهولندا قبلت البلاد الواطئة بمقتضاها ان تسلم مستعمرة الرأس الى انجلترا مقابل مبلغ ٦ ملايين جنيه ومقابل التأييد الذي قبلت بريطانيا العظمى ان تمدها به لاعادة مملكة هولندا بعد ضم بلجيكا اليها . وهكذا فصمت آخر رابطة كانت تصل بين المستعمرين وبين أوروبا ، وأصبح شعب « البوير » شعباً مستقلاً منذ تلك اللحظة (وتعني كلمة البوير باللغة الهولندية : الفلاح) . وعندما اوصى جيوم الرابع ، في أثناء لجوئه الى لندن ، كل السلطات الاستعمارية الهولندية فيما وراء البحار أن تقبل « حماية » بريطانيا العظمى ،

فقد لقى هذا النداء اذناً صاغية في كل مكان (غيانا الهولندية في ١٨٠٣ ، سورينام في ١٨٠٦) ، الا في الهند الشرقية . ذلك أن السلطات الباتافية كانت تكنّ من عدم الثقة بالبريطانيين أكثر بكثير مما تكنه للفرنسيين . ولذلك آثرت هذه السلطات ان تعترف بحكومة «جمهورية باتافيا» التي اوفدت اليها على الفور حاكماً قوياً : هيرمن ويلم دايندلز . ولكن هذا «اليعقوبي» الاصيل تكشف عن استعماري لا رحمة عنده ، عندما اتصل اتصالاً مباشراً بالواقع المحلي . وما ينبغي ان نخدع انفسنا : ان ليبرالية «الحكومة الثورية» الباتافية هي في الواقع أمر نسبي جداً . ألم تعلن أنه ما من مجال لتطبيق مبادىء «الحرية والمساواة» في الممتلكات الهندية ، طالما كانت «في حالة التبعية الضرورية» وذلك بلاشك لبث الاطمئنان في قلوب السلطات الاستعمارية ؟ لم يكن محظوراً بلاشك أن يعبر المرء عن عطفه على العبيد ، وان لم يكن ثم مجال على الاطلاق للقضاء على العبودية «حتى يوجد نظام ارقى من المدنية العامة يتيح تحسين حياة العبيد بالتعاون مع كل الأمم الأوروبية التي لها ممتلكات فيما وراء البحار» .

وتقلد دايندلز مهام وظيفته في باتافيا ، مفوضاً من حكومة تعبر عن مشاعرها بذلك الوضوح ، وفي أوضاع لا تختلف في روحها عن تلك المشاعر . وسرعان ما أخذ في القيام باصلاحات كبيرة . كان يدين بالمركزية التي يعتنقها الثوريون الفرنسيون ، فجرد الامراء المحليين من استقلالهم وامتيازاتهم وجعلهم مجرد موظفين للحكومة الهولندية ، وعلى الصعيد الاقتصادي، نفذ دايندلز مشروعات كبيرة من أهمها شق الطرق . ولكي يحصل على الأيدي العاملة اللازمة فرض نظام السخرة ، هذا الى انه عمّم اسلوب العمل الاجباري ، وهي سياسة لا يمكن ان يزعم انتسابها الى مبادىء الثورة الفرنسية . ومع ذلك فقد كتب يبرر هذه السياسة : «كانت الطريقة الوحيدة للحصول على الضرائب من الفلاحين الفقراء في جاوه ، هي ان نجعلهم يعملون ..» اما في مناطق زراعة البن فقد كان السكان ملزمين بزراعة عدد محدد من أشجار البن ، وبايداع خُمس المحصول (البن المقشور المفروز من الدرجة الاولى)

مجاناً ، في مخازن الدولة ، بعد انقضاء خمس سنوات . والا قُسرت القرية قسراً على دفع فيمة البن نقداً . اما بقية المحصول فيشتّريه الهولنديون ، في المتاجر الرسمية بالسعر الجاري .

وشجع داينديلز ايضاً الاستعمار الخاص فباع مساحات واسعة من الأرض ، في غرب وشرق باتافيا واعطيت سلطات مطلقة لملاك الأراضي في معاملة الفلاحين كما يروق لهم . وحاول أن يبرر ذلك مرة اخرى فقال : « ان حماية العاملين لم تكن تؤدي الا الى تشجيعهم على كسلهم الطبيعي ، بينما كانت تثبط من همة المزارعين الغربيين » فيا له من « يعقوبي » غريب الشأن ! وعندما ضم نابليون هولندا رفع داينديلز العلم الفرنسي في باتافيا . ولكن خلفه ، بان ويلم يانسنس ، لم يكن ممن يستطيعون ان يصدوا الهجوم الانجليزي النهائي : فرفع راية التسليم في ٨ أغسطس ١٨١١ .

الزراعة الاجبارية :

ومع ذلك فقد كان الاحتلال البريطاني وجيز الأمد . ففي شهر أغسطس ١٨١٤ ، وبمقتضى معاهدة وقعت في موتمر فيينا ، سلمت انجلترا كل ممتلكاتها في هولندا باستثناء جزء من غيانا الهولندية ، في امريكا ؛ ومستعمرة الرأس ، في افريقيا ؛ وسيلان ، في آسيا . ولم تتم عودة الهولنديين الى باتافيا بعد خروج الانجليز ، بعد وجود الحاكم الانجليزي رافيلز ، دون عناء . فقد ضاق الجاويون ذرعاً بطغيان باتافيا فثاروا في ١٨٢٥ وشنوا مقاومة مستميتة ضد المستعمرين ، بقيادة ديبا نيجارا أمير جوج جاكارتا . وفقد المستعمرون ١٥ ألف جندي منهم ٧ آلاف أوروبي .

وفي ١٨٣٠ جاء حاكم جديد : يوهانس فان دن بوش . كان رجلاً محنكاً ، وكان قد أقام نحو ١٥ عاماً في الهند الشرقية ، وسرعان ما تكشّفَ عن قسوة لا مثيل لها . بدأ بأن حسّن بعض مناهج الاستعمار التي اقامها أسلافه وعلى

الاخص منهم دايندلز ورافيلز الانجليزي (بأن جعلها اكثر منافاة للانسانية وايغالاً في القسوة) . ثم انشأ بعد ذلك « نظام الزراعات الاجبارية » الذي شجع عليه ورعاه حق الرعاية ، هو « العمل » الذي سيظل اسمه مرتبطاً به في أذهان الاجيال التالية . وقد استلهمه البرتغاليون في نهاية القرن التاسع عشر كما رأينا . ظل فان دن بوش سيداً لا منازع لسلطانه على اقدار الهند الشرقية الهولندية ، بصفته حاكماً عاماً (من ١٨٣٠ – ١٨٣٤) ثم وزيراً للمستعمرات (١٨٣٤ – ١٨٣٩) خلال ما يقرب من عشر سنوات . واتجه تفكيره الى أن الزراعة الاجبارية من شأنها أن تنقذ مالية الدولة الهولندية التي استنفدتها حرب جاوه – مما أثقل المستعمرات بدين يزيد عن ٣٠ مليون فلورين .

ومن الناحية النظرية يبدو « نظام الزراعة الاجبارية » مثالياً . فان كل قرية محلية مدعوة بمقتضى هذا النظام الى ان تسلم للادارة الحكومية خُمس أراضيها الواطئة ، كما يلتزم كل رجل بالغ بأن يمنح الادارة خُمس عمله أي من ٦٠ الى ٦٥ يوماً من السخرة كل عام . فاذا تكامل للادارة حيازة الأرض ، والايدي العاملة ، شرعت في زراعة منتجات التصدير ومنحت العمال أجراً زهيداً . وتنقل السلع ، التي تسلم الى الدولة اجبارياً بسعر محدد سلفاً ، الى الموانيء الهولندية عن طريق سفن « شركة التجارة » (وقد حلت هذه الشركة محل شركة الهند الشرقية التي انقضى أجل ميثاقها في ٣١ ديسمبر ١٧٩٩ ولم يجدد) وتباع بالمزاد العلني . وبعد أن يحسم من ثمن البيع نفقات الادارة ، وتكاليف الشراء والنقل ، يتكون منه فائض صاف يدفع الى الخزانة الهولندية . هذا الى ان الخسائر التي تعزى الى سوء المحصول ، والتي لا يعد العاملون المحليون مسؤولين عنها ، تتحملها الحكومة . ويبدو النظام على هذا الوصف مغرياً . فهو يتيح للحكومة ان تحقق ارباحاً كبيرة ، دون أن تلجأ في ذلك الى العبودية أو نهب الأراضي . وكان فان دن بوش يعني بالأعمال الخيرية في هولندا عناية نشطة ، ولذلك فقد كان من مصلحته ان يقدم « نظامه » الى الرأي العام

في الوطن الأم في أفضل صورة ممكنة .

أما من الناحية العملية ، فان « النظام » يخفي حقائق بشعة لا يمكن الاعتراف بها ، وراء واجهة مشرقة . والواقع ان الادارة ، في تقدير فان دى بوش نفسه ، لم تكن تكتفي بالاستيلاء على خمس الأراضي المزروعة كما كان مقرراً ، بل كان في استطاعتها ان تستولي على الثلث كاملاً . اما بالفعل فقد كانت الادارة تستولي على نصف الأراضي ، مما عرض للخطر انتاج السلع الغذائية . ولم تكن فترة العمل المحددة تلقى حظاً اكبر من الاحترام : فبدلاً من أن يفرض على العاملين ان يعملوا لحساب الادارة خمس العام ، كان يفرض عليهم أن يقوموا بذلك العمل تسعين يوماً اذا كانوا يعملون في زراعة البن ، واكثر اذا كانوا يعملون في زراعات أخرى . ولم يكن للعاملين الحق الا في الحصول على نحو « مائة نحاس » في اليوم على اعتبار ان ذلك هو الاجر الكافي المقدر لهم . هذا الى انهم كانوا يقبضون اجرهم الزهيد بعد فترة تطول حتى يضطروا الى اللجوء للمرابين العرب او الصينيين الذين لم يكونوا يقرضونهم بأقل من سعر فائدة يبلغ ٢٤٠٪ . وأخيراً ، وعلى خلاف ما تقضي به القوانين المعمول بها ، فقد أرغم معظم هؤلاء العاملين على دفع رسم على الأرض . مما كان يحملهم بعبء مزدوج : الزراعة الاجبارية والضرائب .

ومن ناحية أخرى أعاد فان دن بوش نظام السخرة الذي كان قد الغاه رافيلز . فقد كان هذا النظام في رأيه هو اكثر النظم توفيراً ، لانجاز المشروعات العامة المرجوة جميعاً : الطرق ، والجسور ، والتحصينات ، ... الخ . ولم يكن يدفع للعاملين بالسخرة ، بالطبع ، أجر ما ، او كانت تدفع لهم احياناً أجور رمزية . وفي بعض المناطق كانوا يخصصون ربع يوم العمل للاعمال العامة ؛ أما في المناطق الاخرى فلم يكن يبقى لهم الا يومان في الأسبوع لزراعة أرضهم . وقد ارتفعت نسبة الوفيات بين العاملين بالسخرة ارتفاعاً ملحوظاً . وعند انشاء تحصينات جانبونج كانت الادارة تلزم العاملين بالسخرة ان يحضروا معهم أكفانهم .

كان الموقف الذي يتخذه فان دن بوش من الامراء المحليين موقفاً له دلالته أيضاً ، أبقى على وضعهم كموظفين ، كما حدده دانديلز ، ولكن ذلك كان ينحصر في نطاق علاقاتهم مع الادارة الهولندية فقط . وفي مقابل ذلك رد اليهم امتيازاتهم باعتبارهم رؤساء اقطاعيين ، حتى يتسنى لهم ان يستردوا سيادتهم على الجماهير المحلية . ثم أثار اهتمامهم بنظام الزراعة الاجبارية وأتاح لهم الاشتراك في أرباح العملية . وفي هذه الظروف سارع هؤلاء الزعماء الى الوثب للحاق بركب السلطة . فكونوا ميليشيا عسكرية خاصة بهم تقوم بحمايتهم ، وقاموا بالاشراف على عمل الموظفين التابعين لهم ، ومن ثم كانوا يطالبونهم بضرائب جديدة غير قانونية . كان الوضع الذي يتمتعون به باعتبارهم اعضاء في الطبقة الحاكمة الوراثية صاحبة الامتيازات يؤدي بهم ، بطبيعة الحال ، الى ان يصبحوا حرس المستعمرين . « كان النظام الذي انشأه فان دي بوش ، قد اشاع القلاقل وثبوط الهمة في الأدارة كلها من اعلاها الى أدناها . ومرت التنظيمات المحلية بحالة ردة الى الوراء ، وكان الشعب يعاني في صمت »[1] .

ولكن كان « للنظام » تعويض له قيمته ، فقد أتى بنتائج مالية ممتازة لقيت الرضاء التام في هولندا . ومن ١٨٣٠ الى ١٨٧٧ (السنة التي الغى فيها « النظام ») وصل الفائض الاستعماري الى مبلغ محترم هو ٨٣٢ مليون فلورين « ذهباً » على أرجح التقديرات .

مما أتاح تصفية الدين العام ، وبناء السكك الحديدية الهولندية ، وتشييد التحصينات ، وتخفيض الضرائب على الهولنديين . « لا يقدم تاريخ الاستعمار من النماذج أفضل من هذا النموذج لعاصمة تستغل مستعمرتها استغلالاً منهجياً لمنفعتها هي وحدها »[2] . ولاشك أن النظام الاستعماري الهولندي يبدو

---

(١) ادمون شاسينييه : « تقنيو الاستعمار » : فان دن بوش .
(٢) نفس المصدر السابق .

اكثر النظم الاستعمارية بشاعة ، جنباً الى جنب مع النظام البرتغالي . ويعرّف ادمون شاسينيه روح هـذا الاستعمار المـالي والتجاري ، تعريفاً دقيقاً : « اذا كانت الدولة تكسب كثيراً ، في المجموع ، فذلك لانها كانت تستحوذ على كل الأرباح ، وتترك كل الخسائر للسكان المحليين ، بأن تغفل حتى ان تدفع لهم أجراً كافياً »[1] .

القهر الرأسمالي :

في نحو ١٨٧٠ بدأ عهد جديد : العهد الصناعي . كانت السيادة الهولندية تبسط جناحيها على كل جزر الهند، وكانت السيطرة التي تفرضها عليها تزداد صلابة الى حد كبير . فقد البن والسكر غلبتهما على نحو متصل . وفي ١٩٠٠ لم يعودا يمثلان اكثر من ٤٠٪ من القيمة الكلية للصادرات ، وفي مقابل ذلك ظهرت موارد جديدة في السوق (كانت معروفة أحياناً منذ زمن طويل ولكنها لم تكن مستغلة) واخذت تحتكر السوق شيئاً فشيئاً : المطاط ، القصدير ، والبترول ... الخ . كان استثمار شجرة المطاط يعود الى ١٧٧٨ ولكن لم يأخذ انتاجها في الزيادة الا ابتداء من ١٨٧٠ . في ١٩٣٩ كانت « الهند الهولندية » ثاني منتج للمطاط في العالم ، تزوده بقدر يصل ٣٨٤ ألف طن من مجموع الانتاج العالمي البالغ ١،٠١٧،٠٠٠ طن . اما ظهور شجرة نخيل الزيت فيعود الى ١٩١٠ ، واليها تعزى رفاهية إحتكار « ليفير » . ومع أن وجود القصدير في جزيرة بنجكا ، كان معروفاً منذ زمن طويل، الا ان مستودعات بيلتون وسنجكيب لم تستثمر الا نحو ١٨٦٠ ، العام الذي انشيء فيه الاحتكار الهائل « بيلتون ماتشاكيج » وحصلت الدولة الهولندية ، ابتداء من ١٩٢٤ ، على $\frac{٥}{٨}$ من أسهم هذه الشركة ، وفي ١٩٣٩ كانت الهند الهولندية من اوائل منتجي القصدير في العالم .

---

(١) ادمون شاسينيه : « تقنيو الاستعمار » : فان دن بوش .

كانت الشركة الصغيرة التي تستثمر البترول منذ ١٨٨٣ تسمى « شركة ن.ف. كونتكليشكي الهولندية لانتاج البترول في الهند الهولندية » وكان لها امتياز في سومطرة في منطقة لانجكت ، ومن اندماجها مع « شركة شل للنقل والتجارة » ظهرت « شركة شل الهولندية » الشهيرة . وحتى ١٩٢٤ كانت « شركة شل الهولندية الملكية » تتحكم في ٩٥٪ من بترول اندونيسيا ولكن لم يبق في ملكيتها الا ٧٢٪ منه فقط في ١٩٣٩ نتيجة لاشتراك شركات امريكية في استخدام البترول وتكريره منذ ١٩٢٨ . وقبيل الحرب العالمية الثانية كان البترول يستثمر في سومطرة وجاوه وجزر مولوك . ومن ناحية أخرى امتصت البنوك باطراد جزءاً كبيراً من صناعة السكر ، فنلاحظ أنه اذا كانت مصلحة المزارعين تسيطر على سياسة الحكومة في ١٨٧٠ ، فان « مصلحة الماليين والرأسماليين » هي التي تسيطر عليها في ١٨٨٥ كما يقول أ. فون أزكس . وأخذ الأجانب بدورهم يستثمرون رؤوس أموالهم . ففي ١٩٣٩ كانت رؤوس الأموال المستثمرة في المشروعات الخاصة تتوزع (بالنسبة لمجموع الهند الهولندية) على النحو التالي : رؤوس الأموال الهولندية ٦٦٪ والبريطانية ١٠٪ والامريكية ٨٪ والفرنسية البلجيكية ٣,٤٪ .

أدت الثورة الصناعية الى مولد « الليبرالية الاقتصادية » . واذا لم تقترن هذه الليبرالية بليبرالية سياسية (مما ثبت انه اكثر جدوى) فانها مع ذلك قد أدت الى ظهور تعديلات في الهند الهولندية استفاد منها جزء كبير نسبياً من السكان الاصليين ، بطريق غير مباشر . كان الصناعيون الهولنديون الراغبون في تصدير منتجاتهم المصنوعة يطمحون الى تحويل الهند الهولندية الى سوق كبير . ولكنه كان ينبغي عليهم ، ليتحقق ذلك ، أن يرفعوا من القوة الشرائية للسكان الاصليين . وهو ما لم يكن يستطيع ان يقبله المصرفيون الهولنديون الذين استثمروا رؤوس أموالهم في جزر الهند والذين كان يهمهم أن تهبط أسعار التكلفة الى ادنى حد ممكن .

وخرج أصحاب المصانع منتصرين من هذا الصراع الذي شب بين

الطائفتين الرأسماليتين المتنافستين ، وبدأت الحكومة منذ ١٩٠٠ ، تنتهج سياسة سميت بسياسة « اجتماعية » ، في رفق وعلى استحياء ، وكانت هذه السياسة تنحصر في تنمية أعمال الري وتطبيق برنامج يتعلق بالصحة والتعليم. ولم تعرف هذه السياسة نجاحاً حقيقياً الا في ميدان الصحة وان ظهر عجزها عن القضاء على اكثر « الامراض » انتشاراً : سوء التغذية . اما الاجراءات الاخرى فلم تنتفع منها الا الاحياء الأوروبية أو المناطق التي تتعلق بها المصالح الأوروبية الكبيرة . فلم يتم انجاز مشروعات الري الا لخدمة مزارع قصب السكر ولم يستفد منها السكان المحليون الا في المناطق التي كان يزرع فيها الأرز وقصب السكر بالتناوب . وهكذا نلاحظ ان « الخط العام » للسياسة الاستعمارية الهولندية لا يتغير قط ولا ينحرف قيد أنملة . فلم يجر أي تعديل ولم يطرأ أي تحسين الا لخدمة مصلحة المستعمر المباشرة . وعلى الرغم من الاختلافات بين اصحاب المصانع واصحاب المصارف الهولنديين فانهم كانوا متضامنين جميعاً ومتفقين كل الاتفاق على نقطة واحدة : لن يدخل التصنيع في الهند الهولندية بأي ثمن ! ولو كان الأمر غير ذلك ، ألم يكن الاقتصاد الهولندي ليعاني من أضرار جسيمة ، وهل كانت لتبقى حالة التبعية التي وجدت فيها الهند الهولندية بازاء هولندا ؟ لم يسمح اذن الا بظهور صناعات ثانوية صغيرة في مناطق فيما وراء البحار : صناعات تحويلية للمنتجات الزراعية : مضارب الأرز ، مصانع جمع المطاط ، والشاي ، ومصانع تكرير السكر وطحن البن الخ...

وقبيل الحرب العالمية الثانية ، كان اقتصاد الهند الهولندية يبدو إذن اقتصاداً استعمارياً نموذجياً : العاصمة تزوده بروؤس الأموال والسكان الاصليون يقومون بالعمل . ومع ذلك ففي ١٩١٦ اضطر الهولنديون تحت ضغط قومية جديدة ناهضة الى ان تمنح الاندونيسيين بضع امتيازات سياسية ضعيفة . فأنشأوا في ١٦ ديسمبر ١٩١٦ « مجلس الشعب » (الفولكسراد) . ولكن ذلك يدخل في نطاق التحرر من الاستعمار وسوف نعود اليه فيما بعد [1] .

(١) المؤلف : في الجزء الثاني من الكتاب « آفاق التحرر من الاستعمار » .

٢. تغير الاستعمار التقليدي

المرحلة الثانية للتوسع الفرنسي :

استعادت فرنسا نَفسها الاستعماري الثاني في نحو ١٨٣٠ . كانت حرب السبع السنوات ، كما قلنا ، قد أفقدتها تقريباً كل مستعمراتها باستثناء بعض جزر في الانتيل ووادي السنغال وخمسة مرافق تجارية في الهند . وقبل ان تنهض من هذه الكارثة الاستعمارية التي صدّقت عليها معاهدة باريس (١٧٦٣) ، مرت فرنسا بزلزال جديد داخلي هذه المرة ، هو الثورة . ومن بين الانقلابات التي ترتبت على الثورة ، ظهرت اتجاهات ترمي الى تحرير المستعمرات ، وان كانت هذه الاتجاهات قد قمعت منذ ان استولى بونابرت على السلطة ، وقضي عليها تماماً في عهده . كانت حجة « الدفاع » عن سلامة الأراضي الاقليمية » هي التي افضت بالقنصل الأول الذي أصبح الامبراطور بعد ذلك ، الى القيام بسلسلة من الحروب في القارة مما حال دونه وان يهتم بأي توسع آخر . « لا شك أن سحر الشرق كان قد أغراه في بداية الأمر وان كان ذلك بغرض واحد هو تأسيس امبراطورية فيما لو خسر الحكم في فرنسا ، وقد قام بحملة مصر ، ثم نفض يديه من أمرها ، وهجرها بهذه الروح نفسها »[1] .

---

(١) مارك لامونيير : تاريخ الجزائر مصوراً .

وبعد سقوط نابليون لم تغامر الملكية العائدة بالقيام بحملات باهظة الثمن من حيث الرجال والأموال ، ومن ثم كان الاستيلاء على الجزائر نتيجة تآلف ظروف استثنائية حقاً . ونحن نعرف الحجة ، والتطورات : تلك الضربات الثلاث من مذبة حسين داي الجزائر لقنصل فرنسا ديفال وهو شخصية غامضة الى حد كبير .

كانت تلك هي النهاية الوحشية للصراع المكتوم الذي دار منذ قرون طويلة بين ولاية الجزائر وفرنسا . كانت غارات القراصنة « البربريين » على سواحل فرنسا وكل أوروبا الموسطية ، تتخذ من الجزائر بالفعل منطلقاً لها ، وكانت ثروة الداي وبلاطه العثماني تعود أساساً الى عمليات السلب والنهب المنهجية وخطف العبيد التي تتم ، بهذه المناسبات ، في البلاد الواقعة على ساحل بحرنا . وكانت عملية عقاب الجزائر تغري الملوك الأوروبيين منذ زمن طويل ، وان كان ذلك لم يفض الى نتيجة ، فقد شارلكان في ١٥٤١ ربع اسطوله في احدى هذه المحاولات ، وكان هنري الرابع ، وريشلييه ولويس الرابع عشر ، قد حاولوا ، كل بدوره ، أن يهدد الجزائر ويشن عليها حملات تأديبية فشلت جميعاً . وقد أنذر بونابرت بنفسه الجزائر في غير رفق : « سوف أنزل ٨٠ ألف رجل على سواحلكم وأدمّر ولايتكم » ولكن مشاغل اخرى صرفت اهتمامه عن هذا المشروع .

ومن المفهوم ان هذه الهزائم المتتالية قد أكدت عند حسين بك شعوره بأنه لا يقهر ، وأتاحت له ان يتخذ هذا الموقف القاطع الذي لا هوادة فيه . هذا الى أن بعض المسائل القديمة المتشابكة المتعلقة بمدفوعات لم تؤدها فرنسا كانت موضعاً لشكوى الداي من باريس . ومن ناحية اخرى يمكن أن نفسر جرأة الجزائر بأنها كانت تتبع ، ولو نظرياً ، الباب العالي الذي كانت تعتمد على مساعدته في حالة نشوب الصراع اعتماداً يتضمن قدراً أكثر مما ينبغي من حسن النية .

وبعد « ضربات المذبة » في ١٨٢٧ كان الملك شارل العاشر مستعداً لأن

يكتفي بالاعتذار ، فلم يكن في نيته القيام بحرب ، ولكن الداي رفض الاعتذار مطمئناً الى منعَته ، وفي اغسطس ١٨٢٩ اطلقت ثمانون طلقة مدفع على سفينة برلمانية فرنسية من مدينة الجزائر . كان هذا التحدي حاسماً . وحملت حكومة بولنياك شارل العاشر على التدخل ، ووافق مجلس الوزراء في ٣١ يناير ١٨٣٠ على الحملة التي خرجت للاستيلاء على مدينة الجزائر . «كانت الاستفزازات ، المبررة الى حد ما ، والتي قام بها الداي حسين ، تقوم مقـام الحجـة التي يستند اليها الوزير بولنياك . كانت الحكومة عاجزة عن ان تحل مشا كلهـا الداخلية وأن تتأقلم مع التطور الطبيعي لليبرالية ، وكانت قد فشلت في « مشروعها الكبير » لاعادة توزيع أوربا ، فأحست بحاجة الى ايجاد طريق جديد ينصرف اليه خيال الشعب في اللحظة التي تبدأ فيها الحملة الانتخابية ، وقامت بحملة تفتقر بوضوح الى كل مصلحة مادية ولكنها تهدف الى رفع مكانة النظام الذي كان قد ابتدأ يتخلخل »[1] .

كانت أغلبية الرأي العام الفرنسي لا تبالي بالحملة ، بل تعاديها . فقد كان الرأي العام ، بعد الكارثة الاستعمارية في ١٧٦٣ وبعد هزيمة نابليون ، قد سئم الحرب وكان يخشى نتائج كل « مغامرة » جديدة . وكان لأثر فلاسفة القرن الثامن عشر ، ولذكريات الاتجاهات المناهضة للاستعمار التي اتسمت بها الثورة ، دورها أيضاً في رفض الرأي العام للمغامرة وخشيته من تجديد « أخطاء الماضي » . ألم يكن مونكييه قد كتب على التحديد : « ان الاثر الطبيعي للمستعمرين هو اضعاف البلاد التي يأتون منها دون تعمير البلاد التي يرسلون اليها ، ويجب ان يبقى الرجال حيث هم » ؟ . بل كان البعض من رجال الحرب انفسهم ينصحون بعدم القيام بهذه الحملة ومنهم رجال محافظون مثل بوجو اتضح فيما بعد انهم من غلاة المستعمرين ، وذلك لأسباب عسكرية بحتة ، فقد كانوا يتوقعون الفشل .

---

(١) مارك لامونيير : تاريخ الجزائر مصوراً .

لم يكن يقر المشروع الا الكنيسة ، مع بعض الملكيين « المتطرفين » من غلاة الرجعيين . وذلك لسببين : كانت الحملة تتيح للكنيسة فرصة « حرب صليبيّة جديدة في أرض مسلمة » ، وتسهم ، فيما تظن ، في تدعيم نظام الملكية الشرعية الذي كان يخلص الولاء لمصالح الكنيسة . وبعد الاستيلاء على الجزائر ، قال المونسنيور دي كويلين ، أسقف باريس ، بالفعل : «كانت ثلاثة أسابيع فيها الكفاية لاذلال هؤلاء المسلمين الذين بلغوا ذلك الشأو من الامتياز ، وتحويلهم الى أطفال ضعفاء . وهكذا ينبغي ان يعامل أعداء سيدنا وملكنا في كل مكان ودائماً ، وهكذا سوف يندحر كل من يجرؤ على الثورة عليه » .

غزو الجزائر :

ان احداث الاستيلاء على الجزائر معروفة وشائعة . في ١٤ يونيو ١٨٣٠ نزل في خليج سيدي فروج ٣٧ ألف رجل ، وفي ١٩ منه هزموا القوات التركية والعربية والقبلية التي كانت تحت إمرة الداي ، وبعد عشرة أيام هاجموا « قلعة الامبراطور » التي سميت بهذا الاسم في ذكرى شارلكان ، وانتصروا . وفي ٥ يوليو سلم الداي وأخلى الجزائر والقصبة . لم يكن الاستيلاء على الجزائر في أول الأمر يقصد به الا ان يكون اجراء تأديبياً ، ولم تفكر حكومة بولنياك اطلاقاً في الاحتفاظ بالمدينة ، بل كفل قائد الحملة ، الجنرال دي بورمون « للسكان » من كل الطبقات ، احترام حريتهم وديانتهم واملاكهم وتجارتهم ونسائهم .

ولكن « الأيام الثلاثة المجيدة » جاءت في هذه الأثناء ، وفر شارل العاشر ، وأعيدت ملكية يوليو . كانت وجهة نظر الحكام الجدد تختلف عن وجهة نظر سابقيهم . فقد ورثوا هذه التركة بما تنطوي عليه من حرج (الاستيلاء على مدينة الجزائر) فقرروا على الرغم من ذلك الابقاء عليها . وتحولت الحملة التأديبية الى « احتلال محدود » وهكذا ابتدأ السيناريو التقليدي للاستعمار

يتصاعد درجات . واتخذ الجيش الفرنسي مظهر « الجيش المحرر » امام السكان الأصليين ، الذين كانوا يخضعون للربقة العثمانية خضوعاً مشيناً ، وبدا أن كل ما تحرص عليه فرنسا هو طرد « الاتراك المكروهين » . ولكن رجال القبائل ، والعرب لم يقعوا ضحية لهذه الخدعة في الاخراج السينمائي ، فاذا كانوا يطمحون بالفعل الى أن يرحل الأتراك فلم يكونوا يرغبون اطلاقاً ان يحلوا محلهم احتلالاً جديداً . وعلى ذلك لم تلق الدعاية الفرنسية الا قدراً هيناً من النجاح .

وما لبث ان تأكدت شكوك الجزائريين عندما بدأ المارشال كلوزيل « نظام الحرب » الذي يتناقض تناقضاً صارخاً مع سياسة الاحتلال المحدود كما تحددت في ١٨٣٥ . واستمر « نظام الحرب » الذي أنشأه كلوزيل فترة سنتين (١٨٣٥ — ١٨٣٦) وثبتت سهوله تطبيقه نسبياً على اثر تحقيق انتصارين : الاستيلاء على مدينة مسكرة ، واحتلال تلمسان ، وعلى أثر فشل جسيم أيضاً ، هو الهزيمة في سيدي يعقوب ، فقد كان الخصم هنا قوياً : الأمير عبد القادر . فقد وقع الفرنسيون في الحصار في راشجون فلجأوا في النهاية الى بوجو وطلبوا حملة تأديبية من فرنسا . وألحق بوجو الهزيمة بعبد القادر في (السكك) ، في ٦ يوليو ١٨٣٦ ، واقلع عائداً على الفور . أما كلوزيل فقد استمر يلقى الفشل به تلو الفشل ، حاول أن يستولي على قسطنطينة ، وتحت امرته ٧٤٠٠ رجل ، ففشل وفقد سُبُــع قواته . وعلى اثر ذلك استدعي الى فرنسا وتوقف « نظام الحرب » .

ولكن سياسة « الاحتلال المحدود » التي استؤنفت من جديد ، فشلت بدورها ، لسببين رئيسيين : زيادة قوة الأمير عبد القادر ، وامتداد السيطرة الفرنسية التي كانت تتضمن انتهاك المعاهدة الموقعة معه . ومع أن فرنسا اعلنت أنها لا تريد الا الاحتفاظ باحتلال المنشآت البحرية : (الجزائر ، ووهران ،

(١) أشار اليه شارل ـــ اندريه جوليان : تقنيو الاستعمار « بوجو » .

وبون مع اقاليمها) فان جيشها كان يتغلغل الى الامام دون توقف في المناطق الخاضعة لحكم الامير عبد القادر ، فاصطدم به في النهاية ، وعندئذ بدا أن الاحتلال المحدود أمر « عبثي » فالقي به في طوايا النسيان ولجأت الحكومة عندئذ الى الجنرال بوجو « الرجل الوحيد الذي هزم عبد القادر » .

كان توماس – روبير – بوجو دي لابيكونيري رجلاً من أشراف الاقاليم ، الجفاة ، وكان يحمل رتبة كولونيل في عهد الامبراطورية ، وكان رجلاً مندفعاً ، متماسك الشخصية لا تخلخل فيه ، يتصف بمثابرة وإصرار تكاد ترتفع الى مصاف العبقرية . وقد برز اسمه في اثناء الحرب ضد اسبانيا نتيجة للمذابح التي اوقعها بالوطنيين الاسبانيين . كان فيه ما يشبه الارهاص بالمارشال بيتان ، وكان يمكن ان يكون شعاره « العائلة ، الوطن ، العمل ، الدين » وكان مناهضاً للديمقراطية على نحو حاسم ، وقد غضب مما فكر فيه البعض من « تعليم الشعب » فأعلن صراحة « ان الأمة لا يمكن ان تعيش الا بالعمل الشاق الذي لا يترك للرجال في الحقول والمصانع ، لا وقت الفراغ ولا المقدرة على الدرس » وكان ايضاً عدواً لدوداً لأصحاب الايديولوجيات والديمقراطيين في ذلك العصر . فكتب الى تيير في ذلك الصدد ، في ٥ أغسطس ١٨٣٦ : « أرسلهم الي اذا استطعت وسأبقى في افريقيا لكي اقتلهم . وستكون في ذلك خدمة عظيمة للبلاد » . ومن ثم فان بوجو هو الرجل القادر على شن حرب شاملة .

ومع ذلك فقد كنا رأيناه يعارض « الاستيلاء على مدينة الجزائر » وبعد ذلك كان يناصب العداء ، صراحة ، تطبيق سياسة « الاحتلال المحدود » وبصفة عامة بقاء فرنسا في الجزائر ، وقد قال لتيير ، في ٣١ ديسمبر ١٨٤٦ : « سوف يتحتم علينا ان نغادرها (الجزائر ..) سواء شئنا أم أبينا ، ان عاجلاً ، وان آجلا » . وفي ذلك صدقت نبوءته ، في نهاية الأمر . ولكن ما الذي دفع به الى العدول عن رأيه فجأة والى الانحياز الى جانب الغزو « المطلق » وجانب « حرب ضارية تقوم بها قوات كبيرة » ؟ لا شك أنه كان يعتقد أنه من الأفضل

لفرنسا ، ما دامت قد انخرطت في تلك المغامرة دون أمل في الرجوع ، أن تقوم بالتجربة حتى مداها وأن تجني منها كل الميزات الممكنة . ومنذ تلك اللحظة أصبح من غلاة انصار « القرار الى الأمام » .

ظل بوجو سبع سنوات حاكماً عاماً للجزائر (من فبراير ١٨٤١ الى سبتمبر ١٨٤٧) وابقى في افريقيا قوات تتراوح بين ٨٣ ألف و ١٠٨ ألف رجل ، وبفضل السلطات المطلقة التي كان يتمتع بها والقوات الكبيرة التي كانت تحت إمرته ، وبفضل الوقت الذي لم تكد تكون له حدود تقريباً والذي أتيح له ، استطاع في النهاية أن يروّض خصمه : الأمير عبد القادر . وان كان قد تحتم عليه حتى يبلغ هذه الغاية أن يلجأ الى اساليب بلغت من القسوة حداً لا يضارع . لقد مارس « حرب التدمير والتخريب » وكتب في تبرير ذلك : « لا ينبغي أن نجري وراء العرب ، بل يتحتم أن نحول دونهم وان يبذروا البذار أو يحصدوا المحصول أو يرعوا الماشية » كان يحكم على المناطق المتمردة بالتخريب الشامل المنظم . «كان يعتبر التخريب الشامل اسلوباً من أساليب الحرب المشروعة التي لا غنى عنها»[1] . وقد شرح ذلك بنفسه باسلوب على غاية في الاقناع : « ليس هناك ما يمكن الاستيلاء عليه في افريقيا الا مصلحة واحدة هي المصلحة الزراعية ، وان كان ذلك أصعب فيها منه في أي مكان آخر ، ذلك انه لا توجد قرى ولا مزارع ، وقد فكرت في ذلك طويلاً ، عند اليقظة وعند الرقاد : ولم استطع ان أكتشف طريقة اخرى لاخضاع البلاد الا بالقضاء على تلك المصلحة » .

وقد ترجمت هذه التأملات عن نفسها في الواقع ، عن طريق المذابح والحرائق والسلب والنهب . وما زالت خطابات سان ــ أرنو تحتفظ لنا بصورة مما كانت عليه حملات « استتباب السلام » التي قام بها بوجو . فقد كتب في ٥ ابريل ١٨٤٦ : « اننا نحرق كل الدور وكل القرى وكل المخابيء » ، وكتب في ٧ منه يقول : « احرقنا كل شيء ودمرنا كل شيء . آه يا للحرب ! .

(١) أشار اليه شارل ــ اندريه جوليان : تقنيو الاستعمار « بوجو » .

كم من النساء والأطفال الذين لاذوا بثلوج جبال أطلس ماتوا فيها من البرد والحاجة ». وكتب في ٥ يونيو من العام نفسه : « اننا ندمر ، ونحرق ، وننهب ، ونخرب البيوت وندمّر العرب . اما المعارك فتقل شيئاً فشيئاً » وكتب سان – أرنو في ٨ فبراير ١٨٤٣ : «كانت الساعة الثانية . وكان الحاكم قد رحل ، كانت النيران التي ما زالت مشتعلة في الجبال تدلني على اتجاه سير طابوره ... كانت أكوام الجثث مكومة بعضها فوق بعض ، مع الذين تجمدوا برداً وماتوا خلال الليل . كان أولئك هم سكان بني ناصر التعساء . كانوا هم الذين أحرقت قراهم وأكواخهم وطاردتهم ». ويقرر الكولونيل مونتانياك في ٣١ مارس ١٨٤٢ ان النساء الاسيرات كن يحتفظن بهن « رهائن » ، وكان يتم التبادل على بعضهن « في مقابل الخيل ، ويباع البعض الآخر بالمزاد العلني » . وفي ١٨٤٥ يخنق الجنرال بيلسييه بالدخان نحو ألف عربي في كهوف « ضهرة » وبعد ذلك ببضع شهور يقوم سان – أرنو بالعمل نفسه بازاء ١١٠٠ شخص من سكان نفس المنطقة ويكتب : « لم يهبط أحد في داخل الكهوف ، لا أحد ... سواي ، وجاء ذكر كل شيء في تقرير سري مرفوع للمارشال ، ببساطة ، دون صور شاعرية ودون إغراق في التصوير » .

وبفضل هذه الأساليب التي لا شك اطلاقاً في في فعاليتها استطاع بوجو ان يشل قوة الامير عبد القادر بعد سبع سنوات من الكفاح المستميت . وعندما رحل بوجو نهائياً عن افريقيا في ٥ يونيو ١٨٤٧ كان خصمه معزولاً تماماً ، وعلى استعداد للخضوع ، وانتهى بأن سلم نفسه الى الجنرال لاموريسيال والدوق دومال الحاكم العام الجديد . واذا كان الامير عبد القادر قد قبل ان يسلم نفسه ، فذلك ثقة منه بكلمة لاموريسيال والدوق اللذين وعداه وعداً وثيقاً بأن يسافر الى مصر حيث يتمتع بحريته . ولكن الفرنسيين نكثوا بهذا الوعد وزجوا بالأمير عبد القادر في السجون في فرنسا ، في قلاع تولون ، وباو ، وامبواز ، على التعاقب حيث رد اليه الامير – الرئيس لويس نابليون حريته في النهاية .

مستودع التسول في اوروبا :

بعد أن تم غزو الجزائر ، بدت البلاد اكثر فقراً واكثر عوزاً عن ذي قبل . ان الحساب الختامي المروع لهذه الحرب يتلخص في بضع عبارات نستخرجها من التقرير الشهير الذي كتبه اليكسيس دي توكفيل في ١٨٤٧ : « وضعنا ايدينا في كل مكان على هذه الايرادات (ايرادات الاوقاف الدينية التي تخصص لتلبية حاجات البر أو للتعليم العام) وحولنا جزءاً منها عن الأغراض التي استخدمت فيها منذ القدم . خفضنا عدد منشآت البر ، واهملنا المدارس ، وطردنا طلبة المعاهد الدينية . كانت الأنوار تنطفىء حوالينا ، وتوقف التحاق الناس بمعاهد الدين والقضاء . اي أننا جعلنا المجتمع الاسلامي اكثر فقراً واكثر جهلاً واكثر بربرية وافتقاراً الى النظام مما كان قبل ان يعرفنا » . واسهم الاستعمار في زيادة حدة العوز وفي تجريد السكات الاصليين من كل ثروة ثقافية .

بدأ الاستعمار منذ سنة ١٨٣٠ ، وكان المعمرون يأتون في تلك الفترة من بين المتسولين والعاطلين في اسبانيا وفي باليارس وفي مالطه وفي ايطاليا الذين جاءوا ينضمون الى صفوف العمال الباريسيين أو المهاجرين الالمان والسويسريين . كان المرشال كلوزيل : « الذي ولد مستعمراً » قد حصل على ملكيات شاسعة من الأرض بأسعار زهيدة للغاية فحاول ان يجعل من ميتيجا « مستودع المتسولين في اوربا » ومع ذلك فقد فشل هذا الاستعمار الاول ، لأن « الزراعة الاوربية كانت تنمو أبطأ مما تنحسر به الزراعة العربية التي ضيق عليها الخناق استقرار وانشاء المؤسسات الاوربية الاولى[1] » . كان عدد الاوربيين في ذلك العهد يبلغ نحو ٢٥ ألف شخص منهم ١١ ألف فرنسي.

وعند نشوب الحرب من جديد في ١٨٣٩ محي هذا الاستعمار محواً . وفرض الحاكم العام بوجود على الفور فكرته الخاصة عن الاستعمار : كان

---

(١) شارل ــ روبير اجيرون : تاريخ الجزائر المعاصرة .

العسكريون هم وحدهم القادرين على الاستعمار ، في رأيه . وهكذا طارد المعمرين المدنيين وصب عليهم حقده واضطهاده وحاول ان يقيم مستعمرات من الجنود ، ولكن جهوده انتهت بفشل ذريع : «لم يستطع قط ان يعطي محاولاته السعة والشمول اللذين كان يرغب فيهما واضطر الى الاكتفاء بمحاولات جزئية في الساحل و « ميتيجا » بين ١٨٤١ ، ١٨٤٤ وفي « عين فوقه » على أيدي الجنود المُسرَّحين ، وفي بني مريد ومحلة على أيدي قوات عاملة . ولكن الفشل في كل مكان كان مدوياً، فهجر المستعمرة في « عين فوقه » ٩٩ من ١٤٧ معمراً اذ لم تكن الأغلبية منهم تعرف كيف تمسك بالفأس ولا أن تقود المحراث »[1] .

سرعان ما اسقطت هذه التجارب الشاذة ، وعاد الاستعمار المدني . واصبحت الجزائر (منذ ان اتضح ان فرنسا قد استقرت فيها نهائياً) مستعمرة إسكانية ، على عكس الممتلكات الفرنسية الأخرى ، كانت بقعة زيت الاستعمار الأوروبي اذ تتسع رقعتها تطرد الفلاحين الجزائريين باستمرار وتخرجهم عن أراضيهم . وكانت كل الحجج صالحة لطردهم منها . وضعت الادارة يدها في بداية الأمر على الأموال الخيرية « الأوقاف العامة » ، ثم وضعت الحراسة على ممتلكات الذين نفوا انفسهم من البلاد ، واراضي القبائل المتمردة . وبعد ذلك اعلنت أراضي الوالي التركي والاراضي غير التابعة للجهات الدينية « ملكية للدولة » . ولتتويج ذلك كله أخذت السلطات الفرنسية تجمّع القبائل وتصادر الملكيات ووصل الأمر بها في الحقيقة الى القيام بعمليات سلب حقيقي . ففي منطقة مدينة الجزائر استولت الدولة على ٩٥ ألف هكتار من ١٦٨ ألف هكتار ، منها ٣٧ ألف للأوروبيين . و ١١٫٥٠٠ فقط للمسلمين ، ونزلت طبقة الفلاحين العرب الى درك من العوز بلغ من الجسامة والشمول حداً لا يكاد يحيط به وصف . فقد كانوا ضحية للتجريد المستمر من الأراضي ، وزاد الأمر سوءاً أن أخذ الفلاحون الفقراء يبيعون ما بقي لهم من أرض .

(١) شارل ــ اندريه جوليان : تقنيو الاستعمار «بوجو» .

الاتجاهات الثلاثة للتمثّل :

عند رحيل بوجو كان يوجد في الجزائر ١٥ ألف معمر في الريف من مجموع ١٠٩,٤٠٠ أوروبي منهم ٤٧,٢٧٤ فرنسي . أما سكان الجزائر الاصليون فقد كان عددهم ثلاثة ملايين. كان المستعمرون الاوروبيون يدركون الخطر الذي يتمثل في هذا العدد الكبير من السكان الاصليين، ولكنهم كانوا يدركون ايضاً القوة النسبية التي بدأوا يمثلونها ، فسرعان ما اخذوا يطالبون بامتيازات « للفرنسيين الخلّص » وكتب أحدهم في ١٨٤٥ يقول : « من أولى الضرورات ان يعلن القانون ان الجزائر جزء مكمل لا ينفصل عن الأراضي الفرنسية . ولا ينبغي ان يستكين المعمرون ولا الصحافة الى الراحة حتّى تتحقق هذه النقطة الهامة الرئيسية » .

فهذه إذن مشكلة التمثل دون أن يكون قد اطلق عليها هذا الاسم . ولكن ما من مشكلة ترتب عليها من المتاعب وسوء الفهم ما ترتب على هذه المشكلة . فالتفسير الذي تفهم به السلطات ، والمعمرون الاوروبيون ، والرأي العام في فرنسا ، مشكلة التمثل ، سوف يتخذ ثلاثة اتجاهات متباينة ان لم تكن متناقضة ، فبالنسبة للحكومة الاستعمارية كان التمثل يعني الاغتراب الأساسي لضحية الاستعمار (أي انتزاعه من بيئته الثقافية وتدمير قيم حضارته) وفرض قوانين المستعمر ولغته وعاداته عليه دون ان يمنح أي حقوق او امتيازات . كان لهذا الشكل من أشكال التمثل ميزة تجريد المستعمرين (بفتح الميم) من شخصيتهم واخضاعهم بالتالي بشكل أشمل. وهو ما اعترف به جيروم نابليون وزير الجزائر ، بسذاجة أو بسخرية ، (فكيف نعرف ؟) إذ يقول في خطاب مؤرخ في ٣١ أغسطس ١٨٥٨ : « نحن بازاء قومية مسلحة وحية ينبغي إطفاء جذوتها عن طريق التمثّل » . واضاف الى ذلك أن الهدف الوحيد الذي ينبغي السعي اليه هو « تفتيت الصلات التي تربط القبيلة بعضها بالبعض ، للوصول الى تفكيك أوصال الشعب العربي ، ثم الاندماج ».. بينما كان الكسيس دي توكفيل يقترح في تقريره ١٨٤٧ شيئاً يناقض ذلك على خط

مستقيم « لا ينبغي ان ندفع الجزائريين الى طريق حضارتنا الأوروبية في الوقت الراهن ، بل ينبغي ان ندفعهم في اتجاه حضارتهم الخاصة » .

اما عند المعمرين الاوروبيين فقد كان التمثل هو احتكار كل الحقوق والميزات التي يتمتع بها المواطن الفرنسي ، لصالحهم وحدهم ، دون ان يتضمن ذلك بالضرورة اطاعة توجيهات سياسة فرنسا العاصمة عندما لا تعترف هذه السياسة بمصالحهم الشرعية . اما التمثل عند الرأي العام في فرنسا فهو ليس ما يعود بثمرات الحضارة الفرنسية على السكان الاصليين وما يجعلهم يكسبون قيم الحضارة الأوروبية فقط بل هو أيضاً ، قبل كل شيء، وصولهم الى المساواة في الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها المواطن الفرنسي . ولذلك فان الشعب الثوري في باريس في غداة ١٨٤٨ ، هتف ، عن اخلاص وحسن نية ، محبذاً صدور الدستور الذي يعلن الجزائر « جزءاً لا ينفصل عن الأراضي الفرنسية » ووضعها تحت حكم القوانين الفرنسية . ومع ذلك فقد هتف المعمرون تحبيذاً لهذا الدستور من كل قلوبهم ، ولكن لسبب آخر . ألم يكونوا يتصورون في الواقع ان ثورة ١٨٤٨ سوف تخلصهم نهائياً من التدخل العسكري وتعطيهم السلطة ؟ ان هذا المثال البسيط يوضح مدى جسامة الخلط وسوء الفهم الذي لم يتوقف لحظة واحدة ، ولم يفتأ يسمّم العلاقات القائمة بين الحكومـــة المركزية ، والأوروبيين في الجزائـــر ، والفرنسيين في الوطن الأم .

دُوَار نشوة الانفصال :

كانت عداوة المعمرين بازاء العسكريين عداوة موْرثّة الأوار وستظل كذلك حتى النهاية ، والحوافز وراء هذه العداوة مختلفة ، فالسكان الاوروبيون بصفة عامة في الجزائر لا يعترفون للجيش الا بفائدة واحدة : هي الدفاع عنهم ضد العدوان المحتمل من السكان الاصليين . ولكنهم كانوا دائماً يخشون في مقابل ذلك ان يتخذ العسكريون من ذلك حجة لحكمهم . كانت ذكرى

الفترة التي حكم فيها بوجار ذكرى حاسمة في هذا الصدد ، هذا الى ان الجيش يمثل في أعين الاوروبيين في الجزائر السلطة المركزية في فرنسا الأم وهي في أعـين الاوروبيين سلطـة عاجزة قاصرة عن ان تحل مشاكلهم وتحافظ على مصالحهم ، ولم ينس المعمرون الاوروبيون ايضاً ان العسكريين هم أصل انشاء « المكاتب العربية » وانهم هم عملاؤها النشطون . إلا أن لهذه « المكاتب العربية » نقيصة واضحة في أعينهم لانها في أغلب الاحيان تقف الى صف السكان الاصليين وتحابيهم عامة بكل أجراءات الكفالات.

ومن ناحية اخرى كان الاوروبيون الجزائريون يعترفون ، فطرياً ، بقدر اكبر من الصلات مع الجزائريين عما يعترفون به من صلات مع فرنسيي الوطن الأم ، في الحدود التي تحترم فيها علاقات السادة بالعبيد احتراماً صارماً كما هو واضح . ان ما لم يسلم به المعمرون « والبيض الصغار » في المدن ابداً هو إثراء الفرنسيين في العاصمة الأم بفضل موارد الجزائر ، إذ يرون انهم هم وحدهم (الاوروبيون في الجزائر) هم الذين لهم الحق في الانتفاع بهذه الميزات المترتبة على الاستعمار . ومن هنا جاءت معارضتهم بغير شرط ولا قيد (أليس في ذلك مفارقة ؟) لوضع الجزائر في موضع استعماري يجعلهم يعتمدون تماماً على الوطن الأم . وهم لن يقبلوا الجزائر الفرنسية الا بشرط ان يقوموا بادارتها بانفسهم ، لتحقيق مصالحهم ، وان يفرضوا سياستهم على الوطن الأم . لا شك أنهم يقبلون الاستفادة من ميزة التأييد التي تمدهم بها فرنسا ، نعم ولكن على الا يكون ذلك على حساب حرمانهم من الرقابة والتحكم . وقد سمعنا من قبل المستعمرين الانجليز في امريكا الشمالية والهولنديين في جنوب افريقيا يلجأون الى المنطق نفسه .

كان من شأن هذا الموقف ان يعرض الجزائر عدة مرات للتردي نحو هوة الانفصال . وهو ما حدث على الاخص ١٨٧٠ . فمنذ ١٨٦٣ أخذ الاوروبيون في الجزائر يؤكدون انهم جميعاً جمهوريون ، كراهيةً لنابليون الثالث . هذه الكراهية التي لا صلة لها بلاشك بالحوافز التي كانت تدعو

فيكتور هيجو او الديمقراطيين الفرنسيين الى التمسك بالجمهورية . وإنما قد ظهرت يوم أن أيد الامبراطور « المكاتب العربية » وانتهج سياسة ليبرالية نسبياً بازاء الاغلبية العربية — البربرية . وعند اعلان انهيار الامبراطورية تكونت في الجزائر لجنة شبيهة « بلجان الانقاذ العام » تحت رئاسة محام جزائري هو فييرموز الذي ابرق الى باريس : « سوف تتبع الجزائر هذا الطريق » . وانشئت لجان مماثلة بطريقة تلقائية في كل المدن ، على غرار لجنة مدينة الجزائر . — وفي ٧ نوفمبر ١٨٧٠ أعلنت لجنة قسنطينـــة : « سوف نعنى بان نكفل لانفسنا الاستقلال » .

كادت حركة الانفصال هذه تحقق هدفها ، اي ان تحول الجزائر الى جنوب افريقيا جديدة . الا ان التمرد الشامل الذي شب بين صفوف الشعب الجزائري في ١٨٧١ أوقفها تماماً ، وهي في أوج انطلاقها . ذلك أن التمرة أوقع الرعب في قلوب الاوروبيين في الجزائر وحضهم على المطالبة مر جديدة بحماية الجيش الفرنسي ، على ان يعودوا فيتهموه بعد استتباب السلام بأنه اغفل واجب السهر على أمنهم . ان هذه المفارقة المنطقية القائمة على الانفعال سوف تصبح ميزة نجدها دائماً في السلوك الغريب الذي كان ينتهجه الاوروبيون الجزائريون . فانهم بعد ان انجاب الخطر قد حققوا كل مطالبهم . ومنذ تلك الفترة حتى « حرب الاستقلال » في ١٩٥٤ كان الحكم الحقيقي في أيديهم ، وهو حكم مارسوه في اغلب الأحيان دون نظر على الاطلاق لمصالح فرنسا الأم .

إن نموّ الاستعمار في الجزائر سوف يترتب عليه اختلال متزايد للتوازن بين القطاع الاوروبي والقطاع الاهلي . فان كل التقدم الذي تم انجازه وكل المشروعات الكبرى التي تحققت انما كانت لمصلحة المستعمر ، بينما كان الخاضعون للاستعمار ، وقد صودرت املاكهم في المناطق الريفية ، ودفعوا الى حافة التشرد والصعلكة ، في المدن ، يتدهورون الى العوز والجهل . ولم يترتب على التصنيع المتأخر الا تحقيق مصالح فرنسا الأم المشتركة في رؤوس الأموال الاوروبية في الجزائر . والواقع ان فرنسا بدلاً من ان تمنح حقوق

وميزات التمثل الى الجزائريين الاصليين ، لم تلجأ اليهم قط الاعند نشوب الحرب في ١٩١٤ — ١٩١٨ — ١٩٣٩ — ١٩٤٥ حيث أتاحت لهم شرف تضحية حياتهم . ولكن الجزائريين لم يكن بوسعهم ان يتحملوا هذا الوضع طويلاً وسرعان ما اكدوا الجَوْر في هذا الوضع وطالبوا برفعه ، بالطرق السلمية أولاً ، ثم بان هبوا والسلاح في أيديهم [١] .

ماضي افريقيا السوداء

لم يبق لفرنسا من ممتلكاتها في افريقيا السوداء بعد توقيع معاهدة باريس ١٧٦٣ الا نهر السنغال ، وجزيره جوريه ، ومدينة سان لويس . وسرعان ما اختلست انجلترا منها هذه المخلفات الباقية من عظمتها القديمة ، في اثناء الحروب النابليونية ، ولكنها ردتها اليها في ١٨١٧ . وقبل ان نواصل دراسة الاستعمار الفرنسي في هذه الجزائر ، فلنلق نظرة سريعة على تاريخها وبصفة عامة على ماضي افريقيا السوداء بشكل شامل .

لقد قلنا من قبل « انه في نهاية الالف الاولى قبل الميلاد كانت بلاد جنوب مصر واثيوبيا والسودان ممالك قوية »[٢] . وفي القرن الثالث بعد الميلاد وبينما كان الامبراطور قسطنطين يعتنق المسيحية في روما ، كانت تقوم في أفريقيا السوداء اول امبراطورية عظمى عرفت باسم امبراطورية غانا . وكان مجالها الجغرافي يتساوق بالتقريب مع الأراضي التي تقع فيها الآن مالي وموريتانيا وفولتا العليا . وقد بلغت امبراطورية غانا ذروتها في القرن الحادي عشر ثم انهارت بعد ذلك بقليل وقد قوضتها الخلافات الداخلية وهدمت صرحها الهجمات المتكررة من جانب العرب (المريدين) .

واعقبتها امبراطورية مالي . واذا كان سندجاتا هو صاحب هذا البناء الضخم فإن مالي قد عرفت اوج ازدهارها تحت عهد مانساموسى في القرن الرابع عشر .

---

(١) المؤلف : الجزء الثاني من الكتاب : « آفاق التحرر من الاستعمار » .

(٢) جبريل تمسيرنيان ، ج . سوريه ـــ كانال : « تاريخ افريقيا الغربية » .

وعندما بسطت امبراطورية مالي نفوذها الى اقصى ما وصلت اليه ، كانت تشتمل على مساحة تحتلها اليوم كل اقاليم الفولتا العليا ، وغينيا ، ومالي ، والسنغال ، والنيجر ، وموريتانيا ، وجزء من الصحراء الجزائرية . وفي القرن الخامس عشر عندما كان البرتغاليون في زحفهم نحو الهند « يكتشفون » السواحل الافريقية ، كانت امبراطورية مالي قد بدأت تتدهور بالفعل . ومع ذلك فمن ١٤٨٠ الى ١٤٩٥ أقامت البرتغال صلات مع مالي ، بوساطة كادا موستو ، وهو فينيسيّ كان يخدم لشبونه ، وديجو دوميس الملاح البرتغالي . بل لقد ارسل جون الثاني ملك البرتغال سفارة رسمية الى نياني عاصمة مالي .

وفي نحو نهاية القرن الخامس عشر ظهرت ممالك جديدة على وشك أن تعقب امبراطورية مـــالي : في جنوب الصحراء ، حول مدن « جنة » و « تومبكتو » (مقر جامعة شهيرة) و « أولاتا » وكلها مدن تجارية — وفي شرق النيجر حول مدن « هاووسا » مثل مملكة بورنو — والى الجنوب من ذلك ، في الغابات الّتي تعزل حضارة قبائل بينين عن التأثير الاسلامي ، وهي الحضارة الّتي سوف تبقى لنا منها آثار فنية لا مثيل لجمالها — وفي داخل منعطف نهر النيجر ممالك موسى الثلاث ، وأخيراً في أقصى الجنوب والى الشرق ممالك الكونجو ولوانجو ، ومونوموتابا .

وفي بداية القرن السادس عشر لم تعد امبراطورية مالي الا مملكة مقتصرة على أضيق حدودها : اي تتكون من ثلاثة اقاليم فقط هي : مالينكه ، وجامبيا ، وكازا مانس . وبظهور تجارة الرقيق وازدياد حدتّها ضعفت افريقيا باطراد ، ودمرت ممالك أخرى . وفي القرن التاسع عشر لم يلق الأوروبيون الفاتحون الا مخلفات متهاوية .

السنغال وموقعه الاستراتيجي :

كتب حاكم السنغال الملازم البحري ، بويه ويلوميز ، خطاباً الى وزير البحرية الفرنسية ١٨٨٤ ، يؤكد بوضوح الموقف الحرج والصعوبات الّتي

تعانيها المستعمرة التي بدأت تتكون منذ ١٨١٧ « علينا ان نعرّف ان السياسة التي سادت في السنغال منذ اعادة الاستيلاء عليها وخاصة منذ التخلي عن مشروعات الاستعمار ، تبدو سياسة تستهدف المصالح التجارية الحالية بدلاً من أن تتطلع الى مصالح المستقبل ، وبدلاً من أن تستهدف تقدم الحضارة الافريقية »[1] . ونلاحظ ان هذه الرسالة تشير ببراعة الى حافز انساني (تقدم الحضارة الافريقية) لكي تؤيد المطالب التي تخفي بعناية أهدافها الحقيقية .

ولم تأخذ الحكومة الفرنسية هذا الطلب مأخذ الجد الا بعد ذلك بعشر سنوات عندما رفع اليها الحاكم في تلك الفترة وهو قبطان السفينة « بروتيه » مظلمة وقعها التجار الاربعة والاربعون في سان لويس ، يطالبون بتدعيم المستعمرة وتوسيعها . وردت عليه حكومته أخيراً بالايجاب واوفدت الى هؤلاء المقيمين في سان لويس ضابطاً شاباً عبقرياً ، اسمه فيدهرب . اذا كانت الحكومة قد اخذت تهتم فجأة بتوسع المستعمرة فذلك انّ السنغال قد بدا لها على اهمية استراتيجية استثنائية . فمنذ ١٨٨٤ كان استعمار الجزائر قد نما نمواً كبيراً بعد أن تم غزوها . وكانت فرنسا تعرف منذ تلك اللحظة انها سوف تحتفظ بتلك الأراضي . ومن ناحية اخرى كانت فرنسا تدبر مشروعات تهدف الى ضم مراكش . ومن ثم فان السنغال تقع في موقع نموذجي باعتبارها نقطة تأييد بل باعتبارها قاعدة لانطلاق غزوات جديدة تكفل لفرنسا السيطرة على امبراطورية شاسعة ، بضربة واحدة .

وبدأ فيدهرب عمله على الفور . كان يعرف البلاد معرفة تامة اذ انه قد أقام فيها طويلاً وعمل تحت إمرة بروتيه ، وكان اول ما عني به هو الاعتبارات الاقتصادية : الحافز وراء كل استعمار . ومن ثم فقد شجع تنمية تجارة سان لويس التي كانت تقوم اساساً على تجارة الصمغ . وكان الصمغ يتخذ طريقه عن طريق نهر السنغال الذي يحتل المغاربة شاطئه الأيمن . ومن ثم كان من

(١) اشار اليه روبير دي لافنيت في : « تقنين الاستعمار » : فيدهرب .

المتعين تحرير النهر من قبضتهم وتحصين ثغوره . وفي ١٨٥٨ كسب فيدهرب المرحلة الأولى ، ومد سيطرته الى اقليم اووالو ، التابع لمحمد الهابيد ، وقد كان زعيماً قوياً لقبيلة طرارزة ، وفرض الحماية الفرنسية على الدول الاولوفيّة.

ومع ذلك فقد اصطدم بعد ذلك بخصم ثان له وزنه : الحاج عمر طال . وهو من قبيلة طقولر وكان زعيماً دينياً يقارب في المكانة عثمان دان فديو ، الفاتح الصوفي . وقد عاد من مكة يحمل اللقب المرموق الذي كان نادراً ما يتحلى به أحد وهو لقب الحاج (الوليّ) . ان ما نجح عثمان دان فديو في تحقيقه في منطقة النيجر الشرقي ، نجح فيه الحاج عمر بدوره في افريقيا الغربية : تأسيس سلطنات في غينيا ، ومسينا ، والسنغال ، تتمتع بنفس اهمية سلطنات ارجونجو وسكوتو ، وكاتسينا ، وتساوو وانا ، وكانو ، وجوريه .. الخ . لم يكن الحاج عمر مجرد مغامر بسيط ، ولكنه كان الممثل الاصيل لافريقيا المحمدية الّتي تمتد من تشاد الى السنغال ومن جبال ادماووا الى جبال فوتا جالون ، فوتا تورو . ومن ١٨٥٠ الى ١٨٥٤ استولى على النيجر العليا والسنغال العليا واخضع سكانها الوثنيين . وفي الفترة الّتي كان فيدهرب يقضي فيها على النفوذ المغربي في شواطىء السنغال ، اي نحو ١٨٥٧ ، كان الحاج عمر في ذروة قوته . كانت امبراطوريته تمتد (من الشمال الى الجنوب) من تومكبتو الى دينجويراي .

ولم يكتف بهذه النتيجة . وامتد طموحه الى ان يمتلك أيضاً السنغال البحرية وجامبيا ، وغينيا ، ومن ثم فقد حاصر مدينة الّتي كانت تدافع عنها حامية فرنسية ولما لم ينجح في الاستيلاء عليها دار حول هذا الموقع واستقر في جويمو على الساحل الأيمن للسنغال . ولكن الحامية الّتي تركها فيها تعرضت للهجوم بعد رحيله ، من مدافع الفرنسيين ، واستسلمت بعد مقاومة بطولية . واستطاع تطور الاسلحة الاوروبية ، في النهاية ، ان يدفع الحاج عمر الى الوراء ، وفي ١٨٦٠ وقّع مع فيدهرب معاهدة يلتزم بمقتضاها بالتخلي عن غزو السنغال ، واتجه بابصاره ناحية الشرق ، واخضع مملكة بامبارا ، ثم

مسينا . وفي ١٨٦٤ وبينما كان فيدهرب يغادر السنغال نهائياً ، مات الحاج عمر في بلاطه على أثر ثورة قام بها أفراد قبيلة بويل في مسينا .

كان فيدهرب بانتصاراته في مدينة وجويمو قد دعم موقع فرنسا في السنغال تدعيماً كبيراً . « وبعد ان حصن ثغور النهر ، ووزّعها ، أسس داكار في أول رمضان في ١٨٥٧ »[1] . وفي العام نفسه انشأ بمقتضى مرسوم ٢١ يوليو أول كتيبة من « القناصة السنغاليين » الذين سوف تتكون منهم قاعدة الرمح في الجيش الفرنسي الافريقي . وعنى في ١٨٥٥ بتزويد التجار بمصرف ، حتى يربطهم ربطاً أوثق بالاستعمار ، وشجع كذلك زراعة الفول السوداني الذي حل بالتدريج محل تجارة الصمغ وبذلك أفاد قطاعاً له نفوذه من قطاعات رجال الأعمال في بوردو مما أتاح لهم تحقيق أرباح كبيرة — . كان فيدهرب يكافح العبودية نظرياً ، ولكن العبودية في الواقع عادت تحت الامبراطورية الثانية . وحتى ١٨٧٠ استمرت السفن الفرنسية تنقل الى جزر الانتيل الزنوج الذين كانوا يعملون فيها « باعتبارهم عمالاً » .

الهجوم على افريقيا :

بعد فترة من الهدوء يعود سببها الى هزيمة الامبراطورية الثانية (١٨٧٠ — ١٨٧١) ، عادت دوائر الأعمال في فرنسا الى اهتمامها بالاستعمار . وبدأت الحركة من جديد في ١٨٧٦ ، واخذت تحضّ العسكريين (جاليبيني ، وبورنيس دي بورد) وهم الذين كانوا دائماً على أهبة الاستعداد للقيام بمثل تلك المهمات ، على اكمال العمل الذي بدأه فيدهرب . واصل هؤلاء العسكريون المشروع الذي بدأه حاكم السنغال القديم « الذي كان قد ارسل بعثات دبلوماسية وبعثات استكشافية نحو الشرق » وانتهجوا هذا التكتيك الحكيم أيضاً . فأنشأوا طرقاً للمواصلات حصنوها فيما بعد . وسرعان ما نشأ خط من القلاع ، تمتد بينها الطرق وتتصل فيما بينها برقياً ، بين كاييس

(١) اشار اليه روبير دي لافنيت في : « تقنيو الاستعمار » : فيدهرب .

(السنغال) وباماكو (السودان : مالي الراهنة) ، على نهر النيجر . وأنشئت قلعة باماكو في ١٨٨٣ ، وتم انجاز خط السكة الحديدية بين داكار وسان لويس في ١٨٨٦ ، وخط السكة الحديدية بين كاييس وباماكو الذي يسير محاذياً للطريق البري ، في ١٩٠٦ .

وفي الوقت نفسه عقدت « معاهدات للحماية » ، على شواطىء غينيا مع الرؤساء المحليين ، كانت هذه المعاهدات تضمن ، نظرياً ، سيادة الدول الافريقية ، ولكنها لم تكن موضع احترام قط . ولم يكن لها من جدوى في الواقع الا ان تستخدم طعماً لاقتناص الفريسة . فما أن يعترف بالبلد ، ويوضع عاهلها موضع الثقة ، وتسلم العاصمة ، حتى تمزق المعاهدة بأي حجة من الحجج . وفي نهاية الأمر ادى هذا الحنث المتعاقب والمنهجي بالوعود ، بالاضافة الى العدوان على الاراضي بشكل يزداد يوماً بعد يوم ، الى قيام الثورات وظهور المقاومة ؛ ووقف الرؤساء التقليديون او الزعماء الذين انبثقوا من صفوف الكفاح بشكل عفوي على رأس شعوبهم التي كانت تقاتل الفاتح الفرنسي ، ومنهم من هو غير معروف حتى اليوم . مثال ذلك لات ديور ديوب ، أوداميل ملك كايور الذي خاض الكفاح في البداية ضد فيدهرب ثم استعاد مملكته في ١٨٧٠ ، وواصل الكفاح ضد من اعقبوا ذلك الحاكم ، أو ممادو الأمين الذي فتح جامبيا العليا ، ثم هزم وقتل ، واطلقت النار على ابنه سوايبو البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً بناء على أمر من جاليينى . وكان أشهر هؤلاء المقاتلين احمدو ، ابن الحاج عمر ، وساموري توري ، وبيهان زين .

ورث أحمدو الامبراطورية بعد موت أبيه عاهل سيجو . واتجهت بعثة دبلوماسية بقيادة جاليينى (تشبه بعثة كوانتا — ماج الذي أوفده فيدهرب في ١٨٦٣ الى نفس الامير في اثناء حياة أبيه) وذلك في ١٨٨٠ الى سيجو ، لتبرم مع الملك الجديد معاهدة تضمن الحرية للتجارة وحقوق الأفضلية للتجار الفرنسيين على ان يلتزم الموقعون باسم فرنسا بـ « ألا يفتحوا أبداً بلداً يخص

الطوقلريين » وبعد ذلك ببضع سنوات رفضت الحكومة الفرنسية ان تعترف بصحة هذه المعاهدة وسماها سكرتير الدولة للمستعمرات ، ايتيان ، « قصاصة من الورق » . وعلى الرغم من الاعتداءات السافرة على الحدود ، لم يتحرك احمدو واكتفى بالاحتجاج . وعلى ذلك تشجع أرشينار الذي عين قومنداناً عسكرياً للسودان في ١٨٨٨ ، وزحف الى سيجو ، في الوقت نفسه الذي كان يؤكد فيه نواياه السلمية في خطاب ارسله الى احمدو . سقطت سيجو ولكن أحمدو استطاع ان يلجأ الى نيورو ، وبعد ذلك ببضع أيام استطاع جيشه — بضربة موفقة وجسورة — أن يحرر ثلاثة آلاف أسير طوقلريّ في السنغال العليا وأن يعود بهم من سيجو الى فوتا — تورو . وواصل أرشينار تقدمه فهاجم قرية اويسوبوجو المحصنة التي كانت قوات احمدو تتخذ منها قاعدة لها . وقام دانديجو ديارا — زعيم قبيلة بامبارا في المنطقة ونائب أحمدو المخلص ، بعبء مقاومة قوية ضد الفرنسيين الذين تعرضوا لخسائر جسيمة . وكتب أرشينار في تقريره : « لا يريد احد ان يسلم . وعندما يسقط احد الأسرى في قبضتنا ، يضرب رأسه بالرصاص بنفسه — بل تدافع النساء عن انفسهن ، فقد وصل احد الجنود الى نقطة الاسعاف جريحاً بضربة سيف في الرأس وجهتها اليه امرأة من ديونفوتو . وتدخل بعض النساء الى الثكنات ، ويحطن انفسهن بحشيات من القش ويشعلن فيها النار . »

قام احمدو بهجوم مضاد ولكنه اضطر ، تحت نيران المدافع الفرنسية ، الى أن يتخلى عن كونياكاري ثم نيورو . وبفضل شجاعة قائد جيشه ، البوري ندياي ، ملك جولوف ، الذي استطاع ان يتحمل نيران المدافع ساعتين كاملتين ، في ٣ يناير ١٨٩١ ، في كولومينا دون ان يتزحزح عن موقعه ، تسنى لاحمدو ان ينسحب بجيشه سليماً الى مسينا . وعندما عاد أرشينار الى السودان في ١٨٩٣ واصل عملياته في مسينا . وعلى الرغم من ضراوة القتال اضطر احمدو وبصحبته البورى ان يغادرا باندياجارا وان يتخذ لنفسه ملاذاً بالقرب من سوكوتو حيث مات في ١٨٩٨ ، دون أن يخضع . لقد استمرت

هذه الحرب عشر سنوات وان كان قد تخللتها فترات طويلة من الركود .

اما الكفاح الذي خاضه سموري توريه ضد الفرنسيين فكان أقل طولاً في الزمن ، اذ لم يستمر الا سبع سنوات وان كان قد تخللت نسيجها معارك مستمرة . كان سموري ينتمي الى قبيلة ماندينج . وكان حلمه أن يعيد انشاء امبراطورية مالي التي اسسها سونجاتا . واستطاع على رأس جيش محدود العدد ان يفتح مناطق شاسعة تمتد من النيجر العليا (في الغرب) الى مملكة سيكاسو (في الشرق) ومن دول احمدو في (الشمال) الى (الغابة) (في الجنوب) ، وجمع تحت سلطته عديداً من المناطق الخاضعة لرؤساء كانوا يستنفدون قواهم حتى ذلك الحين في صراعات عقيمة . كان بطبيعته يتمتع بملكة التنظيم فقسم البلاد الى ١٦٢ محلة ، متجمعة تحت سلطة عشر حكومات ، ثم واءم بين جيشه وبين احتياجات الامبراطورية . فكان هذا الجيش يشتمل على سبع فصائل ، ثم عشر فصائل (فصيلة لكل حكومة) اتخذت مواقعها على الحدود ، والى حرس من الصفوة اتخذ موقعه في بيساندوجو العاصمة . وكانت كل فصيلة تتفرع عن نواة من الجنود المحترفين (هم « الصوفا » المشهورون) وتدعمها في حالة الحرب ميليشيا شعبية تزودها بها القرى . وكان كل فرد من أفراد الميليشيا يرتدي حلة رسمية صفراء « قبعة وسترة وسروال مضموم الكاحلين » . أما الورش العسكرية (حيث كان يعمل الحدادون الافريقيون بنشاط) فقد كانت تصلح وتصنع ايضاً البنادق سريعة الطلقات وان كان ذلك بعدد محدود جداً .

وفي خلال خمس سنوات (من ١٨٧٠ الى ١٨٧٥) استطاع سموري ان يفتح امبراطوريته وينظمها . ومع ذلك قد اصطدم بالفرنسيين منذ ١٨٨١ ، ولكنه حذا حذو احمدو ، فترك الاستفزازات تمضي دون ان يرد عليها بالقوة في أول الأمر . بل وقع في مارس ١٨٨٦ معاهدة كانيبا التي تركت له بوريه وكانجابا . وفي ١٨٨٧ وقع معاهدة جديدة ، هي معاهدة بيساندوجو التي اقر فيها بتضحيات اقليمية جديدة : فتخلى عن الشاطىء الأيسر لنهر

تنكيسو وخضع للحماية الفرنسية . وفي ١٣ فبراير ١٨٨٩ وقع معاهدة جديدة : معاهدة نياكو وتخلى عن أراض اخرى : وقبل سمورى ان يعود الى حدود تنكيسو على نهر النيجر . ولكن حسن نيته المستمر لم يكن فيه ثواب . ولم يتردد الفرنسيون في ١٨٩١ أن ينتهكوا المعاهدات المختلفة التي وقعوها انتهاكاً سافراً . وذلك ما كان يخشاه سمورى ويحاول ان يتجنبه ، فقد اصبح الآن محتوماً : لقد كانت الحرب لا غنى عنها .

ونشبت الحرب واستمرت من ١٨٩١ الى ١٨٩٨ ، وتكشّف سمورى عن عبقرية تكتيكية مرموقة . ويمكن اعتباره دون جدال اكثر القادة العسكريين الافريقيين اقتداراً ، فقد كان استراتيجياً من الدرجة الأولى . قسّم جيشه ثلاثة اقسام : وفي عزمه ان يشن الحرب التي اصطلح على تسميتها بحرب « الأرض المحترقة » . وتُلْقي شهادة أحد « الاختصاصيين » ، الجنرال باراتييه ضوءاً على ذلك : « كان تنظيم قواته في ثلاثة أقسام : للدفاع عن الأرض ، وللاجلاء ، وللغزو الخارجي ، كان ذلك يتيح له ان يحقق شيئاً فريداً من نوعه في التاريخ : كان شعبه طوال سبع سنوات يغير موطنه كل عام ، ويتجه الى الشرق نحو مناطق جديدة ، ولكنها كانت مناطق منظمة وخاضعة بالفعل ، دون ان يترك للغزاة شيخاً واحداً ولا حبّة شعير واحدة في « الأراضي التي يُجلى عنها الأهالي »[1] .

وعلى الرغم من الانتصارات التي تحققت له بفضل هذه الاستراتيجية الثورية : الاستيلاء على بوجوني في ١٨٩٣ ، وتدمير طابور مونتي ، والاستيلاء على مدينة كونج وتدميرها في ١٨٩٥ ، دُفع بساموري في النهاية دفعاً الى الهزيمة بعد سقوط بوبو ــ ديولاسو في ايدي الفرنسيين في ١٨٩٧ مما قطع عليه نهائياً طريق الرجعة نحو الشرق . ومن ثم قرر الدخول في المفاوضات ، ولكنه رفض ان يحكم تحت اشراف « مقيم » فرنسي ، وآثر التخلي عن

---

(١) الجنرال باراتييه : « عبر افريقيا » .

الحكم بشرط ان يصرح له بالاعتكاف في قريته . وتظاهر الفرنسيون بالقبول ، ولكن فصيلةً من التجار تنكروا في زي المفاوضين ، وخدعوا قوات سموري ، وأخذوه أسيراً . كان قد وثق بالوعود ، مثلما وثق بها الامير عبد القادر من قبله ، فلقى المصير نفسه . رُحّل الى جابون في جزيرة من جزر اوجوي ولكنه كان اقل حظاً من الزعيم الجزائري ، فقد مات في ١٩٠٠ ضحية للمناخ وسوء التغذية .

اما الحملة التي شنت ضد بيهانزين فقد كانت قصيرة نسبياً : خمس سنوات. كانت مملكة داهومي التي يرأسها بيهانزين في ١٨٨٩ (تاريخ نشوب القتال) مملكة قديمة : وقد لعبت دوراً دولياً في بداية القرن السابع عشر . وكانت لها ادارة منظمة تنظيماً قوياً (تشتمل على عناصر لجهاز إحصائي) ولها دبلوماسية حصيفة ، وجيش كبير بلغ من الفعالية حداً جعل الفرنسيين يؤكدون بعد ذلك ، بغير حق ، ان ضباطاً المانيين كانوا يقودونه . وكانت عاصمة المملكة التي تقع بعيداً الى داخل البلاد تسمى أبومي .

حاول الفرنسيون في البداية ان يستغلوا التنافس بين ملك داهومي ، وهو جليلي أب بيهانزين ، وبين بورتوفونو الذي كان قد قبل الحماية الفرنسية . وبعد سقوط كوتونو التي كانت تقع في مملكة داهومي ارسلت بعثة بقيادة الدكتور بايول الى أبومي . وأثار الدكتور بايول بدعاويه المسرفة غضب الملك جليلي ، ثم أبرق أنّ حياته في خطر باسلوب ينم عن الخطر الملح ، وقد ثبت فيما بعد انه لم يكن في خطر ، كما أبرق انه اضطر الى المشاركة في طقوس القرابين البشرية . وعلى أي حال فقد اختار الفرنسيون هذه الكذبة ليتخذوا منها تعلة لاعلان الحرب .

ارتقى بهانزين العرش في الوقت الذي نشبت فيه الحرب ، فتولى قيادة العمليات العسكرية . حاول ان يقوم بهجوم على بوتونوفو وفوتونو ولكنه لم يستطع التحرك من منطقة مجاورة لهاتين المدينتين . وتفادياً لتدمير ميناء ويدا

الّتي كانت البحرية الفرنسية تهدد بقصفها بالمدافع ، قبل بيهازنين ان يبدأ المفاوضات . وبمقتضى معاهدة ٣ نوفمبر ١٨٩٠ سلم بالاعتراف بالحماية الفرنسية على بورتونوفو وبالتصريح للغزاة بالاستقرار في كوتونو مقابل ضريبة سنوية .

ولكن فرنسا منذ ١٨٩١ كانت قد قررت تصفية مملكة بيهانزين . وزحف طابور مكون من ٣٠٠٠ رجل (اكبر قوة عسكرية استخدمت حتّى ذلك الحين في افريقيا) بقيادة الكولونيل دودز . وكانت هذه القوات مجهزة بأسلحة تعد الصيحة الاخيرة في ذلك الوقت ، وكانت مكلفة بالاضافة الى ذلك بأن : « تجرب » فعالية هذه الاسلحة التفجيرية الجديدة الّتي تؤدي الى احداث نتائج مخيفة والّتي كانت الصحافة الاوروبية في ذلك العهد ثائرة ضدها . كان جيش بيهانزين منظماً غاية التنظيم فقاوم الفاتحين مقاومة مستميتة ، فقد كان يملك بضع مدافع يستخدمها رجال المدفعية الداهوميون . وتأثر تقدم الفرنسيين نحو ابومي نتيجة لتلك المقاومة : فتباطأ في البداية ثم توقف تماماً . كانت بطولة الجنود الداهوميين بلا حدود . الى درجة ان ضابطاً فرنسياً من ضباط دودز كتب ، ولا يخلو كلامه من شيء من السخرية : « ان هؤلاء الاغبياء يقبلون القتل في مواقعهم دون ان يتراجعوا أو يسلّموا » .

لم يستطع الفرنسيون ان يتغلّبوا على مقاومة بيهانزين ، فلجأوا الى الخديعة . تظاهر دودز بأنه يقبل عروض السلام ولكنه وضع لذلك شرطاً واحداً . ايقاف المعدات العسكرية الداهومية عن العمل ، جزئياً ، وخاصة المدافع . ووثق بيهانزين في اخلاص خصومه فنفذ الشرط . وعلى الفور نقض دودز الاتفاق وتغلغل في ١٨ نوفمبر ١٨٩٢ الى ابومي واحتلها واجلى السكان عنها وتركها طعمة للنيران . لجأ بيهانزين الى شمال شرقي البلاد ، وواصل القتال مع ذلك ، واستمر يناوش المواقع الفرنسية دون مهادنة . وطالت الحرب سنتين بعد ذلك . ولجأ دودز الى خديعة جديدة لكي يضع حداً لهذه المقاومة العنيدة المثيرة . فحمل الأمير جوتشيلي ، وهو الأخ الطموح للملك بيهانزين ،

على ان يقبل ارتقاء العرش ، وأُعلن ملكاً تحت اسم : أجو ـ لي ـ أجبو . أحس بيهانزين باليأس والاشمئزاز أمام هذه الخيانة فاستسلم . أما الملك الجديد فلم تعد له بعد ذلك من جدوى ، فخلع في ١٩٠٠ ورحّل الى جابون بينما ضمت داهومي بقرار من الحاكم . أما بيهانزين الذي كان قد سلم نفسه اختيارياً ، في ١٨٩٤ ، فقد زج به في السجن ثم رحل الى المارتينيك أولاً والى الجزائر بعد ذلك حيث مات في ١٩٠٦ .

الغزوات الاخيرة و « استتباب السلام » :

بعد ان انتهت هذه الحملات الرئيسية الثلاث واصل الفرنسيون غزو البلاد الواقعة في مناطق النيجر . واستمروا يمارسون سياسة « المعاهدات » التي رأينا نتائجها . وارغموا عدداً من الملوك في ١٨٩٥ على قبول حماية فرنسا والاعتراف بهذه الحماية ، في شخص الكابتن دي تيناف . ومع ذلك فان موهونابا ملك أوجادوجو (عاصمة الفولتا العليا الحالية) رفض ذلك ، وردّ على بيتيناف : « انني اعرف ان الفرنسيين يريدون ان يذيقوني الموت حتى يأخذوا بلادي ، ثم أنك تزعم انهم سوف يساعدونني على تنظيم بلادي ، ولكني أجد بلادي في خير حال كما هي الآن . وليست بحاجة اليهم . انني اعرف ما ينبغي لي وما أريد : وعندي تجّاري .. » .

واعتبرت هذه الإجابة : إجابة « وقحة » وزحف طابور بقيادة الملازمين فوليه وشانوان ــ اللذين سرعان ما ذاعت لهما شهرة مستطيرة ــ الى أوجادوجو لتحطيم مقاومة قبيلة موسى . ولكن فوليه وشانوان اقترفا من أعمال القسوة (الاستيلاء على أوداجو وتدميرها ، الحرائق ، احكام الاعدام بالجملة ... الخ) ما جعل البلاد تثور فجأة في ١٨٩٧ . أما في شمال السودان فقد لقي التغلغل الفرنسي مقاومة أعنف وفشلت المحاولات للوصول الى تومبكتو عدة مرات ، على ايدي الطوارق . وفي ٢٨ ديسمبر ١٨٩٣ قضى على طابور الملازم أوب في اورروميرو ، وفي ١٤ يناير ١٨٨٤ قضى على طابور الملازم

بونييه تماماً في تاكوباو . وفي النهاية احتل جوفر [1] تومكبتو .

كان ضم بعض الاقاليم يتوقف أحياناً على مبادرة يتولاها ضابط يسعى الى الترقية . وهكذا كان الأمر مثلاً فيما يتعلق بمملكة سيكاسو ، احدى دول السودان الكبيرة التي لم يكن الفرنسيون قد اهتموا بملكها قبل ذلك ، إذ كانوا مشغولين بالحرب مع سموري . واستغل الكولونيل اوديوود غياب الحاكم ، على أمل أن ينصّب حاكماً محله ، فقد كان يحلم « بعمل من أعمال القتال » من شأنه أن يرفع من قيمته . فاصدر الأمر في ١٨٩٨ الى بابمبا ملك سيكاسو بأن يقبل حامية فرنسية ، ورفض الملك برغم ادراكه لمدى ضعفه وعبث كل مقاومة . فحاصر الكولونيل أوديوود على الفور سيكاسو ، ولكن خروج « هجمات » كثيرة من بين المحاصرين ألحق بالقوات الفرنسية خسائر جسيمة . ومع ذلك فقد كانت الكلمة الاخيرة للمدفعية ، وتهدمت الأسوار ونشبت معارك عنيفة من شارع الى آخر في المدينة . وعندما وصل أوديوود الى القصر الملكي في النهاية وجد با بمبا غارقاً في دمائه : فقد انتحر . وسقطت « فوتا ــ جالون » بنفس الطريقة في ١٨٩٧ وذبح ملوكها أو خلعوا ومزقت البلاد .

لم تكن معظم هذه الحملات ، في أي وقت من الأوقات ، تحت رقابة أو سيطرة من حكومة جول فري ، بل كانت على العكس تعتبر من اختصاص العسكريين الحاكمين في افريقيا وحدهم . كان جول فري من تلاميذ اوجست كونت ، وقد أكد في بداية حياته العملية أنه يناصب الاستعمار العداء . ولكنه ، تحت تأثير رجال الاعمال « العصريين » و « اصحاب رؤوس الأموال الشبان » في ذلك العصر ، تحول الى نصير من غلاة انصار الاستعمار الاقتصادي . فهو الذي نصح بانشاء خط السكك الحديدية من كايس الى باماكو وأيد سافورنيان دي برازا التي انتهت مهمته في ١٨٨٠ بتوقيع

---

(١) الماريشال جوفر .

« معاهدة » مع الملك ماكوكو . وكان جول فري ، مع بسمارك ، من أعمدة مؤتمر برلين (١٥ نوفمبر ١٨٨٤ – ٢٦ فبراير ١٨٨٥) . الذي كان عليه أن ينجز تقسيم افريقيا بين الدول الأوروبية . ولكن نبوءاته باءت بالفشل ، فقد كان يأمل ان يتم التقسيم على حساب انجلترا ، الا انها خرجت من المحنة منتصرة انتصاراً كبيراً . وكان يعتزم ، كما صرح بذلك الى جوريز ، ان يضع المانيا وانجلترا وجهاً لوجه ، ولكن فرنسا والمانيا هما اللتان وقع بينهما اعنف الصدام . هذا الى ان الاوساط الاستعمارية الفرنسية كانت تأخذ عليه سياسته التجريبية وافتقاره الى روح التنسيق والتجميع المنظم .

ومع ذلك فقد كان جول فري هو الذي ضمن الانتصار ، في مؤتمر برلين ، للدعوى الفرنسية[1] القائلة بالاحتلال الدائم والتي كسبت فرنسا بمقتضاها تشاد . وبالفعل قبل الموقعون على معاهدة برلين ان تمتلك فرنسا الساحل الشمالي لبحيرة تشاد ، دون عائق ، بشرط ان تحتلها احتلالاً فعلياً . وقبل الفرنسيون ذلك عن طيب خاطر لكي يعوضوا الفشل الذي لحق بهم في السودان المصري (جمهورية السودان حالياً) ، حيث اضطرت بعثة مارشان لأن ترحل تحت التهديد البريطاني المسلح . هذا الى أن لتشاد ميزة ضمان الصلات بين مستعمرات فرنسا في افريقيا الشمالية ومستعمراتها في افريقيا الغربية والاستوائية .

سارعت الحكومة الفرنسية بالتالي الى ايفاد بعثات تلاقت في نقطة واحدة ، وتجمعت في تشاد (بعثة فورو – لامي التي أوفدت من الجزائر ، وبعثة جونتيه من الكونغو ، وبعثة فوليه – شانوان من السودان) .

كان فوليه وشانوان كما رأينا قد ذاعت شهرتهما ، فقاما باعمال تشابه ما أنجزاه من قبل ، وزحفا الى ساي (على نهر النيجر) في اتجاه زيندر . احرقا القرى ، وقتلا الرجال والنساء والاطفال دون تمييز . « جرح بعض

---

(١) دعوى فرنسية تقليدية كان أول من نادى بها فرانسوا الأول .

القناصة في احدى القرى . فلكي يضرب منها مثَلاً ، اخذ فوليه عشرين امرأة من الامهات مع اطفالهن الصغار والرضع ، وقتلهن بالرماح على بعد بضع مئات من الامتار من المعسكر .. وفي قرية اخرى لقيت البعثة ترحيباً ، وفي الغداة طلبت البعثة الإتيان بعدد من الحمالين ، ففر كل الرجال الاصحاء الى الغابات . ولم يبق الا الشيوخ والنساء والاطفال ، فاخرج هؤلاء من اكواخهم وبعد أن اوقفوا في صف واحد ، فتحت عليهم نيران البنادق حتى سقطوا عن آخرهم . وبلغ عدد الجثث ١١١ جثة . [1] اهتزت الحكومة الفرنسية نتيجة لسلوك هذين الضابطين الغربيين من بين صفوة الضباط ، فقد كانت تخشى مغبة مثل هذا الموقف المثير للمشاعر . فعهدت الى الكولونيل كلوب بتولي أمر البعثة . ولكن فوليه وشانوان دبّرا أمر اغتياله واعلنا « الاستقلال » . ولم يدم ذلك طويلاً . فقد قتلهما جنودهما بأنفسهم كما تقتل الكلاب المسعورة .

وفي جنوب تشاد كان رباح حاكماً قوياً يعود أصله الى السودان المصري ، وقد اسس دولة جديدة منذ ١٨٩٣ على انقاض امبراطورية جورلو التي دامت آلاف السنين . ولكنه سحق بدوره في قصيرى ، ثم اغتيل في ٢٢ أبريل ١٩٠٠ وباختفائه اختفى آخر زعماء الدول المستقلة العظام في افريقيا الغربية والوسطى .

عودة الحياة الى العبودية :

ألغيت العبودية ، نظرياً ، بل كافحها فيدهرب ، وان كان ذلك على نحو سطحي . ولكنها ولدت من جديد في الواقع — اذا افترضنا أنها كفّت عن الوجود اطلاقاً — على أثر حروب الغزو . كانت الجيوش الاستعمارية تأسر الآلاف ويباع الاسرى في الاسواق او يخصصون للضباط والجنود ، وظهر شكل جديد من أشكال العبودية انتشر في المؤسسات العسكرية في المستعمرات . نظام الحمالين : ثارت مناقشة برلمانية في قصر البريون بين بول فنيه دكتون الذي كان يدين جرائم الغزو وبين النائب لومير دي فيلير وهو موظف استعماري

---

(١) جان سوريه — كانال : افريقيا السوداء .

و « المقيم » السابق في مدغشقر الذي قال : « ان زميلنا المحترم يتهم من يقومون بالتنفيذ ، اما انا فانني أتهم الحكومات . فلا يمكن ان تجهل الحكومات انها عندما ترسل قوات في حملات تقطع عدة آلاف من الكيلو مترات بعيداً عن قاعدتها دون ان نوفر لها وسائل النقل ، ولا الاغذية ولا سلع التبادل ، فان القوات تضطر الى ان تستمد مقومات حياتها من السكان وأن تجند عدداً لا يحصى من الحمالين تتناثر جثثهم على الطرق . كان أحد مكتشفينا المبرزين ورئيس فصيلة من المدفعية يقول لي : «كل حمال يقوم بعمل السخرة لا يرى قريته أبداً » (صياح من اليسار المتطرف) ، فاما ان يموت في الطريق ، او يصل الى الوجهة المقصودة فيترك هناك دون غذاء ولا نقود ولا وسيلة تعينه على الحياة » . واهتز الرأي العام الأوربي اهتزازاً عنيفاً امام عودة الحياة الى العبودية، فرأت الادارة الاستعمارية ان تصرف الانتباه عن ذلك . وأنشأت « قرى الحرية » وكان جاليييني هو داعية هذه القرى واكبر انصارها، وكللت جمعية مناهضة العبودية في فرنسا جبينه باكاليل الغار نتيجة لهذا العمل . ولكن ما هي « قرى الحرية » هذه ؟ هي ، من الناحية الرسمية ، الملجأ الذي يلوذ به أسرى « الأعداء » الهاربون الذين « اختاروا الحرية » في الخطوط الفرنسية . أما في الواقع فهي أنها تقع بالقرب من المراكز العسكرية ونقط التجمع الأوروبية ، لكي تكوّن رصيداً من الأيدي العاملة يستمد منها الجنود والمستعمرون حاجتهم . وقد انشئت هذه القرى بغرض تثبيت الأيدي العاملة التي كانت حتى ذلك الحين تفلت من السخرة والتجميع . كانت ظروف الحياة في هذه القرى بشعة ، وكان الأهالي يسمونها في العادة « قرى أسرى القومندان » وقد وضع أحد التقارير الرسمية قائمة تفصيلية لاحدى هذه القرى . « ماذا نجد فيها ؟ شراذم من التعساء يموتون جوعاً أو يكادون ، مرهقين ، منهكين ، مرغمين مع ذلك على أن يقوموا وحدهم بكل الاعمال الشاقة في المواقع ، مثل أعمال الحمالين » كانت « قرى الحرية » هذه تمثل بالاضافة الى ذلك وسيلة من وسائل الابتزاز والضغط على السكان . ويلاحظ احد المراقبين في ذلك

العصر « أنه في الدائرة التي قطعتها كان من المعتاد عندما ترفض احدى القرى أو تعجز عن دفع كل المبلغ الذي فرض عليها كضريبة ، ان يختطف منها احد الاطفال ويوضع في قرية تسمى « قرية الحرية » ، حتى تدفع الضريبة » يا لها من « حرية » غريبة الشأن ..! استغرق غزو افريقيا (الغربية الوسطى) — افريقيا التي انهكتها اربعة قرون من تجارة الرقيق — حوالي عشرين عاماً . وما كان هذا الغزو ليقع على الاطلاق لولا استخدام اشد الأساليب بربرية ، باستمرار : المذابح ، والحرائق ، والتعذيب ، والاغتيالات : وأخس أنواع الخديعة : الاكاذيب ، ونكث الوعود ، والخيانة ، ولولا انقسام الشعوب الافريقية (يجب أن نعترف بذلك) ، والتنافس بين العائلات ، وبين الرؤساء (فلو لم يوجد هذا التنافس لكان التحالف بين زعماء مثل احمدو وسموري وبيهانزين تحالفاً يحسب له ألف حساب) وقد استطاع الفاتحون ان يغذوا هذا الانقسام وذلك التنافس ببراعة وحذق .

اليد الطولى للرأسمالية

ما أن انتهى الغزو حتى بدأ المستعمر الفرنسي يعكف على تنظيم الأراضي التي اخضعت لحكمه . وقسمت هذه الأراضي الى مستعمرات ، وضعت تحت سلطة حكام . وعلى ذلك النحو أنشئت خمس مستعمرات (السنغال — غينيا — ساحل العاج — داهومي — السنغال العليا — النيجر) وتكون منها في ١٩٠٢ اتحاد فيدرالي تحت اسم « افريقيا الغربية الفرنسية » يديره حاكم عام مقره داكار . وارتفع عددها من خمس الى ثماني مستعمرات : فقد تمتعت موريتانيا ونيجيريا ، في ١٩٢٠ ، ١٩٢١ بوضع « المستعمرة » وانفصلت الفولتا العليا في ١٩١٩ من السنغال العليا — النيجر ، واستردت السنغال العليا اسمها القديم في ١٩٢٠ : السودان . وفي ١٩١٠ اصبحت الكونغو الفرنسية تسمى « افريقيا الاستوائية الفرنسية » التي تشتمل على ثلاث مستعمرات : (جابون ، والكونغو الاوسط ، وأوبانجي — شاري — تشاد) ثم زاد عددها الى اربع مستعمرات

عندما اصبحت تشاد في ١٩٢٠ مستعمرة متميزة . وكان النظام الاداري في افريقيا الفرنسية الاستوائية يسير على النمط الاداري المتبع في افريقيا الفرنسية الغربية . وكان يرأسه حاكم عام يقيم في برازافيل .

لقد ورثت الدول الافريقية المستقلة حتّى اليوم هذا التقسيم العسفي العبثي لافريقيا (وهي تعاني منه) الذي قام به المستعمر تلبية لحاجاته ومصالحه الخاصة . فلم يحترم شيء ما في هذه القسمة المنهجية الجائرة الشاذة : لم تحترم الخصائص الاثنولوجية « خصائص السلالات الشعبية » ولا الوحدات اللغوية ، ولا المنطق الجغرافي ، ولا التكامل الاقتصادي الطبيعي . ومن هنا جاءت « بلقنة » افريقيا الّتي نراها اليوم والّتي من صالح الاستعمار الجديد ان يُبقيها بل أن يزيد من حدّتها .

وعلى عكس المستعمر البريطاني الذي كان يدير ممتلكاته — بطريق غير مباشر — بواسطة الملوك المحليين القدامى (مع الاحتفاظ بالادارة العليا) فان المستعمر الفرنسي لجأ الى الادارة المباشرة . كانت السلطة الحقيقية والفعلية في أيدي الحكام الاستعماريين : قومندان الدائرة او المنطقة ، ورئيس الفصيلة أو الموقع . وخلع الرؤساء والملوك المحليون او اعطيت لهم وظائف اسمية وشرفية بحتة ، الا بضع استثناءات نادرة . ولم تبق الا الرئاسات الّتي عرفت بالرئاسات التقليدية ، ولكنها كانت في الواقع رئاسات إدارية اقتصر دورها على أن تكون أداة ثانوية تابعة لتنفيذ الأوامر (على مستوى القرى او المحلات)

كان هذا التنظيم يتفق مع التقاليد المركزية الّتي ظلت قوية في فرنسا منذ عهد الثورة (وورثتها الثورة من الملكية المطلقة الّتي أقامها ريشلييه ولويس الرابع عشر) . وينبغي الا يغيب عن أذهاننا تقاطع وتشابك الوسائل والاهداف ، ومع ذلك فهناك ما يدعو الى التفرقة بين الوسائل الّتي استخدمها الاستعمار والاهداف الّتي كان يرمي الى تحقيقها .

اما الأهداف فهي معروفة : فهي الأهداف الاقتصادية . كانت المستعمرات

مطالبة بأن تمد الوطن الأم بالمنتجات الزراعية والمواد الخام وان تكون أسواقاً قادرة على استهلاك فائض الانتاج الصناعي ، وكانت الوسائل والاساليب تختار وفقاً لفعاليتها في تحقيق هذه الاهداف دون نظر الى اي اعتبار آخر . وهكذا عارض المستعمر باستمرار وبعنف انشاء صناعات تحويلية في المستعمرات تهدد بمنافسة صناعات الوطن الأم . وحتى ١٩٣٩ كان السنغال، وهو الذي ينتج الفول السوداني ، مضطراً الى شراء زيت الفول السوداني من فرنسا .

ولم يكن المستعمر من ناحيــة اخرى يعنى اطلاقاً برعاية الزراعة الافريقية ، (التي كانت تلجأ دائماً الى أساليب الاسلاف القدامى) . فلم تحقق هــذه الزراعة ادنى تقــدم تكنيكي . كانت التجديدات التي يأتي بها التكنيك الحديث تدخل على المزارع الاوروبية وحدها كما كانت تستثمر رؤوس الأموال فيها وحدها . أما الموارد المعدنية فلم يبدأ استثمارها الا في نحو ١٩٥٠ . وبصفة عامة كانت تجارة « التبادل » ، تحتل المكانة الاولى ، وكما كان يحدث في القرن الثامن عشر تماماً كانت شركات التجارة الأوروبية تبادل السلع (الاقمشة القطنية ، والخمور ، ومنتجات الحديد ، ... الخ) مقابل المنتجات الافريقية الزراعية (الفول السوداني ، القطن ، البن ، الكاكاو ... الخ) ولكن الغزو الاستعماري اتاح لشركات التبادل هذه ان تمد شبكة نشاطها وان توسعها الى حد كبير ، فأسست مرافق تجارية لا حصر لها حتى في داخل « الغابات » وادخلت اليها التجار الفرنسيين او اللبنانيين — السوريين ، على نحو اغلب . وضمنت هذه الشركات لنفسها تأييد الادارة حتى تنتزع منتجات الافريقيين بأبخس ثمن ممكن . والواقع أن « الزراعات الاجبارية » — أي تسليم مقادير معينة من المنتجات الى شركات التجارة — قد فرضت على السكان فرضاً والا تعرضوا للعقوبة في حالة الرفض او التحايل .

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر استطاعت بضع شركات كبيرة ان تستأثر باحتكار التجارة .. الشركات التي كانت تتخذ مقرها في بوردو ، بالنسبة

للسنغال والسودان (شركات موريل وبروم – وشركات اخوان موريل – وبوهان وتيسير – وديلماس وكلاستر .. الخ) والشركات التي تتخذ مقرها في مرسيليا بالنسبة لساحل غينيا . وفي خلال النصف الاول من القرن العشرين استطاعت شركات ثلاث ان تحقق لنفسها السيطرة على التجارة الاستعمارية : الشركة الفرنسية لافريقيا الغربية ، والشركة للتجارية لغرب افريقيا ، ورأسمالها فرنسي سويسري ، وشركة يونيليفير وهي « تروست » انجليزي هولندي يتحكم في السوق العالمية للزيوت النباتية ، وتمثلها فروعها المختلفة (شركة افريقيا المتحدة ، ونوسوكو ، وشركة النيجر الفرنسية والشركة الفرنسية لساحل العاج).

ولم تمد الطرق او السكك الحديدية ، او الممرات والطرق ، أو تنشأ الموانئ ، بفضل العمل المجاني الذي فرض على الافريقيين ، او بحصيلة الضرائب التي فرضت عليهم ، الا لتحقيق مصلحة التجارة الأوروبية الكبيرة التي كانت هذه المنشآت تساهم في ضمانها ، على عكس ما يؤكده البعض اليوم من المدافعين عن « خيرات الاستعمار » . ولم يعرف التعليم أي تقدم ملموس الا قبيل الحرب العالمية الثانية . فحتى ذلك الحين لم تكن المدارس يقصد بها الا تخريج موظفين ثانويين صغار ولا غنى عنهم للادارة والبيوتات التجارية . ففي ١٩٤٥ لم يكد يصل الى مرحلة التعليم العالي الا عشرة افريقيين ، وكانت نسبة الأهالي الذين يعرفون القراءة والكتابة اقل دائماً من نسبة ٥ ٪ من مجموع الأهالي . وفي ميدان الطب حيث قامت اوروبا باكبر دور ايجابي ، ظلت المستشفيات والاطباء قصراً على خدمة البيض وحدهم زمناً طويلاً او على الاكثر خدمة الافريقيين الذين يعملون في بيوت المستعمرين . لم تكن « المعونة الطبية الاهلية » تملك الا وسائل قاصرة قصوراً مشيناً . ولم تتم مكافحة الأوبئة مثل « مرض النوم » كفاحاً جدياً الا في اللحظة التي كانت نتائجها تهدد الايدي العاملة بالافقار والشح .

أما سياسة التمثل التي وضعتها الحكومة الفرنسية فقد كانت أبعد ما تكون عن ان تتيح للاهلين مزايا القوانين الاجتماعية والحريات الديمقراطية المعمول

بها في فرنسا بل اسهمت عملياً في تدمير الحضارة القومية لافريقيا واحلت محلها ثقافة فرنسية زائفة كاريكاتورية جوفاء ، وأعلنت بعض الأوساط الاستعمارية في مقابل ذلك أنها تقف الى صفّ الاصالة الافريقية واعتبرت نفسها من انصار الترابط والاشتراك ، على عكس التمثل والاندماج ، ومن أنصار الاحتفاظ بالعادات والتقاليد القديمة وخاصة تقاليد الزعامات القبلية . ومع ذلك فان هذا « الترابط » انما يدعو الى تبعية المستعمر للمستعمر . ويتفق نظام التمثل ونظام المشاركة كلاهما في نهاية الأمر في أنهما يهبطان بالمستعمَر الى نفس الوضع المحط بكل كرامة : ان يضرب او يسجن دون صدور حكم ، ان يدفع الضرائب اياً كان إيراده ، أن ينوء بثقل العمل الاجباري ، وأن يقدم حياته مرتين لفرنسا في ميادين القتال الأوروبية .

اننا يمكن ان نضع الحساب الختامي المحزن لهذا الاستعمار ، تأسيساً على النتائج التي لا شك فيها والتي تقدمها لنا الاحصائيات . ففي افريقيا الفرنسية الاستوائية حيث كانت ٤٠ شركة ، منذ ١٨٩٩ ، تتقاسم ثلاثة ارباع الأراضي ، وتخضعها لاستثمار لا يحدّ جماحه شيء ، وتقتضي تسليم مقادير هائلة من المحصول ، المطاط أو من ثمار القنص (العاج) تسليماً مجانياً ، او شبه مجاني ، وتستنفد قوى الأهالي بنظام الحمالين وترغمهم على التخلي عن زراعاتهم الخاصة . انخفض عدد السكان الذي كان يقدر بـ ١٠ ملايين في بداية القرن الى اقل من ٣ ملايين في ١٩٢١ .

النزول على أرض مدغشقر :

وضع غزو مدغشقر موضع النظر ثم تقرر في نهاية القرن التاسع عشر في عهد حكومة جول فري . ولكن لم تتوفر له الحوافز التي تبرره من الناحية المظهرية . كان من غير الممكن بالطبع أن تثار مسألة ادخال المدنية الى الأهالي الذين كانوا يمرون ، في تلك الفترة بالذات ، بمرحلة من الازدهار الثقافي ويقومون بتجربة أصيلة وفذّة في انتهاج الأساليب الأوروبية بشكل ذاتي ،

كما كان اليابانيون يفعلون تقريباً . وبالتالي فقد اكتفى الفرنسيون بحجج هزيلة . نزلوا في ١٨٩٥ الى مدغشقر وصعدوا حتى تاناناريف مخلفين وراءهم مجازر هائلة (نحو ٦ آلاف قتيل). كانت معاهدة أول أكتوبر ١٨٦٥ من الناحية النظرية تضع حداً للحرب وتمنح مدغشقر وضع المحمية، ولكن المستعمرين كانوا اوفياء لتقاليدهم في الحنث بوعودهم، فضموا الجزيرة الى فرنسا بكل بساطة بمقتضى قانون ٦ أغسطس ١٨٩٦ . وتثور هنا عدة أسئلة : أهمها من هم الملاجاشيون وما هي أصولهم ؟ وهو سؤال ثار حوله خلاف طويل ولم تحسمه حتى اليوم أية اجابة « علمية » . ومن المقدر بصفة عامة ان اغلبية الشعوب الملاجاشية ترجع الى أصل مالاوي او بولينيزي . وقد أشار احد كتّاب مدغشقر منذ عهد قريب ، في دراسة تتميز بالاحاطة وسعة المعلومات ، الى وجود تساوقات لغوية ملحوظة ومقلقة بين اللغة الملاجيشية ولهجة سكان جزيرة « عيد الفصح » . وتثار في الغالب مسألة « الفازيمبا » الاسطوريين ولكن يبدو ان أحداً لم يستطع ان يحدد أصلهم . فهل هو شعب بدائي اكتشفه الوافدون من ملايو وبولينيزيا عند وصولهم الى الجزيرة أم هم نتاج هجرة ملاوية أو اندونيسية سابقة تعرفت الهجرات اللاحقة فيها على خصائص اثنولوجية متشابهة ؟

أياً كان الأمر ، فقد كان هؤلاء البحارة والمكتشفون من اهل المحيط الهندي بمجرد استقرارهم في مدغشقر ، يحتفظون بالفضائل التي تميز بها أسلافهم . واستطاعوا أن يقوموا برحلات كثيرة الى داخل افريقيا (ولم يمر على ذلك زمن طويل) ، وكذلك الى جزر كومور حيث عادوا ومعهم عبيد تشكلت منهم نواة عنصر اثنولوجي جديد : الماكاو . وقد جاءت بعد الهجرات الشرقية هجرات اخرى من العرب على وجه أخص . وسواء كانوا من عرب الجاهلية أو من الذين رفضوا الاسلام ، فقد كانت مساهمتهم في الجزيرة مما لا يستهان به . فقد ادخلوا التقويم الفلكي كما أدخلوا عدة شرائع دينية منها ديانة « حيوية المادة » .

لم يبدأ غزو أوروبا للجزيرة بشكل مركّز وكبير الا في القرن التاسع عشر .

ومع ذلك فان بعض الأوروبيين « من المغامرين او ممن جنحت سفنهم من البحارة النظاميين » لعبوا منذ القرن السابع عشر دوراً لا يخلو من الاهمية في الحياة السياسية « للجزيرة الكبيرة » .

حاول الفرنسيون مرتين أن يحتلوا الجزيرة بالقوة ، كانت المرة الاولى في القرن السابع عشر (١٦٤٢ الى ١٦٧٤) عن طريق تأسيس واحتلال فور – دوفان . ومرة ثانية في القرن الثامن عشر (١٧٧٣ – ١٧٨٦) عن طريق تدخل بنيوفسكي . ولكنهم لم ينجحوا الا في أن يوجدوا سابقة استندت اليها فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر . أسست الشعوب المختلفة في الجزيرة ، منذ وقت مبكر ، ممالك مستقلة ، منعزلة نسبياً بعضها عن البعض . وكانت المحاولتان الوحيدتان اللتان تتصفان بقدر من الاهمية في سبيل التوحيد ، من عمل الساكالافيين في منتصف القرن السابع عشر ، إذ سيطروا على الساحل الشرقي كله واسسوا فيه امبراطورية حقيقية – ومن عمل الميريناس الذين نجحوا في نهاية القرن الثامن عشر في ان يبسطوا سيطرتهم على الجزيرة كلها تقريباً . كان الميريناس من أواخر المهاجرين الذين ترجع أصولهم الى المحيط الهندي ولم يستطيعوا ان يستقروا على السواحل الآهلة بالسكان فصعدوا في اتجاه الغابات والاحراش الكثيفة واتخذوا مقرهم هناك نهائياً في مناطق الهضاب التي تحمل اليوم اسمهم « ايميرينا » . كان الملك اندريانا مبوانيميرينا عاهل الامبوهيمانجه قد قام في ١٧٨٧ بتوحيد كل ممالك الميرينيين التي كانت منقسمة حتى ذلك الوقت ، واستطاع ان يدرك اهمية موقع تناناريف ثم عكف على فتح الجزيرة كلها . وقد بقي العمل الذي قام به ، إذ انه على عكس الساكالافيين لا يقوم على قواعد عسكرية .» فحسب بل يقوم على بنية إدارية قاعدية . وفي عهد ابنه ، راداما ، ظهر الاوروبيون باعداد أكبر وان لم تكن عندهم النية بعد في السيطرة او الاثراء ، بل اسهموا على العكس في تطور البلاد . وبالاتفاق مع الحكومة الملكية استطاعوا ان يجعلوا الملاجاشيين يستفيدون من تجديدات التكنيك الأوروبي . والى جانب بعض الرجال الفرادى ، مثل السارجينت الفرنسي روبان الذي علم راداما الكتابة ،

أو الانجليزي برادي الذي درّب جيشه ، أو الغسقوني جان لابورد الذي كان مستشار الملكة ومعلم الامير راكوتو وصديقه عندما اصبح هذا الاخير ملكاً باسم راداما الثاني ، كان للبعثات البروتستانتية الانجليزية أجْدى الآثار على مدغشقر . ففي ١٨١٨ نزل الى تاماتاف اول مبعوثي « جمعية البعثــات التبشيرية في لندن » . ولم تكن لهذه الجمعية علاقة بالسياسة الانجليزية اذ انها كانت تصدر عن الطوائف الدينية المعادية للكنيسة الانجليكانية الرسمية . وظهر عمل المبشرين أساساً في ميدانين : الديني والمدرسي . ومنذ ١٨٦٢ أضيف قطاع ثالث الى نشاطهم : القطاع الطبي .

وبعد ١٨٦٤ جاءت جمعيات اخرى من المبشرين (انجليزية ، ونرويجية وامريكية) ، فظاهرت « جمعية البعثات التبشيرية في لندن » في عملها التبشيري وفي القيام بالخدمات العامة . وفي ١٨٣٥ كانت المدارس تضم اكثر من ١٢ ألف تلميذ منهم ٢٠٠٠ يتعلمون الحرف والمهن . ومن ١٨٣٥ — ١٨٦١ عبر البلاد تيار من الاضطهادات الدينية طُرد المبشرون على أثره . ولكن الكنيسة القومية الملاجاشية كانت على قدر كاف من الاستعداد يتيح لها أن تواجه مسؤولياتها وحدها ، وفي ١٨٦١ عاد العمل التبشيري يستأنف نشاطه بقوة اكبر . واصبحت الديانة البروتستانتية هي الديانة الرسمية : ديانة المملكة والبلاط .

في ١٨٩٥ كانت الكنائس الاصلاحية واللوثرية تضم ٣٠٠ لف من المسيحيين الملاجاشيين (على الأقل) وكانت مدارسها تضم اكثر من ١٠٠ ألف تلميذ، وكان يتخرج في كل عام ٥٠ طبيباً من كلية الطب في تاناناريف (وهي المستشفى الحالي) . وذهب أفضل من فيهم الى أوروبا ليستكملوا تخصصهم . وما لبثت ثمار هذا العمل الثقافي ان ظهرت بسرعة ، الى جانب العون التكنيكي الذي قدمته حفنة من الاوروبيين المقيمين في مدغشقر ، في كل الميادين . ويتقدم التعليم الذي أتاح الحاق عدد كبير من الموظفين المثقفين رسخت في الجزيرة ادارة اهلية حقيقية . وأصدرت القوانين المتعددة بحافز من المبشرين ، كان من أهمها « قانون الثلاثمائة وخمس مواد » (الذي صدر في ١٨٨١) .

ان ذلك يثبت ان اوروبا كانت تستطيع أن تسهم ، عن طريق عون مُنزّه عن الغرض ، في تنمية شعب أقل منها حظاً ، دون ان تلجأ بالضرورة الى الاستعمار . فلم يكن الفرنسيون اذن يستطيعون ان يبرروا تدخلهم بدعواهم التقليدية التي تزعم انها تسبغ « خيرات المدنية » للشعوب المستعمرة ، اذ كان الملاجاشيون يتمتعون بهذه الخيرات منذ زمان بعيد دون حاجة لهم . كان عليهم ان يجدوا تعلة اخرى . فتذكروا ان فرنسا كانت تحتل في القرن الثامن عشر بضع مواقع على الساحل الملاجاشي ، ولم تكن هذه المواقع مما اشتملت عليه الأراضي التي سلمها الفرنسيون الى انجلترا في معاهدة باريس ، ومن ثم فقد اصدرت لندن في ١٨١٦ (عقب الحروب النابليونية) أمراً الى حاكم جزيرة موريشيوس (التي سلمت الى انجلترا في ١٨١٤) بان يعيد الى فرنسا سان دوفان ، وسان لوس ، وجزيرة سانت ماري ، وتنتانج . ومن هنا جاءت الدعوى الفرنسية بملكية الجزيرة كلها .

ولكن قوة اسرة ميرينا المتزايدة وضعت حداً لعدة حملات فرنسية وألحقت بها الفشل . واستمر ذلك حتى ١٨٩٥ حين قررت حكومة جول فري أن تضرب ضربتها الكبرى . كانت تلك هي الفترة التي حرصت فيها انجلترا على الا تثير استياء فرنسا حتى تترك لها حرية العمل في مصر ، وكان بسمارك يشجع المشروعات الاستعمارية التي تقوم بها باريس . وفي اللحظة نفسها التي كانت فيها فرنسا تعترف لملوك ميرينا بشرعية مطالبتهم بلقب « ملوك مدغشقر » كانت القوات الفرنسية تتغلغل حتى تصل الى تاناناريف وتخلع الملكة عن العرش وتذهب بها الى المنفى . كان في هذا « المنطق » ما يدعو الى حيرة الملاجاشيين حقاً .

اكتساح جارف :

كانت حملة ١٨٩٥ حملة قصيرة ومدمرة ، كانت الأدوات العسكرية التي استخدمت اكثر تفوقاً بكثير مما تملكه القوات الملاجاشية . مما دعا تلك القوات ، بحق ، الى خشية الهزيمة القاصمة عند اقل اشتباك ، ومن ثم رفضت القتال تماماً

واستسلمت آخر الأمر في تناناريف عند اطلاق اول ضربة مدفع . وما لبثت أن ترتبت على هذه الخاتمة نتائج خطيرة . كان الضباط الفرنسيون يميلون الى الحكم على اعدائهم حكماً يقوم على تقدير خصائصهم وملكاتهم العسكرية ، ومن ثم لم يكن يراودهم الا الاحتقار والازدراء لخصم يفتقر الى كل قيمة وخطر . ولكن هؤلاء الضباط هم انفسهم الذين تولوا مسؤولية ادارة البلاد وحكم سكانها بعد الغزو ، وبذلك يمكننا أن نتخيل مدى شعورهم العنصريّ بالتعالي .. !

وبعد محاولة عابرة لفرض الحماية ، عين جالييني منذ ١٨٩٨ حاكماً عاماً لمدغشقر ، وكان عليه أن يواجه ثورة هائلة تولدت عن الحركة التي اطلق عليها اسم « فاهافالو » (الذين أقسموا اليمين) وقضى جالييني سنتين « لاقرار » السلام في البلاد (فهم عدد من ضباطه ومعاونيه ذلك باللجوء الى فرض الارهاب) وأدى « إقرار السلام » الى موت مائة ألف مالاجشي .

طبق جالييني اسلوباً كان قد جربه من قبل في تونكين واطلق عليه « أسلوب بقعة الزيت » . وسماه ليوتيي بعد ذلك « اسلوب الاحتلال المطرد » . كان الغزو العسكري عند جالييني لا يتيح الا أحد طريقين : « طريق العمل البطيء » أو « طريق العمل السريع » وقد اختار طريق العمل البطيء ، ومن ثم اتخذ إقرار السلام في مدغشقر طريق بقعة الزيت ، تتناوبه المناوشات ، كما يقول بيير جورو احد مؤرخي حياة جالييني[1] .

كان جالييني عند توليه مهمات الحاكم العام في مدغشقر يبدو رجلاً يتميز بتفوق ساحق ، متشبعاً بشعور يكاد يوشك على العنصرية . كان حلمه ان يحول السكان الاصليين فوراً الى مجتمع هو أقرب ما يكون الى المجتمع الفرنسي من الناحية الفكرية والمادية ، على انه من الواضح ان مثال المجتمع الفرنسي عنده مثال لا يمكن ان يُضارع . وقد كتب في ذلك على الأخص : « ليس هناك ما يمنع أن نحمل الرؤساء ، بأوامر منا ، على اتخاذ ملابسنا وعاداتنا ، وأن نحث

(١) بيير جورو : تقنيو الاستعمار : جالييني .

النساء على التخلص من ملابسهن الفضفاضة لكي يرتدين ملابس واردة من فرنسا » . ان ليوتي وقد اتضح مع ذلك أنه من اكثر المستعمرين « ليبرالية » ، لم يستطع ان يمنع نفسه من اعتناق العنصرية ، فيما يتعلق بالاستعمار العسكري ، وأن يكشف عن الخطط الحقيقية لفرنسا في مدغشقر . فقد كتب في هذا الصدد : « ان الالتجاء الى مختلطي الانساب ليس حلاً ، ويجب أن نبذر بذور أطفال فرنسا الحقيقيين في « اميرين ... » فاذا حُلت المشكلة على هذا الوجه ، واستخدم كل شيء في سبيل تيسيرها كان من الممكن أن نتصور ظهور جنس من المستعمرين الصغار ذوي الدم الفرنسي الخالص ، وقد صلب عودهم ، واعتادوا على القناعة بالقليل ، وتعلقوا بهذه التربة التي فلحوها وحرثوها ، واحتفظوا بتقاليد السلاح الوراثية ، على هذه الهضبة الوسطى التي تمتاز بجو صحي طيب ، في مدغشقر . ومن يدري ! ربما كنا نعد العدة ، على ذلك النحو ، لظهور البوير الفرنسيين » [1]

وإذن فقد طبق جالييني في مدغشقر السياسة التي عرفت بسياسة التمثل (في أكثر صورها زيفاً ، اي تلك الصورة التي تتضمن تدميراً منهجياً لقيم الحضارة الوطنية) وسياسة الادارة المباشرة ، وقد كانت عقليته تعده وتهيئه لذلك . ولنستمع اليه يثني على الضريبة الشخصية ، اذ يزعم انها تحث السكان الاصليين على العمل ، وهو العمل الذي لا يوجد بغيره « تقدم معنوي ولا مادي » : « وقد اتضح ان كل مكان من الجزيرة الكبيرة قد تقدم ، باحكام سيطرتنا على رعايانا الملاجاشيين واخضاعهم للاعباء المالية . ذلك أنه عند تلبية الحاجات الضرورية للجانب الاعظم من السكان الذين ما زالوا بدائيين ، في معظم انحاء المستعمرة ، فان الانتاج بعد ذلك يجب ان يوجه الى سداد الضريبة .. » ولكننا كنا نحبّ أن نعرف ماذا تعني « الحاجات الضرورية » للشعب الملاجاشي ، عند جالييني . !

(١) كولونيل لوتي : الدور الاستعماري للجيش .

أدت سياسة التمثل والمركزية التي انتهجها القائد المستعمر الى تدمير الصرح الذي أقامه الأوروبيون المنزهون عن الغرض والذين عادوا على مدغشقر بخيرات كثيرة خلال قرن كامل من الزمان ، ويضطر مؤرخه الى الاعتراف بذلك . « قضى جاليينى على دولة ميرينا التي كان من الممكن ان تبقى تحت ظل الحماية . لقد أساء وعوّق تكوين الصفوة القيادية عندما ألغى امتيازات النبلاء والحق أفراداً من الطبقات الدنيا بالوظائف على اعتبار انه يضمن ولاءهم له أكثر . وقد أثر تأثيراً قوياً على التطور الفكري في البلاد اذ وضع اللغة الفرنسية في مقدمة مناهج التعليم بينما كان من الممكن ان تصبح اللغة الملاجاشية هي وسيلة الثقافة الحديثة . ولم يستطع جاليينى في نهاية الامر ان يستخلص أفضل ما في نظام الطوائف الملاجاشي — نظام الفوكونولا »[1] . ولكن بيير جورو يحس على الفور بما في هذا النقد من جرأة فيسارع بأن يقول : « ولكن لا ينبغي ان يغيب عن نظرنا ان جاليينى كان يعمل بهدى أفضل النوايا واطيبها ، لقد كان يرغب باخلاص في توحيد مدغشقر بفرنسا »[2] .

وينبغي ان نشير انه عندما جرد جاليينى النبلاء من امتيازاتهم فلم يكن ذلك عملاً من أعمال الايمان بالديمقراطية (مما يمكن بشكل ما أن يغدو قابلاً للدفاع عنه) بل كان ذلك نتيجة لان هؤلاء النبلاء لم يكونوا متعلقين بفرنسا . لقد أدى التحقيق الذي اجرى بعد تمرد عامي ١٩٠٤ ، ١٩٠٥ في جنوبي شرقي الجزيرة ، الى تكشف الحقائق : كان التمرد راجعاً الى استغلال السخرة ، والى الطلبات القاسية التي كان يطلبها رؤساء المراكز ، والى مصادر حقول الأرز التي يمتلكها الأهالي . ففي ١٨٩٦ — ١٨٨٧ ، في عهد جاليينى ، كان خُمْس الرجال العاملين في السخرة يموتون اثناء العمل . ولكن جورو يبرّىء بطله على الفور فيقول : « كان جاليينى على غير معرفة بهذه الأخطاء التي لا ينبغي ان نغالي

---

(١) بيير جورو : تقنيو الاستعمار : جاليينى .

(٢) المصدر السابق .

في أهميتها » . ونستطيع ان نصدق جورو في هـذا الصدد : لم يكن جالييني يغالي حقاً في شيء ما .

يكتب جورو بعد ذلك ، بسذاجة زائفة : « يبدو ان جالييني لم يسائل نفسه قط عما اذا كان العمل الاستعماري مشروعاً ام غير مشروع . ما دام الاكثر تمدينا يملك الحق في أن يفرض نفسه بالقوة على الاقل تمديناً » . هذه هي اللمحة الاخيرة التي تنير لنا شخصية المستعمِر وشخصية مؤرخه معاً . ذلك أن المؤرخ يقضي على التساؤل الذي أثاره فيجيب بنفسه على هذا السؤال القاسي الذي يتعلق بالضمير : « كان تصوره لعظمة فرنسا لا يتيح الاحساس بأي شك في هذا الصدد » . كان لهذا الموقف اصداؤه المترتبة عليه ... « ذلك أن الاستعمار الفرنسي في مدغشقر قد قام على هذه الفرضية المسبقة المتعالية الباردة ، واستلهم مساره من هذا النموذج القائم على الاكتفاء الذاتي الشوفيني العنصري . فرض الجيش على البلاد ادارة ديكتاتورية شمولية لم تتردد السلطة المدنية بعد ذلك في أن تأخذ بها دون تعديل . كان للمعمرين البيض فقط الحق في رفع شكاواهم وتظلماتهم والمطالبة بما يرونه حقاً لهم ، اما الملاجاشيون فلم يكونوا يملكون على الاطلاق اية وسيلة للتعبير عن ذاتهم : فلا صحافة ، ولا علاقات اجتماعية ولا منظمات نقابية . ونجحت الادارة الفرنسية في ان تقضي بالتدريج على الخصائص الاقليمية المتميزة ، وفرضت نوعاً من النمطية الشاملة على البلاد بأن أخضعتها بالقوة لسياسة التمثل وعلى نحو من الاكتساح الجارف لا يتيح للسكان فرصة على الاطلاق . فكيف ندهش بعد ذلك ، كما يتظاهر البعض بالدهشة ، لأنه ، « لم يكن هناك تاريخ على الاطلاق في مدغشقر تحت الحكم الفرنسي؟ » ومع ذلك فقد انتفضت مدغشقر لنفسها في ١٩٤٧ !.

شبه استعمار :

كان نظام « الحماية » الذي أُخضعت له تونس بمقتضى معاهدة باردو في ١٨٩١ ، ومراكش بمقتضى اتفاقية فاس في ٣٠ مارس ١٦١٢ ، نظاماً

تملك دولة « الحماية » في السلطة الحقيقية ، وينطوي على استغلال كل الموارد الاقتصادية ، بينما لا يبقى للبلد الموضوع تحت « الحماية » الاً سرابٌ خادع من السلطة ، يقتصر على حكومة اسمية تدير الشؤون العامة . ذلك هو شبه الاستعمار الذي سوف نجده بعد ذلك في الصين في عهد الامتيازات الاجنبية .

ان الظروف والحجج التي اتاحت لفرنسا الاستيلاء على تونس ومراكش الواحدة تلو الاخرى قد تكون مختلفة في الحالتين ، ولكنها انتهت الى نتيجة واحدة . فقد احتل العثمانيون تونس في الفترة نفسها التي احتلوا فيها الجزائر ، ولكن ما ان جاء القرن التاسع عشر حتى لم تعد توجد بين تونس والباب العالي الا علاقات نظرية صرفة . فالواقع ان باي تونس كان مستقلاً . وقد استطاعت تونس ، شأنها في ذلك شأن الجزائر ، ان تثري بفضل « حرب القرصنة » التي انتهت في ١٨١٩ . وبذلك اخذت تونس تتدهور فجأة من الناحية الاقتصادية في الفترة التي استقرت فيها فرنسا في الجزائر . «كانت الجزائر الشرقية التي تعيش في حالة من التكافل العضوي الاقتصادي الوثيق مع تونس قد فصلت عنها فجأة على أثر فرض الفرنسيين حدوداً لم تعد تسمح بمرور شيء منها، او اليها . وشح التبادل بين البلدين . فجاء هذا التغيير المفاجيء ، بالاضافة الى آثار التغلغل الاقتصادي الاوربي في البحر المتوسط لكي يسهم في عزل تونس وزيادة تدهورها الاقتصادي »[1] .

وطوال خمسين عاماً أسهمت فرنسا في تدعيم العزل السياسي لتونس واخضاعها لنوع من « التهيئة » والاعداد للاستعمار . أما انجلترا فلم تكن تنظر بكثير من الارتياح الى استقرار فرنسا في الجزائر ، وكانت تخشى ان تبسط نفوذها حتى مصر ، ولذلك فقد أيدت الدعاوى العثمانية التي تطالب باستعادة تونس . وحاول باي تونس استغلال هذه التيارات المتعارضة باثارة النزاع بين انجلترا وفرنسا . فاستغل فرنسا ضد السلطان وأثار الانجليز ضد

(١) أندريه ريمون : تونس .

الفرنسيين ، وفقاً لضرورات الحال . ولكن أخطاء السلطان وتردده أدت الى اقترابه آخر الأمر من الفرنسيين الذين كان يظنهم أقل مدعاة للخشية والخوف ، على حين كان الفرنسيون يخشون تدخل الانجليز اذا قاموا بأية خطوة خاطئة .

كان لغزو الجزائر واحتلالها أثر آخر ، فقد حمل باي تونس على ادخال الاسلحة والطرق الحديثة الى جيشه : فأنشأ سبع كتائب من المشاة ، وكتيبتي مدفعية ، وكتيبة من الفرسان ، على التعاقب ، يبلغ مجموعها ٢٥ ألف رجل . الا ان هذا الجهد الحربي الكبير أثقل ميزانيته بعبء باهظ ، أضيف الى عبء الفقر الذي وصلت اليه البلاد ، وعبء نظام مالي عتيق لا يساير النظم الحديثة . وهكذا بدأت تونس تسير باطراد في طريق الدين مما ادى في النهاية الى الاطاحة باستقلالها .

بدأ في تونس عهد من الاصلاحات الجوهرية ، تحت حكم محمد باي (١٨٥٥ — ١٨٥٩) وقد كان حاكماً سلفياً وتقليدياً وان كان يطمح إلى تحقيق التقدم الداخلي للبلاد ، وتحت حكم صدّوق باي الذي كان « عصرياً » ، بالتأكيد .

خضع الباي لضغط قناصل فرنسا وبريطانيا العظمى ومنح رعاياه في ١٠ سبتمبر ١٨٥٧ « التزاماً أساسياً » يتيح لجميع التونسيين (مسلمين او يهوداً) ضمانات وحقوقاً متساوية ، كما منح الاجانب حق الحصول على الملكية وممارسة النشاط في الولاية . وفي ١٨٦١ صدر دستور فبدأ بذلك عهد الملكية المعتدلة ، مع انشاء مجلس تشريعي اعلى مكون من ٦٠ عضواً يأتي جزء منهم بالتعيين من الباي ، وجزء آخر بالاختيار . الا ان هذه التجربة التي لم تكن لها سابقة في الامبراطورية العثمانية لم تستمر اكثر من اربع سنوات . ذلك أن قناصل الدول الاوربية الكبرى الذين أرغموا التونسيين على « الاخذ بالنظم الحديثة » ادركوا في الواقع ان جمعية تشريعية يتوفر لأعضائها الاهتمام

الحقيقي بالمصلحة القومية سوف تكون في النهاية اكثر استعصاء عليهم ، وأصعب على الاخضاع ، من الباي نفسه ، وسوف تكون على الاخص اقل استعداداً لاقرار منح الاجانب مزايا متزايدة الأهمية . وهو رد فعل نمطي للاستعمار الجديد – قبل ان يظهر الاستعمار الجديد – الذي سوف تقيمه الولايات المتحدة الامريكية بعد ذلك . ومن ثم عكف قناصل فرنسا وايطاليا على تخريب الاصلاحات التي كانوا قد دعوا اليهامن قبل ، تخريباً يتم في الخفاء : « اذا كان لا يبدو من الممكن ارغام الباي على تمزيق الالتزام الذي تعهد به منذ عام تقريباً ، فلنرغم حكومته على الاقل على السير باعتدال وفطنة في تطبيق مثل هذه الاصلاحات الجذرية » .

هذا الى ان القناصل اخذوا يؤيدون سراً تصرفات المغامرين الذين راحوا ينصحون الباي بالقيام بمشروعات خطرة يترتب عليها تدهور محسوس في الموقف المالي . وتردت الحكومة في ديون جديدة ، وفرضت قروضاً محلية ، ثم أخذت تعقد قروضاً دولية . وقرر صدوق باي ان يضاعف الضريبة الشخصية : « المجبى » مما أدى الى ظهور موجة « قومية » عارمة من السخط والثورة . وقد عرفت هذه الحركة باسم « ثورة ١٨٦٤ » ، ولم يتم اخضاعها الا بصعوبة ، وخرجت تونس منها وقد لحقها الدمار . فعقدت قرضاً جديداً ، واضيفت الى هذه الكارثة السياسية نكبات الجفاف والمجاعة والكوليرا التي ادت في ١٨٦٦ و ١٨٦٧ الى انقاص عدد سكان البلاد بقدر ملموس .

وهكذا دُفع الباي الى الافلاس نتيجة لعقده قرضاً بعد قرض لم تكن اوضاع البلاد الحرجة تسمح بسدادها . وفي ١٨٦٩ كان عليه ان يقبل وضع الولاية تحت الوصاية واقامة لجنة مالية دولية للرقابة . الا ان نظام اللجنة الثلاثية الانجليزية الفرنسية الايطالية لم يكن فيه ضمانات ضد محاولة فرنسا ان تضع يدها وحدها على الولاية بل كان على العكس موطىء قدم نموذجياً أتاح لباريس ان تتدخل في الشئون الداخلية التونسية دون تردد ودون عقبات . وعرفت تونس فترة من التوازن بين ١٨٧٣ – ١٨٧٦ في عهد حكومة

« خير الدين » الرشيدة وقد كان رئيس وزراء الباي . ولكن تونس عادت الى شططها واخطائها بعد اسقاطه عن الحكم ، مما ادى الى انهيارها النهائي .

في ١٨٧٨ تخلت بريطانيا العظمى عن معارضة السياسة الفرنسية في تونس حتى تضمن الاستئثار بملكية قبرص . وكانت ألمانيا تقر سياسة باريس . أما تركيا فلم تكن في حالة تسمح لها بالقيام بعمل ما . وبعد مفاوضات شاقة لا نهاية لها استطاعت الدبلوماسية الفرنسية ان تضمن اطلاق يدها في شئون تونس بعد ان تخلت لايطاليا عن امتيازات هامة ، فقد كانت ايطاليا هي المنافس الوحيد لها في ذلك الميدان . واذن فقد جاءت لحظة العمل . كانت دوائر الأعمال التجارية والمالية التي تشترك في المشروعات الاقتصادية التونسية والتي كانت تعتزم الاستئثار باستثمار البلاد واستغلالها ، هي التي دفعت العجلة دفعاً قوياً الى الدوران[1] . وسرعان ما وقف الجميع الى جانب فكرة التدخل : السياسيون والماليون معاً . ولم يعد يبقى الا ايجاد الحجة والتعلة . وجاءت التعلة سراعاً ، كما أكد ذلك قنصل فرنسا في تونس ، روستان ، في خطاب كتبه الى كورسيل في ١٨٨٠ : « فلتكن على يقين انه يظهر أمامنا على الحدود سبب من أسباب الحرب ، في كل اسبوع ، ولا يتوقف الأمر إلا علينا لكي نفيد من مثل هذا الوضع » .

تغلغل بعض رجال القبائل التونسية الى الاراضي الجزائرية في ٣٠ ، ٣١ مارس ١٨٨١ ، فاتخذ من ذلك على الفور سببٌ يدعو الى الحرب . وفي ٤ ابريل طالب جول فري الجمعية النيابية باعتمادات للقيام « بحملة تأديبية على الحدود » وبعد ثلاثة أسابيع من بدء العمليات العسكرية ، كانت القوات الفرنسية على أبواب تونس وأرغمت الباي على توقيع معاهدة باردو في ٢١ مايو ١٨٨١ . لم يقابل الفرنسيون أية مقاومة عسكرية ، وبعد بضعة أسابيع انفجرت ثورة شعبية في وسط البلاد وجنوبها وجد المحتلون الجدد صعوبة في السيطرة عليها :

(١) تذكر في هذا الصدد رواية « الصديق الجميل » لغي دي موباسان .

اما المناسبة التي اختارتها فرنسا للتدخل في مراكش فقد كانت تختلف عن ذلك اختلافاً ملحوظاً . كانت الامبراطورية الشريفية ، منذ نهاية عصر استعادة الاندلس من الحكم الاسلامي ، هدفاً لهجمات متكررة من اسبانيا والبرتغال اللتين اتخذتا لانفسهما مواطىء أقدام متعددة في كثير من نقط الساحل : وقد كان ذلك انتقاماً متوقعاً من جانب الاسر الحاكمة في شبه الجزيرة الايبرية . وقد فكر ريشلييه في وقت من الاوقات ان يتخذ موطىء قدم في موغادور، ولكن الحملة فشلت . وفي ١٦٦٦ دخل مولاي الرشيد فاس ونصب نفسه حاكماً للبلاد وأسس الاسرة العلوية التي ما زالت تحكم إلى اليوم (ويمثلها الآن الحسن الثاني) .

في القرن التاسع عشر أبدت دول اوربية كبرى اهتمامها المتزايد بمراكش : انجلترا على الاخص . وقد استطاعت مراكش ان تتجنب غزواً فرنسياً في مايو ١٨٤٤ . ومع أن السلطان مولاي عبد الرحمن لم يحاول قط ان يعوق استقرار القوات الفرنسية في الجزائر فقد كان مضطراً الى تغيير موقفه عندما لجأ الأمير عبد القادر الى مراكش . وقعت حادثة على الحدود ادت الى اشعال النار في البارود ، والى قصف طنجة وموغادور بالقنابل ونشوب معركة « ايسلي » ولكن بريطانيا العظمى تدخلت على الفور وبقوة ، فوُقّعت اتفاقية صلح لا تتيح لفرنسا أدنى تعويضات ولا ضمانات .

وفي عهد مولاي الحسن زاد التنافس بين البلاد الأوربية حدة ، فقد انضمت ألمانيا وايطاليا الى البلاد الاوربية التقليدية : اسبانيا وفرنسا وانجلترا[1] . وكانت الاوضاع المالية في مراكش تمر بمرحلة حرجة ودقيقة للغاية للأسباب نفسها التي ظهرت في تونس . وكان مولاي الحسن قد عقد العزم على ان ينشيء لنفسه جيشاً كبيراً حديثاً ، مما أسهم في تدهور ميزانيته تدهوراً جسيماً . وما لبث ان انفجرت أزمة نقدية ومالية . ولكن مولاي الحسن

(١) كان التوحيد السياسي لهذه البلدان منذ عهد قريب ، قد أخر دخولها ميدان المنافسة الاستعمارية .

استطاع ان يتجنب الالتجاء الى عقد القروض . ولم ينجح خلفه ــ عبد العزيز ــ في ذلك . واخذت القروض تتعاقب بايقاع متزايد السرعة مما ادى الى تخريب الخزانة المراكشية .

كان القرض الذي عقد في ١٩٠٤ مع مجموعة من البنوك الفرنسية متجمعة حول بنك « باريس والبلاد الواطئة » من شأنه ان يؤدي الى السماح بوجود مراقبين فرنسيين في الموانى المراكشية : وكانت تلك أول حالة من حالات التدخل الاجنبي في الادارة الشريفية . وبعـــد ان ادخلت فرنسا « حصان طروادة » هذا ، أخذت تثنى اهتمام منافسيها الرئيسيين عن مراكش . وهم : الاسبانيون ، والايطاليون والانجليز . ولكنها لم تستطع ان تبعد عن الميدان أقوى منافسيها فيه وهي ألمانيا . عقد مؤتمر الجزيرة في ١٩٠٦ وابرمت اتفاقية فبراير ١٩٠٩ وظهر على اثر ذلك وضع اقتصادي يبدو انه كان يرضي الطرفين : فرنسا وألمانيا .

الا ان السلطان الجديد عاد فأثار المشكلة بكل حدتها عندما ضربت عليه بعض القبائل المتمردة حصاراً في فاس هو ومن معه من افراد المستعمرات الأوربية ، فقد ناشد فرنسا التدخل في ابريل ١٩١١ . وأدى احتلال فاس في مايو على يدي الجنرال موانييه واحتلال القصر الكبير على ايدي القوات الاسبانية الى استثارة رد فوري من الالمان الذين ارسلوا السفينة الحربيـــة « بانتر » الى مياه أغادير . وكانت « ضربة اغادير » هي الأصل في مفاوضات شاقة وطويلة . وعلى اثر هذه المفاوضات قبلت فرنسا ان تسلم الى المانيـــا بمقتضى معاهدة ٤ نوفمبر ١٩١١ مساحة من اراضي الكونغو تمتد على ٢٧٥ ألف كيلو متر مربع في مقابل ان تعترف برلين بشرعية الوجود الفرنسي في مراكش . وأبرمت « اتفاقية فاس » في ٣٠ مارس ١٩١٢ بين فرنسا والسلطان مولاي الحفيظ ، فأرست الأسس القانونية « للحماية » وعيّن الجنرال ليوتي أوّل « مقيم عام » لفرنسا وتنازل مولاي الحفيظ عن العرش لمولاي يوسف .

سياسة المحميات :

كانت معاهدة باردو تنصّ على احتلال موقت ومحدود لتونس حتّى «إعادة الأمن والنظام». وبعد عامين نصت اتفاقية المرسى في ٨ يونيو ١٨٨٣، رسمياً على انشاء : «محمية»، فكرست بذلك انتهاك السيادة الداخلية التونسية انتهاكاً مقصوداً متعمداً. كان الباي ووزراؤه – نظرياً – مستمرين في حكم الدولة التونسية تحت رقابة مقيم عام. والواقع ان فرنسا هي التي كانت تمارس السلطة وحدها، أما الحكومة فقد اكتفت بدور الواجهة. وبينما اصبح الجيش التونسي مجرد فصيلة من فصائل الزينة والمواكب الرسمية، لا خطر يخشى منه، بادر الجيش الفرنسي بالسيطرة على البلاد فعلياً. اننا نجد في تكوين الادارة المركزية عناصر لها دلالتها : نرى فيها وجود «مقيم عام» فرنسي يؤدي بالاضافة الى ذلك وظائف وزير الخارجية. كما نرى وجود قائد فرنسي لفصيلة من الجيش يقوم بمهام وزير الحربية، واميرال فرنسي هو وزير البحرية، وثلاثة وزراء تونسيين، وسبعة مديرين فرنسيين، فهل يمكن ان يحلم أحد بحكومة «تونسية» قد أحيط بها على نحو افضل من ذلك النحو؟

لم تكن الحكومة الفرنسية، في بداية الحماية، ترغب في تشجيع صغار المستعمرين : كانت الشركات قد اشترت اراضي كبيرة (في ١٨٩٢ كان الفرنسيون قد تملكوا ٤٠ ألف هكتار) دون ان تكون لديها نية في استثمارها مباشرة. وعلى ذلك فقد استمر المنتجون التونسيون مؤقتاً، في مواقعهم، باعتبارهم مستأجرين وان كانوا يدفعون ايجارات متزايدة. ولكن الحكومة الفرنسية عدلت من موقفها فجأة منذ ١٢٩٨، بهدف اقامة توازن ضد الهجرة الايطالية، وبهدف استثمار «اكتشاف» شجرة الزيتون الصفاقصية. فأخذت تشجع إرساء اسس مستعمرة فرنسية كبيرة العدد. مما ادى على الفور الى اختلال خطير في التوازن والى ظهور اقتصاديْن متميزين في المدى الطويل : احدهما اوروبي هو اقتصاد الوفرة والتقدم، والآخر أهليّ هو اقتصاد أدى

النمو الاوروبي الى زيادة تخلفه .

كان انشاء استعمار كبير النطاق في مناطق زراعة الحبوب القديمة ، في الشمال ، من أثره ان تنحسر الزراعة التونسية نحو مناطق اقل ملاءمة لها في اراضي الاستبس حيث تزايد عدد السكان بالنسبة الى الاراضي . ومن ناحية اخرى لم تكن المعدات الحديثة تستخدم الا في المناطــق التي يملك فيهــا المستعمر مصالح هامة أي في تونس الشمالية والبحرية . وامتدت الاستثمارات الاوربية الواسعة فشملت خمس مساحة الاراضي القابلة للزراعة ، بما تملك من أدوات تكنيكية قوية (٩ آلاف جرار في ١٩٥٣) وبما يغذيها من رؤوس أموال مالية ضخمة . وكانت الشركات الكبرى ذات الامتيازات ، والمشروعات الصناعية الحديثة ، مثل مطاحن تونس الكبرى ، وشركات زيت الساحل ، والشركة التونسية للأغذية المحفوظة ، وشركة السوبر فوسفات رينو ... الخ ، يديرها الاوربيون وتتحكم فيها رؤوس اموال فرنسية أساساً .

وكانت رؤوس الاموال الفرنسية المكونة من اعتمادات وقروض عامة وخاصة ، قد أتاحت الاستعمار على نطاق واسع ووفرت له سبل التنمية ، كما اتاحت استخدام المعدات الحديثة ، (السكك الحديدية ، الطرق ، ... الخ) . هذا الى ان الرأسمالية الفرنسية قد احتكرت واستثمرت المــوارد الاقتصادية لتونس . وكان بنك الجزائر قد حصل بمقتضى مرسوم من الباي في ١٩٠٤ ، على امتياز اصدار اوراق النقد في تونس ، وقد اتخذ بعد تأميمه في ١٩٤٦ اسم بنك الجزائر وتونس . وكان الفرنسيون يسيطرون عليه تماماً ، اما مشاركة التونسيين فقد كانت ضئيلة للغاية وشكلية بحتة . كانت حكومة الباي تملك ٧٥٠٠ سهم من ٥٠ ألف سهم وكان يمثلها في مجلس الادارة ثلاثة مديرين (منهم اثنان من ذوي الجنسية الفرنسية) من بين ١٥ عضواً .

كانت المنشآت المصرفية التي تعمل في تونس، وهي فروع لمؤسسات فرنسية او لمصارف محلية ، على صلة وثيقة جميعاً بالرأسمالية الفرنسية . وقد تحولت

بعض هذه البنوك الى احتكارات حقيقية ، بوساطة فروعها واشتراكها في شركات مختلفة منها على الاخص شركات المناجم . كان « بنك الاتحاد الباريسي » الذي تمثله « الشركة الجزائرية للتسليف والبنوك » يسيطر على انتاج الحديد في تونس (جبل جيريسه) وعلى جزء كبير من انتاج الفوسفات (شركة جفصة) كما يسيطر على مشروعات صناعية متعددة وعلى كثير من مشروعات النقل (الشركة التجارية للشحن والسمسرة). وكان « بنك باريس والبلاد الواطئة » قد حصل على جزء من رؤوس اموال « البنك العقاري للجزائر وتونس » و « شركة فوسفات جبل ميديلا » و « السكك الحديدية لتونس » ... الخ .

واذن فقد قامت شركات تكاد تكون فرنسية خالصة باستثمار الموارد الطبيعية لتونس : وهي شركات وثيقة الاتصال بالشبكة المالية : فاستثمرت مناجم متلاوي ورديف ومولاس (٦٥٪ من انتاج الفوسفات) « شركة الفوسفات والسكك الحديدية في جفصة » (الانيون الباريسي) واستثمرت مناجم ميديلا « ١٨ ٪ شركة جبل ميديلا » (بنك باريس والبلاد الواطئة : مجموعة جيليه) . واستثمرت مناجم الفحم في جبل جيريسه (٩٠٪ من الانتاج) « شركة موكتا وحديد » (الانيون الباريسي ، مجموعة روتشيلد) وقامت « شركة المناجم الأستورية » المشتركة مع « بنك باريس والبلاد الواطئة » باستثمار ٣٥٪ من الانتاج الاجمالي للقصدير ، و « شركة بيناورويا الفرنسية الاسبانية » باستغلال ١٦٪ منه . ولم تفلت من احتكار رؤوس الاموال الفرنسية الا اعمال التنقيب عن البترول في تونس . فقد واجهت « الشركة الفرنسية للبترول » منافسة خطيرة في هذا الميدان من جانب « شركة البترول في تونس » (شركة البترول الهولندية الملكية) ومن جانب « شركة البترول في شمال افريقيا » (اتحاد بترول الخليج) .

كان لهذا الانقضاض المحموم على الموارد الحيوية لتونس والاستيلاء عليها بضراوة ووحشية ، من جانب الفرنسيين والاوربيين ، آثاره الخطيرة .

فهو لم يبعد التونسيين بحيث يلجئهم الى زراعة الأراضي غير القابلة للزراعة فحسب ، ولكنه زاد من عوز السكان وبطالتهم زيادة خطيرة ، في المناطق الريفية والحضرية على السواء ، نتيجة لزيادة السكان بإيقاع سريع .

لم تظهر الآثار السلبية لشبه الاستعمار في مراكش بنفس الحدة التي ظهرت في غيرها من المناطق ، لسببين جوهريين : فقد كانت معاهدة الحماية ، واتفاقية الجزيرة ، تحظران إدخال نظام الادارة المباشرة والتمثل ، وهو النظام الذي كان يؤثره الاستعمار الفرنسي على غيره . والسبب الثاني ان ليوتي الذي كانت بيده مصائر « الحماية » طوال الفترة الحاسمة من وجودها ، كان من أشد انصار سياسة المشاركة نشاطاً واقتناعاً . كان ليوتي ينتمي من حيث الأصل (بورجوازي وارستقراطي) ومن حيث تكوين المزاج والشخصية الى فئة المحافظين بل « الرجعيين » . كان في شبابه من انصار الملكية ، وهو لم ينضو تحت لواء الجمهورية قطّ قلباً وقالباً . وهو يعلن انه يفضل « اللورين الاقطاعية ، على اللورين القائمة على الوحدة الادارية » . وكان يشعر أنه « اقرب الى ضباط المستعمرات او ضباط اليونكرز الالمان منه الى صفوف الجيش الفرنسي العادية أو الى العمال الفرنسيين . كان يريد اقامة مجتمع يتأسس فيه النظام السياسي والاجتماعي على أسس من التدرج الهرمي ، والتقاليد ، والملكية الفردية »[1] . كان يحتقر النظام البرلماني وكان يحتقر كل اشكال الديمقراطية ، ويؤيد الميليشيا « الفاشية » التي حاولت « أن تعيد النظام الى نصابه » في ١٦ فبراير ١٩٣٤ ، تأييداً سافراً . هذا الى انه كان من الضباط الذين خاضوا « الحروب الاستعمارية » وآمنوا بها ، وكان على وعي حاد بانتسابه الروحي الى « الأسلاف الأمجاد » . وقد كتب على الأخص في هذا الصدد يقول : « ان رأي أبرز أهالي المستعمرات ، دون تفرقة في اتجاهاتهم ، يُجمع اليوم على تكريم العمل العظيم الذي قمنا به ، والاشادة برواد هذا العمل العظام من امثال

(١) جان دريش : تقنيو الاستعمار : ليوتيي .

بوجار ودوما ، ولاموريسيير ، وديباراي ، الذين نضعهم جميعاً موضع التشريف وننتسب اليهم »[1] . وقد خدم على التعاقب في تونكين ، وفي الجزائر ، وفي مدغشقر تحت إمرة جاليني الذي ظلّ يكنّ له ، دائماً ، إعجاباً بلا حدود .

عُيّن ليوتي مقيماً عاماً في مراكش فاتيحت له فرصة تطبيق مبادئه ، ولا شك ان الاسلام كان قد أسر لبّه إلى حد عميق ، ولكنه كان يعجب بأكثر أشكاله رجعية ، وأكثر تنظيماته قدماً وسلفية . واذن فقد كان يرى واجبه الأول في « ان يرفع من المكانة الشخصية للسلطان ، بأن يعيد احياء التقاليد القديمة وأساليب البلاط التي جرى عليها العرف في الماضي » .[2] استطاع ليوتي ان يعيد « اقرار السلام » بين القبائل ، ووسع من نطاق الأراضي المراكشية ، باسم السلطان ، وفي سبيل « تعاظم مجده » . واستطاع في النهاية ، وبكل حرية ، ان يحقق العمل الذي كانت الديمقراطية البرلمانية تحول دونه وتحقيقه في فرنسا نفسها . كان قد أعاد ايضاً نظام الديوان الملكي للسلطان . وفي ١٩١٦ توجه بالخطاب الى الاعيان المحليين قائلاً : « انتم تعرفون جميعاً مدى العناية التي أوليها دائماً ، انا ، وكل الذين يتعاونون معي (جورو ، ومانجان ، وغيرهم) بأن تحتفظ الرتب والدرجات التقليدية بمكانتها وباحترامها ، وبأن تبقى الاشياء والناس في أماكنها القديمة . وان يحكم الزعماء الطبيعيون ، وان يطيعهم الآخرون » .

ان الصورة الكاملة له تبدو واضحة في هذا الخطاب ، وقد رسمها بنفسه . ونحن نحدس اذن انه كان يحس نفسه « أقرب الى السلطان والى الاعيان » منه الى الوزراء أو النواب الفرنسيين . لم يكن تتبدى عنده العنصرية كما نعرفها اليوم . ولكنه في مقابل ذلك كان ينتسب الى طائفة الرؤساء التقليديين الذين

---

(١) كولونيل ليوتي : الدور الاستعماري للجيش .

(٢) جان دريش : تقنيو الاستعمار ـــ ليوتي .

كان يبسط عليهم حمايته ورعايته ، بالتعبير عن وصايته ، وبالازدراء العميق الذي كان يكنّه لاولئك الذين تملى عليهم أوضاعهم واجباً واحداً : هو واجب « الطاعة » . كان ملكياً ومحافظاً . ومن ثم فقد كان يشعر بالراحة في قلب تلك الملكية الاقطاعية التي يعيد اليها تقاليدها القديمة . انه ببساطة قد اختار ان ينقل رغبته الحارة في ان يخدم احد الملوك ، الى مراكش . هذا الى ان افكاره وملكاته التي ظلت عاطلة عن العمل والتي توحي بمقدرة كبيرة على البناء والتشييد قد وجدت مخرجاً طبيعياً لها في الامبراطورية الشريفية حيث مد شبكة لا مثيل لها في المغرب كله .

ومع ذلك فان تعلق ليوتي بقيم الماضي ، مما ادى الى تحقيق عمل فذ في المغرب لا يقارن به شيء في تاريخ الاستعمار ، لم يجعل المصالح الفرنسية تغيب عن بصره ، فاذا كان قد تميز عن غيره من « تقنيّي الاستعمار » على صعيد اختيار المناهج والطرق وعلى صعيد الاختيارات الرسمية التي اخذ بها ، فانه يتفق معهم اتفاقاً اساسياً – أي فيما يتعلق بضرورة المنفعة والربح – . ويكفي في هذا الصدد ان نحلل فكرته عن : « الحماية » : « ان الحماية لا تبدو صيغة نظرية انتقالية ، بل ليست صيغةً على الاطلاق ، انها حقيقة قائمة دائماً : التغلغل الاقتصادي والمعنوي الى صفوف شعب من الشعوب لا عن طريق اخضاعه لقوتنا ، ولا اخضاعه لحريتنا ، ولكن عن طريق مشاركةٍ وثيقة ندير فيها شئونه في جو من السلام ، وعن طريق اجهزة حكومته نفسها ، ووفقاً لتقاليده وحرياته » .

لم يتردد ليوتي في تشجيع « التغلغل الاقتصادي » الفرنسي ، تشجيعاً نشطاً . « وضع نصوصاً تشريعية تفرق بين الاموال القابلة للتصرف ، والاموال غير القابلة للتصرف ، الاراضي الجماعية التي تملكها القبائل ، والخاضعة لوصاية الادارة بحيث تكون الادارة وحدها صاحبة الحق في التصرف فيها لأغراض الاستعمار ... »[1] وبفضل هذه الجهود تدفق المستعمرون البيض

(١) جان دريش : تقنيو الاستعمار – ليوتيي .

(٦٠ ألفاً ، في ثلاث سنوات) ونما عدد السكان الاوربيين نمواً سريعاً مما ادى الى اختلال عميق في التوازن ، كما حدث في تونس تماماً . فقد اخذ الاقتصاد المراكشي يعاني من رد الفعل الذي لا مهرب منه ، على أثر « الغزو الاستعماري » . وتضاعفت حالات اجلاء المصالح الوطنية. اضطر بني مطير مثلاً الى استصلاح صخور « هضبة الحاجب » بعد ان نزعت عنهم ملكية اراضيهم الوافرة الخصوبة في سهل مكناس . وأسهم تقدم الاستعمار من ناحية اخرى في عزل القبائل الرحل التي تقطن منطقة جبال الاطلس الوسطى ، عزلاً متزايد الحد — فقد وقعت الاقاليم التي كانوا يعيشون فيها ويتنقلون بين رحابها تحت وطأة الاحتلال . هذا الى أن الشركات الحضرية التي حاول ليوتي أن يعيد اليها الحياة اتباعاً لروح تعاليم مورا ، أخذت تعاني من تدهور لا تقويم له ، بتناسبٍ عكسي مع تقدم التجارة والاقتصاد الأوربي .

نشبت « حرب الريف » فجأة في ١٩٢٤ ولم يكن ليوتي قد توقعها ، أو اتخذ لها العدة ، ففقد منصبه من جراء ذلك . واستمرت هذه الحرب عاماً واحداً . واختارت الحكومتان المعنيتان بالأمر (فرنسا واسبانيا) اثنين من اكثر ممثلي العسكرية الفاشية تطرفاً : بيتان ، وبريمو دي ريفيرا (وهو أب جوزيه — انطونيو ، رئيس « الكتائب الاسبانيه ») ، وذلك حتى يقمعا الثورة الوطنية التي قام بها عبد الكريم الخطابي ، باستخدام كل الوسائل ، وقد آثرا أن تكون أكثر الوسائل عنفاً واشدها مجافاة للانسانية . وسحقت الثورة سحقاً دموياً ، وان لم تسحق خمائر ثورةٍ أعمق جذوراً ، وأشد شمولاً ، سوف تنتصر في ١٩٥٦ وتعيد للشعب المراكشي استقلاله .

التغلغل الفرنسي في آسيا :

يعود التوسع الاستعماري لفرنسا في الشرق الاقصى (في تلك المنطقة من العالم التي تعرف باسم جنوب شرقي آسيا) الى عهد نابليون الثالث .

ولا شك أن أصول الوجود الفرنسي في آسيا ، كما رأينا ، يعود الى فترة أسبق من ذلك ، اذ أن التاج كان قد امتلك الأراضي في الهند ، واحتفظ منها بخمس منشآت في نهاية حرب السبع سنوات . ولكن العلاقات التي قامت في نهاية القرن الثامن عشر ، بين فرنسا وفيتنام ، على مستوى المساواة الدقيقة ، ظلت علاقات عابرة .

كان الاوربيون الاوائل (البرتغاليون – الهولنديون – الانجليز – والفرنسيون) الذين وصلوا الى هذه المناطق منذ القرن السادس عشر يعنون بشيئين رئيسيين دائماً : التغلغل التبشيري ، والتبادل التجاري . ونحن لا نزعم ان هناك علاقة واعية ومنظمة بين هذين الامرين ، ولكن يكفي أن نلاحظ مع ذلك ان المبشرين كانوا دائماً من أثمن عملاء المخابرات للحكومات الاوربية ، وكانوا وسطاء نشيطين بين الملوك المحليين وتجار أوربا .

لم تكن فرنسا في القرن السابع عشر يمثلها في هذه المناطق الا بعض المبشرين الكاثوليك . وفي القرن الثامن عشر ، بعد بضع محاولات غير مثمرة للاستقرار التجاري ، وقع حادث أتاح لبعض الفرنسيين أن يستقروا في فيتنام . فعند موت الملك العظيم فو فونج ، في ١٧٦٥ اعتبر ابنه هويه فونج أصغر من ان ينهض بأعباء الحكم فعهد بالوصاية على العرش الى رئيس الحكومة ترونج فوك لوان . ولكن هذا الاخير فرض ضرائب فادحة مستمرة مما دفع الشعب الى القيام بثورة واسعة . وفي ١٧٧٣ تزعم الاخوة الثلاثة نيجوين ، وهم يرجعون الى قرية تاي سون ، الثورة الشعبية وهزموا القوات الملكية ودخلوا سايجون في ١٧٧٦ وطاردوا الملك هويه فونج وقتلوه . وورث ابن أخي الملك المقتول ، نجوين آنه ، حفيد فو فونج ، العرش وهو في الخامسة عشرة من عمره ، واخذ يتنازع مع الاخوة تاي سون البقايا الممزقة الاخيرة من المملكة . كان من حظ العاهل الجديد ان التقى بمبشر ، أصبح مستشاره الحميم ، — المونسنيور بانيو دي بيهين ، أسقف آدران . وقلب هذا الاخير الأرض والسماء حتى يساعد الملك على استعادة سيادته ، وعاد الى فرنسا يلتمس

العون من لويس السادس عشر وجمع السفن والمتطوعين في بوند شرى وقادهم الى فيتنام ثم علّم نيجوين آنه كل وسائل الحرب الأوربية. واستطاع الملك بفضل الجهود التي بذلها الاسقف - الذي لم يتردد ان يتحول الى قائد حربي - ان يستعيد حكم كل الأراضي التي فقدها بل ان يوسع من نطاق مملكته. وفي ١٨٠٢ أعلن نيجوين آنه نفسه امبراطوراً تحت اسم جيا لونج. واشاد رسمياً بالاسقف الذي كان قد مات من الارهاق قبل ذلك ببضع سنوات واحتفل بجنازته في موكب قومي رسمي. كما منح مكافآت لكل الفرنسيين الذين ساعدوه وعهد اليهم بمسؤوليات كبيرة في الامبراطورية. وعندما حاولت فرنسا في عهد عودة الملكية أن تقيم علاقات تجارية ودبلوماسية مع فيتنام كان موقف جيا لونج يتميز بالاخلاص والوفاء فرحب بسفن التجارة القادمة من بوردو وأعفاها من الضرائب والرسوم، ولكنه رفض هدايا لويس الثامن عشر خشية أن ينزلق في سياسة الامتيازات الاقليمية. ومات جيا لونج في ٣ فبراير ١٨٢٠.

كان خلفاؤه مينه مانج ١٨٢٠ - ١٨٤١ وتيو تري ١٨٤١ - ١٨٤٧، وتودوك الذي ارتقى العرش في ١٨٤٨ قد تخلوا عن سياسة جيا لونج، وثبت أنهم معادون للاجانب وخصوم للبعثات التبشيرية الكاثوليكية. واتخذ الفرنسيون من الاضطهادات التي اوقعت بالمبشرين والمسيحيين الفيتناميين، باسم التقاليد الدينية القديمة، تعلة وحجة للفرنسيين للتدخل بالقوة في فيتنام في ١٨٥٨.

الهند الصينية قبل أوروبا :

ما الذي كانت تمثله فيتنام في عهد الامبراطور جيا لونج؟ من الناحية الاقليمية كانت فيتنام تمثل وحدة جغرافية تماثل ما هي عليه اليوم بالتقريب وتشتمل ثلاث مناطق متميزة: بلاد الشمال او باك كي (تونكين، والعاصمة هانوي) وبلاد الجنوب او نام كي (كوشين شين، والعاصمة سايجون) وبلاد الوسط أو ترونج كي (آنام، والعاصمة هويه).

كان السكان البدائيون لفيتنام قد استقروا في تونكين ، في حوض النهر الاحمر : وكانوا من المهاجرين المنغوليين الذين اختلطت انسابهم برواسب سكانية اندونيسية ، فتولدت عن ذلك أولى اجيال الفيتناميين . وتعود تقاليد فيتنام الى اسرتها الحاكمة الاولى ، أسرة هونج — بانج ، في العصر البرونزي . وفي ٢٠٨ قبل الميلاد امتصت هذه المملكة مملكة نام فييت التي كانت تتخذ عاصمتها في كانتون . وعندئذ ظهرت امبراطورية هان في الصين . وفتح هان وو — تي ، في عام ١١١ قبل الميلاد ، أراضي الجنوب حتى يشق طريقاً نحو الغرب ، وهو طريق بورما في المستقبل . وهكذا وقعت دلتا النهر الأحمر ، مهد الشعب الفيتنامي ، في منطقة النفوذ الصينية خلال ألف عام . وطوال فترة هذا الوجود المشترك ، وهو مصدر الروابط والمحالفات الكثيرة بين الصينيين والفيتناميين التي ادت الى اشتراك عميق في الانساب ، نقلت الصين الى فيتنام معادنها وأبجديتها وحروفها وفلسفتها ومؤسساتها المعنوية والسياسية .

ومنذ القرن العاشر عندما استعاد الفيتناميون استقلالهم اخذوا ينتشرون تدريجياً نحو جنوب آنام وكوشين شين حيث اصطدموا بشعبين : شعب التشاميين وشعب الخميريين . كان التشاميون يعودون الى أصل مالاوي بولينيزي وقد تهندوا منذ القرن الثاني واحتلوا جنوب آنام وشمال كوشين شين في هذه الفترة . وهم يزعمون انهم من نسل شيفا ، وقد اشتهر احد ملوكهم جان جاراجا بأنه في القرن الخامس قام بالحج على شاطيء نهر الجانج . اما الكامبوجايون او الخميريون فيعود اصلهم الى منطقة باساك التي تقع في نهاية محور الطريق الذي يربط مينام وميكونج عن طريق هضبة كوارت . وهم يعودون الى جدع هندي مشترك ، مثل التشاميين ، بتقاليدهم ودياناتهم وسلالتهم . وفي القرن السادس غزوا مملكة فونان الاسطورية (التي تنتمي الى التقاليد الهندوكية ايضاً) وبذلك وسعوا امبراطورية خمير الى حد كبير فأصبحت امبراطورية

كمبوديا التي كانت كوشين شين تكوّن جزءاً منها .

في القرن السابع عشر اصبح الفيتناميون هم سادة تشاميا أو بلاد التشاميين . ولكنهم عندما امتدوا من الشمال الى الجنوب انقسموا الى مملكتين متعاديتين . مملكة الشمال وعاصمتها هانوي تحكمها أسرة لي ، ومملكة الجنوب وعاصمتها هويه وتحكمها أسرة نيجوين . وتقاتلت المملكتان قتالاً طويلاً دون أن تنجح احداهما في التغلب على الاخرى . وفي خلال تلك الفترة استمر التغلغل الفيتنامي في كوشين شين . واستولى ملوك نيجوين على سايجون في ١٦٩٣ وبسطوا سيطرتهم منذ نهاية القرن السابع عشر حتى ميكونج . وتحت حجة الثأر لأهليهم او مساعدة الكمبوديين في كفاحهم ضد السياميين ، تغلغلوا مباشرة الى قلب كوشين شين .

ظهر السياميون او التاي متأخرين نسبياً في تاريخ الهند الصينية اذ لم يبدأوا توسعهم الا نحو منتصف القرن الثالث عشر . وكلمة تاي هي التسمية اللغوية التي تدل على مجموع البلاد المنتشرة من وادي براهما بوترا الى بحر الصين ومن اعالي يانج سي الى خليج سيام . ويعود اصل التاي الى جنوب غربي الصين ، ولكن زحف الصينيين المستمر أرغمهم على النزول نحو الجنوب والتغلغل على طول وديان شبه جزيرة الهند الصينية . لقيت بعض شعوب التاي مصيراً مغموراً ، مثل شعب لاو (سكان لاوس الحالية) وشعب شان ، فقد كانوا معزولين في وديانهم ، محصورين بين جبالهم الجافية الخشنة ، فأسسوا ممالك صغيرة ضعيفة نسبياً لا تمتاز بشيء من القوة . اما السياميون وحدهم فقد كانوا يقطنون على ضفاف نهر صالح للملاحة هو نهر مينام فانتشروا في السهول الخصيبة الفسيحة ووصلوا الى البحر وأتموا توسعهم على حساب الخميريين ، والبرمانيين . وكان التاي (شعوب لاو ، وتشان ، وسيام) ، مثل البرمانيين أيضاً ، متهندين الى درجة عميقة ؛ فقد اتخذوا تقاليدهم وديانتهم

من الهند[1] .

واصل الفيتناميون تقدمهم في كوشين شين الكمبودية واستولوا بالتعاقب على اقاليم : ميي تهو ، وفينه لونج ، في ١٧٣١ ، وأقاليم : سادك وتشاودك في ١٧٥٧ . وعند موت الملك فو فونج في ١٧٦٥ كانت سيطرة اسرة نيجوين تمتد على كل كوشين شين فيما عدا منطقة موك ترانج التي لم تحتل الا في ١٨٤٠ وأوقف موت الملك العظيم التوسع الفيتنامي وترتب عليه ثورة تاي سون التي اشرنا اليها فيما سبق .

الكوشين شين الفرنسية :

كانت الاضطهادات الدينية التي وقعت ضد المبشرين الأوربيين على أيدي حكومات خلفاء جيا لونج ، وبخاصة حكومة آخرهم تو دوك ، هي التي اتاحت الحجة للتدخل الفرنسي في عهد الامبراطورية الثانية ، في الهند الصينية . وصلت أنباء هذه الاضطهادات الى العاصمة الفرنسية فأثارت توقعاً غامضاً الى بعث الحروب الصليبية — وهو توق ما زال حياً عند الكثير من الفرنسيين . وحرص نابليون الثالث على ضمان تأييد الحزب الكاثوليكي فاستغل هـذا الموقف الذي يتفق مع رغبته في تنمية شبكة التجارة الخارجية لفرنسا .

وصل الاسطول الفرنسي — الاسباني[2] بقيادة الاميرال ريجودي جينوى ، الى مياه خليج توران في ٣١ أغسطس ١٨٥٨ ، وكان يشتمل على ثلاث عشرة سفينة حربية فرنسية وسفينة اسبانية واحدة ، وكان عدد القوات يبلغ ثلاثة آلاف

---

(١) ان كل الشعوب المتهندة في آسيا (شعوب بورما ، لاوس ، تايلاند ، الملايو ، كمبوديا) تعتنق اليوم ، مثل الهنود ، العقيدة البوذية الارثوذكسية : عقيدة « العربة الصغيرة » اما الشعوب المتصينة (شعوب فيتنام ، كوريا ، اليابان ، والتبت ...الخ) فتعتنق الفرع الآخر من البوذية : « العربة الكبيرة » .

(٢) يفسر التحالف الفرنسي الاسباني بان الرهبان الدومينكان الاسبانيين كانوا قد اراقوا دماءهم جنبا الى جنب مع المبشرين الفرنسيين .

رجل ، وفكر الاميرال أوّلاً في الهجوم على هويه عاصمة آنام وعاصمة الامبراطورية كلها في تلك الفترة . الا ان الوصول الى تلك المدينة كانت تحفّه المشاق فاختار ان يوجه قواته الى كوشين شين . وفي ١٧ فبراير ١٨٥٩ دخلت القوات الفرنسية الاسبانية قلعة سايجون ، وبعد ان قامت ببضع عمليات دامية في داخل البلاد أرغمت الامبراطور تو دوك في ٥ يوليو ١٨٦٢ على قبول شروطها : حرية ممارسة العقيدة الكاثوليكية ، وفتح الموانيء الثلاث والاقاليم الثلاثة للتجارة (بيين هوا ، جيا دينج ، فينه تونج) وكذلك فتح جزيرة بولو كوندور للتجارة ، أي نصف كوشين شين . حاول تو دوك ان يحطم هذا الموقف الصلب الذي اتخذته الحكومة الفرنسية بأن ارسل الى باريس بعثة كانت على وشك النجاح في مهمتها ولكن نابليون الثالث اشتد في مقاومته ورفض ان يعود من هذه الاقاليم الثلاثة رفضاً باتاً .

لم يقبل تو دوك هذه الخسارة ، وقرر سكان هذه المناطق التي أسلمت لفرنسا الا يقبلوا تلك السيطرة الجديدة ، وكتبوا هذه المظلمة المؤثرة الى المحتلين في ١٨٦٢ : « اننا اذ فقدنا حكومة ملكنا نجد أنفسنا في نفس الوضع الذي يفقد فيه الطفل أباه وأمه . ان بلادكم تنتمي الى البحار الغربية ، اما بلادنا فتنتمي الى البحار الشرقية . وكما يختلف الحصان والثور عن أحدهما الآخر ، فاننا نختلف في اللغة ، وفي الكتابة ، وفي التقاليد : اننا ندين بعرفان الجميل لملكنا . وسوف نثأر لما لحقه من اهانة او نموت في سبيله ، فاذا كنتم مصممين على ان تأتوا الينا بالنار والحديد فسوف تستمر الفوضى زمناً طويلاً . ولكننا سوف نطيع قوانين السماء ونقوم بما تمليه علينا : وسوف تنتصر قضيتنا في النهاية . اننا نرهب جانبكم ولكننا نخشى السماء اكثر مما نخاف قوتكم . ونقسم على أن نقاتل الى الابد ودون هوادة . فاذا فقدنا كل شيء فسوف نأخذ اغصان الأشجار نصنع منها أعلاماً وعصياناً نسلّح بها جنودنا » . ان هذا التحدي النبيل تتردد له اليوم أصداء تسترعي الانتباه في سياق معركة فيتنام ..! . ولكنه في تلك الفترة كان يترجم عن موقف ظهرت له على الفور آثاره المحددة .

فإلى جانب المقاومة المسلحة التي ظهرت هنا وهناك ، بدأ تنظيم حركة العصيان المدني السلبي : تجنبت صفوف المتعلمين تلبية طلبات المحتلين ودعواتهم بشكل منهجي منظم ، ورفضوا التعاون معهم بأي شكل من الاشكال . وفي هذه الظروف قرر الفرنسيون انشاء ادارة مباشرة ، وأصبحت كوشين شين مستعمرة حقيقية يديرها امراء البحر . وكان احدهم الاميرال دي لا جرانديير ، قد بسط السيطرة الفرنسية ١٨٦٣ لا على كوشين شين كلها فقط بل على كمبوديا ايضاً التي حولها الى محمية . وأصبحت كمبوديا وكوشين شين بالنسبة لفرنسا أرضاً مواتية للاستعمار تأتي بعائدٍ اقتصادي فوري وكبير نتيجة لثروتها ولقلة عدد سكانها الاصليين .

فتح آنام وتونكين :

لم يكن الفرنسيون يعتزمون في البداية التدخل في انام او تونكين ولكنهم دفعوا الى ذلك نتيجة لاجتماع عدة ظروف لم تكن متوقعة . لقي أحد التجار الفرنسيين ، وهو جان دي بوى الذي كان سجيناً في هانوي ، عدة متاعب أدت الى بدء عمليات انتقامية . فقامت حملة عسكرية أولى بقيادة فرانسيس جارنييه واستولت في ٢٠ نوفمبر ١٨٧٣ على قلعة هانوي ، ولكنها وقعت ضحية كمين في دلتا النهر الاحمر . ووقّعت معاهدة ١٥ مارس ١٨٧٤ فأعادت للفيتناميين المواقع التي فتحها الفرنسيون وطرد ابيويه من هانوي .

كانت الصين في البداية لا تولي اهتماماً بمصير كوشين شين ولكنها تحركت فجأة عندما غامر الفرنسيون بالدخول الى تونكين وهي الأرض التي يعتبرها الصينيون دولة حاجزاً على حدودهم . وتؤيد ذلك وثيقة صينية مؤرخة في عام ١٨٨٢ : « ان هذه البلاد هي الحاجز الذي يقوم دون امبراطورية الوسط : انها امة صغيرة تستخدم في حماية اقليمي يونان وكوانج سي : ومع انها تقع في خارج حدود بلادنا ، الا اننا لا يمكن ان نتخلى عنها » . ولكي نقدر اهمية هذه العبارة الأخيرة ينبغي ان نعرف ان الفيتناميين كانوا يعتبرون انفسهم من

أتباع الصين ، بالرغم من تحررهم من الربقة الصينية . وكان كل ملك جديد في فيتنام يطلب الاذن بارتقائه العرش من بيكين .

انتاب الصين القلق وسيّرت قواتها الى دلتا النهر الاحمر . والنتيجة أن أول حاكم مدني لكوشين شين ، واسمه : لو ميردي فيلبر ، اعتبر ذلك انتهاكاً لمعاهدة ١٨٧٤ ، فأرسل الى تونكين قبطان السفينة ريفيير على رأس ثلاث فصائل لتسوية المشكلة « سياسياً ــ وسلمياً ــ وادارياً » ولكن القوات الصينية احاطت بالسفينة بعد ان تغلغلت الى وادي النهر الأحمر ولقي قبطانها مصرعه في ١٩ مايو ١٨٨٣ عندما كان يحاول ان يشق طريقه للخروج من الحصار .

واتخذ جول فري من ذلك حجة وحصل على تأييد من البرلمان بالاعتمادات الضرورية لارسال حملة تأديبية . وكان الهدف من هذه الحملة يتضمن شيئين : أولهما : القيام بعمل موجه ضد آنام ، والثاني ضد تونكين . لم تقاوم آنام على الاطلاق . وكانت بضع طلقات من المدافع على مدخل نهر هويه في ٢٥ أغسطس ١٨٨٣ كافية لفتح ابواب القلعة (كان الامبراطور تو دوك قد مات قبل ذلك ببضعة أيام في ١٧ يوليو) ووقعت معاهدة اعترف الفيتناميون فيها بحماية فرنسا على آنام .

ولكن القتال كان أعنف من ذلك في تونكين ، وان نجح الفرنسيون في الاستيلاء على عدة مواقع في الدلتا ، وما لبث الصينيون ان بدأوا المفاوضات . وقد التزم الصينيون في معاهدة تين ــ سين في ١١ مايو ١٨٨٤ بأن يسحبوا قواتهم على الفور من تونكين . ونصت معاهدة هويه الثانية الموقعة في ٦ يونيو من نفس العام على شروط « الحماية » الفرنسية المفروضة على آنام وتونكين . ولم تحترم هذه الشروط على اي حال الا في آنام حيث استمرت الادارة المحلية تدير شئون البلاد تحت رقابة مقيم عام . اما في تونكين فعلى العكس انشئت ادارة مباشرة تحت تسمية « الحماية » الزائفة . وعهد بهذه الادارة

الى مقيم فرنسي محلي في كل عاصمة من عواصم الاقاليم .

ومع ذلك فان الصراع لم ينته ، ونشبت من جديد مع الصين على اثر سوء تفاهم . واوفد الاميرال كوربيه للقتال . واستؤنف القتال من جديد في آنام أيضاً بتشجيع من الوصي على العرش تون تات تويت الذي بدأ الهجوم على هويه في ٥ يوليو ١٨٨٥ ضد الجنرال دي كورسيه . وفشل هذا الهجوم . واستغرق « اقرار السلام » في تونكين عدة سنوات . وساعد فيه جالييني وليوتي ، قبل ان تبرز اسماؤهما فيما بعد . ومن اولئك الذين اتموا اقرار السلام في تلك البلاد اثنان استحقا الثناء من المارشال ليوتي في المستقبل : « وليسمح لنا ان نشيد بما قام به هذان القائدان العظيمان من عمل . الحاكم العام روسو والجنرال ديشمياه فقد كان تعاونهما الخصيب الوثيق سبباً في تدمير قرصنة تونكين الكبيرة تدميراً حاسماً » .[1] سوف نرى أن المحتلين الالمان كانوا يصفون الوطنيين الفرنسيين بأنهم « قطاع طرق » ، و « قتلة » ، ولكن الفرنسيين كانوا قد وصفوا الوطنيين الفيتناميين من قبل بأنهم « قراصنة » .

من « الحماية » الى التمثّل :

تكوّن « اتحاد الهند الصينية[2] » في ١٨٦٧ باتحاد آنام وتونكين وكوشين شين (فيتنام) وكمبوديا وانضمت اليه لاوس في ١٨٩٣ على اثر فتحها قبل ذلك ببضعة شهور ، دون قتال . ووضعت الادارات المختلفة لاتحاد الهند الصينية تحت سلطة الحاكم العام العليا الذي كان يتبع وزير المستعمرات مباشرة . وفي خلال عشر سنوات احترم الحكام العامون المتعاقبون الخصائص الاقليمية للمناطق المختلفة للاتحاد .

ولكن كل شيء تغير فجأة بمجيء بول دوميه . وفي الفترة من ١٨٦٧ لى ١٩٠٢ ، قلب كل شيء رأساً على عقب ، فأحل نظام الادارة المباشرة ،

---

(١) الكولونيل لوتي : الدور الاستعماري للجيش .

(٢) نحت العالم الجغرافي مالت بران كلمة « الهند الصينية » في القرن ١٩ .

بعنف ، محل نظام الحماية ، وجرد الحكام والملوك المحليين من وظائفهم وامتيازاتهم التقليدية لكي يعهد بها الى فرنسيين ، والغى الحدود بين البلاد المختلفة في الاتحاد . وحاول ان يفرض نمطاً موحداً مسطحاً على الهند الصينية كلها عن طريق سياسة تهدف الى التمثل السريع ، وكانت نتائج هذا المشروع التخريبي المنظم ، بالطبع ، تحمل كل صفات الكارثة .

الا انـــه ظهر رجل نجح في تقليل الأضرار المترتبة على ذلك : هو النائب البير مارو . فقد عين حاكماً عاماً في ١٩١١ ، فبذل جهده على الفور في تشجيع « التنمية الانسانية والتعليم » واتاح للفيتناميين أن يصلوا الى التعليم الثانوي الفرنسي ووضع خطة انشاء المدارس والمستشفيات . بل لقد وعد في خطاب رسمي ان تستعيد فيتنام استقلالها بالتدريج .

ولكن الآمال التي ابتعثتها هذه السياسة وتلك الوعود عند الفيتناميين احبطت بقوة على اثر حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ ، فلم تقم فرنسا بعمل محدد واحد يساند كل تلك البلاغة السخيّة ؛ ولكن الكسندر فارين الذي تولى منصب الحاكم العام من ١٩٢٥ الى ١٩٢٨ كان يتمتع وحده بادراك واضح لمسؤولياته وواجباته . والهند الصينية مدينة له بانشاء « جمعية نواب الشعب » في آنـــام وفي تونكين ، ومدينةٌ له بوصول الموظفين الآسيويين الذين ينتمون الى اصل هندي ــ صيني ، الى كل الوظائف التي كانت مقصورة على الفرنسيين ، وذلك على قدم المساواة . كما انها مدينة له بعدة اجراءات تهدف الى حماية الايدي العاملة في المزارع : ساعات العمل ــ الحد الأدنى للسن ــ العنايـــة الطبية ــ اجراءات التعاقد ــ أجور العمل ... الخ .

ومع ذلك فان تطبيق هذه الاجراءات الليبرالية نسبياً قد دفع الاوساط الاستعمارية الفرنسية الأكثر رجعية الى حالة من الجنون ، حرفياً ، فاستطاعت هذه الدوائر ان تعيد الكسندر فارين الى فرنسا . وتخلى خلفاؤه عن سياسته وقضوا على آثارها الطيبة .الى حد أن قام كوينه ، وهو أحد الفيتناميين الذين

لا يستهان بهم ، عبّر عن مرارته وحبوط آماله قائلاً : « اننا نحس انفسنا غرباء في بلادنا » . والواقع ان المناصب الهامة ظلت قاصرة على الفرنسيين وحدهم ، ولم يكن المثقفون الفيتناميون الشبان الذين حصلوا عظ اعلى الشهادات يجدون عملاً في بلادهم ، اذ يعودون اليها بعد ان وجدوا على فرنسا العاصمة كل ترحيب لمواصلة دراساتهم . وهو موقف يتميز بالعبثية والسخف الصراح ..

اخذ الاستعمار ينمو في الهند الصينية على صعيدين ، كما كان ينمو في كل مكان : الصعيد الزراعي ، والصعيد الصناعي. وقد أتاح اجتثاث الأشجار المتزايد انشاء مزارع كبيرة ظلت ملكيتها قاصرة على الشركات الفرنسية او المستعمرين الافراد . وقد عنيت هذه المزارع أساساً بزراعة شجرة المطاط التي اصبحت المصدر الرئيسي للثروة الاستعمارية . ففي ١٩٤٣ بلغت مساحة هذه المزارع ١٣٩ ألف هكتار ووصل انتاجها الى ٧٥ ألف طن . أما في الميدان الصناعي فقد عكف الفرنسيون أساساً على استثمار المناجم . كان يعمل في المناجم قبل الحرب ٥٠ ألف عامل منهم ٢٥ الف عامل في « مناجم الفحم في تونكين » . وقد حصلت هذه الشركة على امتياز استغلال مناجم هونجاي التي كانت تبدو غنية لا يمكن ان ينضب لها معين . وبدأت عملها منذ ١٨٦٧ . وكان ميناء هونجاي ، وميناء تشامبا مزودين بأحدث المعدات من جانب هذه الشركة ، فقد كان عليهما ان يشحنا انتاجها الـذي زاد في ١٩٣٧ عن ١,٦٠٠,٠٠٠ طن .

فقد الفيتناميون ملكية مواردهم الزراعية والمعدنية ، وحرموا من حقوقهم وامتيازاتهم وحريتهم ، فأخذوا يدركون مدى اغترابهم . وبدأ هذا الوعي يتزايد حدة وعمقاً في خلال الحرب العالمية الاخيرة تحت الاحتلال الياباني حتى وصل الى نهايته الطبيعية المتوقعة في حرب الاستقلال التي سوف نتناولها عما قليل[1] .

---

(١) الجزء الثاني من الكتاب : آفاق التحرر من الاستعمار .

المخلفات والوسائط :

ان كل اراضي ما وراء البحار التي ما زالت حتى اليوم « ملكية » لفرنسا قد فتحت أو أُخضعت في خلال القرن التاسع عشر – باستثناء جزر الانتيل – والرينيون وغيانا . استخدمت كاليدونيا الجديدة (العاصمة نوميا) التي يعود احتلالها الى ١٨٥٣ سجناً للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة والمعتقلين السياسيين ، حتى سنة ١٨٩٨ ، أما جزر تواموتو (العاصمة بابيتي) فقد « اكتشفها » واليس في ١٧٦٧ ثم بوجين فيل ١٧٦٨ وخضعت للنفوذ الفرنسي منذ ١٨٤٧ عندما قبلت الملكة بومباري الرابعة ، ملكة اوتايتي ، « الحماية » الفرنسية . وحصلت فرنسا على ملكية هذه الجزر عندما منح ابن الملكة بومباري الخامس بلاده لفرنسا في ١٨٨٠ . وقد فقدت فرنسا الآن كل ما بقي لها من حسن نية عند شعوب بولينيزيا – وهم آخر من كانوا يؤمنون بها ويحبونها دون تحفظ – عندما اختارت هذه الجزر لاجراء تجاربها النووية التي حرصت كل الحرص على ألا تجريها في بلادها . أما هيبريد الجديدة وجزر واليس فقد كانت فرنسية منذ القرن التاسع عشر . ومن ناحية اخرى فقد كان الاستيلاء على أوبو (في افريقيا) عام ١٨٦٢ فاتحةً لاستعمار « ساحل الصومال الفرنسي » الذي ما زال ملكية لفرنسا . ومع ذلك فان احداث جيوتي تدعو الى التنبؤ بمشقات كبيرة ، في الغد القريب ، سيواجهها المستعمر الذي يزعم انه لم يعد مستعمراً .

ان هذه المخلفات التي تعود الى عهد قد عفّى عليه الزمن ، والباقية على أثر عملية تاريخية لا يمكن تحويلها عن مجراها ، انما تتعلق بعهد استعماري قريبٍ مر سراعاً ، واخذ دور واسطة العقد في تاريخ فرنسا الاستعماري . واعني بذلك مرور فرنسا السريع بالشرق الادنى العربي ، غداة حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ . ففي تلك الفترة كان من سوء حظ تركيا ان تحالفت مع المانيا فجردت من امبراطوريتها التي قسمت اراضيها الى : « محميات » ومناطق نفوذ بين انجلترا وفرنسا .

كانت فرنسا قد تدخلت في الشرق الادنى في ١٨٦٠ على اثر المذابح التي قام بها الدروز ضد المسيحيين ، واستمر الاحتلال الفرنسي للبنان عاماً

واحداً ، أسهم في اقامة نظام يعتمد على الامتيازات ، في قلب الامبراطورية العثمانية ، فقد وافق الباب العالي على أن يعيِّن مسيحياً والياً لها منذ تلك اللحظة .

وعقدت اتفاقية سايكس – بيكو في اثناء « الحرب الكبرى » فحددت مناطق النفوذ : لبنان وساحل سوريا وقليقية لفرنسا ، اما فلسطين ، وشرق الاردن والعراق فقد كانت من منطقة نفوذ انجلترا . ولكن هذه الاتفاقية كانت متناقضة تناقضاً سافراً مع السياسة التي تتبعها بريطانيا العظمى من ناحية ، فقد كانت بريطانيا قد وعدت العرب ، عن طريق عميلها لورانس ، باقامة مملكة عربية موحدة كبرى – كما تتناقض مع السياسة التي تتبعها فرنسا من ناحية اخرى ، إذ كانت فرنسا قد اخذت على عاتقها منذ الحروب الصليبية واجب « حماية » الاقليات المسيحية في الشرق الأدنى . وبدأ صراع خفي على النفوذ يدور بين الانجليز والفرنسيين . واخذوا يستخدمون شعوب المنطقة ، كلٌ من ناحيته ، ويثيرون القبائل في البلاد الموضوعة تحت « حمايتهم » او « انتدابهم » احداها ضد الأخرى ، لكي تلحق هذه الشعوب والقبائل الضرر بعضها بالبعض . وكانت ثورة الدروز التي حركها مبعوثو الأمير عبد الله والعملاء البريطانيون من اكبر العقبات التي واجهها الجيش الفرنسي في الشام .

كان النظام الذي فرض على لبنان وسوريا ينتمي الى نمط شبْه الاستعمار ، وان لم تظهر فيه صرامة الوسائل التي شاهدناها في تونس مثلاً . فقد كانت هذه البلاد ، في سياق الصراع الفرنسي الانجليزي على النفوذ ، تمثل قطع شطرنج على الرقعة الدولية اكثر مما تمثل أراضي للاستثمار الاستعماري . ومع ذلك فما لبثت عدة شركات صناعية ومالية فرنسية ان أفادت من وجود فرنسا في هذه المناطق لكي تقوم فيها ، بدورها ، بنشاطها المعتاد .

التوسع البريطاني والليبرالية :

في بداية القرن التاسع عشر اخذت فرنسا بسياسة جديدة حلت محل سياستها الاستعمارية القائمة على النزعة التجارية ، وهي سياسة الليبرالية

الاقتصادية . وقد حفزها على اتخاذ هذا التغيير في اتجاه سياستها عاملان لا توجد بينهما رابطة ظاهرة : فقدان امريكا ، والتنمية الصناعية . والواقع أن خيبة الامل التي نجمت عن انفصال المستعمرات الامريكية قد افسحت المجال لاتجاه اكثر واقعية : أن كل مستعمرة اسكانية سوف تنتهي بأن تتحرر ان عاجلاً وان آجلاً . وعلى ذلك فقد استخلص الانجليز من هذا الدرس نتيجة مفيدة : لقد التزموا منذ تلك اللحظة على الا يشجعوا الاستعمار الاسكاني. فاذا اضطرهم تزايد السكان في الوطن الام إليه ، فقد التزموا بأن يمنحوا الاستقلال لكل مستعمرة تثبت مقدرتها على الحكم . ومن ناحية اخرى لاحظ البريطانيون ان فقدانهم لامريكا لم يضر الاقتصاد الانجليزي في شيء بل على العكس شجع العلاقات التجارية بين البلدين . وعلى ذلك فقد رأوا انه ما دام الابقاء على المستعمرات الاسكانية – التي سوف تتحرر في النهاية مهما كان الأمر – فادح الثمن وغير مجد ، فقد كان عليهم ان يختاروا الحل الذي يلوح لهم اكثر عوداً بالربح ، وهو يتلخص في عقد صلات تجارية مع المستعمرات القديمة توفر لهم الامتيازات ، وان يشجعوا التبادل الحر ، وهو أساس السياسة الليبرالية .

واذا كان الانجليز قد اعتزموا الاخذ بسياسة التبادل الحر فذلك يرجع الى انهم يرون فيها نظاماً يعود على مصالحهم بمنفعة كبيرة ، بفضل سيادتهم وسيطرتهم الاقتصادية المؤقتة . لقد قامت انجلترا بثورتها الصناعية قبل كل البلاد الاخرى . واقتضى تفوقها التكنيكي المؤقت زيادة في امدادها بالمواد الخام وتوسيعاً لاسواقها . وقد كان ذلك سهلاً نسبياً اذ انها كانت تسيطر على البحار ، وقد انشأت ثغوراً ومرافىء على كل الطرق العالمية . لم تكن بريطانيا العظمى تغامر بخسارة شيء إذ تتخذ المظهر « الليبرالي » بالنسبة لبعض مستعمراتها اذ ان الاحتكارات الاستعمارية التي كانت مربحة في الماضي اصبحت تمثل عبئاً ثقيلاً على الاقتصاد الانجليزي . «كانت جزر الانتيل منذ ١٨٨٢ تتمتع بكل الحرية ان تشتري وتبيع السلع الغذائية . وفي ١٨٢٥ صرح هاسكيسون

لكل الأمم ان تتبادل التجارة الحرة مع الممتلكات البريطانية ولو كان ذلك بوساطة سفنها الخاصة ولم يكن يطالب الا بحقوق متبادلة في ذلك. مما كان من شأنه ان يعود بالمنفعة على انجلترا — في كل الاحوال — نتيجة للتقدم الصناعي الانجليزي »[1]. ان « الليبرالية الاقتصادية » التي رأيناها على ذلك النحو ، ليست من ثم نتيجة لتحرر النظام الاستعماري البريطاني بل هي نتيجة إدراك جديد عند انجلترا لمصالحها الحقيقية ، وقد نشأ هذا الادراك عن تغير الظروف الاقتصادية .

ان هذه السياسة الجديدة ليست الا تعديلاً ، يتفق مع الظروف ، لسياسة السعي وراء المنفعة التقليدية ، ولذلك لم تحل هذه السياسة دون انجلترا وان تبدي مرونة أو صلابة ، تسامحاً أو تشدداً ، حسب الظروف ، ووفقاً لما تمليه عليها مصلحتها : وهكذا كانت انجلترا كريمة مع افريقيا ، ومتشددة أنانية في الهند ، وكانت على يقين أيضاً من ان « التبادل الحر » يجعل من غير المجدي في شيء انشاء مستعمرات مدارية تزيد اعباؤها في الغالب على ميزاتها . وبقيت « الليبرالية الاقتصادية » حتى أيامنا هي فرس الرهان في السياسة الانجليزية . كانت « نوبة الحمى » الاستعمارية التي انتابت انجلترا في نهاية القرن التاسع عشر تعبيراً موقوتاً — وان اتخذ أعتى الأشكال عدوانية — عن خشية انجلترا من أخطار تهدد مصالحها ، ولكنها كانت دفعة عارضة موقوتة ، مهما كانت ضاربة ، جاءت نتيجة لانقضاض الدول التوسعية الأوربية الكبرى على افريقيا .

اقيم نظام « الليبرالية الاقتصادية » ابتداء من ١٨١٥ (على اثر الحروب النابليونية) ولكنه بالطبع لم يوقف الغزوات ، كما في الهند ، ولا عملية الاستعمار التي كانت تتخذ مسارها . كما انه لم يحل دون انشاء مستعمرات اسكانية جديدة كما حدث في استراليا ونيوزيلندا ، تحت ضغط ضرورات

(١) هنري جريمال : تاريخ الكومنولث البريطاني .

تزايد السكان ، وان كانت هذه السياسة قد شجعت وصول هذه المستعمرات الى الحكم الذاتي (تمهيداً للاستقلال) منذ ان أبدت رغبتها في ذلك . ولكن هذا النظام نجح في الحد من كل توسع جديد فيما عدا بعض المرافق التجارية التي اقيمت في افريقيا وبعض نقط الارتكاز الاستراتيجية الواقعة على طريق الهند . الا ان المنطق الكامن وراء كل توسع اقتصادي قد دفع بريطانيا العظمى — رغماً عنها في بعض الاحيان — الى متابعة بعض فتوحاتها ، وهكذا ما لبثت بريطانيا أن احتلت بعض البلاد الواقعة في المؤخرة لضمان السيطرة على طرق مواصلاتها كلما أحست أن مرافقها او مرافئها مهددة من الناحية الاستراتيجية .

إن هذا الوصف السريع « لليبرالية الاقتصادية » لن يكون مطابقاً للحقيقة ولا وافياً إذا أغفلنا التيار الانساني الذي تنطوي عليه ، وهو تيار يرتبط بالاتجاه الواقعي الذي تتضمنه تلك السياسة . لقد اعتنق هذا التيار في البداية عددٌ صغير من الرجال و (منهم ويلبر فورس الشهير) أثارهم ما تنطوي عليه تجارة الرقيق من مجافاة اساسية للقيم الانسانية . وقد نما هذا التيار ولكنه ظل يحمل سمات العقلية البريطانية المميزة : سمات معاداة الطغيان والايمان بالعدالة .: لم تكتف هذه الحركة الانسانية التي تكونت أساساً من المبشرين البروتسانت بالمطالبة بالغاء تجارة الرقيق والعبودية ، ولم تكتف بما حققت من نجاح في ذلك بل اخذت على عاتقها واجب وقاية وتعليم السكان الاصليين للبلاد ، وان كان ذلك لم يخل من شيء من الوصاية . وهي وصاية ساذجة تمتزج بكرمٍ أصيل يمدنا بمثال نموذجي لها أحد انصار هذه الحركة المتحمسين ، باكستون الذي يقول في ١٨٣٧ : « ان الله ... سوف يطالبنا بالحساب عن كيفية استخدامنا للنفوذ الذي اعطاه لنا ، في سلوكنا بازاء المتوحشين : وسوف يطالبنا بالحساب عما إذا كنا قد بذلنا الجهد للاستيلاء على أراضيهم ومقاتلة شعوبهم ... أو عما اذا كنا قد قوّمنا من جهلهم ، بقدر ما نستطيع ، وأشركناهم في تلك المدنية ، والتجارة البريئة ، والعلوم ، والعقيدة التي تفضلت العناية الالهية الكريمة فأسبغتها على بلادنا » .

الهند المشبوبة الأوار :

لم تتسم السياسة الانجليزية في تطبيقها على الهند بسمات الأثر التحرري الانساني المترتبة على « الليبرالية الاقتصادية » بل على العكس اتسمت بالتصميم على انجاز الفتح ، وتنظيم « استغلال » السكان . مما ترجمت عنه الوقائع بسقوط البلاد في قبضة العسف ، وغرقها في الدماء ، واشتعالها بالنار .

اتخذ قرار يضير بمصالح شركة الهند ، مما دعا الى افتراض ان لندن سوف تضع حداً لمطالبها المتشددة ، في أول الأمر . ولكن سرعان ما اتضح أن شكوك لندن قد ثارت على اثر تزايد قوة الشركة وهي القوة التي ثبت في النهاية أنها قد وصلت الى حد يضير بالحياة السياسية الانجليزية نفسها . وفرضت رقابة أخذت تتزايد في القسوة ، على ادارتها ، حتى انتهت في ١٨٣٣ بتجريدها من السلطة نهائياً ، الغيت امتيازاتها ، وفتحت تجارة الهند امام الأفراد العاديين ، ونقلت ملكية أموالها — التي تكاد لا تقع تحت حصر — الى التاج ، وأصبحت الشركة مجرد جهاز مكلف بادارة الهند لحساب « مجلس الرقابة » الذي كان رئيسه يقوم بمهام وظيفة « وزير شئون الهند » دون ان يحمل هذا اللقب . والغيت شركة الهند نهائياً في ١٨٥٨ بمقتضى « قانون حكومة الهند » .

كانت الحروب النابليونية قد ابطأت من سرعة الغزو بعد أن كانت انتصارات ويلسلي قد ابتعثت الآمال في أن يكون غزواً سريعاً . كانت هناك دولتان مستقلتان على قدر كبير من القوة العسكرية ، تمثلان في تلك الفترة خطراً دائماً يهدد الممتلكات الانجليزية ، عن كثب ، : هما دولة المهراتيين ، ودولة السيخ . دمرت الاولى في ١٨١٧ على يدي الماركيز دي هاستنج واصبحت أرضها هي اقليم البنغال . واقام هاستنجز ، للذود عن هذا الفتح الجديد ، حاميات في نيبال ، وانتزع آسام من بورما في ١٨٢٦ . ولكن الصراع ضد السيخ كان طويلاً وشاقاً ولم ينته الا في ١٩٤٩ بالحاق البنجاب بالامبراطورية . وفي تلك الاثناء اكتوى الانجليز بنار هزيمة كبيرة في افغانستان حينما تغلغلوا اليها في

١٨٤٢ لكي يقوضوا نفوذ روسيا المتزايد. وأياً كان الأمر، وبعد فتح دولة المهراتيين ومملكة السيخ، امتدت السيادة البريطانية من الهندوس الى البراهما بوترا ومن جبال الهملايا الى رأس كومورين.

وقام الحاكم العام دالهوس، وهو المنتصر على السيخ، بتقسيم الهند الى منطقتين تختلفان في طبيعتهما: الهند البريطانية، ودول الامراء. الا أنه لم يكن لهذا التقسيم من دلالة حقيقية اذ ان انجلترا أقامت نظامين عرفا باسم «نظام التركة» و«نظام التفوق». وبمقتضى النظام الاول منحت انجلترا لنفسها حق الاستيلاء على تركة الملك بعد وفاته، وبمقتضى النظام الثاني حق التدخل في كل دولة ترى أن نظام الحكم فيها لا يسير كما ينبغي. والواقع ان سلطة الحاكم العام كانت تمتد فتشمل الامراء «المحميين» كما تشمل المناطق التي ضمت الى الامبراطورية ..

هذا الى ان الانجليز وضعوا حداً لما اعتبروه تقاليد بربرية، مثل عادة انتحار الزوجة على المحرقة الجنائزية لزوجها المتوفى، والعبودية المنزلية، دون ان يدركوا مع ذلك انهم كانوا يمارسون نوعاً من العبودية (هي عبودية نظام الحمّالين) لا تكاد تختفي تحت ستار، وأن المناهج التي استخدمت في خلال الغزو قد تجاوزت في قسوتها كل التضحيات الطقوسية مهما بعدت عن الانسانية[1]. اما في الميدان الثقافي فقد اتخذت السياسة الاستعمارية البريطانية طريقاً استثنائياً في الهند، ذلك انها لجأت الى التمثل كما كان يفعل الاستعمار الفرنسي، بينما كانت تطبق في كل مكان سياسة تدخل الادارة غير المباشرة وتشجع بقاء التقاليد واللغات والثقافات المحلية. وكانت رغبة الانجليز في صبغ الصفوة الهندية بالصبغة الانجليزية تكشف عن احتقار المستعمر لقيم الحضارات المحلية. وان كانت للاحتقار درجات متفاوتة. ذلك ان الانجليز لم يعتبروا الافريقيين قط جديرين بالوصول الى المستوى الرفيع للثقافة الانجلو ـ سكسونية،

---

(١) كان ذلك مثالا تتميز به اوروبا للتناقض السلوكي السافر ـ المؤلف.

ومن ثم هجرهم المستعمر الانجليزي وتركوهم يتخبطون في بدائيتهم. اما الهنود، وان كانوا، في نظرهم، ينتمون الى حضارة أدنى بكثير، فقد اعتبرهم الانجليز قابلين للانقاذ. ومن ثم حاول الاختصاصيون الانجليز البارزون ان ينقذوهم، ومنهم هذا المؤرخ المدعو ماكوليه الذي عين في ١٨٣٥ خبيراً في «التعليم» لدى الحاكم العام، والذي كان يؤكد عن يقين أن «رفاً واحداً من الكتب في أية مكتبة اوروبية جيدة تعادل كل أدب الهند وكل أدب العرب».

وكان ماكوليه هذا نفسه هو الذي حدد الأهداف التي اتخذ التمثل البريطاني على عاتقه ان يحققها في الهند: انشاء طبقة من المتعلمين، «يصبحون هنوداً بدمهم ولونهم، ولكنهم أنجليز في اذواقهم ومبادئهم وذكائهم». وقرن الانجليز القول بالعمل فانشأوا مؤسسات التعليم: جامعتي كلكتا وبومباي، والمدارس التكنيكية.

ومع ذلك فقد كانت ثروة الهند هي العامل الأساسي في قوة جاذبيتها. واخذت الحكومة الانجليزية على الفور تسعى الى استغلال الاقتصاد لصالح الوطن الأم. فعكفت على تدمير كل المشروعات المحلية التي تبدو لها قادرة على التنافس مع المشروعات الصناعية الانجليزية، إن آجلاً او عاجلاً، وخاصة فيما يتعلق بصناعات القطن الحرفية. وكان ذلك التدمير منهجياً ومنظماً. وعندما ازدهرت صناعة القطن في بريطانيا العظمى في نحو نهاية القرن الثامن عشر كان رجال الاعمال الانجليز يحتجون على استيراد شركة الهند للمنسوجات القطنية. ووضع ويليم بت تشريعاً جمركياً اخذ يتزايد صرامة وقوة حتى عام ١٨٢٤. وفرضت على المنسوجات الهندية رسوم وصلت في بعض الاحيان الى ٧٥٪ من قيمتها، بينما كانت منسوجات لانكشير القطنية التي تصدر الى الهند لا تفرض عليها الا رسوم لا تتجاوز ٢٪. وفرضت الادارة الاستعمارية ضرائب على كل مراحل الانتاج، حتى تحكم خنق الصناعات القطنية في الهند: ٥٪ على القطن الخام — ٧,٥٪ على الغزل — ٥٪ على النسيج. أي ١٧,٥٪ على المنسوجات المصنوعة في الهند.

وما لبثت الصناعة الهندية ان انهارت تحت وطأة هذه الظروف . وهبط عدد السكان من ١٥٠ ألفاً الى ٣٠ ألفاً في داكا وهي مانشستر الهند التي كانت منسوجات الموسلين التي تنتجها صناعاتها منتشرة في كل انحاء أوروبا في الماضي . وفي مقابل ذلك كانت الصناعة الانجليزية التي تستفيد من القطن الخام الهندي لصناعة المنسوجات ثم تصدره بعد ذلك الى السوق الهندية قد اخذت تزدهر . ويغنينا احد الكتّاب ، وهو ويلسون، عن استخراج مغزى هذه العملية، فهو يقول : « لو لم نكن قد فعلنا هذا ، لتوقفت مصانع مانشستر عند ولادتها ولكان من الصعوبة بمكان أن نعيد بناءها من جديد . لقد ولدت الصناعة الانجليزية على أنقاض تضحيات الصناعات اليدوية الهندية ... »[1] . كانت نتيجة هذه « الصفقة » الرائعة أن الملايين من الصنّاع الحرفيين الهنود لم يستطيعوا ان يعيشوا من عملهم ، فعادوا الى الريف، وكان ذلك من أسباب اشتداد المجاعات البشعة التي عرفتها الهند في دورات متناوبة .

وفي ١٨٥٧ نشبت ثورة عرفت في التاريخ باسم ثورة « السيباي » (وهم الجنود الهنود) رداً على الظلم الذي اوقعته الاجراءات الانجليزية بالهند : نزع ملكيات الامراء ، وتخريب الصناعات المحلية ، وصبغ المجتمعات التقليدية بالصبغة الغربية ... الخ ولكن هذه الثورة لم تنجح نتيجة لقصورها عن أن تبتعث حركة قومية حقيقية ، ونتيجة للاحقاد بين الطوائف والاجناس والطبقات والديانات التي لم يستطع الهنود أن يتخلصوا منها . كان القمع البريطاني في هذه المناسبة من اكثر عمليات القمع في تاريخ الاستعمار كله ضراوة ووحشية . وعلى اثر هذه الثورة تخلى الانجليز عن تطبيق سياسة التمثل ، وأصدروا « قانون حكومة الهند » ، الذي ترتب عليه الغاء الشركة واعلان الملكة « صاحبة السيادة على الهند » . وقبلت الملكة في نوفمبر ١٨٥٨ ، حرصاً منها على استتباب السلام ، ان تصدر « اعلان الله أباد » الذي ينص على العفو عن المتمردين ، واحترام

(١) تاريخ الصناعة البريطانية : اشار اليه هـ . جريمال في تاريخ الكومنولث البريطاني .

حقوق وامتيازات الامراء ، وحرية الديانة ، وقبول الهنود في كل الوظائف وفقاً لمعيار واحد هو معيار المقدرة والكفاءة .

ولكن شتان ما بين القول والعمل ..! وسوف نرى ذلك عما قليل . وأياً كان الأمر فقد اصبحت العلاقات بين المستعمر والمستعمر علاقات زائفة : ولد الخوف والغضب بازاء الغرب عند المستعمرين ، بينما تعلم المستعمرون سوء النية وانعدام الثقة وادركوا عزلتهم في وسط بيئة تزداد عداوتهم لها باطراد .

الشقاء العظيم في جزر الهند الغربية :

في الوقت الذي كانت سياسة « الليبرالية الاقتصادية » تؤتي ثمارهـــا الأولى ، كان الموقف في جزر الانتيل البريطانية يدعو للقلق . فقد كانت هذه الجزر تقع تحت وطأة استغلال مسرف . ولم تكن في حالة نكوص فحسب بل كانت تعاني تدهوراً لا سبيل الى اصلاحه بحال كما تدعو كل الظواهر الى اليقين . كان غياب ملاك الأراضي عن اراضيهم ، وسوء ادارة الموكلين بهذه الاراضي ، قد أبطأ من انتاجية المزارع بشكل ملموس . وكان عدد كبير من هذه المزارع قد وقع تحت وطأة الرهونات ، وكان تحرير العبيد يشكل عند المزارعين كارثة اخرى . هذا الى أن جزر الهند الغربية قد اثبتت قصورها عن مواجهة منافسة المستعمرات التي حصلت عليها بريطانيا العظمى منذ قليل . (جزر موريشيوس ، وترينداد ، وغيرها) فقد كانت هـــذه المستعمرات تعود بأرباح أفضل ، اذ لم تكن قد بلغت درجة كبيرة من الانهاك ، وكانت تستطيع ان تبيع منتجاتها بأسعار السوق الخاضعة للمنافسة .

وعلاجاً لهذا الوضع ، قرر الانجليز تحويل الاقتصاد على أساس استثمار منتجات جديدة ، (القطن ، البن ، الكاكاو ... الخ) وعلى أساس تسهيل هذه العملية بالحصول على ايدٍ عاملة ، وافدة من اوربا ومن الهند ، لقـــاء أجر . وقد اتاح هذا الحل اعادة الوضع الى نصابه بشكل مطرد . ومن الناحية السياسية ، ومنذ ان اتخذ قرار تحرير السود ، مرت هذه الجزر بتطور يسير

في اتجاه معاكس لتطور المستعمرات الاسكانية . لم يكن الأمر يتعلق بالتأكيد بمنح العبيد القدامى الذين تحرروا منذ عهد قريب حق التصويت ولا حتى امكانية الدفاع عن انفسهم قانونياً ازاء عدوان سادتهم الأمس . واذن فان نظام الحكومة النيابية الذي كان معمولاً به في المستعمرات الاسكانية البيضاء مثل استراليا ونيوزيلندا ، غير قابل للتطبيق في جزر الهند الغربية ، اذ انه يتضمن بالضرورة منح السلطة للأغلبية الملونة . وهو احتمال غير مناسب !..

ولكن تفويض الحكم للأقلية البيضاء في هذه المناطق ، كان من شأنه ان يثير الأغلبية السوداء ضدها ، اذا منحت هذه الجزر الحكم الذاتي في الظروف التي اشرنا اليها (حرمان الأغلبية السوداء من حقوق التصويت والدفاع القانوني) ذلك ان هذا الوضع سوف يؤدي الى تسليم سكان البلاد ، مصفّدي الايدي والاقدام ، الى حفنة الاوربيين المتمتعين بالحكم . وعندما فهم السود والانتيليون البريطانيون ذلك عارضوا باستماتة حصول بلادهم على الاستقلال الذاتي . وفي ١٨٦٦ فقدت جامايكا وضعها الذي يتيح لها الاستقلال الذاتي ، واصبحت مستعمرة من مستعمرات التاج . والكنديون الفرنسيون يتصرفون اليوم بنفس الطريقة التي يتصرف بها سكان الهند الغربية كلما حاولت الاغلبية الانجلوسكسونية ان تقطع علاقات التبعية الاخيرة التي ترتبط بين كندا وبريطانيا العظمى . وهو موقف ينطوي على مفارقة غريبة . ولكنها مفارقة ظاهرية فقط . اذ ان الكنديين الفرنسيين يخشون دائماً من ديكتاتورية أوتاوا (اي الكنديين الانجليز الذين اضطهدوهم خلال قرون طويلة) وهي ديكتاتورية مباشرة قريبة اكثر من خشيتهم من التبعية لعاصمة بعيدة ومجردة . ثم ان تلك التبعية تتيح لهم ان يلجأوا الى تحكيم التاج في حالة نشوب صراع داخلي .

يمكن هنا ان نلاحظ شيئاً يسترعي النظر في سلوك الامبريالية البريطانية : ذلك أنها تعامل الشعوب الاوربية البيضاء او التي تنتمي الى اصل اوربي الخاضعة لقانونها، بنفس الصرامة والشدة تقريباً اللتين تعامل بهما الشعوب

الملونة تقريباً . تقريباً وليس تماماً ، لان انجلترا لم تنشىء قط علاقة السيد بالعبد ، على صعيد الاستعمار او السيطرة ، وان كانت علاقاتها بمستعمراتها تتصف بالانحياز العنصري : ومن ثم فان كل شعب ملون يستحق ، عندها ، بالضرورة ، أن يكون خاضعاً ، ولكن الشعوب المستعمرة او التي وقعت تحت السيطرة لا تستحق بالضرورة أن تلقى الاحتقار او العبودية . ومثال ذلك الكنديون الفرنسيون من ناحية والايرلنديون والبوير في جنوب افريقيا من ناحية اخرى .

الافريكاندر والانجليز :

كانت الصراعات التي اشتبك فيها البوير مع الادارة البريطانية ترجع الى التأثير المتزايد للحركة الليبرالية او « الراديكالية » التي تمثلها في جنوب افريقيا بعثات التبشير البروتستانتية اساساً . كان البوير قد اعتادوا ، كما رأينا من قبل ، أن يطردوا الهوتنتوت نحو المناطق الجافة القاحلة في الشمال ، لكي يستولوا على اراضي المراعي ، كما اعتادوا ان يرغموا الذين اصروا على البقاء في ارضهم على السخرة . ووصل المبشرون الانجليز الذين ينتمون الى « جمعية لندن التبشيرية » القوية ، بعد ١٨١٥ ، فتولوا السكان المحليين بالرعاية ، والوقاية ، وانشأوا لهم مؤسسات يلجأون اليها ، ويلقى فيها كل الهوتنتوت المضطهدين الترحيب . بل حصل احد اصدقاء ويلبر فورس وباكستون ، وهو الدكتور ج . فيليب ، على تصويت من البرلمان في ١٨٢٨ ، يقر اصدار قانون (المرسوم رقم ٥٠) يمنح السكان من الاهالي نفس حقوق البيض ويحظر كل اجراء من شأنه ان يضير بمصالحهم . وبهذه المناسبة ظهر استياء البوير سافراً .

وزاد هذا الاستياء والسخط عندما عارض المبشرون ادعاء البوير الحق في طرد قبائل « الكافر » من الشرق والاستيلاء على مراعيهم .. وتزايدت المناوشات بين البوير و « الكافر » ، وقرر الحاكم ديربان في ١٨٣٥ أن يضم

جزءاً من الأراضي المتنازع عليها اطلق عليه اسم اقليم آديلاند . وطرد « الكافر » من هذه الأراضي بحجة انهم « متوحشون ، غادرون ، أخساء ، لا سبيل الى اصلاحهم » . ومع ذلك فقد أدان دكتور فيليب هذا العمل الذي ينطوي على السلب والنهب ، ورفع شكواه الى لندن فأمرت السلطات المختصة ، من خلال وزير المستعمرات ، باخلاء المنطقة من البوير » .

رأى البوير في ذلك اجراء لا يمكن قبوله . لم تكن لغتهم معترفاً بها رسمياً ، وكان عبيدهم قد تحرروا ، (كان عددهم ٣٩ ألف في مستعمرة الكاب) اما الآن فهاهم يرون « الوثنيين السود والمسيحيين البيض يعاملون على قدم المساواة » . كان ذلك أكثر مما يستطيعون ان يطيقوه . ومن ثم فقد قرروا ان يغادروا هذا الجحيم « القائم على المساواة العنصرية » وان يتغلغلوا الى داخل البلاد وان يؤسسوا فيها دولة مستقلة ، يسودها عدم المساواة بشكل أساسي ودائم، اي تقوم على التفوق المطلق الذي لا نزاع فيه للرجل الابيض . كان هذا القرار هو الاصل في « المسيرة الكبرى » التي بدأت في ١٨٣٥ واستمرت حتى ١٨٤٣ . ونستطيع ان نتصور لذلك صورةً واضحة اذا رجعنا الى رسوم القرن التاسع عشر ، التي تشبه الأيقونات الدينية : تلك القوافل الطويلة من العربات المكسوة بالقماش السميك تجرها الثيران على ممرات من الطرق المتشابكة التي لا تنتهي أو تعبر أنهار اورانج وفال . وانتهت هذه الهجرة الغربية الى ان تحط رحالها في أراضٍ تملكها قبائل الزولو ، فاستولت عليها بالقوة ، وظهرت ولاية اورانج ، وولاية الترانسفال .

اما الانجليز من ناحيتهم فقد احتلوا الناتال ففتحوا هذه المنطقة أمام هجرةٍ أنجلو سكسونية واسعة النطاق . وكان التغلغل البريطاني الذي تشجعه أعمالَ المبشرين البروتستانت بما لها من آثار مهدئة — من شأنه ان يؤثر على جريكا لاند وبتشوالاند (التي حصلت على استقلالها أخيراً) . وفي نهاية فترة « الليبرالية » كانت كل المستعمرات الاسكانية قد حصلت على الحكم الذاتي . وكان الحاكم في كل مستعمرة — الا في الولايات التي انشأها البوير — يمثل ملك انجلترا

وكان وزراؤه الذين يختارهم من بين اعضاء الأغلبية البرلمانية مسئولين امام المجلس النيابي لا امامه . واعترف برلمان لندن بهذا الامتياز ، وصدق في ١٨٨٥ على قانون اقرار القوانين في المستعمرات فأيد حقها في سن واصدار قوانينها ، في الحدود التي لا تتعارض فيها مع قوانين الامبراطورية . اما كل المشاكل التي لم تكن لندن تفصل فيها مباشرة فقد اعتبرت من ثم واقعة في اختصاص المجالس النيابية في المستعمرات الاسكانية .

كندا الانجليزية ، وكندا الفرنسية :

تأكدت مشروعية ملكية انجلترا لكندا بمقتضى معاهدة باريس . ولكن انجلترا كانت تخشى ان تفقدها عند نشوب حرب الاستقلال الامريكية . ومع ذلك فقد رفض الكنديون ان يقتفوا أثر جيرانهم وظلوا أوفياء للتاج البريطاني . كان هذا الوفاء جديراً بأن يثابوا عليه ، ومنحتهم انجلترا هذا الثواب في ١٧٧٤ « بقانون كويبك » الذي يضمن للفرنسيين احترام قوانينهم وديانتهم ويمنحهم بالاضافة الى ذلك نظاماً نيابياً مع وجود حاكم ومجلس يختارون بالتعيين .

في ١٧٦٣ بلغ عدد الفرنسيين ٦٣ ألفاً متجمعين في إقليم كويبك بينما لم يكن الانجليز الا حفنة متناثرة في الاقاليم الاخرى . ولكن الموقف تغيّر في نهاية حرب الاستقلال الامريكية ، نتيجة لظهور عاملين جديدين : أقبل المستعمرون البريطانيون « المخلصون » للملكية والراغبون في البقاء كرعايا للملك ، وكان معظمهم من الاغنياء ، كما وفد مهاجرون جدد من انجلترا ، وذهبوا جميعاً يقيمون في اسكتلندا الجديدة واونتاريو . وصدر « قانون كندا » في ١٧٩١ ليقر هذه الثنائية اذ انشأ ولايتين متميزتين . «كندا السفلى » وفيها اغلبية فرنسية « وكندا العليا » والسيادة فيها للانجليز .

ولكن هذا الحلّ لم يرض احداً . فما لبث ان ظهرت في «كندا العليا » معارضة اجتماعية قوية بين المحتلين الاوائل ، و « المخلصين » الذين كانوا

يدركون ثروتهم ونسبهم الارستقراطي بوعي حاد ، ومن ثم كانوا يميلون الى احتكار كل الوظائف ، وبين الوافدين الجدد وهم الرواد الذين لا حظ لهم والذين يزعمون ان لهم حقاً في المشاركة في الحكم . اما في «كندا السفلى» فقد وقفت الجمعية ، وأغلبيتها فرنسية ، ضد المجلس التنفيذي الذي يتكون من الانجليز وحدهم . وكان موقف الانجليز الذي يقوم على أساس « اغراق » كويبيك والقضاء على نفوذها ، بتوحيد الولايتين ، من شأنه أن يثير سخط الفرنسيين الى اقصى حد . ولم يجد الفرنسيون من سبيل الا ان يطالبوا باستقلالهم الذاتي ، كما يفعلون اليوم . وساندوا هذه المطالب في ١٨٣٧ ، بتكوين مجموعات مسلحة . وكانت مونتريال مسرحاً لفتنة سرعان ما تدهورت الى اشتباكات في الشوارع .

خشيت لندن نشوب « ثورة أمريكية » جديدة فبادرت على الفور بارسال رجل من رجال السياسة المشهورين بمقدرتهم : لورد ديرهام . وعكف لورد ديرهام على القيام بتحقيق واسع النطاق وعميق خلال إقامته في كندا ، ونشر بعد عودته الى انجلترا تقريراً أوصى في نهايته بادماج الولايتين ، إذ كان هذا الحل يمتاز بميزات عديدة في نظره : فان انضمام ٤٠٠ ألف انجليزي في «كندا العليا» الى ١٥٠ ألف في «كندا السفلى» من شأنه ان يوفر لهم السيطرة على ٤٠٠ ألف فرنسي ، ويمكن زيادة هذه الأغلبية كل عام عن طريق الهجرة الانجليزية . كان لورد ديرهام يعتقد ان التيار الغالب الانجليزي سوف يمتص السكان الفرنسيين في المدى الطويل — وقد ثبت خطأ هذا التوقع — وهكذا تصور ان القوانين البريطانية اذا طبقت كاملة سوف تؤدي الى نشوء احساس قومي كندي يكون هو الحاجز الفعال الوحيد في وجه قوة جذب الولايات المتحدة . وبناء على تقرير اللورد ديرهام صدر « قانون التوحيد » في ١٨٤١ وترتب عليه الاندماج النهائي للولايتين . وبعد ذلك ، وبدون تدخل من أي نص قانوني ، بدأ نوع من الحكم الذاتي يستقر باطراد ، بفضل تلك المرونة التي تتميز بها السياسة الانجليزية . وفي ١٨٥٠ اعترف باستقلال كندا

السياسي باعتباره امراً واقعاً وان لم يعترف به قانوناً. وبالقرب من كندا تكونت ولايات جديدة يقيم فيها المستعمرون الانجليز وتتمتع بمؤسسات خاصة بها : اسكتلندا الجديدة وبرونزويك الجديدة وكولومبيا البريطانية. وشجعت الحكومة الانجليزية كل مشروعات الاتحاد الفيدرالي بين هذه الولايات المختلفة تشجيعاً قوياً. وفي ١٨٦٧ وعلى اثر مناقشات طويلة محتدمة ، عرض نص الدستور الكندي على لندن وصدق عليه برلمان وستمنستر وهو « قانون امريكا الشمالية البريطانية » الذي صدق على انشاء اول منطقة من مناطق الدومنيون للامبراطورية والتي تضم خمس ولايات.

عهد و « يكفيلد »

تعلمنا جميعاً في المدارس ان استراليا قد « اكتشفت » على يدي كوك في نحو ١٧٧٠. ولكنها كانت قارة تقع على معزل من الطرق الكبرى فبقيت مجهولة أمداً طويلاً. ومع ذلك فلم تكن خالية ، كما يحبّ ان يقول بعض المؤرخين[١] اذ كان يعيش فيها شعب من سكان البلاد الاصليين ينتمي الى نمط زنجي وهو بلا شك شعب بدائي. ونطلق عليه اسم ، الاستراليين.

وعندما فقدت انجلترا مستعمراتها الامريكية « الولايات المتحدة » اختارت ان تنشىء في استراليا مستعمرة عقابية. وارسلت اليها قافلة اولى مكونة من ٤٥٠ سجيناً محكوم عليهم بأحكام مختلفة ، في ١٧٨٨ ، حيث استقروا في خليج بوتانية على غير مبعدة من المكان الذي اختير لبناء سدني. وهكذا تأسست مستعمرة نيوويلز الجنوبية. لم تكن البداية تدعو الى الاطمئنان. كان العسكريون هم سادة الموقف سيادةً مطلقة ، فاختصوا انفسهم بمساحات كبيرة من الارض دفعوا السجناء الى العمل فيها. ولم يكن ثم مستعمر حر واحد يتمتع بالحق في تلك الفترة في ان يذهب للاستقرار في استراليا.

الا ان الحكومة تخلت في النهاية عن هذه السياسة. وأخذ الحاكم ماكوارى

(١) اولئك الذين يحبون ان يسموا كل ارض لم « تكتشفها » اوروبا ارضاً خاوية.

يوزع مساحات مجانية من الارض على المستعمرين المستقلين ويشجع السجناء على ان « يكسبوا » حريتهم ويحصلوا على الأراضي . كما اهتم باستكشاف البلاد بغرض تشجيع تربية الضأن الذي كان الكابتن ماك آرثر قد ادخل منه بضع عينات الى البلاد ، قبل ذلك ببضع سنوات ، فلقيت نجاحاً .

ومضت الامور على ما يرام نسبياً ، طالما استخدم السجناء كأيد عاملة مجانية ، مهما شابها من قصور في كثير من النواحي ، للملاك الجدد . ولكن الموقف اخذ يتدهور عندما بدأ السجناء بعد انتهاء فترة عقوبتهم يستفيدون بدورهم من توزيع الأراضي المجاني . وزاد الامر سوءاً عندما قررت الحكومة أن تلغي السجن في المستعمرات الجديدة . حرم الملاك بين يوم وليلة من الايدي العاملة فأخذوا يستجلبون من انجلترا ، بنفقات كبيرة ، العاطلين والعمال والزراع الذين لا عمل لهم . ولكن ما ان حط هؤلاء رحالهم حتى فضلوا ، بحق ، ان يستفيدوا من التوزيع المجاني للأرض بدلاً من أن يعملوا لحساب الآخرين . وسرعان ما وجد الملاك القدامى والجدد انفسهم ، على رأس ضياع شاسعة ، غير قابلة للزراعة لافتقارها الى الايدي العاملة ، فلم يعودوا يعرفون كيف يحلّون هذا المأزق .

جاء الى نجدتهم رجل درس المسألة وقتاً طويلاً : ادوارد جيبون ويكفيلد . كان ويكفيلد يعتنق الآراء « الليبرالية » في البداية وان كان عمله في خدمة المصالح الاستعمارية ودفاعه عنها قد أفضى به في أغلب الاحوال الى التناقض مع نفسه . ومع ذلك فلم يتخل تماماً عن آرائه وان كان ينحيها جانباً في كل مرة بدا له أن انقاذ مستقبل المستعمرات يقضي بذلك . كانت رفاهية المستعمرة ، عند ويفيلد ، تعتمد ثلاثة عوامل : الأرض ، ورؤوس الأموال ، والايدي العاملة . وكان العاملان الاولان غير منفصلين عن الواقع الاسترالي : فقد كانت الأرض مجانية وكان حائزوها من الانجليز ميسوري الحال ، بعامة ؛ كانت رفاهية انجلترا تزداد من عام الى عام بفضل مستعمراتها ، وزاد عدد المرشحين الراغبين في استثمار رؤوس أموالهم ، زيادة مطردة . فلم يكن

هناك الا عامل واحد لا يتوفر في واقع استراليا لكي يضمن لها الرفاهية الكاملة : الايدي العاملة .

اعتنق ويكفيلد آراء ومواقف كبار الملاك الاستعماريين ، باطراد ، فبلغ به الامر الى حد الأسف ، مثلهم ، لاختفاء السجن من استراليا . فقد كان السجن مورد ايد عاملة لا شك في قصورها عما يتطلبه الامر وان كانت زهيدة الاجر بما لا يقارن . وتبدى هذا الأسف في عبارته : « من قام ببناء سيدني ؟ السجناء . من مد الطرق الرائعة من سيدني الى باراماتا ؟ السجناء . من جعل التربة منتجة ؟ السجناء . ولماذا لا تطلب منا الايدي العاملة عندنا اجوراً باهظة ؟ لانها تتكون في معظمها من السجناء . ان الموقف واضح ..! » وهو صحيح ، بالفعل . فان ما يقدره ويكفيلد أساساً عند السجناء هو وضعهم العبودي الذي يستفيد منه الملاك الأغنياء دون ان يتجشموا نفقة ما .

ولكن الزمن قد « تجاوز » امكانية الحل الذي يعتمد على استخدام السجناء . فنحاه ويكفيلد جانباً ، وان كان قد فكر ، في لحظة من اللحظات ، أن يقيم نوعاً من العبودية الجديدة او على الاقل ان يجند الايدي العاملة الملونة قليلة النفقات والتي لن تفيد من توزيع الأراضي مجاناً . لقد ألّف كتاباً بعنوان « خطاب من سيدني » قال فيه على لسان أحد المستعمرين من أبطال الكتاب : « على الرغم مما يقضي به العقل وعلى الرغم من أفضل مشاعري الطبيعية ، فانني اجد عذراً للاسبانيين والامريكيين والهولنديين. نعم ..! بل أفكر أحياناً أنّ بضع آلاف من الزنوج سوف يكونون حلاً رائعاً لمشكلة نيوويلز الجنوبية » فإلام انتهى هذا الرجل الليبرالي ؟ الى النتيجة المنطقية التي ينتهي اليها كل مستعمر منطقي مع ذاته .

ولكن الحل الذي يقضي باستجلاب الايدي العاملة الملونة اتضح أنـــه أيضاً حل غير قابل للتطبيق . من ناحية ، لأن انجلترا كانت قد اعلنت الغاء العبودية ، بناء على نداءات الليبراليين من اصدقاء ويكفيلد القدامى ، وكانت

تنصح الدول الاوربية الاخرى باحتذاء هذا المثل ، وقد حظرت العبودية في مستعمراتها وأداناتها في المستعمرات الاخرى . ومن ناحية اخرى ، لأن استراليا ارادت أن تبقى « استراليا البيضاء » ، ومن ثم فقد رفضت ادخال العمال الملونين .

ولكن ويكفيلد لم تعوزه الحيلة ، فاقترح منهجاً جديداً أخذ يدبّر ميكانيكيته بعناية دقيقة . وهو المنهج الذي اطلق عليه « الاستعمار المنهجي » والذي كفل لمبتدعه شهرة مستطيرة . كان من رأيه ، علاجاً للشح الشديد في الايدي العاملة ، ألا توزع الأراضي مجاناً في المستقبل ، بل أن تباع بالمزاد العلني . كما اقترح ان تخفض مساحات هذه الضياع تخفيضاً ملموساً . هذا الى ان الحكومة اذ تدفع أجر الرحلة الى استراليا للفائض عن الحاجة من السكان الفقراء في الوطن الأم ، يمكن لها ، وفقاً لهذا الاقتراح ، أن تشترط تثبيت هذه الأيدي العاملة في المزارع ، على اعتبار ان هذه الايدي العاملة لن تصبح قادرة لفترة سنوات طيلة أن تجمع المال اللازم لشراء قطعة من الأرض .

تبنت الحكومة البريطانية « طريقة ويكفيلد » لحسابها ، وبفضل انشاء « صندوق الهجرة » أوفدت عدة آلاف من المستعمرين الى نيوويلز الجنوبية والى استراليا الجنوبية حول مدينة آديلايد الصغيرة التي سوف تنبثق عنها في ١٨٣٤ مستعمرة استراليا الجنوبية . وعلى عكس ما كان ويكفيلد يظن ، اشترى المضاربون وملاك المواشي الاغنياء ، مساحات كبيرة من الاراضي ، وتغلب رعي الماشية على الزراعة . الا ان تدفق المهاجرين كان له اثر واضح ، هو تشجيع استكشاف المناطق الساحلية ، وانبثاق مستعمرات جديدة : تسمانيا ، وفيكتوريا ، واستراليا الغربية ، وفي ١٨٥٩ كوينزلاند .

أدت الزيادة المفاجئة في السكان (في ١٨٥٠ تجاوز عددهم ٤٠٠ ألف شخص) الى تشجيع المستعمرين على نقد الادارة الاوتوقراطية للحكام ، ومعارضتها . واتبعت لندن نظريتها النفعية . فلم تؤيد ممثليها ، بل نصحتهم

على العكس بأن يسلموا بمطالب المستعمرين . وفي ١٨٤٢ تحققت الذاتية ، بما تنطوي عليه من جمعية نيابية منتخبة مسئولة عن الدفاع عن المصالح المالية والاقتصادية للمستعمرين . وفي ١٨٥١ اقر البرلمان الدساتير التي وضعها ممثلو المستعمرات الاسترالية المختلفة (كان لكل مستعمرة حكومتها الخاصة) واخيراً تكوّن « اتحاد استراليا الفيدرالي » في ١٩٠١ من ست مستعمرات (نيوويلز الجنوبية ، فيكتوريا ، استراليا الجنوبية ، واستراليا الغربية ، وكوينزلاند ، وتسمانيا) .

أما نيوزيلندا فقد كانت موضع اختبار نموذجي لطريقة « الاستعمار المنهجي » وحصل ويكفيلد فيها على نتائج اكثر مدعاة للرضا من استراليا . وصل الأوربيون الاوائل ، من صيادي الحيتان والفقمة ، في نهاية القرن الثامن عشر الى نيوزيلندا ، وتبعهم التجار الاستراليون في القرن التاسع عشر . وعلى خلاف استراليا كانت في نيوزيلندا فئة من السكان الاصليين متقدمة نسبياً ، يتصفون بالمقدرة الفائقة على القتال : الماورى . وقام التجار الاستراليون الاوائل بتجارة مشكوك في مدى أمانتها الى حد كبير ، فقد حصلوا على مساحات كبيرة من الارض من أملاك الماورى في مقابل الكحول . وهبط المبشرون البروتستانت الى نيوزيلنده في ١٨١٤ ، وأقاموا انفسهم في موضع حماة الاهالي وشجبوا تصرفات التجار والمهربين .

وقد تدخلوا مرة اخرى عندما بدىء في تطبيق طريقة « الاستعمار المنهجي » الذي دعا اليه ويكفيلد . فقد حصل هذا الأخير ، بثمن زهيد يدعو للسخرية ، على مساحة من الأرض تعادل تقريباً مساحة ايرلندا ، ورأى المبشرون في ذلك ، بحق ، عملية سلب صريحة . ولم يتردد الحاكم البريطاني من جانبه أن يشعر الجميع بقوته ، حتى يثني الفرنسيين عن الاستقرار في الجزيرة من ناحية ، وحتى يتيح لوكيفيلد ان يجرب طريقته من ناحية اخرى . واسس وكيفيلد في ١٨٣٤ ، لتحقيق هذا الغرض ، « جمعية نيوزيلندا » ومع ذلك فقد نشبت صراعات حادة بمجرد وصول المستعمرين الأوائل

الذين استجلبهم ويكفيلد ، مما دعا الحكومة الى قمعها بشدة . وفي ١٨٤٠ وقع الكابتن هويزن مع زعماء الماوري « معاهدة وايتانجي » التي تعترف بسيادة الملكة ، وتكفلها ، وان كان ذلك في عبارات من الغموض بحيث اعتبر المستعمرون انفسهم اصحاب حق في انتهاك أراضي الاهالي ، كما اعتبر الاهالي انفسهم اصحاب حق في مقاومتهم . ومن هنا اخذ القتال يشتد ، واستمرت الحرب الدامية حتى ١٨٧٠ دون ان تتوقف الا فترات قليلة .

وجاء حاكم جديد ج . جراي ، وكان من الحزم بحيث فرض نفسه على المستعمرين البيض كما استطاع أن يرعى مصالح السكان الاصليين . وما لبثت الدوائر الاستعمارية في لندن ان اطلقت عليه اسم « ملك أكلة لحوم البشر » . ومن ناحية اخرى ، طالب المستعمرون بالحكم الذاتي ، وحصلت نيوزيلندا على حكومتها المسؤولة منذ ١٨٥٦ .

في ١٨٥٢ غادر ويكفيلد انجلترا ، على نية عدم العودة ، متجهاً الى نيوزيلندا . وما ان وصل حتى اختير عضواً في المجلس الاقليمي عن ويلنجتون ، وفي الجمعية التشريعية في نيوزيلندا . كان ويكفيلد من أنصار حق الانتخاب العام . « هذا الراديكالي الذي تقدم الى الناخبين في برمنجهام عام ١٨٣٦ ، ببرنامج اصلاحي ، لم يعد في المستعمرات الا محافظاً ضيق الأفق يشغله ان يبقى على طبقتين متميزتين كل منهما على طرف نقيض من الاخرى ، طبقة الرأسماليين ، من ناحية ، وطبقة العمال المأجورين من ناحية أخرى »[1] وقد اختار على اي حال ان يقف في صفوف الطبقة الاولى ، وليس الاولى ، وليس في ذلك ما يدعو الى الدهشة عندما نعرف ان الاستعمار ينتهي دائماً بأن يُخْضِع لمنطقه كل من ينخدع بوسائل حركته وكل من يقع في قبضتها . وتخلى ويكفيلد عن كل نشاط منذ ١٨٥٤ حيث اصيب بمرض خطير ١٨٦٢ .

---

(١) اندريه سيجفريد : تقنيو الاستعمار : أ . ج . ويكفيلد .

الديانة والتجارة في افريقيا :

كان التوسع البريطاني في أفريقيا الغربية خلال ثلاثة الأرباع الاولى من القرن التاسع عشر ، تحفزه ضرورة التبشير الديني وادخال الافريقيين الى الديانة المسيحية ، كما تحفزه مصالح تجارية معينة ، أكثر مما تدعو اليه ارادة متعمدة تتجه الى السيطرة الاقليمية . كان ممثلو بريطانيا العظمى الاوائل على سواحل افريقيا الغربية ، في الواقع ، هم المبشرون والتجار . ومع ذلك فان نشاط هؤلاء الرجال قد ترتب عليه ، بشكل لا مَعْدى عنه ، ما حاولت لندن ان تتجنبه (على الاقل في افريقيا ، في تلك الفترة ، فقد كانت انجلترا منساقة أمام التيار الليبرالي) : انشاء مستعمرات جديدة .

منذ نهاية القرن الثامن عشر كان أنصار المذهب الانساني من « شيعة كلابهام » يسعون الى العثور على أرض جديدة ترحب بالعبيد المحررين . ومن ثم اختاروا سيراليون لذلك الغرض . وجنباً الى جنب مع هذه المبادرة ، وفي طريق منفصل ، كانت جهود الاستكشاف التي تمولها الحكومة تتجه[1] نحو المناطق غير المعروفة من القارة السوداء . قام كلابرتون في ١٨٢٣ برحلة الى بورنوو سوكوتو . « واكتشف » لاندر في ١٨٣١ المجرى الادنى لنهر النيجر . كان الحافز وراء هذه الحملات ، هو السعي وراء توسيع نطاق التجارة ، لا الاستعمار (على اننا نعرف كيف يترتب أحدهما على الآخر بشكل محتوم وفوري) .

زادت حاجات أوربا الى المنتجات المدارية . وكانت الجهود المتجهة الى « الاستكشاف » تسبق توسيع نطاق الاستثمار الاقتصادي . مثال ذلك ان الطلب على زيت النخيل (لصناعة الصابون – وزيوت التشحيم) قد زاد بزيادة نمو الآلات . استوردت ليفربول منها ١٥٠ طناً في ١٨٠٦ ، ٣٠٠٠

(١) ابتداء من ١٧٨٨ حين انشئت « الجمعية الافريقية » .

طن في سنة ١٨١٩ ، ١٣,٦٠٠ طن في ١٨٣٩[1] . الا ان القلاقل التي كثر نشوبها والتي تعزى الى المنافسة بين التجار والى الصراع بينهم وبين الزعماء السود اقتضت انشاء واقامة جهاز من أجهزة السلطة : وكانت لندن تعترض على كل تدخل سياسي وان كانت تميل الى تلبية مطالب التجار ، فعينت قنصلاً في لاجوس ١٨٥٣ ، وسقط هذا الاخير في دوامة موقف لا مهرب منه ، ووقع أسير عملية متكاملة الأجزاء مترابطة الحلقات من التدخل اثر التدخل ، فضم لاجوس في النهاية في ١٨٦١ ، وواجه الانجليز صعوبات مماثلة ، فيما تلا ذلك من سنوات ، فبسطوا رقابتهم على جزء كبير من منطقة الساحل حتى الكاميرون ، وتدخلوا في ساحل الذهب (غانا الحالية) .

كانت « الشركة الافريقية للتجار » قد الغيت في ١٨٢١ ومع ذلك بقيت مراكزها الساحلية تحت رقابة التاج حتى تتوفر الحماية للتجارة ، والغاء الرقيق . ولكن وزارة المستعمرات ارهقها القيام بقمع صراعات ما تفتأ تتولد من جديد ، وكان أمامها ما يشغلها في أماكن اخرى من العالم ، فأمرت باخلاء هذه المراكز تماماً في ١٨٢٨ . ومع ذلك فقد قرر التجار البقاء في اماكنهم . وعُهد بادارة المراكز الساحلية الى لجنة مكونة من كبار التجار في لندن . وكان هؤلاء اقدر على معالجة الموقف ، بطبيعة مزاجهم وتكوينهم ، ووفقاً للضرورات التي تمليها عليهم مهنتهم . فبسطوا نفوذهم الى بعيد جداً فيما وراء حدود الحصون أو الامتيازات الممنوحة لهم ، وذلك بفضل قيامهم بدور المحكمين بين القبائل الافريقية المتنافسة . واعترف البرلمان بهذا الوضع الجديد ، وصدق عليه ١٨٤٣ مع التسليم بأن الأهالي ليسوا « رعايا » ، ولكنه قبل مع ذلك ان يضعهم تحت اختصاص المحاكم البريطانية .

وطبقت هذه السياسة بشكل منهجي أكثر ، في افريقيا ، في خلال الفترة الامبريالية . وعلى ذلك النحو منحت لندن لجماعة من التجار ، ولشركات

---

(١) أ ـ بيرنز : تاريخ نيجيريا ، (لندن)

تجارية ، او شركات مالية كبيرة ، امتياز الاستيلاء على أراض افريقية شاسعة المساحة ، واستثمارها ، وادارتها . ألم تقرر وزارة المستعمرات أن تولي اهتماماً اكبر بهذه المشروعات ، عندما اتضح أنها مشروعات تعود بالربح وعندئذ قررت أن تلحقها بالتاج .

الامبريالية تنتصر :

لم تعد انجلترا في ١٨٧٠ هي الدولة الصناعية الاولى في أوربا ، كما كانت في ١٨١٥ ، بل كان ينبغي ان يتوفر لها الكثير حتى تصل الى تلك المرتبة . ظهرت بلاد اخرى مثل فرنسا والمانيا تزودت بالمعدات الحديثة بسرعة بالغة ، وأخذت تتطلب ، منذ ذلك الحين ، فتح اسواق لمنتجاتها . وكان التنافس بين هذه البلاد الاوربية ، وأمريكا ، واليابان التي نمت فيها صناعات كبيرة ، مدعاةً للقلق الجسيم عند بريطانيا العظمى التي كانت حتى ذلك الحين هي المورد الوحيد للأمم « المتمدينة » وللشعوب « المتوحشة » على السواء . هذا الى ان الانجليز بدأت تساورهم الخشية البالغة من ازدياد حدة القوميات التي ظهرت في اوربا بعد حرب ١٨٧٠ : وهي قوميات توسعية . واحس البريطانيون ان تفوقهم الذي استمر أمداً طويلاً من الزمن قد بدأ يتزعزع وتهدده الاخطار . وفي هذا السياق كانت تبدو السياسة التي يمارسها « الليبراليون » ، اكثر قصوراً وعجزاً ، في كل يوم ، عن مواجهة هذه الأخطار والقضاء على « موجات التوسع » وتجنب ضياع الاسواق العالمية شيئاً فشيئا واغلاقها في وجه المنتجات البريطانية . بل لقد اطلق البعض على تلك السياسة وصف مناهضة الاستعمار . وقيل عندئذ ان الانجليز لا يمكن ان يقبلوا التخلي عن سيطرتهم على اقاليم معينة ، بينما لا تتورع الأمم الاوربية الأخرى عن مد سيطرتها لكي تشمل اقاليم جديدة .

واذن فقد مُهدت الارض ، واكتملت للحجة قوة الاقناع ، فبدأ الهجوم الامبريالي في ١٨٧٢ ، وان لم يلق نجاحاً كبيرا . كان الرأي العام

الانجليزي قد اعتاد منذ زمن طويل الا يضع ثقته في التوسع الاستعماري . ومع ذلك فان رجالاً مثل ويكفيلد ولورد ديرهام كانوا قد أعدوا الجمهور ، الى حد ما ، لتقبل هذا الانقلاب المفاجيء في السياسة الاستعمارية الانجليزية . وكان اول دعاة النهضة الامبريالية هو دزرائيلي ، أما اخطر خصومها « الاحرار » فقد كان جلادستون . وأسهم دزرائيلي في تحويل الامبريالية الى مذهب سياسي وخلقي متماسك الأطراف .

وفي محاولة لاخفاء الأسباب العميقة (الاقتصادية) لهذا التحول ، خلق منظّرو الامبرياليّة اسطورة « انجلترا العالمية » . وكتب احدهم سيلي ، على الاخص : « لقد انتهت الفكرة القديمة القائلة بوجود مستعمرة من ناحية ، ووطن أم من ناحية أخرى. هناك الآن امبراطورية تتناثر أرجاؤها في العالم كله ولكنها تتشكل من شعب عظيم واحد ، واحدٍ بدمه ، وبلغته ، وبديانته ، وبقوانينه . اننا نرى انجلترا حيثما وجد سكانٌ من الانجليز » . ان هذه العنصرية الشوفينية هي النظرية التي يعتنقها اليوم الفاشيون البرتغاليون عندما يضمون اصواتهم الى صوت سيدهم سالازار ويعلنون ان البرتغال « واحدة ، فيما وراء البحار وفيما امامها » .

وصل دزرائيلي الى الحكم ، فاتخذ على الفور قرارين لم يكن فيهما ما يدعو الى الرضا : ضم الترانسفال ، واحتلال قبرص . اننا الآن في ١٨٨٠ . وخلال السنوات الخمس التالية كان جلادستون قد عاد على رأس الحكومة فاختار سياسة مناهضة للتوسع على نحو حاسم . ولكن موقف الانسحاب الذي اتخذته بريطانيا العظمى ، بالمقارنة بالديناميكية التي كانت تفيض بها الدول الاجنبية الكبرى ، كان يبدو موقفاً غير مناسب في أعين التجار ، فقد رأوا الاسواق تقفل ابوابها ، في وجوههم ، واحداً بعد الآخر . بعد ان انتصرت المنافسة الفرنسية أو الالمانية . فاذا كان دزرائيلي قبل ذلك ببضع سنوات قد اعتبر مجرماً لا إيمان عنده ، ولا قانون ، فقد بدا جلادستون في تلك اللحظة بمظهر الخائن ، وهو اسوأ بكثير . ذلك أن « ما يتعرض للخطر هو شرف

الامبراطورية » .

ارتفعت اسهم « الامبرياليين » فجأة فعادوا الى الحكم واستقروا فيه نهائياً . واتفقت عودتهم مع بداية عهد أكثر ملكات انجلترا صرامة وتطهرية : الملكة فيكتوريا . بل لقد انتشى الزعماء « الاحرار » أنفسهم بخمر الجنون الامبريالي ولم يترددوا في التضحية بمبادئهم في سبيل الالتزام بالمعتقدات الشائعة والانضمام الى صفوف الشوفينيين . وهكذا اعلن روزبرى في ١٨٨٤ « أن سعادة الجنس البشري تعتمد منذ تلك اللحظة على الامبراطورية البريطانية ». وقام جوزيف شامبرلين ، وهو ابن احد صناع الاحذية في لندن ، وقد كان ليبرالياً ومناهضاً للتوسع في أول الامر ثم اصبح من قادة الحركة الامبريالية ، مع دزرائيلي ، ليقول بجدية كاملة : « اننا الجنس السيد الحاكم الذي قُدر له ، بفضل ملكاته ، وفضائله ، أن ينتشر في العالم كله » . وخطب تشامبرلن في عمال برمنجهام ، فاستخدم حجة اخرى اكثر دقة وفطنة ، لتأييد الامبريالية : « ان فقدان ممتلكاتنا الاستعمارية سوف يلقي بثقله أولاً على الطبقات العاملة في هذه البلاد . سوف نرى أنفسنا مصفدين بأغلال الفاقة المزمنة ، ولن تستطيع انجلترا ان توفر الغذاء لهذا العدد الهائل من سكانها » . ولقد استخدمت هذه الحجة وامثالها بعد ذلك في كل مرة قامت محاولة لفصل البروليتاريا الاوربية عن الخاضعين للاستعمار في العالم الثالث أو لتقويض التضامن الوليد بينهما .

الا ان هناك حجةً أخرى شاع استخدامها ، وهي حجة المسئولية الخلقية التي تلتزم بها اوربا المتمدينة بازاء السكان « المتوحشين » . هي حجة « عبء الرجل الأبيض » الشهيرة التي نادى بها كبلنج . لم تكن المسئولية الامبريالية البريطانية في الواقع اذن إلا واجباً نبيلاً . وترتب على هذه الطائفة من الحجج ، وعلى المقدرة في التلاعب بها ، برياء ، أن انضمت اغلبية الرأي العام الانجليزي اليها ، وقد ساعد على ذلك تحقق النتائج الايجابية الاولى لسياسة التوسع الامبريالي.

طرق التدخل ، والاسواق الاقتصادية :

اختار التوسع الامبريالي في افريقيا ، مصر ، ضحيةً اولى . كان قد تم حفر قناة السويس التي انشأها فرديناند ديلسبس بفضل معونة رؤوس أموال فرنسية كبيرة ، وكان امتياز حق حفر قناة السويس الذي منحه الخديوي لفرديناند ديلسبس قد جاء الى مصر بعدد معين من الاسهم . وعندما فتحت القناة للملاحة في ١٨٦٩ قصُرت المسافة الّتي تفصل بين لندن، والهند واستراليا ، الى حد كبير ، فأدركت حكومة صاحبة الجلالة على الفور الخطأ الذي ارتكبه بالمرستون عندما تخلى عن « هذا الطريق الامبريالي » ، الى الفرنسيين والخديو .

فكيف تصلح هذا الخطأ ؟ واتتها المناسبة على غير انتظار . ففي ١٨٧٥ كان الموقف المالي للخديو اسماعيل قد تدهور الى حد كبير ، وكان عليه ان يبيع نصيبه من أسهم قناة السويس ويبلغ ١٧٧ ألف سهم . فاشتراها دزرائيلي على الفور لقاء ٤ مليون جنيه ، وحصل بذلك على حق عضوية مجلس ادارة « الشركة العالمية لقناة السويس » . وأخذ الموقف في مصر يتطور بعد ذلك بسرعة في اتجاه مشابهٍ لتطور الموقف في تونس ومراكش ، كما ذكرنا من قبل ، وانتهى الى نفس النتيجة . زادت الازمة المالية تفاقماً في ١٨٧٦ ، وكان اسماعيل على وشك ايقاف مدفوعاته الى دائنيه الاوربيين . وعندما رأى الفرنسيون والانجليز ذلك أرغموه على قبول رقابة وكلائهم على الادارة المالية المصرية . مما كان من اثره أن اندلعت حركة وطنية قوية في مصر . وبحجة حماية دائنيهم ، وان كان ذلك في الواقع بنية الاحتفاظ بنفوذهم على البلاد ، نزل البريطانيون في يوليو ١٨٨٢ ، وهزموا الجيش الوطني في التل الكبير ، واحتلوا مصر .

زعم الانجليز في البداية ، كما فعل الفرنسيون في تونس ، أن كل ما يعنيهم هو « اعادة الأمن والنظام» وأبقوا الخديو اسماعيل في منصبه ، كما أبقوا المؤسسات على حالها ، ولكنهم استولوا بالتدريج على السلطة الحقيقية . جاءوا بالموظفين البريطانيين ، بأعداد كبيرة ، فأدخلوهم في الادارات المصرية : واصبحت قيادة

الجيش على الاخص في يدي السردار الانجليزي ، وعهد باعادة تنظيم الشؤون المالية والاقتصاد ، وبالقيام بالمشروعات العامة ، الى « اختصاصيين » من المملكة المتحدة ، واستمر الوضع على ذلك حتى ١٩١٤ .

كان السودان قد بقي طويلاً تحت وصاية مصر ، ولكن ربقة الادارة الفاسدة التي كان ينوء بها أرهقته ، فثار السودان بقيادة المهدي . وفي ١٨٨٣ حاول الانجليز اعادة فتح السودان : وعهد الى الجنرال هكس وجوردون بهذه العملية ولكنهما هزما ثم قتلا . ومرت عشر سنوات قبل ان يستطيع البريطانيون ان يعيدوا الحملة : وسقطت الخرطوم والسودان كله في النهاية ، عام ١٨٩٨ ، على يد كتشنر .

اما في افريقيا السوداء فلم يتخذ التوسع الاستعماري أبعاده الحقيقية ، الا بعد مؤتمر برلين . ومع ذلك فان البريطانيين قد ضاقوا ذرعاً باضطرارهم الى صد هجوم قبائل الاشانتي على قبائل فانتي التي كانت تحت « حمايتهم » ، فضموا البلاد كلها حتى يضعوا حداً لهذه المنافسة الدامية الدائمة بين العنصرين[1] . وفي الشرق ، في منطقة دلتا نهر النيجر الذي أطلق عليه اسم « نهر الزيت » ، استطاع تاجر حصيف داهية ، وهو توبان جولدي ، أن يقنع الشركات الانجليزية التي كانت تقوم بالتنقيب في المنطقة بحثاً عن الزيت ان تتحد في مواجهة خطر الاهالي وخطر منافسة « الشركة الفرنسية لافريقيا الاستوائية » واتحدت اربع شركات منها لتنشيء « الشركة الافريقية الوطنية » .

وفي الوقت الذي بدأت فيه الشركة الافريقية الوطنية تُحكم رقابتها ، وتتحكم في تجارة النيجر الأدنى ، أبرمت معاهدة برلين ، فكانت اشارة البدء للتوسع الاوربي في افريقيا وهو التوسع الذي جاء ليبرر ويدعم الامبريالية البريطانية . واعلنت منطقة النيجر « حماية » انجليزية (وتشتمل المناطق الساحلية بين لاجوس وكالابار كما تشتمل على شاطىء النهر ، والبحر عند مصب بينوويه) . وحتى

(١) هذه هي على الاقل الحجة التي افادوا منها للاستيلاء على البلاد .

تحول الحكومة « الشركة الافريقية الوطنية » الى ادارة للتغلغل ، مرنة وسريعة وقادرة على استكمال خطط الدولة ، فان لندن قد منحتها ، برئاسة تويمـــان جولدي ، لقب « شركة ذات ميثاق » ، كما أطلقت عليها اسماً جديداً : « شركة النيجر الملكية » . وسرعان ما اطلقت الشركة عملاءها التجاريين للانقضاض على الأسواق الداخلية ، تحمي تغلغلهم بالمدافع . وظهر رجل على مقدرة كبيرة هو فريدريك ليوجار فأدى لها خدمات جليلة اذ أنه نجح ، بمعونة ميليشا اهلية تدفع لندن لها أجورها ، في اخضاع مساحة شاسعة من الارض للقوانين الانجليزية ، وحددت هذه المساحة في ١٨٩٨ باسم « نيجيريا » . وفي ١٨٩٠ الغي ميثاق « شركة النيجر الملكية » وعهد بادارتها الى موظفين حكوميين . وفي ١٩١٤ عين ليوجار اول حاكم عام لنيجيريا واقام فيها على الفور نظام الحكومة غير المباشرة التي تدير البلاد بوساطة الزعماء التقليديين القبليين .

اما في افريقيا الشرقية فان عملية الاستعمار المطرد المتزايد (ادارة الأرض على ايدي التجار ثم على ايدي « شركة ذات ميثاق » ثم على أيدي موظفين حكوميين) التي كنا قد رأيناها في افريقيا الغربية ، هي التي لقيت التشجيع بشكل عام ومنهجي . وعلى اية حال ، وطالما كانت انجلترا لا يشغلها الا التحكم في « الطريق الى الهند » وقمع تجارة الرقيق ، فقد كانت علاقاتها مع السلطات المحلية القائمة علاقات ممتازة : كانت تقيم علاقات ودية مع سلطان زنزبار ، وعلاقات حسن الجوار مع فرنسا ، التي نظمتها معاهدة ١٨٦٢ . ولم تأل الجمعيات التبشيرية جهداً ، محتذية في ذلك حذو ليفنجستون ، في معاونة السكان المحليين الذين هبطت بهم تجارة الرقيق الى درك الفاقة المادية والاملاق المعنوي .

ومع ذلك فان وزارة الخارجية رفضت أن تؤيد عملهم ولم تتدخل قــط لصالحهم .

لم يكد يجف المداد الذي وقّع به الانجليز على معاهدة برلين حتى انقضوا للهجوم على المناطق التي منحوا ملكيتها وادارتها ، فقد كانت صحة ملكية المستعمرة

تتوقف على احتلالها الفعلي كشرط اساسي ، كما ذكرنا . كانت المنطقة التي سلمت لانجلترا تنبسط من أومبا الى تانا ، واعطت انجلترا امتياز ادارة هذه المنطقة الى « شركة شرق افريقيا البريطانية الامبراطورية » وهي شركة ذات ميثاق انشئت خصيصاً لهذا الغرض . وثبتت حدود الممتلكات الانجليزية في افريقيا الشرقية نهائياً في ١٨٩٠ بمقتضى اتفاقية انجليزية المانية : اصبحت كينيا وأوغندا بريطانيتين ، وقبل سلطان زنزبار « حماية » بريطانيا العظمى ، وسلم الساحل ومومباسا ، مقابل ايجار ، الى الشركة .

سيسيل رودس أو امبراطورية داخل الامبراطورية :

كان سيسيل جون رودس ابن احد رجال الدين . وجاء في ١٨٧٠ لكي يستقر في جنوب افريقيا حتى يستعيد صحته . كان رجلاً يتمتع بقدر كبير من الحيوية ، موهوباً وعبقرياً في ادارة الأعمال ، عصامياً ، بدأ من لا شيء ، واستطاع ان يجمع ثروة طائلة بفضل استثمار مناجم الماس في كمبري ومناجم الذهب في الترانسفال . ومنذ حداثته تكشف رودس عن « امبريالي » يعتنق المذهب الامبريالي بيقين واقتناع جازم . كان حلمه ان يقهر العالم لكي يخضعه للقوانين الانجليزية . ألم يكتب في ١٨٧٧ الى صديقه و . ت . ستيد : « أما من جانبي فانني اريد ان اكون على فائدة لبلادي ... انني أزعم ان كل ذراع من الارض يضاف الى اراضينا سوف يوفر ما يلزم لميلاد عدد أكبر من اعضاء الجنس الانجليزي الذين لن يولدوا الا بذلك . هذا الى ان انضواء الجزء الأكبر من العالم تحت قوانيننا يعني نهاية كل الحروب » ؟[1]

وفي نفس السنة كتب أولى وصاياه الست ، فأبدى رغبته في تخصيص ثروته لانشاء نظام للهجرة يستهدف استعمار كل الاراضي « الحرة » . كانت انجلترا تخون رسالتها ، في رأيه ، طالما لم تحتل افريقيا جمعاء ، وامريكا الجنوبية ، والاراضي المقدسة ، ووادي الفرات ، وجزر المحيط الهادي ، والأرخبيل

(١) اشار اليه موريس جروزيه في « تقنيو الاستعمار : سيسيل جون رودس . »

الملاوي ، وساحل الصين واليابان ، وتعيد استعمار الولايات المتحدة الامريكية . ولكن هذه الرؤيا الطوباوية لم تحل دونه وان يكشف عن واقعية كبيرة طالما كان الأمر يتعلق بمشاكل محددة . كان هدفه الأول هو أن يقيم افريقيا البريطانية . كيف؟ — على مراحل متعاقبة : المرحلة الاولى : توحيد كل افريقيا الجنوبية ، ابتداء من الكاب ، بامتصاص جمهوريات البوير المستقلة والأراضي التي يملكها الاهالي ، المرحلة الثانية : الوصول الى منطقة البحيرات الكبرى ، ثم بلوغ السودان ومصر عن طريق اوغندا ، المرحلة الثالثة : بسط السيطرة الانجليزية على سائر انحاء القارة . ولكن رودس لم يحقق في الواقع الا الجزء الأول من برنامجه .

ولكي يحقق مهمته ، كان لا بد له من توفر شرط أولي لا غنى عنه : تعاون البوير . لم يكن ثم ما يمنع ذلك لاول وهلة . كان رودس يحس نفسه أساساً افريقياً جنوبياً مثلهم ، بكل ما ينطوي عليه ذلك من عدم الثقة بازاء موظفي الوطن الأم والمبشرين البروتستانت الذين يميلون كثيراً الى المناحي الانسانية . وكان يعترف ، مثل الافريكاندر ، انه من انصار اخضاع الشعوب الملونة ، عن يقين وايمان ، فقد اعلن على الأخص : « اعتقد أن الأهالي مقدرٌ عليهم أن يقعوا تحت سيطرة الأوربيين بالتدريج ». أو في ١٨٩٧ : « يجب أن نعامل الاهالي ، حينما يكونون في حالة بربرية ، بأسلوب يختلف عن أسلوبنا . يجب أن نكون سادتهم ... يجب أن نعامل الاهالي كما لو كانوا أطفالاً ، وننكر عليهم حق التصويت والانتخاب كما تحظر عليهم الكحول سواء بسواء ... يجب ان نتخذ نظاماً يقوم على السلطة المطلقة ، يشبه ذلك الذي نجح نجاحاً كبيراً في الهند »[1] .

ليس ثم شيء جوهري اذن يفصل بين رودس والبوير ، ان ما يؤمن به دون هوادة يتلخص في عبارة واحدة : « جنوب افريقيا يحكمها شعب

(١) اشار اليه موريس جورنيه في : « تقنيو الاستعمار « سيسل جون رودس »

جنوب افريقيا ، تحت اللواء البريطاني »[1] واستطاع ان يقنع بوجهة نظره جان هنري هوفماير ، رئيس « اتحاد الافريكاندر » في الكاب ، ولكنه فشل في الترانسفال أمام مقاومة كروجر العنيدة .

فتخلى موقتاً عن القيام بتوحيد جنوب افريقيا ، وأقبل على مهمات جديدة — « أتاحت له حرأته ، وقوة وسائله المالية ، وعدم تورعه عن أي شيء ان يحقق احتلال الشمال[2] . واتضح له انه لا غنى عن التحكم في بتشواناالاند ، فهي طريق التغلغل نحو الزامبيزي . (المرحلة الاولى في الطريق الى اوغندا والسودان ومصر) . وعلى الرغم من ان هذه المنطقة صحراوية الا انها تتمتع باهمية استراتيجية بالغة . ثم ان من طبيعتها أن تغري الالمان الذين استفادوا من اللامبالاة البريطانية فاستقروا في جنوب غربي افريقيا ، أو تغري البوير في الترانسفال الذين يريدون ان ينتشروا الى الداخل . ومن ثم فقد احتلت بتشواناالاند في ١٨٨٥ ، ووضعت تحت الحماية الانجليزية .

لقد تحققت هذه النتيجة الاولى فاصبح من السهل الوصول الى مناطق قبائل المتابيليه والمشونا ، التي كانت ثرواتها المعدنية تثير جشع الأوروبيين . وفي ١٨٨٨ وقع لوبنجولا ملك الماتابالبيين بين معاهدة صداقة مع الانجليز ومنح لرودس احتكاراً في التنقيب عن المناجم واستثمارها في كل مساحة مملكته . كان ، ودس على علم تام بالنفور الذي تبديه الحكومة البريطانية بازاء منح اعتمادات كبيرة أو المخاطرة بنشوب صراع محتمل مع منافسيها (البرتغاليين والالمان) فانشأ اداته الخاصة به للسيطرة : « شركة جنوب افريقيا البريطانية » . ألم تكن ثروته الشخصية قد تكونت بامتصاص العديد من المشروعات التعدينية الصغيرة ، واحداً بعد الآخر ، فتولد عن تجمعها التراست الكبير « مناجم دى بيرز المتحدة » التي أصبحت ملكيته الخاصة مثل « مناجم الذهب » ؟

---

(١) شعب « جنوب افريقيا » معناه بالطبع : السكان البيض .

(٢) هنري جريمال : تاريخ الكومنولث البريطاني .

« كانت ثروته ، في رأيه ، لا ينبغي ان تستخدم في اثراء عائلته بل ولا في زيادة رفاهيته ورخائه شخصياً . ولكن في تنمية سككه الحديدية ، وروديسيا الخاصة به ، واشباع مطامحه الامبراطورية .[1] »

لم يتردد رودس قط في أن يفيد من الرشوة والعنف ، كان نائباً في برلمان الكاب في ١٨٨١ ، ووزيراً للمالية ثم رئيساً للوزراء من ١٨٩٠ الى ١٨٩٥ ، عندما نشب الخلاف في ١٨٩٣ بين « الشركة » (شركة جنوب افريقيا البريطانية) وبين لوبينجوالا ، ولكنه كان طيلة الوقت يتمتع بالقوة كاملة وبالحرية في أن يفعل ما يريد . وقبل ان يتاح للندن الوقت للتدخل ، او ان تقوم بدور الحكم في النزاع ، كان رودس قد انتزع الانتصار بالفعل ، وصادر أراضي الماتابيليين وماشيتهم ، ووزعها للفور على المستعمرين . وفي ١٨٩٥ كان باستطاعته ان يؤكد عن حق ، فخوراً بعمله ، مكانة شركته (شركة جنوب افريقيا البريطانية) . فقد كانت اداة ممتازة للقيام بالصفقات ، وحققت « عملا امبراطورياً طيباً » . كانت « مواقعه » الأمامية قد قامت منذ تلك اللحظة بعيداً في الشمال ، على جانبي لووانجوا ، وفي جنوب تنجانيقا . وفي ١٨٩١ عقدت اتفاقية بين لندن ولشبونه لتثبت الحد الشرقي لروديسيا وتعترف بنياسالاند منطقةً للنفوذ الانجليزي .

إلا أن رودس ارتكب خطأ أودى به : كان قد قرر أن يتغلب على مقاومة كروجر العنيدة ، « فأعدّ » حملة لضرب الترانسفال ثم اورانج، ضربة تعجزهما عن الحركة . وفشلت « غارة جيبسون » التي اطلق عليها اسم قائدها ، وأسر جيبسون . كان لهذا الفشل أثره في الانتقاص من سمعة رودس وشهرته ، ووضع حداً لحياته السياسية . ومع ذلك فلم يقبل ان يتخلى عن مطامحه . ولما كان الهولنديون في الكاب (فوهماير واتحاد « الافريكاندر » الذين وقفوا ضده في أثناء « غارة جيبسون ») قد عادوا الى عداوتهم القديمة بازاء انجلترا ،

(١) اشار اليه موريس جرونيه في : تقنيو الاستعمار : سيسيل جون رودس .

فقد تقارب رودس مع الوطنيين الانجليز ، وعدّل من موقفه بازاء الأهالي . وبدلاً من الصيغة القديمة التي كان ينادي بها : « المساواة في الحقوق بين كل البيض في جنوب نهر الزامبيزي » اخذ ينادي بصيغة جديدة : « المساواة في الحقوق بين المتمدينين : سواء كانوا من البيض او السود ، بشرط ان يكونوا على قدر كافٍ من التعليم ، وان تكون لهم ملكية أو مهنة ، أي الا يكونوا صعاليك عاطلين » وهي صيغة تلخص تلخيصاً بارعاً الشروط التي تُفْرَض اليوم ، في المستعمرات البرتغالية على الملونين الذين يحرصون على الارتقاء الى وضع « المتمثلين » .

بذل رودس جهوده الاخيرة في سبيل استغلال روديسيا استغلالاً منهجياً ، وفي سبيل تنمية السكك الحديدية أساساً . وفي ١٨٩٧ وصل خط الكاب الى بولاوايو ، ولم يبق الا ان يمد الخط حتى تنجانيقا ، عبر نهر الزامبيزي ، وكرس سيسل رودس الشهور الاخيرة من حياته لهذا الهدف في حمّى من النشاط الدائب ولكنه مات في ٥ يوليو ١٩٠٢ في موزتبرج ، بالقرب من الكاب . لم تتحقق قط فكرته عن السيادة البريطانية المنبسطة من الكاب الى القاهرة دون انقطاع وذلك أساساً نتيجة لاحتلال تنجانيقا على ايدي الالمان . وايا كان الأمر ، فاذا كانت قوة انجلترا وسلطانها قد امتدا من الكاب الى تنجانيقا ، ومن اوغندا الى القاهرة ، بلا منازع ، فذلك ان لندن مدينة بهما لرودس ، الى حد ما .

من حرب البوير الى امبراطورية الهند :

كانت « غارة جبسون » ارهاصاً بحرب البوير التي اندلعت في ١٨٩٩ . وعلى الرغم من انعدام التكافؤ الواضح بين قوى الجانبين ، فان الافريكاندر في البداية استطاعوا أن يزعزعوا قبضة خصومهم . ولكن جيش روبرت ، مؤيداً بكتائب امبراطورية ، استطاع بالرغم من ذلك أن يفتح ولايتي الاورانج والترانسفال ، من مايو الى سبتمبر ١٩٠٠ . وفي محاولة لتحطيم آخر مظاهر المقاومة ، قام الانجليز بعمليات تخريب شاملة ، واقترفوا فظائع لا حصر لها ،

وحشدوا البوير في معسكرات « الوقاية » (اول معسكرات اعتقال في التاريخ) وفي خلال هذه الحملات « المجيدة » برزت أسماء تشرشل ، وبادن ــ باول . واهتزت أوروبا كلها وثارت ثائرتها ، واحتجت . ذلك أنها أحست للمرة الاولى ان الأمر يعنيها . شُجب السلوك اللاانساني الذي لجأ اليه الانجليز ، وادين بالاجماع . ذلك أنه للمرة الاولى طبقت « في غير عدل » على البيض الذين ينتمون الى أصل اوروبي ، مناهج الاخضاع والابادة التي كان المستعمرون لا يلجأون اليها عامة ، حتى ذلك الحين « بحق » (كما هو واضح) ودون إثارة ادنى لوم من « الضمير العالمي » على الملونين من الخاضعين للاستعمار .

ما لبث توسع الامبريالية البريطانية أن كان له اثره ايضاً في الشرق الاقصى والمحيط الهادي . ففي بداية القرن التاسع عشر كان لانجلترا عدد من نقط الارتكاز على طريق الهند : سيلان ، ومالاكا ، وبينانج (التي سلبوها من هولندا) ، وجزر موريشيوس (التي سلمتها لهم فرنسا) . وأخذت حكومة لندن . منذ ١٨٧٤ تسعى الى فرض وصايتها عليها ، بحجة أن التجارة الانجليزية تلقى متاعب نتيجة للفوضى السائدة في دول الملايو ، وللقرصنة التي تدعو اليها هذه الفوضى ، وان كان ذلك في الواقع لأن عدداً من هذه البلاد كانت غنية بالقصدير . وفي ١٨٩٥ جُمّعت خمس سلطنات في جنوب شبه الجزيرة في « اتحاد دول الملايو الفيدرالي » وانضمت اليه اربع دول اخرى فصلت عن سيام في ١٩٠٩ . وضع هذا « الاتحاد الفيدرالي » تحت سلطة مندوب سام بريطاني يقيم في سنغافورة .

وفي ١٨٨١ تأسست في بورنيو « شركة شمال بورنيو البريطانية » التي منحت ميثاقاً على الرغم من انها لم تكن تتمتع باحتكار تجاري ما . وفي ١٨٨٨ طلبت « الشركة » ان تتمتع بالحماية البريطانية . اما في جزر المحيط الهادي فقد كان المبشرون هم الذين شقوا الطريق نحو ضم هذه الجزر الى الامبراطورية ، وكان ذلك في أغلب الاحيان على جثثهم . وقد أدت المنافسات بين المبشرين

البروتستانت الانجليز والكاثوليك الفرنسيين ، الذين يؤيدهم ضباط البحرية ، الى انشاء مناطق نفوذ حقيقية ، وما زال أهالي جزر المحيط الهادي يخلطون عامةً بين العقيدة والجنسية . وهكذا ضمت انجلترا جزر فيجس في ١٨٦٤ بناء على طلب المبشرين .

وفي خلال العشرين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر كانت جزر المحيط الهادي تمثل منطقة توسع نموذجية امام الامبرياليات الأوروبية والامريكية . ونزل الانجليز في غينيا الجديدة ، تلبية لرغبات الاستراليين والنيوزيلنديين الذين كانوا يرغبون في تجنب اي استقرار اجنبي بالقرب من أراضيهم . واحتلوا الجنوب بينما استقر الالمان في ١٨٨٤ في الشمال . وهكذا تفتحت شهية التوسع البريطاني فعرف نمواً جديداً . وضُمّت عدة ارخبيلات تشتمل على نحو مائة جزيرة : سالومون ، وتونجا ، في ١٨٩٩ (بالاتفاق مع برلين) وهبريد الجديدة من ١٨٨٧ الى ١٩٠٦ (ملكية مشتركة مع فرنسا) . وظهر الاستعمار البريطاني في الهند ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر في ميدانين : الدفاع عن الحدود ، (التنظيم والتدعيم المستمر) وتوسع اقتصادي جديد . وفي افغانستان والتبت (وكانت الصين تملكها ملكية اسمية) كان على انجلترا ان تحد من التقدم الروسي عبر آسيا الوسطى . وظلت افغانستان مستقلة بينما وضعت بلوخستان تحت الحماية البريطانية ، وفتحت لهاسا في ١٩٠٤ على أيدي اللورد كيرزون نائب الملك في الهند . ولم يهدأ التوتر بين روسيا وبريطانيا الا في ١٩٠٧ بتوقيع اتفاقية تُصدّق على تقاسم النفوذ « بشكل عادل » ، ووقعت ضحيتها فارس .

ومن ناحية أخرى فقد رأى الانجليز في رانجون ضرورة ضم مملكة بورما العليا التي ظلت مستقلة على نحو لا يمكن السماح به . وكانت الحجة ، هذه المرة ، للتدخل لا وجود لها . فحل محلها توقيع معاهدة للتجارة والصداقة بين بورما وفرنسا إذ اعتبرت هذه المعاهدة غير مقبولة . واستولى جيش انجليزيٌ

على ماندلاي وُضّمت البلاد . كان الجهد الاقتصادي الكبير الذي بذل في الهند يهدف عامة الى تحقيق الربح للانجليز وحدهم . وقد رفض الانجليز ، في عناد ، أن يمنحوا الهنود الحكم الذاتي ، فقد كانوا يكنون لهم مشاعر عدم الثقة . واتخذت ملكة فيكتوريا في ١٨٧٦ لقب « امبراطورة الهند » حتى تبرم نهائياً وبشكل رسمي لا نزاع فيه سيطرة انجلترا على مستعمرتها . كان البورجوازيون الهنود الشبان الذين تعلموا في انجلترا قد خابت آمالهم نتيجة للموقف الذي اتخذه منهم الامبرياليون البريطانيون ، فقرروا ان يستعيدوا شخصيتهم وآثروا في النهاية طريق القومية .

انفجار الاستعمار المتأخر

دولة الكونغو المستقلة :

قبل أن يهتم ليوبولد الثاني بالكونغو ، كان الكونغو موضع عدة رحلات « استكشافية » شهيرة . كانت أولى هذه الرحلات هي التي قام بها ليفنجستون الانجليزي إذ توغل الى داخل افريقيا الوسطى والجنوبية — وكانت رحلة جادة وسليمة — لم يكن واحد من الاوروبيين قبله قد غامر الى ابعد من مصب الكونغو[1] وكان هذا المصب في تلك الفترة مركز تجارة مزدهرة : كان التجار ورجال البلاط يتبادلون الانسجة القطنية المصنوعة في مانشستر ، والأواني المستوردة من ستافورد شاير ، والأدوات الحديدية المصنوعة في شيفيلد وبرمنجهام ، مقابل المنتجات المحلية مثل العاج ، والمطاط على الاخص . وقد انشئت مصانع تملكها عدة شركات أوروبية مختلفة (هاتون وكوكسون من ليفربول ، لانيبه ودوما ولارتيج من بوردو ، وافريكانش هاندل فينوتشاب من امستردام) في نحو نهاية الستينات من القرن التاسع عشر ، (وهي سنوات الانتقال من عهد تجارة الرقيق الى عهد الامبريالية) . كانت تجارة الرقيق الأسود قد حلت محلها تجارة المنتجات وتجارة المقايضة التي افسحت السبيل بدورها للتنمية الصناعية وكانت التجارة مقصورة في البداية على ضفاف المصب وشاطىء البحر .

---

(١) الذي عرف في الماضي باسم زاييرا .

ولكنها اخذت تتغلغل « من شاطىء البحر الى الداخل ، من قرية الى قرية ، ببطء شديد ، وحسب رغبات شركات جديدة »[1] .

بعد أن قام ليفنجستون برحلته « الاستطلاعية » السلمية ، جاء صحفي انجليزي ، هو جون رولاند ستانلي ، الذي عرف باسم « هنري مورتون » ، فقام باستكشاف متعمق لحوض نهر الكونغو . لكنه بدلاً من ان يصعد النهر منذ المصبّ ، وتجنباً للاصطدام بالشلالات التي لا يمكن اجتيازها كما فعل قبله عدد من المستكشفين فأخفقوا في تجربتهم ، اختار طريقاً آخر هو أن يصل الى مجرى الكونغو المتوسط اذ يتخذ من زنزبار نقطة البداية . وأيده احد رؤساء صيادي العبيد ، وكان من اتباع السلطان برجاش ، كان هذا الرئيس يدعى « طيبوطيب » ، وكان من أصل عربي . وبدأ ستانلي رحلته الاسكتشافية في ١٨٧٧ لحساب صحيفتي الديلي تلجراف ونيويورك هيرالد تريبيون .

كانت حملة ستانلي تضم نحو مائة من الرجال ، مدججين بالسلاح (٢٩ سنايدر ، ٣٢ بندقية ذات ارتداد ، ٢ ونشستر ، ٢ بندقية مزدوجة الماسورة ، ١٠ مسدسات) . وبعد ستين يوماً من السير عبر غابات معادية ، وصل ستانلي الى النهر ، وكان « طيبو طيب » قد التزم بان يصاحبه حتى هناك ، فغادره في تلك المرحلة . وشرعت الحملة في هبوط النهر . وفي خلال هذا الهبوط الذي استمر سبعة شهور حتى « بوما » كان على ستانلي أن يخوض ٣٢ معركة مع القبائل القاطنة على النهر ولكنها كانت معارك لا تكاد تستغرق دقيقة واحدة ، فقد كان تفوّقه الساحق في الاسلحة الاوتوماتيكية يضمن له الانتصار بسهولة كاملة على السهام والرماح . واستطاع ستانلي في خلال هذه الحملة أن يجمع طائفة من المعلومات الثمينة وكتب في هذا الصدد : « سوف اثبت لكم عندما يتاح لي الوقت ان انظم مذكراتي كيف كنا قريبين من مناجم الذهب والنحاس الكبيرة ، وكيف يمكن للتجار ان يحصلوا على منتجات كثيرة في مقابل سلعهم »

---

(٢) ميشيل ميرلبيه : الكونغو من الاستعمار البلجيكي الى الاستقلال .

كان ستانلي يعتزم في البداية ان يفيد بلاده من اكتشافاته ، ولكنه بازاء التحفظ الذي ابدته المصالح البريطانية توجه الى مجموعة مالية كانت قد أسست منذ عهد قريب « لجنة دراسة الكونغو الأعلى » تحت رعاية الملك ليوبولد الثاني ؛ وقبل عرض الملك ان يقوم بالتنقيب ، على نحو دقيق هذه المرة ، في الأراضي التي « اكتشفها » .

كان الاستعمار منذ زمن طويل هو الموضوع الأثير لتأملات وافكار ليوبولد الثاني ملك بلجيكا . كان لا يتصوره الا قائماً على العمل الاجباري الذي من شأنه ان يكفل منفعة مزدوجة للوطن الأم : « أن يوفر للسكان المحليين أمن الملكية ، وأن ينتج ربح هذه العملية من الضريبة » . و « ان يحمل السكان المحليين على عادة العمل : وتتلخص هذه العملية في ان نأخذ من السكان المحليين ما يكفي لأن نرغمهم على العمل حتى يقيموا أودهم : والربح من ذلك فوري » . كان ليوبولد الثاني قد حاول من قبل ان يحصل على أراض يمكن ان نستثمر بدلاً من ان تستعمر : الفيليبين مثلاً ، او فرموزا ، ولكنه فشل في ذلك . ومن ثم فقد تفاهم مع فرديناند ديلسبس (الذي كان قد أضاف الى رصيده عملية شق قناة السويس وقناة بنما) حتى يشاركه في انشاء سكك حديدية في الصين . كانت الكونغو في فترة من الفترات تمثل عنده ، كما عبر عن ذلك الكونت دي ليشترفيلد : « الاداة المالية لسياسة ملك بلجيكا في الصين » . بل لقد فكر ليوبولد الثاني في لحظة من اللحظات ان يتخذ لنفسه موطىء قدم في افريقيا الشرقية : اثيوبيا ، اوموزمبيق ، أو الترانسفال . ولكنه ما أن تحدث الى ستانلي واستشرف معه الامكانيات التي لا تكاد تحدها حدود في حوض الكونغو وافريقيا الوسطى حتى تخلى عن مشروعاته الشرقية وعهد الى ستانلي بالعمل باسم اللجنة التي اتخذت في ١٨٨٤ اسمها النهائي « جمعية الكونغو الدولية » .

كانت المهمة الاولى المعهود بها الى ستانلي هي أن يشق طريقاً أمام التجارة الى الكونغو الاعلى . فوقع ٤٠٠ معاهدة مع ٢٠٠٠ من رؤساء القبائل . وانشأ

٤٥ موقعاً على الشاطىء الجنوبي للكونغو بينما خاض « برازا » على الشاطىء الشمالي مع ستانلي نضالاً يهدف الى ضمان سيطرة فرنسا على الشاطىء باسرع وقت ممكن . وما ان انتهى الجزء الاول من تمهيد الطريق حتّى اخذ الاستعمار يتغلغل الى الداخل . واستطاعت قوات محدودة وصغيرة الى حد يثير السخرية ان تستحوذ على مساحات شاسعة من الأراضي واستقر التجار من بلجيكا ومن غيرها من البلاد في قلب الاحراش واخذوا ينقلون منتجات المحاصيل بواسطة الحمالين نحو مصب النهر .

ولكن سرعان ما ثارت مشكلة المواصلات . واتضح أن انشاء خط حديدي سوف يكون أعود بالربح من استخدام ١٣ ألف حمّال لا يكلفون فقط نفقات تزيد عن نفقات الخط الحديدي خمسين مرة ، بل يمكن استخدامهم ، اذ يتحررون من هذه العبودية ، في جمع المحاصيل . ومع ذلك فان انشاء خط حديدي كان يثير بدوره للمرة الاولى مشكلة من نوع آخر هي مشكلة تكوين البروليتاريا . وقد كان ينطوي من ناحية أخرى على ضرورة استثمار رؤوس أموال كبيرة وعلى ضرورة استخدام ايد عاملة كثيرة العدد . وافقت على امداد المشروع برأس المال شركةٌ انجليزية من مانشستر هي « شركة سكك حديد الكونغو » كما وافقت على ذلك أيضاً طائفة من الماليين والصناعيين البلجيكيين (جول ايريان ، ادولف دي روبيه ، اصحاب مصانع النسيج في فيرفييه ، وكوكيريل ، وفيبي مونتاني ... الخ) الذين جمعهم البيرت نيس ، موضع ثقة ليوبولد الثاني . وانشأوا معاً في ٩ فبراير ١٨٨٧ ، « شركة الكونغو للتجارة والصناعة » التي منحت استثمار خط الكونغو الادنى وملكية ١٥ ألف هكتار على طول طريق السكة الحديدية في المستقبل . وظهرت في داخل « شركة الكونغو للتجارة والصناعة » عدة فروع منها « شركة سكة حديد الكونغو » . وأصبحت هذه الشركة – تحت رقابة « بنك ما وراء البحار » احتكاراً ينتمي الى مجموعة نيس ، وعندما اندمج « بنك ما وراء البحار » مع « الشركة العامة

لبلجيكا » حلّت هذه الشركة بدورها محله في ادارة « شركة الكونغو للتجارة والصناعة » .

انشئت سكة حديد ماتادي — ليوبولد فيل (٣٨٨ كيلومتراً) من ١٨٩٠ — ١٨٩٨ ، ولما كان العمال يتقدمون في الكونغو الأدنى بأبطأ مما تريد الشركة ، فقد اضطرت الشركة أن تجند الأيدي العاملة من المناطق الافريقية الاكثر تقدماً : السنغال وداهومي وساحل الذهب ... الخ . كان عمال الداهومي الذين يُنقلون بالسفن ، يظلون مقيدين بالاغلال ، في غالب الأحوال ، حتى يصلوا الى الورش . وكانت ظروف العمل من السوء الى حد أنّ ب. ميليه قال : « ان عجلاتنا تدور على جثث العبيد »[1] ومع ذلك فلم تعترف الشركة رسمياً الا بموت ١٨٠٠ عامل . واخذت تلجأ الآن الى ايد عاملة سوداء من سيراليون بل من جزيرة بارباروس (الانتيل) . كان النظام الذي تخضعهم الشركة له لا يختلف عن نظام عبودية الرقيق ، مما ترتب عليه بالضرورة نشوب ثورات وفتن اخذت تتزايد عدداً باطراد . وسرعان ما بدا أن انشاء السكك الحديدية مشروع جهنمي . وما لبثت الفضيحة التي أثارها المشروع ان استغلها الانجليز بمقدرة بارعة ، إذ لم يكن يروق لهم بالطبع أن يروا منافساً لهم في افريقيا الوسطى . واستخدمت الشركة ، بعد الأيدي العاملة الافريقية والانتيلية ، ٥٠٠ عامل من الصين تحيط بهم قوات كبيرة من الميليشيا ، فكانت اقل محاولة للتمرد تقمع على الفور بأقصى حد من الوحشية .

ومع ذلك فلم يكن انشاء السكك الحديدية صفقة سيئة بالنسبة للجميع . لقد ترتبت عليه فجأة تنمية التجارة والأموال . كان للآلاف من الموتى المسؤولين عن هذا المشروع ، على الأقل ، فضل تزويد مساهمي الشركة بأرباح كبيرة . وارتفع الرقم الاجمالي لاعمال التجارة من ٢٤ مليون في ١٨٩٥ الى ٤١ مليون في ١٨٩٧ ، بينما كانت سندات المؤسسين التي بلغت قيمتها ٨٠ فرنكاً بلجيكياً

(١) اشار اليه ر — ج — كورنيه في : معركة القضبان الحديدية .

في ١٨٩٦ قد ارتفعت الى ١٤٤٥٠ فرنكاً بلجيكياً في ١٩٠٠ ، وفي ١٨٩٨ انشئت ١١ شركة جديدة في الكونغو العليا وكاساي .

وعقب مؤتمر برلين (١٨٨٤ – ١٨٨٥) قررت الشركات المختلفة التي كانت تستثمر حوض الكونغو تحت رعاية ليوبولد الثاني السامية ، ان تطلق على الامبراطورية الجديدة اسماً وتنصب عليها ملكاً : فأصبحت منذ ذلك الحين « دولة الكونغو المستقلة » واصبح ملكها هو ملك البلجيكيين . « جاء الاستعمار في الكونغو متأخراً ، فأصبح نتاجاً خالصاً للامبريالية المالية ، دون مخلفات موروثة عن المراحل الاستعمارية السابقة للامبريالية ، بخلاف افريقيا الغربية او الجنوبية . وكانت النفقات المرتفعة التي تطلبتها المنشآت الاولى ، والمشاكل التي ظهرت بادخال الرأسمالية في قلب المجتمع الكونغولي ، قد جعلت من الكونغو إقطاعية لمجموعات مالية دولية وحدتها عَملية السكك الحديدية »[1] . وبرزت هذه القَسَمة المتفردة للاستعمار في الكونغو ، وتأكدت عاماً بعد عام . ومع ذلك فقد ظلت رؤوس الأموال البلجيكية هي السائدة مما أتاح لليوبولد الثاني ان يسلم « دولته المستقلة » الى بلجيكا « بشكل قانوني » في ١٩٠٨ . ولم تصدق انجلترا رسمياً على هذا التنازل الا في عام ١٩١٣ ، فلم تكن راضية عن الحقوق المتواضعة نسبياً التي اعترف لها بها في الدولة الجديدة .

ظهر خطر يهدد الوجود الهش لدولة الكونغو « المستقلة » ثم « الكونغو البلجيكي » : غزو رؤوس الأموال الالمانية للكونغو الشرقي وخاصة لكاتانجا ، غزواً تدريجياً مطرداً . من ١٩٠٥ إلى ١٩١٤ أنشأ الالمان سكة حديد دار السلام – تنجانيقا (ملكية ألمانية) وحصلوا من فرنسا في الفترة نفسها ، في مقابل تنازلهم عن مراكش ، على ممرين اقليميين يربطان الكاميرون (وهي ملكية ألمانية أخرى) بالكونغو . كان الهدف المزدوج الذي تسعى اليه الامبريالية الالمانية منذ ذلك الحين هو أن تقطع الممتلكات الانجليزية وتقسمها قسمين ،

---

(١) ميشيل ميرلييه : « الكونغو من الاستعمار البلجيكي الى الاستقلال » .

وأن تكمل الطريق من الكاب الى القاهرة ، وهو ما حققته بالفعل ، وأن تجمع تحت سيطرتها كل المستعمرات الاوروبية في افريقيا الوسطى ، وهو حلم قضت عليه حرب ١٩١٤ قضاء مبرماً . فبعد الهزيمة الالمانية في ١٩١٨ تقاسم الانجليز والفرنسيون والبلجيك ممتلكات الرايخ ، وعهد الى بلجيكا بالوصاية على رواندا وبوروندي .

منذ ١٩٢٠ استثمرت رؤوس أموال بلجيكية كبيرة في كاتانجا ، وامتصت « الشركة العامة لبلجيكا » شركة « اتحاد المعادن » الذي كان جزء من رأسماله ملكية لجماعة من الانجليز منذ ١٩٠٦ . وكان فرع هذه الشركة وهو « اتحاد معادن كاتانجا العليا » تحت ادارة ادجارد سينجييه الذي كان البرت نيس[1] قد أرسله في بداية القرن الى الصين ليعنى بعملية انشاء السكك الحديدية فيها ، وحلت رؤوس الأموال الامريكية محل رؤوس الأموال الالمانية التي انقطعت بعد ١٩١٨ . كانت جماعتا ريان وجوجنهايم الماليتان تملكان منذ ١٩٠٦ أنصبة كبيرة في شركة « فورمنيير » ودعمت الولايات المتحدة الامريكية سيطرتها ، بعد حرب ١٩٤٠ ، على المنتجات الاستراتيجية : الاورانيوم ، والكوبالت ، والنحاس ، والماس الصناعي . وحصلت جماعة روكفلر ، من ناحيتها على جزء كبير من أسهم « شركة الكونغو للتجارة والصناعة . » إن هذا الاتجاه الى تدويل الكونغو تحت قبضة بضع احتكارات عالمية ، يفسر خطورة أزمة ١٩٦٠ التي هددت المصالح المالية المشتركة للبلجيك والامريكيين والانجليز والفرنسيين[2] » .

ثمانون عاماً من « المدنية » البلجيكية :

لم يعرف الاستعمار ــ بمعناه الحق ــ نمواً كبيراً في الكونغو الا منذ ١٩٠٨ ، مع انشاء الادارة البلجيكية . فحتى ذلك الحين كان النظام المفروض على

---

(١) مع أبي (المؤلف)

(٢) ميشيل ميرلييه : « الكونغو من الاستعمار البلجيكي الى الاستقلال » .

السكان الاصليين ، والمعروف باسم « نظام ليوبولد » يتكون من سياسة النهب واللصوصية السافرة . كانت الشركات التي تتقاسم فيما بينها استغلال الموارد الزراعية والمعدنية في الكونغو تلجأ بصفة عامة الى حشد الجنود بنفسها (نواة قوات الأمن العام) ومن ثم كانت مدعوة الى أن تطبق أساليب الاخضاع والقمع . ووفقاً للنموذج الذي وضعه الاستعمار الهولندي في جاوه ، كان العمل الاجباري في الكونغو هو الذي يكون الحافز والمحرك للاقتصاد الاستعماري . كانت المنتجات التي اشتد عليها الطلب في المرحلة الاولى من الاستعمار التي عرفت باسم « مرحلة ليوبولد » هي العاج ، والمطاط أساساً . ولقي رؤساء المواقع (البيض) التشجيع على تعميم العمل الاجباري في مناطق اختصاصهم ، بفضل نظام بارع يتيح لهم الحصول على مكافآت مجزية . وكان يظاهر هؤلاء الرؤساء ، حرس (من السود) مكلفون برقابة العمال الذين يقومون بجمع المحاصيل ، وكان هؤلاء العمال مطالبين بدفع عُشْر أجرهم الى الشركة ، فما كان باستطاعتهم أن يعتمدوا إلا على اجرهم الزهيد حتى يقيموا أوَدَهم ويدفعوا الضريبة في الوقت نفسه .

وفي أيام السوق كان الفلاحون يذهبون الى مركز المنطقة ، في صفوف وثيقة ، يصحبهم الحرس المسلحون ، ويُصف جامعو المحاصيل على خط واحد ، ويجمّعون وفقاً للقرية التي ينتمون اليها . ويجلس في مواجهتهم موظفو الشركة ، ومعهم ميزان مغشوش ، ومائدة عليها سلع التبادل : أطباق من الصفيح ، وخرق من النسيج ، ومرايا ، وأجراس ، ... الخ ومعهم أيضاً قطعة من الخشب السميك . ويأتي رجل الشرطة فيقطع على قطعة الخشب بضع كرات من المطاط يأخذها من سلال الفلاحين . فاذا وجد فيها أدنى تلوث ، صاح وكيل الشركة : « بامبا » ، أي « مجانا » ، ويصادر على الفور كل محصول المطاط الذي جمعته القرية . ويلقي الوكيل الى الفلاحين بأجرهم دون ان يعنى بما يهتمون به . وتبدأ بعد ذلك مناقشات حامية بين الوكلاء التجاريين والحرس ، فاذا كانت الكمية اقل مما ينبغي فعلى الحرس أن يبرروا ذلك : إما بغياب بعض

الفلاحين أو بأنهم قد قتلوا ، وفي هده الحالة عليهم ان يقدموا الأيدي المقطوعة مثبتة على أطراف العصي برهاناً على موتهم . وبعد ذلك يوزع الرصاص بنسبة الايدي المقطوعة . فاذا لم يستطع الحارس ان يفسر نقص المحصول كان عليه ان يتلقى التعذيب بالجلد . وتنطلق الحملات التأديبية في الليل او في الفجر تعيث فساداً في القرى التي يعتبر محصولها اقل مما ينبغي . فتحرق الأكواخ ، وتخطف النساء اللاتي يستخدمن كرهائن ، ويضرب الروساء . وفي العودة يقدم الحرس لروساء المواقع بضع أيدٍ مقطوعة ، فيكون في ذلك الدليل الذي لا يدحض على انهم قاموا بمهمتهم خير قيام .

وكان من المحتم ايضاً أن يُقدم من الأيدي المقطوعة عددٌ يساوي عدد الرجال الغائبين عن عمليات التجنيد للعمل أو حمل الاثقال . وكان الجلد ، وهو قاعدة النظام الذي يهدف الى اذلال السود والحط من انسانيتهم ، يوقع مرتين في اليوم ، في الساعة السادسة صباحاً ، وفي الساعة الثانية بعد الظهر ، بالقرب من الموقع . وقد قال الكونت دي بريبه : « كان السوط هو العقوبة الاكثر انسانية والاكثر فعالية في الوقت نفسه عند السود : وقد أيد المبشرون ، وهم حماة السود الطبيعيون هذا الرأي » [1]. وهكذا كان العمل الاجباري الذي فرض بدعوى القضاء على العبودية ، يكون بدوره نمطاً جديداً من العبودية . كان ليوبولد الثاني تحفزه احتياجات مالية كبيرة ، فسرعان ما أقام منافساً خطيراً بازاء جماعة نيس وايريان : هو المصرفيّ براون دي تيبج . كانت ديون « دولة الكونغو المستقلة » قد ربطت الملك بالاغلال ، حرفياً ، الى جماعة من المصرفيين . ولكي يدفع اقساط ديونه ، وأسهمه في الصفقات التي عقدها في الصين ، كان عليه ان ينهب الكونغو لحسابه الخاص . وفي مقابل ٥ مليون فرنك ذهبي اقرضه اياها براون دي تيبج ، تنازل الملك للمصرفي عن ١٦ مليون هكتار من الارض سارع هذا الاخير بان يعيث فيها فساداً . ومع

---

(١) ر — دي بريبه : ابو الهول الاسود .

ذلك فان جماعة نيس والفروع الاخرى من « شركة الكونغو للتجارة والصناعة » بعد فترة من العجز ، استطاعت في ١٨٩٧ ان تعيد وضعها المالي الى نصابه بفضل سكة حديد الكونغو الادنى وتقدّم جمع المحاصيل .

وفي شرق الكونغو ما لبث ان نشب الصراع بين الدولة المستقلة ، والتجار العرب . ان ما يطلق عليه التاريخ اليوم «حرب الملك ليوبولد الثاني ضد العبودية » لم يكن وراءها حافز من الحوافز النبيلة التي تعزى اليها عادة . والواقع ان النزاع قد ظهر لأسبابٍ تختلف كل الاختلاف عن أي وازع خلقي .

كان ليوبولد الثاني ، في محاولةٍ منه لتخفيف نفقات الاحتلال ، قد استخدم الروساء القبليين الذين وضعهم العرب على رأس كل محلة . والواقع ان الملك قد استطاع ان يسيطر فترة طويلة على شرق الكونغو ، عن طريق الوكالة ، بفضل سلطة اشخاص مثل « طيبو طيب » وغيره من الروساء الذين ينتمون إلى أصل عربي ، او من الروساء العرب . وكان هؤلاء يزودون الدولة المستقلة بعبيد « محررين » في مقابل مكافآت مجزية . كان ليوبولد الثاني رجل تكتيك بارعاً ، فأخذ يرعى المؤتمرات المناهضة للعبودية ، حتى يقوم بمناورات بإزاء الدول الامبريالية الأخرى ، ولكنه في الوقت نفسه كان يشجع مطاردة العبيد واصطيادهم ، على نحو مباشر . واضطر ليوبولد الثاني أن يزيد من تقربه من العرب والالمان ايضاً ، بعد انتقال زنزبار الى الحماية الانجليزية ونشاط « شركة افريقيا الشرقية البريطانية » في ١٨٩٠ .

ولكن الملك غيّر من سياسته فجأة منذ ١٨٩٢ . ذلك أن زيادة المواقع في شرق الكونغو أدى الى ازدياد ضرورة التأييد من جانب الروساء العرب . ومن ناحية اخرى أراد ليوبولد الثاني ان يمد من نطاق احتكاره للعاج ويدعمه ، فاصطدم برفض التجار العرب الذين زعموا أن ذلك يضيرهم . لقي الملك تشجيعاً من الشركات صاحبة الامتياز التي رأت ان العرب قد اصبحوا وسطاء يثيرون من المتاعب اكثر مما ينبغي . وفي هذا السياق ، بدأت الحرب ضد العرب

وحلفائهم الاقوياء[1] . واطلقت عليها الدعاية البلجيكية صفة الحرب ضد العبودية ، في نفاق سافر . واستمر الصراع سنتين وانتهى في ١٨٩٤ ، بعد طرد العرب من حوض الكونغو .

وصل الاستعمار « الليوبولدي » اذن الى ذروته . ومن ١٨٨٥ الى ١٨٩٤ فرضت « الدولة المستقلة » سلطتها على مناطق شاسعة . ولكن ما ترتب على « العمل الاجباري » من أعباء فادحة اجرامية أدى الى نشوب ثورات مفاجئة ورهيبة استغرق الكونغو عشر سنوات حتى يفيق منها . وفي اعقاب الحرب ضد العرب ثارت قوات كاساي التي جندت من قبيلة باتيتيلا[2] ، ونشبت ثورات اخرى من ١٨٩٥ الى ١٩٠٠ مما أدى الى القضاء على احلام ليوبولد الثاني الخرافية في تسيير الصفوف حتى تصل الى النيل . وفي ١٨٩٧ ، و ١٨٩٨ كان النجاح الذي حققه المتمردون عدة مرات ، سبباً في قيام سكان أوويلي بثورة أتاحت لقبيلة باتيتيلا ان تقاوم قوات « لجنة كاتانجا الخاصة » التي تدعمها « قوات الأمن العام » ، مقاومةً بطولية استمرت اكثر من عام .

كانت هذه الثورات المختلفة تدل بوضوح تام على فشل النظام الاستعماري « الليوبولدي » . وادى تدهور هذا النظام ، جنباً الى جنب مع الهجمات العنيفة التي تعرض لها ، وهي هجمات مبررة قام بها الاشتراكيون البلجيكيون ، وهجمات مغرضة قام بها الاستعماريون الانجليز ، الى انفصال الكونغو عن بلجيكا في ١٩٠٨ . « كان النظام الليوبولدي – الرسوم الباهظة على السكك الحديدية ، الامتيازات الشاسعة ، جمع المحاصيل بالقوة ، تدمير الموارد الطبيعية ، العمل الإجباري والاحتكار التجاري – يعوق تنمية الاستعمار. وكانت مهمة الادارة الجديدة ان توجه الكونغو بشكل نهائي لكي يتخذ طريق الرأسمالية :

---

(١) كان الملك مسيري ابرز هؤلاء الحلفاء ، وهو جد موونجو الحالي الذي اصبح وزير الداخلية مرتين في (كاتنغا ، وفي الكونغو) وكان مستشار موبز تشومبي موضع ثقته ، و « الاسقف الأغبر » عنده .

(٢) قبيلة الباتيتيلا ينتمي اليها معظم جنود شرطة الامن العام وهي اليوم الجيش الوطني للكونغو .

الحرية التجارية ، النقل باسعار زهيدة ، زراعة محاصيل التصدير ، الضرائب النقدية لمساندة العمل الاجباري ، والامتيازات المحدودة »[1] .

استغرقت مرحلة تعديل السياسة الاستعمارية عشر سنوات ، وكان مما يبطيء ارجاع الامور الى نصابها ، على أثر هذا التعديل ، نشوبُ المعارك بين شركات جمع المحاصيل من ناحية والادارة من ناحية أخرى ، فقدكان على رأس الادارة حاكم عام يقيم في ليوبولدفيل وستة حكام للاقاليم (ليوبلدفيل، خط الاستواء » الكونغو الشرقية ، كيفو ، كاساي ، وكاتنجا) ويحيط بهم إداريون اقليميون . وقد ثبت بعد ذلك ان هؤلاء الاداريين جميعاً وان كانوا يدينون بالولاء نظرياً للشعب البلجيكي ، هم الاداة الطيعة المساعدة للشركات الرأسمالية الدولية ، التي تشارك فيها بلجيكا بأغلبية الاسهم والتي استمرت مصالحها توجه السياسة الاستعمارية البلجيكية في الكونغو ، باستمرار . واذن فقدكان كل شيء يخضع لتصور واحد هو الاستغلال الرأسمالي . كان القيام بالمشروعات الكبرى ، ومد الطرق ، وانشاء المدن الحديثة ، والمصانع ، وكل ما أسهم في خلق اسطورة « المستعمرة النموذجية » يهدف الى شيء واحد هو : تسهيل تنمية مشروعات « الشركة العامة » وفروعها : (اللجنة الخاصة لكاتنجا ، واتحاد المعادن في كاتنجا العليا ، وفورمنيين ، وجيومين ، ... الخ) .

واتخذت الادارة البلجيكية قرارين متكاملين كانت لهما دلالتهما . عارضت كل إسكان كثيف للمستعمرين البيض ، وصادرت ملكية اغلب الفلاحين الكونغوليين ، بلا هوادة ، فلاذوا بالأحراش . وترتبت على هذين القرارين ميزاتٌ هامة للشركات الزراعة والصناعية . فقد استفادت هذه الشركات بالفعل من الأراضي والمزارع التي كانت لتحرم منها لو سمح بتهجير المستعمرين باعداد كبيرة . ومن ناحية اخرى استخدم الفلاحون الذين صودرت ملكياتهم كأيدٍ عاملة ، إما في الزراعة ، في مزارع الشركات صاحبة الامتيازات ، واما في

(٣) ميشيل ميرلييه : الكونغو من الاستعمار البلجيكي الى الاستقلال .

الصناعة ، في مناجم ومشروعات فروع « الشركات العامة » . هذا الى ان تشجيع صغار المستعمرين تشجيعاً كبيراً كان من شأنه ان يحرم المناجم من الايدي العاملة الشحيحة بطبيعتها ، وذلك قبل ١٩٣٠ وبعد ١٩٣٥ ، فقد اشتهر عن المستعمرين الذين استقروا بالفعل انهم كانوا يبيعون المواد الغذائية لمعسكرات التعدين بأسعار باهظة . ومن ثم فقد شجعت شركتا فورمنيير وجيومنين زراعة المحاصيل الغذائية في الكونغو ، بينما استوردت شركة اتحاد المناجم ما تحتاج اليه من روديسيا . أما فيما يتعلق « باللجنة القومية لكيفو » التي كانت تملك ١٢ مليون هكتار فلم تتنازل الا عن ٥٠ ألفاً منها (في ١٩٤٥) الى بضع شركات أو بعض المستعمرين القلائل ، أساساً ، ولكن بأسعار اراضي البناء ، مما ترتب عليه ان حقد عليها صغار المستعمرين حقداً بالغاً . « ان اللجنة القومية لكيفو تبدو في أعين المستعمرين في تلك المنطقة ، جهازاً احتكارياً ، طفيلياً ، يمد أذرعه كالأخطبوط ، فيطالبون بالقضاء عليه قضاء جذرياً »[1] .

كان التعليم الذي يتلقاه الكونغويّون يهدف لخدمة الاستعمار وحده ، لا اكثر ، ونما التعليم الاولى[2] نمواً كبيراً لان الادارة ، والشركات ، والبعثات التبشيرية كانت بحاجة بالفعل الى «كتبة» وموظفين ثانويين يتلقون أجوراً بخسة ولا يشترط فيهم توفر ثقافة عميقة ما . اما التعليم الثانوي (١٣ ألف طالب في ١٩٥٨)، والتعليم الفني ، فقد أهملا اهمالاً متعمداً، فلم تكن الادارة ولا البعثات التبشيرية لها مصلحة ما في خلق صفوة متعلمة من الكونغويين . « لا توجد صفوة متعلمة ، اذن لن تنشأ المتاعب » : تلك كانت القاعدة الذهبية التي اخذ بها الاستعمار البلجيكي . أما التعليم العالي فلم يكن له من وجود أصلاً . ولم يكن

(١) اشار اليه ج ــ هوستليه : الانجازات الاجتماعية والاقتصادية البلجيكية في الكونغو .
(٢) بلغ التعليم الاولى في الكونغو البلجيكي اكبر قدر من النمو في أفريقيا كلها (٢ ، ١ مليون تلميذ في ١٩٥٨) .

في الكونغو كله عـــام ١٩٥٨ الا خريج جامعة واحـــد من السود : هو توماس كانزا)[1] .

عهد بالتعليم ، منذ بداية الاستعمار ، الى البعثات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية ، وقامت بادارته حتى غداة الحرب العالمية الثانية : وُزع نحو ٨٠ ألف من المبشرين البيض على ٣٦٩ مركزاً كاثوليكياً و ٢٩٧ مركزاً بروتستانتياً . وكان الكاثوليك غير راضين عن وضعهم الممتاز ، فأبدوا عداوتهم السافرة بازاء البروتستانت . واضيفت الى الخصومة الدينية خصومة وطنية شوفينية ، فقد كان المبشرون الكاثوليك بلجيكيين في معظمهم ، أما المبشرون البروتستانت فقد كانوا أنجلو سكسونيين ، او اسكندنافيين . وقد اعلن المونسنيور دي همبيتين ، وهو المتحدث باسم اكثر المستعمرين رجعية في كاتنجا ، وهو مستعمر أيضاً : « اذا كان نحاسنا يجب أن يكون بلجيكياً ، واذا كانت طرق مواصلاتنا يجب ان تكون بلجيكية ، فمن باب اولى يجب ان يكون سكاننا الافريقيون متشبعين بعاطفتنـــا القومية »[2] .

وفي شرق الكونغو اصطدم المبشرون الكاثوليك بالاسلام : ديانة معظم الرؤساء القبليين ورمز مقاومة الاحتلال البلجيكي . كان المبشرون الكاثوليك قد عقدوا منذ بداية الفتح اتفاقية مع الادارة يستفيدون بمقتضاها بعدة ميزات : تخفيض الضرائب او الاعفاء منها ، الاعفاء من الرسوم الجمركية ، معونات مالية تقدمها لهم الشركات الاحتكارية واللجان ، او تبيع لهم منتجاتها بأسعار مخفضة . وشاركت البعثات التبشيرية الكاثوليكية في الاستعمار الزراعي ، وتطبيقاً لاتفاقية ١٩٠٦ تلقت ١٤٧ ألف هكتار (وفقاً للاحصائيات الرسمية لعام ١٩٤٧) كان نصفها ملكية خالصة ، بينما لم تمنح البعثات التبشيرية البروتستانتية الا ٨٦٠٠ هكتـــار .

---

(٣) احد وزراء لومومبا وسفير سابق في لندن ووزير الخارجية في الحكومة الشعبية للكونغو (المجلس الوطني للتحرير)

(٤) اشار اليه ر ـــ دي بريبه : ابو الهول الأسود .

واستطاعت البعثات الكاثوليكية والبروتستانتية منذ نهاية القرن التاسع عشر ، أن تحصل على ايد عاملة مجانية ووفيرة ، بفضل مرسوم ٤ مارس ١٨٩٢ الذي يصرح لها بحق « ايواء » الايتام والاطفال الذين تخلت عنهم عائلاتهم ، بدلاً من الدولة . ومنذ ١٨٩٥ ظهرت « الكنائس — المزارع » الملحقة بالبعثات التبشيرية ، حيث يتلقن الأطفال مبادىء الدين المسيحي بشكل ما ، ثم يرسلون الى العمل في الحقول . وبعد ان يتلقوا تعميداً سريعاً يوزعون في كتائب للزراعة تحت سلطة احد الرهبان او احدى الراهبات ، فيزرعون أراضي « الآباء » ويشاركون في استزراع أراض جديدة ، ويرعون الماشية ، ويشقون الطرق والممرات . وعندما كان يقل عدد اليتامى الحقيقيين كان المبشرون يلجأون ، بالتواطؤ مع الادارة ، الى « تجميع الايتام » اجبارياً ، وبأية حجة . وكانت الحجة الأكثر شيوعاً هي حجة رعاية الطفولة وانقاذها : فقد كان الأطفال اذ يذهبون للعمل عند « الآباء » يتجنبون خطر العبودية ..! ولكن ألم يكونوا يعانون من عبودية أخرى لا تفترق عن العبودية الاولى الا بما فيها من نفاق ؟

وكان للمبشرين أيضاً سلطات واسعة ، في مختلف الميادين ، استخدموها أساساً للحصول على المواد الغذائية على حساب الفلاحين ، ولفرض ضريبة يقصد بها ، وهمياً ، تلبية حاجات اليتامى وان كانت تستخدم ، فعلياً ، في تزويد خزائن الاستغلال . وقد ادى تعميم هذا « النظام » في النهاية الى وقوع حوادث بل الى نشوب الفتن : فقد دمرت عدة بعثات تبشيرية خلال ثورة قبيلة باتيتيلا .

واتضح ان المبشرين ايضاً وكلاء ممتازون للوصاية الاستعمارية ، في المدن ، والمعسكرات العمالية . ففي كاساي كان آباء شويت « يعدّون » فلاحي قبيلة بالوبا لحساب شركة فورمنيير . ومنذ ١٩٤٨ ، كانت الارسالية في بحيرة البرت « تعد » بدورها عمال المناجم لشركة « كيلو — موتو » . ولعبت الجمعية « الثقافية » المعروفة باسم جمعية « لتوال » (النجم) الدور نفسه بالنسبة لعمال شركة « ليفير » . أما بالنسبة « لاتحاد المناجم » فقد كانت المراكز الاجتماعية للبعثات التبشيرية (مثل كورال « منشدي الصليب النحاسيّ الصغار » (كذا) .. ! والكشافة ،

وجمعيات الموسيقى ... الخ) تشارك عن وعيٍ في اغتراب البروليتاريا .

اقترف المبشرون الكاثوليك كثيراً من الآثام ، في كفاحهم ضد عقيدة « حيوية المادة » . وهم يحملون المسئولية، بوجه أخص ، عن تدمير عددٍ لا حصر له من روائع الفن الزنجي . واستهدافاً للقضاء على العقائد القديمة من جذورها ، محقوا أغلب القيم الثقافية والاجتماعية والدينية الجوهرية لشعوب الكونغو محقاً تاماً . هذا الى ان تعصّبهم الأعمى ، واندفاعهم الى استجلاب الأشياء بلا وازع ، دفعهم الى جرائم اخرى كثيرة . فقد كانوا يناصبون عداء لا هوادة فيه كلّ الديانات التي تبدو لهم منبثقة عن وعي افريقيا العميق . وكان من ابرز ضحاياهم مذهب « الكيانجوية » فوشوا بنبيّ المذهب الى السلطات البلجيكية ، واعتُقِل كيانجو على اثر هذه الوشاية وحكم عليه بالحبس ومات في غيابة السجن قبل بداية الحرب العالمية الثانية ببضع سنوات .

المانيا وايطاليا : استعمار وجيز الأمد :

سلمت الكاميرون وتوجولاند الى المانيا بمقتضى قرارات مؤتمر برلين . واعترف بتنتجانيقا في العام التالي بدورها مستعمرةً ألمانية . ومع أن الانجليز كانوا أول من أقاموا علاقات تجارية مع ملكي الكاميرون، فقد استطاع الالمان ، بفضل تغلغل اقتصادي مفاجيء وحاسم ، ان يحملوا اعضاء المؤتمر في برلين على الاعتراف بسلامة مطالبهم فيما يتعلق بتلك البلاد . والقارىء يعرف ما لقيه هجومهم في تنجانيقا من نجاح ، كما يعرف انقضاض رؤوس أموالهم على شرق الكونغو . فلن نزيد الأمر هنا ايضاحاً .

وجاءت حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ فوضعت حداً ، قبل الأوان ، للاستعمار الالماني . وبمقتضى معاهدة فرساي وزعت مستعمرات الرايخ المختلفة توزيعاً كريماً على البلاد الاستعمارية في معسكر الحلفاء . فتقاسمت فرنسا وانجلترا الكاميرون وتوجولاند ، وأعطيت تنجانيقا لانجلترا ، وعهد الى جنوب افريقيا

بالوصاية على جنوب غرب أفريقيا والى بلجيكا بالوصاية على اقاليم روانـــدا وبورندي .

جاء الاستعمار الالماني متأخراً وجيزَ الأمد ، مما لا يتيح لنا أن نحدد مقوماته الثابتة دون ان نتعرض للخطأ . وقد ثبتت قسوته بالتأكيد ، ولكنها لم تكن قسوة مسرفة ، على سبيل المفارقة . لم تفرض الادارة نظامها بحيث يكون ثقيل العبء ولكنها لم تمر بأي تقلبات مفاجئة غير متوقعة . ولم تلجأ قط الى عمليات قمع لا مبرر لها أو الى اجراءات يُقصد منها مجرد جس النبض . ومن الاعراض المميزة ان نلاحظ أنّ الخاضعين لهذا الاستعمار انفسهم — في الكاميرون وتوجولاند بصفة خاصة — بعد ان عانوا من محنة السيطرة الفرنسية — كانوا يأسفون بالاجماع لانقضاء عهد الاستعمار الألماني ، نسبياً بالطبع .

وكان في توحيد ايطاليا الذي جاء متأخراً على يدي كافور في ١٨٦١ تفسير تأخر هذه البلاد في سياق الحصول على المستعمرات . وكان هدفها الاستعماري الأول في ١٨٨٤ هو ساحل البحر الأحمر الواقع شمال الصومال الفرنسي والذي كانت تملكه أثيوبيا ، وبعد ان ضمت ايطاليا هذه المنطقة اليها ، كما ضمت الصومالي الايطالي ، الواقع جنوب جيبوتي ، أخذ المستعمرون الجدد الذين يحلمون بمضارعة أسلافهم الرومانيين ، يحاولون غزو اثيوبيا منذ ١٨٩٤ . ولكن في غير طائل . وبعد ثلاث سنوات من المحاولات غير المثمرة ، هـــزم الايطاليون هزيمة ساحقة وصدّتهم قوات الامبراطور مينيليكه . وفي ١٩١١ نزل الايطاليون في ليبيا وهزموا القوات التركية واحتلوا البلاد، وفي خلال هذه الحملة ألقيت قنبلة من طائرة لأول مرة .

وبعد استيلاء الفاشية على الحكم في ايطاليا، انتقمت لنفسها من اثيوبيا ، تزود الفاشيون بأحدث الأسلحة وأكثرها كفاءة (دبابات الهجوم ، قاذفـــات

القنابل ، المدافع ذات المدى البعيد ... الخ) ومع ذلك فقد استغرق الأمر مدة سنتين حتى يهزموا القبائل المسلحة بالرماح والبنادق القديمة . وفي خلال هـــذه الحملة التي بدأت في ١٩٣٥ وانتهت في نهاية ١٩٣٦ ارتكب الغزاة عدداً كبيراً من الفظائع ، ومع ذلك فقد كان الاستعمار الايطالي ، مثله في ذلك مثل الاستعمار الالماني ، عابراً وجيز الأمد . استعادت اثيوبيا استقلالها في ١٩٤٥ ، وما لبثت ليبيا والصومال ان استردتا الاستقلال بدورهما .

خاتمة

الاقل يعادل الاكثر :

يتضح مما سبق ان الاخضاع الاستعماري قد عدل عن مساره ، وسلوكه ، ومظهره الخارجي ، كلما استكملت للسعي وراء الربح عُدتُه . وبظهور الرأسمالية اتاحت اوربا القوية القادرة على كل شيء ، لنفسها ، ان تتخذ اشكالاً من السلب والنهب أقل عدوانية ، في الظاهر ، وان كانت في نهاية الأمر اكثر فعالية وابعد غوراً : أشكال شبه الاستعمار . كانت المظاهر الخارجية للعدوان الاستعماري ما زالت ظاهرة للعيان بعد ، في مراكش وتونس ، تحت ستار أنواعٍ مختلفة من الحماية ، وان كان ذلك يرجع الى اسباب متواضعة نسبياً . اما في الصين فقد ظهر شبه الاستعمار ، على العكس ، تحت شكل لا يكاد يستبين من اشكال انتهاك السيادة السياسية والقانونية . ولكنه كان في الواقع أضخم مشروع للاستغلال الاقتصادي في تاريخ الاستعمار .

وقد أتيح لنا ان نرى ، كيف مدت « شركة الهند » تجارتها الى الصين في بداية القرن التاسع عشر ، وذلك « على الأخص عن طريق تصدير الأفيون » . ذلك أن بريطانيا العظمى كانت تأمل في تلك الفترة أن تدفع ثمن ما تشتريه من الشاي

والحرير في الصين بما تصدّره اليها من الأفيون الهندي ، ولكن الصين عارضت ذلك وأغلقت المصانع الانجليزية في ١٨٣٩ . وهكذا نشبت « حرب الأفيون » وكانت خاتمتها في ١٨٤٢ توقيع معاهدة نانكين،وحصل البريطانيون على ملكية هونج كونج دون عائق كما حصلوا على حق الاتجار ، دون عقبات مـا ، في « الموانيء المفتوحة » الخمس ، ومنها شنغهاي .

وما أن فتح الطريق أمام التغلغل الأوربي ، حتى سارعت الدول الغربيـة الاخرى الى احتذاء حذو انجلترا فانشأت قنصليات لها في الموانيء . كانت مهمة هؤلاء القناصل ، ممثليها الرسميين ، تتلخص في حماية مواطنيهم الذين كانوا يتمتعون بالامتيازات التي تعفيهم من الخضوع لعدالة المحاكم الصينية ومن تحمل اعباء الضرائب الصينية ، وهي اجرءات ما لبثت أن نالت من امتيازات الجمارك الصينية وسلطتها ، حتى اعيد تنظيمها من جديد على يدي الاوربيين أنفسهم .

ومع ذلك فقد حاولت الصين ان تحد من التغلغل الاوربي فتقصره على المناطق الساحلية لكي تحمي الأقاليم الداخلية وخاصة بكين . ولكن الاوربيين من ناحيتهم لم يتركوا فرصة للتدخل الا استغلوها . وهكذا أفادوا من مقتل احد المبشرين الفرنسيين ، ومن الاستيلاء على سفينة ترفع العلم البريطاني في اثناء ثورة تايينجز ، فشن الفرنسيون والانجليز حملتين عسكريتين احداهما في ١٨٥٧ — ١٨٥٨ ، على السواحل ، والاخرى في ١٨٦٠ على بكين . وكانت معاهدتا تيين تسين وبكين اللتان فرضتا على الصين على اثر هاتين الحملتين ، ترغمانها على دفع تعويضات ، وفتح موانيء جديدة ، والاعتراف بحرية المبشرين ، وقبـول الدبلوماسيين الاوربيين في بكين . كما افادت روسيا بدورها من ضعف « امبراطورية الوسط » مؤقتاً ، فاستولت في ١٨٦٠ على « الاقليم البحري » وأنشأت فيه قاعدة فيلاديفو . ومن غير المستحيل ان يكون هذا الاذلال ، من بين اسباب سخط الصين الشعبية اليوم على الاتحاد السوفييتي .

وأياً كان الامر ، وعلى الرغم من سياسة « البوارج الحربية » التي كانت تطبق

عند وقوع ادنى حادثة ، للحصول على تعويضات مغالى فيها ، وعلى الرغم من « الامتيازات » (تسليم احياء بأكملها في المدن الكبرى للاوربيين) التي كانت تمنح للاوربيين تحت ضغط التهديد ، وبخاصة في شنغهاي (التي زاد عدد سكانها من ٥٠٠ ألف ١٨٩٥ الى ١,٢ مليون في ١٩١٠) فقد استطاعت الصين مؤقتاً ان تحظر على الاجانب الاقامة في الداخل وانشاء مصانع أو سكك حديدية ، ولكن « حرب البوكسرز » التي اندلعت في نهاية القرن التاسع عشر أسهمت في التعجيل بتفتيت الاستقلال الذاتي الهش الذي كانت تتمتع به الامبراطورية . وظهرت حركة وطنية اطلق عليها اسم احدى الجمعيات السرية التي تتكون منها تلك الحركة « يد العدالة » ، فأخذت تثير القلاقل في الشمال ، وتهاجم الاوربيين والمسيحيين الصينيين . واحتل البوكسرز بكين واعدموا فيها مئات من البيض كان منهم وزير ألمانيا المفوض ، وحاصروا حي المفوضيات من يونيو الى اغسطس ١٩٠٠ .

كـــان القمع الذي رد به الأوربيون يعادل الخوف الذي احسوا بوطأته ، واستقرت الدول الغربية ، تساعدها اليابان ، في بكين ، عسكرياً . وعهد الى فصائل قوية من الجيوش الأوربية بالدفاع عن المفوضيات المختلفة . هذا الى أن المنتصرين أرغموا الصين على دفع تعويض خرافي ، وتحتم على الامبراطـــورة « تسيو هي » العجوز نفسها ان تنحني للعاصفة ، على انه كان يبدو انها هي التي حركت حركة البوكسرز في الخفاء . ولم تبق على قيد الحياة الا بضع سنوات بعد هذا الاذلال الجديد ، فماتت في ١٩٠٩ .

انتهت « حرب البوكسرز » بنتيجتين : فقد أيقظت حرص الأوربيين وحيطتهم ، اذ صرفتهم عن كـــل مشروع يهدف الى ضم الأراضي أو تمزيق الامبراطورية سياسياً ، ولكنها من ناحية اخرى أطلقت يدهم وخلصتهم من كل وازع يردعهم عن النهب المنظم المنهجي لثروات البلاد الطبيعية . فلم يتورع الاوربيون عن الاستيلاء على الموارد الاقتصادية للصين ، منذ تلك اللحظة ، واستغلالها بلا حياء . أسس الاوربيون مؤسسات مصرفية كبيرة (وخاصـــة الانجليز والامريكيون منهم) ما لبثت أن استنزفت الأرصدة الصينية ، كما أنشأوا

السكك الحديديــة (وخاصة البلجيكيون)، واحتلوا مناطق ممتازة واخذوا يستخرجون المواد الخام.

كانت أول انتفاضة من انتفاضات السخط في الصين لا تنصب على الوجود الاجنبي الا بصفة غير مباشرة وان كانت منبثقة منه، فقد كانت تستهدف التخلص من سلبية الأسرة الامبراطورية أساساً. ونشبت ثورة ١٩١١ التي كان صن يات صن– مؤسس الكومنتج[1] — هو محركها وزعيمها، فاكتسحت آخر ممثلي أسرة مانشو وكان طفلاً في ذلك الوقت (أصبح فيما بعد امبراطور منشوكو تحت رعاية اليابانيين، وهو ينهي اليوم أيامه في بكين، بستانياً مسالماً) وأقامت الجمهورية: لم تلق الامتيازات الأوربية تهديداً مباشراً ولكن عملية التحرر من الاستعمار التي بدأت بتلك الثورة ثم بثورة ١٩١٩، وانشاء الحزب الشيوعي الصيني، وقيام الحرب بين الصين واليابان و «المسيرة الطويلة»، انتهت باستيلاء ماوتسي تونج على الحكم في ١٩٤٩. وسوف نقوم بتحليل أعمق لهذا الوضع الثوري في الجزء الثاني من كتابنا[2]. ويكفي هنا ان نلاحظ ان الصين، وان كانت قد لقيت من القمع والاضطهاد أقل مما لقيه عدد كبير من شعوب أو بلاد العالم الثالث، فقد أحست الاذلال البالغ الوطأة الذي فرضته عليها أوربا، احساساً أكثر حدة من أية أمة أخرى، وذلك يرجع بلا شك الى ثقافتها الرفيعة وحضارتها التليدة الراجعة الى آلاف السنين. ولا ينبغي ان ندهش اليوم لما يظهر فيها من عــداء عنيف للأجانب (أهو حقاً عداء للأجانب؟) كما لا ينبغي أن يثير سخطنا. تلك هي العاصفة التي هبت بداياتها بأنفاسنا.

الاستثناء والقاعدة:

ينبغي علينا في الخاتمة ان ندرس، بايجاز، الحالات الاستثنائية التي تمثلها

---

(١) عاشت السيدة صن يات صن، الاخت الكبرى للسيدة تشانج كاي شيك، بعد وفاة زوجها. وهي اليوم — حسب اخر الانباء — نائبة رئيس جمهورية الصين الشعبية.

(٢) المؤلف: الجزء الثاني من الكتاب: آفاق التحرر من الاستعمار.

بعض بلاد العالم الثالث التي أفلتت من قاعدة الاستعمار لسببٍ أو لآخر .

وأولى هذه الحالات هي اليابان التي رأينا كيف ساندت الأوروبيين في الصين ، بل وأخذت على عاتقها مهمة الاستعمار لحسابها . ويرجع لقاؤها الحاسم مع اوروبا الى عام ١٥٤٣ ، عند وصول البرتغاليين ، وظهر تيارٌ أول من الليبرالية شجع وجود الاوروبيين في الجزر اليابانية وعلى الاخص منهم المبشرين الكاثوليك ، ثم أعقب ذلك تيارٌ قوي معادٍ للاجانب . فذُبح المبشرون والمسيحيون اليابانيون الاوائل واضطهدوا ، وطردوا ، وانقطعت التجارة مع الغرب ، وانطوت اليابان على نفسها خلال أكثر من قرنين من الزمان .

ولكنها استيقظت فجأة ، وانتزعت من عزلتها التي كانت تطويها في غمار العصور الوسطى ، وذلك في نهاية القرن التاسع عشر ، على اثر حادثةٍ هزتها هزاً عنيفاً : تغلغلت بضع بوارج امريكية الى موانيها ،وسددت مدفعيتها في اتجاه شواطئها . كانت مظاهرة القوة هذه تهدف الى ارغام اليابان على الاتجار مع اوروبا وامريكا . وتجنباً للغزو ، تنازل « امبراطور الشمس المشرقة » ، وفتح ثلاث موانىء للتجارة : ولكن اليابانيين خشوا تجدد مثل تلك الاهانة ، فما لبثوا ان تمثلوا الطرائق التكنيكية الاوروبية بسرعةٍ مذهلة ، ووصلوا ببلادهم الى مستوى اقتصادي يضارع مستوى الأمم الغربية . وترددت أجيال من الطلبة اليابانيين على كل جامعات اوروبا وامريكا ، حتى يحيطوا احاطة شاملة بآخر اكتشافات العلوم الحديثة ، وفجأة انبثقت من بطن الأرض صناعة يابانية قوية ، كأنما جاء ذلك بمعجزة ، لقد آتت الدروس ثمارها سراعاً .. !

وبفضل تنمية صناعاتها استطاعت اليابان أن تزود جيشها وأسطولها الحربي بالمعدات الحديثة . ولكن اي وسيلة هناك لاختبار الفعالية الرهيبة لسلاح من الاسلحة ، افضل من استخدامه فعلاً ؟ ومن ثم هاجم اليابانيون الصين في ١٨٩٤ واشتركوا مع الاوروبيين في تمزيقها اقتصادياً . وفي ١٨٩٥ فتحت جزيرة تايوان (فرموزا) . وفي ١٩٠٤ هاجمت اليابان روسيا دون اعلان الحرب ، فقد كانت تنازعها ملكية منشوريا . ودمر اليابانيون الاسطول الروسي الذي كان

يلقى مراسيه في بورت آرثر (وهي « عملية خارقة » أعادوها بعد ذلك باربعين سنة في بيرل هاربور) واجبروا الروس على المفاوضة ، وبمقتضى معاهدة بورتسماوث (٥ سبتمبر ١٩٠٥) حصلت طوكيو على حقوق اقتصادية كان الروس يتمتعون بها من قبل في منشوريا ، كما حصلت على ايجار للباوتونج ، واقامت محمية في كوريا ثم ضمتها بعد ذلك بكل بساطة في ١٩١٠ حين استولى اليابانيون ايضاً على جزيرة سخالين .

ولا شك أن سياسة التوسع المعاصرة التي انتهجتها اليابان معروفة حق المعرفة. فلن نشير الى مراحلها المختلفة إذن إلا على سبيل التذكير : غزو منشوريا في ١٩٣٢ ، واستعمارها ، العدوان على الصين في ١٩٣٧ ، الهجوم المفاجيء على بيرل هاربور في ٧ ديسمبر ١٩٤١ ، وهو الهجوم الذي لم ننس بعد آثاره المشئومة . ولاشك أن الأساليب اليابانية في الغزو والاستعمار قد تميزت دائماً ، وبلا جدال ، بأشد الخصائص ايغالاً في التنكر للانسانية . ومع ذلك فمما يؤسف له انها لم تثر سخطاً ولا استياء الا عندما طبقت على البيض (الأوروبيين او الامريكيين) . وماذا يمكن أن نقول عن هيروشيما ، أنكى الجرائم التي لا يمكن اغتفارها ، والتي ظنت الولايات المتحدة أنه من اللائق أن ترد على اليابان ، باقترافها ؟

وكانت اثيوبيا ، مع الفارق ، هي المعادل الافريقي لليابان ، فقد افلتت ايضاً من الاستعمار في نحو نهاية القرن التاسع عشر بفضل تبنيها للطرائق والأساليب الاوروبية ، على نحو ذاتي ، وان كان ذلك في حدود اكثر تواضعاً وأقل اتساعاً . فقد كان أهم ما يشغل كل أباطرة اثيوبيا منذ القرن التاسع عشر هو على وجه الدقة الاحتفاظ بمملكتهم بعيداً عن طائلة الشر الاستعماري ، ولكن منيليكه الثاني هو الذي نجح اكبر النجاح في اتقاء هذا الخطر . وقد كان هو الذي أشرف على صبغ اقتصاد بلاده وطرائقها التكتيكية بالصبغة الغربية ، في ايقاع سريع . وقد دعا الى بلاطه عدداً من الاوروبيين اسهموا في انشاء نواة للصناعة ، ورفع الجيش الاثيوبي الى مستوى الجيوش الحديثة ،

وكانت مصانعه تصب المدافع وعدداً متزايداً من الاسلحة الحديثة ، وبفضلها استطاع جيشه أن يسحق قوات الغزو الايطالي في ثلاث سنوات (١٨٩٤ — ١٨٩٦) .

وبعد هذه الضربة ظل استقلال اثيوبيا موضع الاحترام حتى ١٩٣٥ ، حين انقض جيش موسوليني الفاشي ، مزوداً بتفوق ساحق في المعدات ، على الهضبات الأثوبية العالية . ومع ذلك فقد استغرق سنتين لكي يهزم قبائل الامبراطور هيلاسلاسي المسلحة بالرماح ، والبنادق العتيقة التي صنعت في عهد مينليكه ، في محاولة لمحو الهزيمة التي اكتوى الايطاليون بنارها في ١٨٩٦ . وكان الاحتلال الايطالي وجيز الأمد نسبياً — عشر سنوات — فلم يتولد عنه بالتالي استعمار البلاد .

أما حالة ليبيريا التي احترمت سلامة أراضيها ، فهي تختلف اختلافاً ملموساً عن الحالتين السابقتين . لم يفلت خليج مونروفيا من قبضة تجارة الرقيق منذ القرن الثامن عشر ، ولكنه ، في بداية القرن التاسع عشر ، وقع عليه اختيار جمعية امريكية مناهضة للعبودية ليكون ملاذاً ومأوى لعدد من العبيد القدامى الذين رُحّلوا الى امريكا ، وكانوا قد تحرروا منذ عهد قريب . فأسس هؤلاء الافريقيون المتأمركون الذين عادوا فاستقروا في افريقيا : جمهورية ليبيريا ١٨٢١ وكانت أول جمهورية مستقلة في افريقيا الغربية ولكنها ظلت في حالة من التبعية النسبية للولايات المتحدة الامريكية حتى ١٨٤٧ . وقد تعرضت في نهاية التاسع عشر لفقدان استقلالها الذاتي في غمار التوسع الأوروبي الذي لا يقاوم في افريقيا . ولكن العبيد المحررين القدامى أدركوا هذا الخطر وسعوا الى الحصول على حماية واشنطون ، وقبلوا ان ينزلوا بليبيريا الى دولة تابعة لاحتكار من اقوى احتكارات المطاط الامريكية : احتكار فايرستون . ونجحت هذه المناورة ، فالتزمت الولايات المتحدة الامريكية منذ تلك اللحظة بأن تضمن السلامة الاقليمية القومية لليبيريا .

وكانت سيراليون تمثل ايضاً ارض الملاذ والمأوى للعبيد المحررين . ولكنها على عكس ليبيريا خضعت لادارة الشركات البريطانية المناهضة للعبودية في البداية ، وظلت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية تحت رقابة وزارة المستعمرات ، وإن كانت تتمتع بحكم ذاتي واسع النطاق . وبهذه الاستثناءات الأربعة للقاعدة التي تنطوي على أضخم مشروع من مشاريع النهب والسلب في التاريخ كله ، يختتم تشريحنا للاستعمـــار .

فهرس

هذا الكتاب

هذا الكتاب الجديد محاولة لتعريف الاستعمار واثبات انه ظاهرة اوروبية محض ، وهو يتلمس الصلة بين التعمير والاستعمار ، ويعقد فصلاً مطولاً عن التفرقة بين الاستعمار والامبريالية ، ثم يشرح كيف بسطت المسيحية ظلها على اوروبا ، وصلة ذلك بالغزوات التي كانت تتخذ من الدين قناعاً لاخفاء الجوانب الاقتصادية الاساسية لظاهرة الاستعمار . ويمثل على ذلك بروح الحروب الصليبية ، في حين يثبت بالبراهين والادلة ان التوسع الاسلامي ليس بظاهرة استعمارية لا من حيث الاسس والاصول ولا من حيث التركيب والبنية .

ويتتبع الكتاب تطور ظاهرة الاستعمار عبر عصر النهضة وبدء ظهور الرأسمالية ويقوم بتحليل عميق للصلات بين الرق وبدء عصر الرأسمالية وظهور الطبقات العاملة والتوسع الرأسمالي في آسيا وافريقيا ، وينتهي بتحليل سقوط ظاهرة الاستعمار .

كتاب هامّ يأتي في أوانه منبّهاً العرب الى تعمّق دراسة الاستعمار كتاريخ وظاهرة وهم في سبيلهم الى التحرّر والسيادة .



Bibliotheca Alexandrina
0992424

مطبعة دار الكتب